خليل بوشكار

زفرات البوسنة

ترجمة
نور كوكار أمان

مراجعة وتنقيح
الدكتور أسعد نمر بصول

مؤسسة بافاريا
مجلة النور الكويتية
دار الشروق

زفرات
البوسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

زفـرات البوسـنة

* المؤلف : خليل بوشكار

* المترجم : نور كوكار امان

* تصميم الغلاف : فؤاد هنو

* الطباعة والتوزيع : مطابع ودار الشروق ـ القاهرة

* حقوق النشر محفوظة للناشرين

* الطبعة الأولى جمادى الأولى ١٤١٦ هـ ـ أكتوبر ١٩٩٥ م

النـاشـرون

مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات

Bavaria Verlag & Handel GmbH

P.O.Box 43 10 29
D-80740 München, Germany
Franz Josef Straße 31
D-80801 München, Germany
Tel: 39 20 88-89, Fax: 3 40 14 11

مجلة النور الكويتية

ص. ب: ٢٤٩٨٩ الصفاة 13115 ـ الكويت
هاتف : ٢٥٧٣١٧٩ ـ فاكس : ٢٥٧٣١٧٥

دار الشـروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤(٠٢)
بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥

تقـــديم

زار القاهرة فى مطلع العام الحالى « على عزت بيجوفيتش » رئيس دولة البوسنة والهرسك .

ذهبت لندوة مصغرة مع الرئيس الفيلسوف ، دخل علينا ـ فى الميعاد تمامًا ـ بيجوفيتش ومعه سفيره فقط ، حيا الحاضرين ثم توجه للمنصة ، فوجدها على بعد أمتار قليلة من الصف الأول ، فإذا به يحمل المنصة ومعه سفيره ، ليقتربا بها من الصف الأول للجالسين .

تكلم بيجوفيتش عن مأساة بلاده ، وكيف أنهم ردا على العدوان الصربى فى منتصف ١٩٩٢ ـ بدءوا بجيش من عشرة آلاف شخص يحملون أسلحة خفيفة ، ثم تطور ليصبح فى نهاية العام خمسين ألف جندى . . . إلى أن وصل نهاية ١٩٩٤ جيش عالى التدريب من ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل .

وقال : لقد أثبتنا لأوروبا الوجه الجميل للإسلام . . . . فمقاتلونا ـ وأكثرهم حملة مؤهلات عليا ـ يدافعون عن حقنا فى الحياة ، لم يقتلوا امرأة ولا طفلاً ولا عجوزًا . . . لم يعذبوا حيًا ولم يمثلوا بجثة قتيل . . . لم تهدم كنيسة واحدة ولم نضطهد مسيحيًا واحدًا .

سُئل فى نهاية الندوة عن المساعدات والدعم العربى والإسلامى . . .

ولكن من يساعد من ؟ فى عالم استعبدته المادة ، وتوارت فيه كلمات مثل الإيمان والعزة والكرامة والشرف ، ناهيك عن دور الإنسان فى الحياة وخلافته لله على الأرض . . .

بَيّن البوسنيون للعالم وعلى مدى أكثر من ثلاث سنوات ، أنه ما زال هناك من الناس من يؤمن بحقه فى حرية الاعتقاد والعيش ممارسًا لثقافته وحضارته التى يعتز بها ، ومستعد لأن يضحى بحياته فى سبيل ذلك . . . كشفوا للعالم تواطؤ حكومات أوروبا [1] وروسيا وأمريكا ، وتخاذل وتقاعس بقية العالم عن إحقاق الحق. وفى الوقت الذى كانت تحظر فيه السلاح عن البوسنة المحاصرة ، تملأ شاشات التليفزيون ووكالات الأنباء بمساعيها لاقرار السلام تارة، وبإرسال الطعام والخيام تارة أخرى !

ويتساءل المرء . . . إذا حدث هذا لشعب أوروبى مسالم لأنه مسلم ! فماذا يُمكن أن يحدث للمسلمين العرب أو الأفارقة أو الآسيويين . . . أولئك الملونين . . . إذا جاء دورهم ووقعوا فى قبضة من يعاديهم ؟

ما أكثر العبر وأقل الاعتبار . . .

هذا الكتاب جزءٌ مما عاشه أمريكى من أصل بوسنوى ، شدته المأساة لوطنه وأهله . . فذهب فى زيارات عدة . . . يرى ويُصور ويُسجل . . . يُساعد ويقدم العون . . . ويحكى . . . ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . .

عادل المعلم

(*) يستثنى من ذلك القليل مثل حكومتى ألمانيا والنمسا ، وقد أقامتا معسكرات لحوالى نصف مليون بوسنوى .

نـــداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .

أيها الأخوة والأخوات الكرام :

إن الكتاب الذى بين أيديكم هو تسجيل متواضع نشأ من رغبة إنسانية قوية لمساعدة البوسنويين إخواننا وأخواتنا المعرضين لكافة أنواع العذاب ، من التعذيب الجسدى فى السجون والمعتقلات إلى القتل والضياع .

كلمتي القصيرة هذه هى شهادة عن الفظائع التي يعيشها إخواننا البوسنويون وأخواتنا البوسنويات . كتبتها من أجلكم أنتم الذين تعيشون فى البلاد والمدن البعيدة ، تعيشون حاملين البوسنة فى أذهانكم وقلوبكم . كتبت هذه الكلمة لتكون عبرة ومعرفة ونصيحة ؛ لكيلا يصيب البوسنويين مرة أخرى نفس المصائب .

إن أشكال الجهاد فى سبيل الله مختلفة مثل الاختلاف فى طرق كسب رضوانه . إن الله سبحانه وتعالى وعد بأن النصر للإسلام ، وأنا أتمنى ، كما أرجو أن تكونوا أنتم أيضاً تتمنون النصر لنا ، وأن تكون جمهورية البوسنة والهرسك حرة مستقلة ، وأن تكون وطناً لكل مَنْ يحبها ويريد العيش فيها مع غيره من المواطنين .

ومن أجل ذلك . . . من أجل رحمة الله . . . من أجل آلاف المهاجرين

الذين اضطُروا لترك منازلهم . . . من أجل الطفولة التى شابت . . . من أجل أخواتنا وأمهاتنا المغتصَبات . . . من أجل القتلى والمعذَّبين والضائعين . . . من أجل الشباب المنطفيء قبل أوانه . . . من أجل الشهداء . . . من أجل هذا كله ندعوكم لتساعدوا البوسنويين .

وبمساعدتكم للبوسنة تكسبون رضوان الله وجزاءه الأوفى فى الدارين .

* * *

المقـدّمـة

أنا في البوسنة ، في شهر مايو ، الجو حار على غير العادة ، وهذا مايو الثالث الذي يأتي أثناء الحرب ، أنا هنا في بلادي ومع شعبي للمرة الخامسة وليس لدي سوى رغبة واحدة وهي العمل على التخفيف عن آلام شعبي في حدود إمكاناتي المتواضعة ، إن مصائب شعبي ضخمة إلى حد لا يقاس .

هذا الكتاب يتناول فقط جزءاً بسيطاً من المصائب ، التي تعرض لها البوسنويون ، نتج عن رغبتي في تسجيل وإظهار الحقيقة المؤلمة للعالم ولو جزئياً .

إن فكرة تسجيل بعض التجارب المُعَاشة في الحرب في البوسنة على شكل كتاب قد ظهرت تلقائياً ، ولا يوجد فيه ما هو مختلق أو محسّن أو مخفف ، كل ما تم تسجيله وقع بالفعل وكل ما حدث حقيقة ، وكذلك كل شخص ذكرته فيه ، وأعتقد أن الأحداث والأشخاص يستحقون المحافظة عليهم من النسيان .

ثلاثون عاماً قد مضت وأنا غائب عن البوسنة ، ومع هذا أشعر وكأني لم أخطُ خطوة واحدة خارجها ، فإلى هذا الحد جذورها عميقة في نفسي !

ولدت في تسازين وهي مدينة واقعة في كراينا (المنطقة الغربية) وهي جزء من البوسنة ، وكانت لقرون طويلة عبارة عن سور البوسنة وبوابتها نحو العالم ، نحو البندقية والنمسا تارة ، ونحو كرواتيا تارة أخرى ، وبسبب موقعها الجغرافي كان أهل كراينا محكوماً عليهم دائماً بالحروب والقتال ليتمكنوا من البقاء في ديارهم وأراضيهم ، الأمر الذي سجلته قصيدة من القصائد الشعبية التي نقلها بحب جيل عن جيل في بلادي وهي كما يلي :

هذه هي كرايينا الدامية .

الغداء مغمس بالدماء .

والعشاء أيضاً بالدماء .

الكل يأكل لقماً دامية .

لا يوماً فيه استراحة .

في أسرة المرحوم والدي ، كنت أشبّ مستمعاً إلى القصائد عن الأبطال الكراينيين المشاهير مثل موستايبيك ليكى والأخوين هرنيتسا « مويو وخليل » وطالى ليكى ، كانت بطولاتهم في سبيل العدالة مثيرة للفخر والنشوة .

إن نشأتي في هذه البيئة كانت الدافع وراء قراري في الانضمام إلى الكفاح بأية وسيلة ، فمجرد وجودي بين المناضلين كان أحياناً حافزاً كافياً لهم . ومن أحد الأسباب في فكرة تأليف هذا الكتاب رغبتي في إشعار أولادي خالد وأسعد ، وبناتي فاطمة وخالدة وزلاتكا بأصلهم ووطنهم الحقيقي .

إن الفضل الكبير لظهور هذا الكتاب يرجع إلى زوجتي العزيزة « طاهرة » التي كانت وما زالت أهم سند لي في أعمالي الخاصة بالبوسنة والهرسك .

بعد قراءة هذا الكتاب ، إن لم يخفق ولو قلب واحد بدقات أكثر قوة للبوسنة والهرسك ، وإن لم يدفع هذا الكتاب إلى مساعدة البوسنويين في قتالهم العادل لتحرير وطنهم ، أكون غير سعيد لأن الكتاب لم يحقق هدفه .

أنا ابن الحاج حسن وخديجة بوشكار ، ولدت في البوسنة والهرسك حيث أتممت تعليمي الأساسي ، ثم غادرت وطني الحبيب مع زوجتي في سن الشباب ولدي شعور قوي بمقاومة ما فرضه النظام الشيوعي في البوسنة والهرسك من إطارات الحياة اللاإنسانية . اخترت الولايات المتحدة الأمريكية لأبدأ فيها حياة جديدة ، فقد كنت أعرف أن نظام تلك الدولة العظمى المتعددة العناصر والثقافات والأديان لا يستخدم أي وسيلة تتعارض مع الرغبة الإنسانية

السليمة في التفكير والتعبير عن مشاعرها بحرية كاملة . وجدت أنه في مثل هذه البيئة فقط يستطيع الإنسان أن يعيش ويعمل بصورة فعالة . إذن ، جئت إلى أمريكا بنية خالصة سليمة ، وأصبحت مواطناً من مواطنيها ، ثم رجلاً من رجال الأعمال فيها . أنا رب أسرة مكوَّنة من خمسة أولاد أصبحوا الآن بالغي الرشد ، ومع زوجتي وأم أولادي طاهرة ، المرأة التي يرجع إليها أكبر الفضل - بعد الله - في نجاحي في العمل والحياة بصورة عامة .

أحياناً أذهب مع زوجتي وأولادي إلى البوسنة لزيارة الأقارب والأماكن الحبيبة لدينا في بلادنا ومقابر الآباء والأجداد . وعند كل زيارة كنت أردد قولي بإنها مشيئة الله سبحانه وتعالى - حين جمع كل محاسن الدنيا في هذه المساحة الضيقة ، من نهر سافا شمالاً إلى ساحل البحر الإدرياتيكي جنوباً ، ومن نهر أونا غرباً إلى نهر درينا الجامح شرقاً ، هذه المساحة الضيقة ولعشرة قرون كاملة تُسمى دولة « البوسنة » .

أعرف تاريخ البوسنة الطويل جيداً ، كما أعرف تاريخ حروب كثيرة كانت البوسنة مضطرة للقيام بها ضد أعدائها الذين كانوا يحاولون دائماً احتلالها والقضاء عليها ، إلا أن المدافعين عنها نجحوا فى الحفاظ عليها . قيل - وتأكدت أنا من ذلك - أن عام ١٩٩٢م هو أسوأ عام فى تاريخها الطويل ، وشهر رمضان الذى حلَّ فى ذلك العام ، شهر العفو والسلام كان من أكثر الشهور نزيفاً للدماء فى تاريخها .

ابتداء من شهر مارس سنة ١٩٩٢م أصبح القتل والذبح والاغتصاب وتدمير البيوت والمساجد والمدارس والمستشفيات واقعاً يومياً للبوسنويين . عندما أستمع إلى أخبار العدوان الصربى على البوسنة ، وأشاهد صور الأجساد البشرية الممزَّقة لا أصدق أذنيَّ ولا عينيَّ . إذا كانت هذه الجرائم البشعة تُرتكب أمام أعين الصحفيين والمصورين فمن الصعب التصور ماذا يحدث فى الأماكن الممنوع الوصول إليها ؟ هل توجد أمور أبشع مما أرى وأشاهد ؟

حلّ في نفسي قلق لا يطاق ، قلق إنسان يريد فعل أي شيء لإنقاذ البوسنويين المدنيين ليبقوا على قيد الحياة والمناضلين ليستمروا في دفاعهم العادل.

من وسط نيران العدوان الصربي الغادر عرفت أن الجيش البوسنوي ينشأ كطفل بين ذراعي أمه وينمو ، كما كنت أعرف أن أبناء البوسنة الجياع عندما يصفّون صفوفهم فسيصبحون أناساً ذوي قلوب فولاذية وسينجحون في أداء واجبهم نحو وطنهم .

لقد أخذت أفكر في أن الجيش البوسنوي والشعب البوسنوي يحتاج إلى مساعدة .

ولذا أسافر إلى أمريكا وكندا وإلى مدن أخرى ، ألقي الخطب وأجمع التبرعات لأتجه بها إلى البوسنة المشتعلة بها الحرب الشرسة . إن سرور البوسنويين عندما يزورهم أحد من بلاد الخارج لا حد له ، إذ يرون أنهم ليسوا منسيين ، فالزيارة تعطيهم القوة المعنوية الإضافية ليصبروا بفضلها على ما لا يصبر عليه أحد غيرهم . إن الصرب ومعهم أنصارهم لا يتوقعون حتى في أحلامهم أن البوسنويين جسورون وصابرون إلى هذا الحد ، حيث المواجهة بين الحياة المجرَّدة وبين الموت والهلاك ، وبين الحب والحقد ، وبين العدل والظلم، وبين الحق والباطل .

جاء رمضان الثاني والحرب ما زالت قائمة والنساء البوسنويات يُقتلن ويهجَّرن مع أولادهن والأبناء البوسنويون يُقادون إلى المعتقلات ليعذَّبوا ويُقتَلوا في النهاية بأبشع طرق القتل الوحشية ، وليس هناك أي سبب لكل هذا سوى أنهم مسلمون .

بتزايد مقاومة البوسنويين تتزايد وحشية السفاكين الصرب ، كما تتنوع طرق قتل المدنيين . أنا متأكد بأن بربرية القتلة الصرب في أواخر القرن العشرين ستدخل بقسوتها وضراوتها - بغض النظر عن الجنس والسن - ستدخل التاريخ كأبشع الحروب ، وأقذرها في تاريخ العالم كله .

إن رؤيتي الذاتية لأهوال الحرب ومواد الأفلام الكثيرة عن آلاف الشباب المشوَّه - بلا أرجل وبلا أيد وبلا عيون - كل ذلك أقدمه إلى إخواني في أمريكا لأعود مرة أخرى إلى البوسنة ومعي لهم المعونات المادية . أزور سراييڤو عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك وهي تحت الحصار والقصف المدفعي اليومي . لا شيء أغلى عندي من التجارب المعاشة في تلك الرحلات إلى البوسنة القائمة بها الحرب لمدة عامين كاملين . الآن وبالكاد تعرفت على حقيقة أبناء وطني ، يدافعون عن وطنهم بشجاعة وعزيمة متمسكين بتعاليم القرآن الكريم .

هذه رحلتي الثالثة إلى البوسنة وزيارتي الثانية لسراييڤو التي تحولت كل مساحاتها الخالية إلى مقابر دفن فيها الشباب مع أحلامهم الوردية التي لم تتحقق وألعاب الأطفال التي تحطمت .

إن سكان البوسنة يقبلون بصعوبة ولكنهم لا يفهمون كل تلك الفظائع التي يعيشونها منذ بداية العدوان الصربي إلى يومنا هذا ، ويتساءلون باستمرار : «أمن الممكن أن يفعل الإنسان لأخيه الإنسان كل تلك الفظائع ؟ ولماذا يفعلونها؟ ولماذا يتركه العالم يفعل ذلك ؟ أين النظام العالمي والشرعية الدولية والأمم المتحدة ؟

أشارك أنا أيضاً أبناء وطني في سؤالهم : لماذا تتهرب أوروپا من مساعدة نضال البوسنويين العادل ؟ هل يمكن اعتبار الذين أخذوا على عاتقهم القضاء على شعب أوروپى قديم بشراً ؟ وليس لهذا الشعب أى خطيئة سوى أنهم يعبّرون عن تعلقهم بالخالق الواحد بطريقتهم الخاصة ، وأنهم اعتنقوا العقيدة الإسلامية ونسجوها فى نفوسهم الطاهرة . فلقد صُلِب شاب على الصليب فقط لأنه مسلم . وتركه الصرب يتعذب ليموت بعد آلام لا تطاق ثلاثة أيام كاملة .

كيف نفهم حصار المدن البوسنوية من قِبَل الصرب والقتل من أعالى الجبال

للمدنيين في بيوتهم وفي المستشفيات والشوارع وطوابير المياه أو الخبز والمعونات الإنسانية ؟ وكبار المسئولين الأوروپيين يشاهدون موت الأهالي المحرومين من التزود بالمياه والكهرباء والغاز والطعام . . . لقد جرّد الصرب الأهالي من أدنى الوسائل الحيوية للحياة الحضارية والتي عرفها البوسنويون منذ زمن بعيد.

كيف نفهم مأساة البوسنويين حول نهر درينا وفي المناطق الغربية ومناطق أخرى كثيرة في البوسنة والهرسك ، حيث أنشأت فيها المعتقلات العديدة التي تم فيها تصنيف السكان حسب السن والجنس ، ثم إخضاعهم لشتى ألوان العذاب والقتل والاغتصاب أعدها الصرب مقدماً ؟ مجرد مشهد واحد من المشاهد التي وقعت حول نهر درينا تتوقف لها الأنفاس وتقشعر لها الأبدان ، هذه المشاهد تشل القدرة على التفكير السليم ويعجز اللسان كل العجز عن التعبير عنها .

زهرة . . إحدى النساء من المنطقة المحيطة بنهر درينا ، كانت محبوسة مع ٧٢ شخصاً بريئاً غيرها من النساء والأطفال في أحد بيوت قريتها . فجأة فتح «الجتنيك » باب البيت وأطلقوا النار عليهم إلى أن نفد الرصاص منهم ، مما نتج عن ذلك كتلة من الأبدان المشوهة وعويل الأطفال والنساء ، لكن المجرمين لم يتوقفوا عند ذلك - خشية أن يبقى أحد على قيد الحياة لأنهم مأمورون من قِبَل المجرم كاراجيتش ألا يبقى أحد حياً - فألقوا في البيت بمسحوق كاتم للنفس والنظر ، ثم أمر أقرب جيران هؤلاء التعساء بحرق البيت ، لكن زهرة التي كانت قد وجدت لها مأوى في إحدى الفتحات الناتجة عن أحد الانفجارات بقيت على قيد الحياة ، وغادرت بيت الأهوال الذي كانت تنتشر منه رائحة احتراق اللحم البشري ، وبقلب ممزق ووجه وجسد محروقين لجأت زهرة إلى أقاربها الذين عجزوا عن التعرف عليها ورجتهم أن يقتلوها .

زهرة مجرد واحدة من ٢٥٠٫٠٠٠ ضحية من ضحايا العدوان الصربي .

مشاهد الهول والعذاب تتسلسل وتتلاحق الواحد تلو الآخر ، والباقون على قيد الحياة مضطرون للعيش مع ذكريات الأهوال يسترجعونها في الليالي الطوال عاجزين عن النوم ليعيشوها مرة أخرى . كيف يعيشون مع تلك الحقائق والذكريات القاسية ؟

ما القول عن أوروبا وهي على عتبة القرن الحادي والعشرين ؟ ما القول عنها وهي صامتة تشاهد تنفيذ أبشع وأحقر خطة رسمها مخططو الحرب الصربيون ، خطة اغتصاب البنات المسلمات الصغيرات والفتيات والنساء كوسيلة من الوسائل الفعالة لإبادة الشعب البوسنوي المسلم . لقد قَبِل أغلبية الجنود الصرب تلك الخطة بحماسة وشهوة وهم يريدون بها إذلال الشعب البوسنوي المسلم وتدنيس عرضه وكرامته بأي شكل وبأي ثمن .

غير معقولة وغير مقبولة دوافع الجنود الصرب لتعذيب واغتصاب أكبر عدد من الفتيات الصغيرات ما بين السبع إلى العشر سنوات من العمر أمام أعين أمهاتهن . إن كثيرات من تلك الصغيرات قد أفضى التعذيب الجنسي بهن إلى الموت أو قُتلن أو ذُبحن .

ما القول في هؤلاء الوحوش ذوي الصور الإنسانية التي تغتصب الفتيات أمام أعين آبائهن وإخوانهن ، حتى أنهم أجبروا الآباء أن يغتصبوا بناتهن فإن رفضوا كان هناك الضرب والتعذيب حتى الموت . ومن أشد الأسف أن جيران هؤلاء التعساء والتعيسات الذين كانوا يشاركونهم الحياة اليومية من قبل ويثقون بهم ثقة تامة هم الذين يقومون بكل هذه الوحشية .

أتساءل أنا كاتب هذه السطور : أيعقل أن يكون رجال الفكر الصربي هم واضعو تلك الخطط للقضاء على الشعب البوسنوي وعلى أرضه ؟ وكيف استطاعوا إيجاد كل هذه الطرق البشعة للتعذيب الجسدي والنفسي ؟ كيف لي أن أتصور تلك الطليعة الصربية المفكرة « أكاديميون وأطباء وأساتذة وقضاة ومهندسون » وهم يرسمون خطط اغتصاب النساء كرُكن هام من أركان

البرنامج الصربي للقضاء على قومنا وإنشاء المعتقلات الخاصة للنساء التي كانت هذه المعتقلات ولا تزال بمثابة بيوت الهول والتحقير وتدنيس كرامة المرأة بأشد الطرق قسوة ووحشية ؟ وهل كان هؤلاء المثقفون يعلمون مقدماً بتخطيط ما سيقوم به جنودهم وأذنوا لهم بذلك ؟ إذ حول جنودهم البيوت الخاصة إلى ميادين لجرائمهم البشعة لعلها تجعل الباقين على قيد الحياة من أفراد الأسرة المتضررة يكرهون ذلك المكان ويرفضون العودة إليه في أي وقت من الأوقات اللاحقة .

لقد اقترفوا جرماً فاحشاً فوق جسد عجوز مسلمة بلغت من العمر ست وثمانين سنة ، حيث طلبوا منها النقود والذهب كما اعتادوا ، وحين تبين لهم فقرها وأنها لا تملك شيئاً جن جنونهم وربطوها بالمائدة ثم قاموا باغتصابها واغتصاب ابنتها وحفيدتها البالغة من العمر أربع عشرة سنة ، وبعد الفراغ من عملهم القذر أخذوا ساطوراً وضربوا الابنة والحفيدة على رأسيهما حتى فقدتا الوعي ثم وببرود قاموا بذبحهما وفصل رأسيهما عن جسديهما .

أتساءل ، لماذا لا تستعجل اللجنة المسئولة عن مجرمي الحرب عملها ؟ ولماذا لم تبدأ بَعْدُ محاكمة المجرمين ؟

العالم لا يستطيع القول بأنه يجهل حقيقة ما يجري على أرض البوسنة أو يجهلها للآن . كيف يستطيع أي إنسان أن يعيش عيشة هادئة في العالم وفي شبه جزيرة البلقان خاصة وهو يعرف ما يفعله الجتنيك في البوسنة والهرسك من الجرائم التي تشل أمامها الأذهان ؟ كيف يطمئن بعدما عرف أن الموت بالرصاص في البوسنة هو موت السعداء ؟

وبما أن هدف الصرب هو احتلال أراضي البوسنة والهرسك والقضاء على سكانها المسلمين ، كان من الضروري لهم قتل أكبر عدد ممكن في أقصر وقت. وبما أن الجتنيك كانوا مستعجلين في تطهير المساحات المحتلة ، كانوا بعد القتل يقومون بحرق الأبدان ويرمونها في حفر عميقة . وكان المعتقَلون من

المسلمين مجبرون على القيام بتلك الأعمال الكريهة من حفر للمقابر الجماعية إلى حرق جثث أقاربهم وذويهم ليقوم الجتنيك بعد ذلك بقتل هؤلاء المعتقلين حتى لا يبقى شاهد واحد على جرائمهم على قيد الحياة .

لاحظت وبمرارة في نفسي أن حرق المدن وتدميرها وتحويلها إلى مقابر واضطهاد الأبرياء المستضعَفين ، كل هذا لا يكفي لبعض دول أوروبا لكي تتحرك . إنهم ينسون أو يتناسون أو يتجاهلون أن البوسنة في أوروبا وأن حمايتها تعني حماية بناتهم ومدنهم الأوروبية .

ومع أن مواطني دول أوروبية وعالمية كثيرة قد احتجوا وطالبوا حكوماتهم بحماية الشعب البوسنوي وجمع المساعدة للمتضررين ، إلا أنهم لم يستطيعوا تليين قلوب حكامهم . إن زعماء أوروبا حلفاء الصرب لم يجيبوا طلبات مواطنيهم ولم يتخذوا الإجراءات اللازمة والحاسمة لتنهي العدوان الصربي ضد جمهورية البوسنة والهرسك .

إن الصرب قد داسوا الحقيقة المؤكدة والمسلَّمة من الجميع ومنذ زمن بعيد بأن الحياة المشتركة ممكنة بين الشعوب المختلفة . وأوضح مثال على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية ، الدولة المتعددة العناصر والأديان .

أما أوروبا فقد سمحت للصرب بأن يحقِّروا ويدمروا كل ما يختلف عنهم ، كما سمحت لهم بقتل النفوس وإزالة كافة الآثار الثقافية للشعب البوسنوي الذي لم يحمل في قلبه في يوم من الأيام كُرهًا ولا حقدًا ولا اعتداءً على أحد في تاريخه الطويل .

والآن ، وحتى بعدما حدث كل هذا لإخواني البوسنويين أرى عيونهم خالية من السوء والحقد ، إنها عيون قليلة البكاء عديمة الحقد مليئة بالعزيمة على الاستمرار في سبيل الجهاد من أجل العدالة . هكذا تبدو عيون أبناء البوسنة البواسل الذين كوّنوا الجيش للحفاظ على الناس الذين بقوا في وطنهم ليكافحوا كفاحاً بطولياً ضد المعتدين الصرب .

لهذا الهدف الإنساني العادل قررت تسجيل كل ما رأيته وأحسست به في وطني البوسنة ، لأخلّد ما عاشه وما قاساه شعبي البوسنوي المسلم على أيدي الصرب من مآس وأوجاع .

لا يزال إخواني البوسنويون يعيشون المآسي .

يا أيها العالم :

ألا تسمعون الحقيقة ؟

ألا تشعرون بما يحدث ؟

* * *

مـدخـل

إنني أسمع ولا أصدق . الحرب قد نشبت في وطني . إنها تشتد .

يا الله يا رحيم ، أتتجدد مرة أخرى مصائب قومي البوسنويين الطيبين ؟ البوسنويون الطيبون . . هكذا كانوا يُطلقون على شعبي خلال القرون الماضية الطويلة .

دمي يتجمد في شراييني ، وأنا أقرأ مقالات صحفية ، جاء فيها أن هناك خطة مفصلة مرسومة لمحو شعبي من على خريطة القارة الأوروبية الجغرافية ، لأن أوروبا المسيحية لن تسمح ببقاء جماعة إسلامية كبيرة ، مثل جماعتنا على أراضيها .

تذكرت أني كنت أخشى أحياناً من أن الهيئات العسكرية اليوغوسلافية الحالية ، وهي تميل لجمهورية صربيا بأنها لن تسمح بانفصال بقية جمهوريات يوغوسلافيا عنها بطريقة سلمية ، وأنها ستعتدي على المدن والقرى التابعة لتلك الجمهوريات المنفصلة . لكني لم أكن أتصور أبداً أن ما سيقوم به الجيش الصربي من الجرائم والقتل والدمار سيفوق ضراوة ووحشية ما فعله النازيون والجيش الأحمر في الماضي . لكن لماذا تفرّج العالم صامتاً ولم يفعل أي شيء لإيقاف تلك الوحشية وهذا القتل والذبح واغتصاب النساء والصبايا البريئات ؟ ومما ورد في أحد البيانات الرسمية معلومات عن ضحايا الجيش الصربي كما يلي :

- ٢٥٠٫٠٠٠ قتيل (٢٥٪ منهم من الأطفال) .
- أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ جريح (من بينهم أكثر من ٨٠٪ مدنيون)
- ٦٠٫٠٠٠ مغتصبة (فتيات ونساء) .

- أكثر من ١٠٠٠ مسجد مدمر .

إن ما تم تدميره تدميراً كاملاً من القرى والمدن البوسنوية القديمة ، وما تم حرقه أيضاً مما كان تحت حماية اليونيسيف ، وكذلك المدن الحديثة الجميلة ، تشهد كلها شهادة حقيقية على حقد لا حدود له تكنه النفوس والأرواح الفاسدة لهؤلاء المجرمين .

كيف تستطيع الدول الغربية الديمقراطية السماح لمسئوليهم السياسيين أن يبحثوا مع ممثلي الأمم المتحدة عمَّا يسمى بالحل السلمي السياسي للنزيف الدموي الذي يجري في جمهورية البوسنة والهرسك ذات السيادة ويطلقون على تلك الكارثة اسم « أزمة » ؟ ألا يدرون أن كل طفل من أطفال البوسنة الصغار يعرف أن البحث عن حل سياسي لا يعني إلا إتاحة الفرصة للمعتدين أكثر لقتل عدد أكبر من المسلمين واحتلال مساحة أوسع من أراضي البوسنة والهرسك ؟

إنه لمن الواضح اليوم لكل إنسان وللبوسنوي خاصة ، أنه من الكذب واستحالة القول بأن صربيا التي هي مصدر هذا الشر كله لا يلزم أن تنتصر بل يكفي تغييرها ، وبدلاً من إحالة الوحوش والمجرمين مثل « سلوبودان ميلوشيفيتش ورادوفان كراجيتش » وغيرهما من السفاحين إلى المحاكم الحربية ، تتاح لهم فرصة الجلوس والمشاركة المتساوية في المفاوضات مع ممثلي جمهورية البوسنة والهرسك . ويا للعجب !! إن القتل والتدمير يشتد عنفاً ويتكثف أثناء المفاوضات ! ولا يشتد فقط أثناء المفاوضات الجارية تحت إشراف ممثلي أوروبا بل وفي الأيام التي بدأ فيها الجيش البوسنوي الحديث العهد والمؤسس بالكاد والمسلح بسلاح خفيف وقليل بالرد وبنجاح على هجوم الجتنيك .

كان قادة الجيش الصربي في بداية الحرب ضد البوسنة يصدرون أوامر رهيبة، إذ كانت تطلب تجنيد كل شخص قادر على حمل السلاح وتترك لكل قائد من قواد الجيش الصربي الحرية الكاملة في إعداد عمليات الإبادة

وتنفيذها، كما كانوا يأمرون جنودهم بقتل كل مسلم وتدمير كل شيء ينتمي للإسلام والمسلمين ، وكان شعارهم عند قيامهم بأعمالهم المجرمة « كل شيء أو لا شيء - الحياة أو الموت » ، ومن أكثر الأوامر بشاعة هي القضاء التام على كل ما للمسلمين من أملاك ، وألا يتركوا أي مسلم على قيد الحياة . ومما ورد في بياناتهم أن البوسنة والهرسك بأكملها ستكون دولة صربية وستتبع صربيا « الأم » ولتحقيق هذا الغرض يجوز لهم استخدام كل أنواع الأسلحة التابعة للجيش اليوغوسلافي السابق .

ومما يدعو للسخرية أن يكون ختام تلك الأوامر الدعاء بأن يوفقهم الله ويحفظهم ويحفظ أبطال الصرب . وهل يوفقهم الله الذي خلق كل شيء وهم يهلكون خلقه ؟ لا يفهم المسلمون في البوسنة والهرسك أبداً من أين جاء كل هذا الحقد الذي شل عقول وأبصار هؤلاء الناس وجعلهم لا يبصرون الحقيقة . أيجهلون أن جميع الناس في كل أنحاء يوغوسلافيا السابقة كانوا يعيشون دائماً حيث هم الآن ؟ وأن الأديان التي نشأت في الشرق هي التي وصلت إلى مناطقنا لتجد فيها التابعين لرسائلها وحقائقها ، ولو استطاع الصرب بأجمعهم قبول هذه الحقيقة البسيطة والمعترف بها عامة ، لما خطر ببالهم أبداً الادعاء بأن معتنقي الإسلام ليس لهم حق البقاء في هذه المناطق مثل حق معتنقي الأديان الأخرى . إن هؤلاء المجرمين لا يقاتلون ضد مَنْ لا يدين بالأرثوذكسية فحسب ، بل يقاتلون أيضاً ضد الحقائق العلمية ، ومنها أن كل الأديان السماوية الكبرى قد نشأت في منشأ واحد ألا وهو الشرق ، لماذا إذن ينتمي مسلمو البوسنة إلى الشرق ولا ينتمي إليه الآخرون ؟ ولأي سبب ينصحون البوسنويين المسلمين دائماً بالتخلي عن أراضيهم الأوروبية الأزلية ويرحلون إلى إستنبول أو طهران ؟ إن وقاحة الشعب الصربي وزعمائه ومعهم الحكومات الأوروبية التي تساعدهم لا حدود لها ، فمن الذي أعطاهم - من دون الله - حق تقرير مصير الشعوب وحق تقرير من يبقى على مجال الأرض الأوروبية ومن لا يبقى عليها ؟ إن الله - وحده - هو الذي يقرر ويقدر مصير

العباد. وهذه الحرب ليست الأولى من نوعها والتي شُنَّت بغرض القضاء التام عليهم ، حيث إن أوروبا تشعر بالخوف والخطر من وجود دولة إسلامية قوية على أراضيها ، وإني لأسأل الآن ، هل هذه الحرب ستكون الأخيرة في محاولة إبادة الشعب ذي الألف عام من وجوده على الأرض في تلك الدولة القديمة ؟ ليست هناك إجابة .

إن هذه الحرب من أشد الحروب قسوة في تاريخ أوروبا ، إذ نرى في تخطيطها وابتكار أنواع القتل الشيطانية فيها وطرق التعذيب الرهيبة ، وتهجير السكان المسلمين ، كل ذلك قد ساهم فيه كل طبقات المجتمع الصربي بدءاً من القساوسة والأدباء والعلماء والمعلمين والأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات إلى المجرمين وغيرهم من أدنى طبقات المجتمع .

إن أنفاس الناس لتتوقف أمام فظاعة تلك الحرب ، فالمعذَّب يعجز عن وصف عذابه وتعذيبه ، ذلك لأن بشاعة الجرائم التي يقترفها الجيش الصربي المعتدي ، وعلى مرأى ومسمع دول العالم الحر ، ودول الغرب الديمقراطي ضد الشعب البوسنوي الأعزل من السلاح والمحروم من الحماية، لا حدود لها.

أما نحن فلا نستطيع إلا أن نسجِّل أن المسلمين وبغضِّ النظر عن الجنس والسن كان يتم تعذيبهم حتى الموت وذبحهم وتقطيعهم إلى قطع صغيرة (إذا كان هناك متسع من الوقت لدى الوحوش) . ومما يؤلمنا أشد الألم اغتصاب نسائنا المسلمات ، فكثيراً ما تم اغتصاب حتى البنات اللاتي لم تتجاوز أعمارهن السبعة أعوام . وغالباً ما كان يتم الاغتصاب أمام أعين أمهاتهن وآبائهن وبطريقة وحشية قاسية أدت بهن إلى الموت نتيجة التعذيب الجسدي والنفسي ، وأما النساء والفتيات البالغات فكانوا يغتصبونهن اغتصاباً جماعياً منتظماً تحت الضرب والتعذيب والتهديد حتى يحدث الحمل فيقوم الصرب بحبس المسلمات الحبالى - لكي لا يتخلصن من الأجنّة - لمدة لا تقل عن الخمسة أشهر ، تنفيذاً لخطة يجب أن (تلد المسلمة صربياً) .

المجازر الجماعية تنتشر في كل مكان ويتم تنفيذها بسرعة هائلة لأن خطة المعتدين كانت احتلال البوسنة والهرسك كلها وإجلاء سكانها المسلمين في فترة لا تزيد عن خمسة عشر يوماً . عن طريق قتل أكبر عدد ممكن من المسلمين المثقفين وذوي النفوذ تبعاً للقوائم التي أعدوها مسبقاً لكل مدينة ، ثم إجلاء بقية السكان المسلمين إجلاءً يجعلهم لا تخطر فكرة العودة إلى بيوتهم وأراضيهم ببالهم مرة أخرى .

مَنْ هم منفذو هذه الجرائم البشعة ؟

مَنْ هي الوحوش البشرية التي قامت بالجرائم على الجسر القديم الشهير في « فيشغراد » ، فقد كانوا يذبحون الأمهات أمام أعين أطفالهن ويذبحون الأطفال ويلقون بهم في النهر أمام أعين أمهاتهم . كان هؤلاء المجرمون في الغالب جيراناً لضحاياهم أو زملاءهم في العمل أو المدرسة أو الجامعة ، كما كانوا أيضاً معلميهم أو تلاميذهم .

إن الصرب الذين كانوا في يوغوسلافيا الشيوعية يحتلون المناصب العالية في كافة قطاعات الحياة ، والذين كانوا يتظاهرون بأنهم يقومون بأعمالهم بوفاء ويجتهدون لصالح المواطنين كافة ، والذين كانوا يهتفون لما كانوا يسمونه بالأخوّة والوحدة والمساواة ، والذين كانوا يعملون كل ما في وسعهم لمنع ذكر المصائب التي أصيب بها المسلمون في الحرب العالمية الثانية ، كي لا تختلّ علاقات الصداقة التي أُقيمت فيما بعد الحرب ، إن كل هؤلاء جميعاً قد ساهموا في تخطيط الجرائم وتنفيذها ضد المسلمين . إنهم أبناء الصرب الذين كانوا في الحرب العالمية الثانية يقتلون ويذبحون المسلمين على نفس الجسور البوسنوية الكثيرة ، وفي نفس الحقول والغابات . والآن وبعدما نزع الوحوش الأقنعة من على وجوههم التي كانت تغطيها طيلة السبعة وأربعين عاماً التي بُنيت خلالها يوغوسلافيا الاشتراكية ، اتضح مؤخراً لمن بقي من المسلمين على قيد الحياة أنهم عاشوا طيلة قرون طويلة دامية في ضلال ووهم حينما اعتقدوا

أن مصائبهم في الحروب الماضية الكثيرة كانت ظاهرة عرضية لن تتكرر مرة أخرى .

كلا ، إن مصائب المسلمين مخططة منذ زمن بعيد ، وكل اعتداء عليهم كان هادفاً إلى إبادتهم ومحو كل أثر لوجودهم ووجود حضارتهم وثقافتهم محواً نهائياً .

كان الصرب يعدون عدتهم طويلاً في سرية تامة وبدقة بالغة ، ولعلمهم بأن القضاء التام على شعب بكامله ليس بالعمل السهل والبسيط فقد استخدموا عدداً كبيراً من الجنود كما استخدموا كل أنواع الأسلحة التابعة ليوغوسلافيا السابقة ، تلك الأسلحة التي ساهم في شرائها وإنتاجها كل مواطني يوغوسلافيا بما فيهم البوسنويون المسلمون ، إذ كان الجنرالات الصرب وهم يتولون أهم مناصب الجيش يخوّفون مواطني يوغوسلافيا السابقة بأنهم معرضون للخطر من دول الغرب الرأسمالي مما جعل الناس يتبرعون بالأموال الطائلة للجيش ومتطلباته . وفيما كان المسلمون يختتمون صيام شهر رمضان عام ١٩٩٢ م ويستعدون لاستقبال عيد الفطر ، حينئذٍ فاجأهم الصرب بالاعتداء عليهم بكل ما أوتوا من قوة وعتاد وسلاح ، معتمدين على القوة الهائلة الكامنة في الأسلحة وعلى العدد الكبير من جيشهم من الصرب والجبل الأسود من ناحية ، ومطمئنين بأن الشعب المسلم مجرد من السلاح من ناحية أخرى .

كان من ضمن تقديرات المحللين العسكريين الصرب أن سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك ستقع بسرعة تحت سيطرتهم « في ثلاث أو أربع ساعات »، أما البوسنة والهرسك كاملة فستسقط في أيديهم في مدة لا تتجاوز الخمسة عشر يوماً . ونذكر هنا أن الجيش اليوغوسلافي قد استولى قبل نشوب الحرب على كافة المرافق الهامة في أعالي الجبال المحيطة بالمدن البوسنوية كلها ، وكان

يبرر ذلك في الوقت نفسه بأنهم يقومون بتجارب ومناورات عسكرية عادية . ويردون على أسئلة الناس المتحيرة بأنهم يحمونهم من العدو .

ومع هذا كله خابت آمال زعماء الصرب الجتنيك واستراتيچييهم ومحلليهم العسكريين . فقد أخطئوا خطأً فادحاً عندما اعتدوا بالقذائف على الشعب الأعزل من السلاح وعلى منازلهم وغرف نومهم وأطفالهم وملاعبهم ، إذ قد نسوا القوة التي يهبها الله تعالى لعباده المؤمنين المظلومين والذين صدّقوا بآياته المنزلة على خاتم الأنبياء مُحَمَّدٍ - عليه الصلاة والسلام - .

نهض الشباب البوسنوي للدفاع عن وطنهم الحبيب وعن شوارعهم ومدنهم وقراهم وأنهارهم وجبالهم وهم مسلحون ببنادق الصيد والمسدسات الرياضية وغيرها من الأسلحة البدائية البسيطة التي صنعوها بأيديهم ، وبمهارة الإنسان الذي يريد الدفاع عن نفسه وطفله وأمه وزوجته وأخته وزميلته في الجامعة والعمل . . نهضوا وهم مسلحون بقلوب الأبطال .

نهض أبناء البوسنة والهرسك ليدافعوا عن أرضهم ولينتقموا لإخوانهم المقتولين وأطفالهم المشوهين وأخواتهم وزوجاتهم وأمهاتهم المغتصَبات . لم تسقط البوسنة في خمسة عشر يوماً - بالرغم من حظر التسليح - بل ولم تسقط حتى الآن وبعد مُضِيّ عامين كاملين من بداية الحرب بسبب فولاذية قلوب المناضلين البواسل وتعهدهم بالدفاع عن عرضهم وكرامتهم ووطنهم ضد من نهجوا منهج السفك والنهب والقتل أمام العالم الذي لا يتحرك ولا يعمل شيئاً تجاه الدولة ذات السيادة والتي هي عضو من أعضاء الأمم المتحدة . أليس الغرض من إنشاء مثل هذه الهيئات الحماية والدفاع عن حقوق الإنسان والدول والشعوب ؟

ببطء ومن الصفر بدأت نقطة إنشاء وتطوير جيش البوسنة والهرسك ، الدولة التي كان جزاء قبولها عضواً من أعضاء الأمم المتحدة احتلال أراضيها ومعاناة شعبها بدلاً من حمايتها . ولتكون السخرية والمفارقة أكبر وأكبر حينما

نرى أن البوسنة والهرسك وبرغم عضويتها في الأمم المتحدة لم تنل حتى حق الدفاع عن نفسها ، فما زال حظر التسلح الذي لا مثيل له في التاريخ مستمراً إلى الآن . إن الجيش البوسنوي هو الجيش الوحيد في العالم الممنوع عليه أن يتسلح ويدافع عن أطفاله على أرضه ، بينما الجيش الصربي المعتدي يدمر ويحرق كل ما يمكن تدميره وحرقه ليلاً ونهاراً .

إن العدوان الصربي مجرد من كل المعايير إلا من معيار واحد ألا وهو قتل أكبر عدد من المسلمين وإجلائهم وتطهير أراضيهم من كافة مبانيهم وآثارهم الدينية والثقافية لكيلا يبقى أي أثر يدل على وجود الإسلام والمسلمين على تلك الأرض في أية لحظة من لحظات التاريخ .

يبحث العلماء والصحفيون والسياسيون ورجال الدولة البوسنويون عن الخطط الخفيّة التي رسمتها أوروبا ولا سيّما فرنسا وإنجلترا بصدد مصير جمهورية البوسنة والهرسك ، فالخطط موجودة بلا شك ، وإلا فكيف نفسر كل هذا القدر من التفهم للجرائم الصربية والتسامح من قِبَل فرنسا وإنجلترا ؟ كيف تستطيع الدول الغربية التي تزعم أنها مهد النظام الديمقراطي البرلماني تأييد أبشع الخطط للقضاء على شعب أوروبي قديم بريء مسالم لأنه اختار لنفسه الإسلام ديناً ، لا لسبب آخر غيره ؟ كيف يستطيع زعماء بعض الدول الأوروبية تأييد الحكومة الصربية وهي الحكومة البعيدة كل البعد عن الديمقراطية؟ لماذا اجتمع ممثلو أوروبا وخاصة فرنسا وإنجلترا والسكرتير العام للأمم المتحدة بطرس غالي ، والسياسيون الصرب في مهمة واحدة ؟

ليس هناك إلا جواب واحد ، وهو جواب يذهل له المنتمون إلى الشعب البوسنوي المسلم كما يذهل له كل إنسان مخلص في العالم ، وهو أن كل لاعبي المسرح السياسي العالمي المذكورين أعلاه ، يرون القضاء على الشعب الأوروبي الإسلامي الوحيد ، أو بالأحرى الشعب غير المسيحي الوحيد ،

وذلك لكي يتم لهم تكوين صربيا الكبرى وانتشار الأرثوذكس في أوروبا وخروج روسيا على شواطيء البحر الأدرياتيكي .

إلا أن أحداً من هؤلاء الكبار الغارقين في الوحل لم يتوقع أبداً أن المسلمين يفضلون القتال والموت الشريف على قبول ما يخطط ويُحاك لهم .

لم يوجد أي لون من ألوان العذاب إلا وقد سقط على ظهر البوسنويين . بلا طعام ولا شراب والموت حائم فوق رءوسهم من كل مكان ، وفي كل لحظة ، الغرب مصمم على حظر السلاح على البوسنة وكذلك الأمم المتحدة، والدبلوماسية الدولية تفعل كل جهدها لتطويل الحرب وليدخل الشتاء الثاني ليتم ما بدأه الجتنيك وهو موت المسلمين - الذين لم تقضِ عليهم القذائف أو رصاص القنَّاصة - من البرد الشديد ، كل ما فعله هؤلاء الزعماء هو وصف الاعتداء بأنه « نزاع أهلي » الأمر الذي يؤدي إلى العفو عن المجرمين القتلة بل وإتاحة الفرصة لهم للمشاركة المتساوية في مختلف مفاوضات السلام التي يحثّون فيها على تقسيم البوسنة والهرسك ، وفي نفس الوقت يتم للجيش اليوغوسلافي فرصة تحقيق خطته بمواصلة نشاطاته العدوانية حتى وأثناء إجراء مفاوضات السلام .

مما لا شك فيه أن الاستراتيجيين والعلماء والأطباء وغيرهم من طبقات المجتمع الصربي قد شاركوا جميعاً في وضع خطة الاعتداء على ما قرروا إلحاقه ووصله بإمبراطوريتهم « صربيا الكبرى » من مناطق يوغوسلافيا السابقة. إن حلم « صربيا الكبرى » كان يحلمه أيضاً السياسيون والدبلوماسيون والعلماء الصرب الذين هلكوا منذ زمن بعيد . والجيل الحالي من سياسييهم يستوحي فكرة تكوين صربيا الكبرى من نصوص مستنداتهم القديمة التي كانت تنادي بتحقيق هذا الحلم لمدة ٢٠٠ سنة ، مستخدمين في تحقيق ذلك الهدف أسوأ وأحط الوسائل اللاإنسانية ، وقد وجدوا عدداً كبيراً من التابعين لهم ،

واستخدموا القساوسة الميّالين للإجرام للتأثير على المترددين وإقناعهم بقتل جيرانهم المسلمين . سترون لماذا أذكر رجال الدين الأرثوذكس بالذات ؟ (*) .

أثناء وجودي في سراييفو والبوسنة ، أدركت وبمنتهى الصعوبة أن ما يحدث حولي حقيقة واقعة ، فاستفسرت من كثير من المثقفين والمناضلين عن موقف قسيسي الكنيسة الأرثوذكسية ورهبانها من جرائم تلك الحرب ، فكان جوابهم بأن الكنيسة وقساوستها بالذات قد شاركوا مشاركة مباشرة وفعالة في الأحداث التي سبقت نشوب الحرب ، كما شاركوا في أحداث الحرب نفسها . أما مدى تورطهم فيما يجب تحقيقه من خططهم ، فأقوى دليل على ذلك هو العدد الكبير من الرسائل التي أرسلتها الكنيسة الأرثوذكسية الصربية إلى زعماء وكبار رجال الدين المسيحي في العالم ، وافتروا فيها دون أدنى خجل عمّا هو معروف جيداً الآن للجميع من مفتريات عن تعرّض الصرب للخطر . ومنها ما كُتِب إلى رئيس مؤتمر السلام في « هاغ » لورد كارينجتون وفي فترة من أشد وأبشع المجازر التي كان يرتكبها الصرب ضد المسلمين فيما حول نهر درينا في مدن « بيلينا وزفورنيك وفوتشا وفلاسنيتسا وفيشغراد » . وقد كتبوا يخبرونه عما زعموه من إبادة الصرب على يد المسلمين فقالوا : « إن الشعب الصربي معرض للخطر والإبادة على أراضيه للمرة الثانية في هذا القرن » ، كما شارك في نفس المهمة أساقفة الصرب فقالوا : « إنها مؤامرة عالمية ضد الصرب والأرثوذكس وُلِدَت في الفاتيكان ثم أخذت طريقها عبر أوروبا وأمريكا لتصل إلى دول العالم الإسلامي في الشرق . أذاعوا افتراءهم كله في الوقت الذي كان جيشهم يقوم بأشد وأبشع أعمال القتل والتدمير في كل أنحاء البوسنة والهرسك وبنفس الطريقة والأسلوب الذي اتبعوه في حربهم ضد الكروات قبل البوسنة » .

(*) ولم نسمع من الإعلام الغربي ولا من سياسي الغرب عن الإرهاب الأرثوذكسى ، أو حتى الأصولية أو التطرف الأرثوذكسى !

إن هذه الحرب القائمة في البوسنة والهرسك قد وحّدت بين ما كان من الصعب اتحادهم قبل الحرب ، فقد وحدت بين الشيوعيين الغارقين في الستالينية والدكتاتوريين والملحدين والقتلة وبين القسيسين الذين عاهدوا أنفسهم على طاعة الله وإطاعة أوامره . إنهم يشاهدون خرق أوامر الله كلها غير مهتمين بمباديء إنجيلهم (لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن) وجنودهم لا يفعلون شيئاً آخر سوى القتل والنهب والزنا .

أما الأئمة ورجال الدين الإسلامي في البوسنة فإنهم لا يفهمون أبداً لا مبالاة قساوسة الصرب لما يضيب مخلوقات الله من المصائب . وانضمام القساوسة الصرب إلى السفاحين وزعماء بعض دول أوروبا المنافقين الذين يعملون كل ما في وسعهم لمحو المسلمين من على وجه الأرض .

لا تفيد الكراهية للشر واستنكاره ، لا ينفع الذهول والدهشة أمام لا مبالاة أوروبا وإصرارها على حظر تسليح البوسنة ، ليس لأنها فقط كانت القادرة على وقف القتل الجماعي وتدنيس المقدسات ، بل كان واجباً عليها القيام بذلك . لم يبق أمام البوسنويين المسلمين إلا الكفاح العادل الطويل والإدراك بأن أوروبا العجوز قد عادت العنصرية إلى أراضيها .

وكأنّ أوروبا كانت تعرف أن العنصرية والشوفينية وعدم التسامح الديني شيء يظهر فيها من حين لآخر ، ولذا كانت تتخذ دائماً وتبرم مختلف أنواع القرارات والبيانات والمواثيق المتعلقة بحقوق الإنسان . أما البوسنويون فقد اتضح لهم بصورة فعلية أن هذه الوثائق كلمات جوفاء لا جدوى لها . الدول الغربية لم تجد لها مصلحة مادية في البوسنة والهرسك تجعلها تقوم بحماية الدولة البوسنوية وشعبها ، وهي تستدل بذلك بالمواثيق المتعلقة بحقوق الإنسان، بل بالعكس فقد حكمت على الشعب البوسنوي وأطفاله بالموت السريع لبعضهم والبطيء لبعضهم الآخر ، بالإضافة إلى ألوان شتى من الإهانة .

من زاوية أهوال الحرب المستمرة أكثر من عامين أصبح مبدأ حق الإنسان في الحياة والحرية شيئاً مضحكاً أكثر من أي وقت مضى ، حيث إنه لم تتم مخالفته بمثل تلك الدرجة إلى الآن .

إن البوسنويين لا يتخلون عن مدنهم وقراهم المدمَّرة ، إنهم عازمون على أن يظلوا حراساً لحدود وطنهم إلى آخر جندي حيّ . ومن خلال التجربة التي يعيشها الشعب البوسنوي ، تبين تماماً أن كبار مسئولي أوروبا لا يهتمون ولا يلتفتون إلى آلام البوسنويين المسلمين ، ولا يخطر ببالهم في أي لحظة أن المبدأ الأساسي لكل الأديان بالنسبة للحياة أو الموت مرهون بمشيئة الله عَزَّ وجَلَّ الذي خلق كل شيء وقدر له أجله .

* * *

جـَريمَة مخطّطة

يبدو أن ممثلي الدول الأوروبية الكبرى تختلف مقاييسهم لنفس الأمور باختلاف الشعوب . وكما يبدو أيضاً أن الصرب المجرمين وهم أصدقاء فرنسا وإنجلترا يعرفون ذلك قبل أن يدركه البوسنويون ، لذلك كانوا في السلم يخططون ويرسمون خططهم لإقامة الوليمة الحربية في البوسنة والهرسك ، وليمة تتلاشى فيها المدن والقرى من فوق سطح أراضيها ويتعرض فيها الناس للعذاب والاضطهاد إلى درجة أنهم يتمنون الموت كخلاص لهم . إن تهديد زعيم الحزب الصربي رادوفان كاراجيتش الذي صرح به في مجلس البوسنة والهرسك ضمن المباحثات عن سيادة البوسنة والهرسك يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٩١ م وبالضبط في الساعة ١١ مساء ، لم يكن تهديد مصادفة ولا بلاهة كما كان يبدو لأغلبية الحاضرين ، وإنما كان مبنيًا على ضمان الصرب بحصولهم على تأييد كامل لعملياتهم من قِبَل حكومات الدول الأوروبية ، لذا كان في وسعه أن يهدد ويتوعد ، وكما قال في المجلس : « **إذا نهج المسلمون نهج الكروات والسلوفينيين وانفصلوا عن يوغسلافيا مثلهم فسنمسحهم من الخريطة الجغرافية تمامًا** » .

إلى جانب كل الوثائق التي تثبت استعداد الصرب للحرب بمساندة أوروبا لهم نجد هناك قصيدة شعرية لرادوفان كاراجيتش كتبها قبل ٢٢ سنة وأهداها إلى سراييڤو . تلك القصيدة التي ستكون موضع البحث للمحللين وعلماء النفس والاجتماع بعدما يهدأ كل شيء ويحين وقت الأبحاث في جرائم القرن العشرين الكبرى ، القصيدة لا تعدو أن تكون مجرد صور لهلاك سراييڤو واحتراقها . فالشاعر القاتل يرى قبل كل هذا العدد من السنين كيف تحترق سراييڤو احتراقاً كاملاً مثل قطعة البخور ، وكيف تنزلق في شوارع مدينتها

الملابس الخالية وكيف ينتهي ويموت الحجر الوردي المركب على جدران البيوت. إنه يرى أموراً عجيبة تحدث كمقدمة للعويل ، كوباء ، فما القول إذن في تنبؤات كاراجيتش بمأساة سراييفو القاسية ؟ من أين أتى بكل هذا التطابق وإلى تلك الدرجة بين رؤيته المخيفة للمدينة في أشعاره وبين الواقع الذي هو أشد هولاً منها ؟ ليته سمع شيئاً عن الخطط المتعلقة بالبوسنة وسراييفو ، فبلغنا إياها عن طريق شعره ، أو أن الشاعر الصربي - الجبل أسودي ربما وقع ضحية لذات قدرته على التنبؤ بالأحداث السيئة مثلما قام بها في الواقع ، نذكر هنا أن كاراجيتش ينتمي إلى الجبل الأسود ، فهو مولود بمنطقة الجبل الأسود . إنه دخيل على سراييفو وأهلها . أبوه « فوك » كان مجرماً جتنيكياً أثناء الحرب العالمية الثانية ، قام بذبح المسلمين البوسنويين بسانجاك والبوسنة الشرقية . وللعلم اسم « فوك » معناه « الذئب » .

* * *

في بداية المقاومة

إن نشأة أي جيش من جيوش العالم تحتاج إلى سنين طويلة من العمل ، أما جيش جمهورية البوسنة والهرسك فقد أصبح يُحسب له حساباً في أقل من سنتين على إنشائه .

كيف نشأ جيشنا وأين جذوره ؟ أتيحت لي معرفة الجواب بعدما التقيت بالسيد قائد المنظمة العسكرية المسماة باسم « القلنسوة الخضراء » .

بعد الاعتداء على جمهورية كرواتيا وجمهورية سلوڤينيا ، أدركت مجموعة واعية من الناس الخطر الذي ستتعرض له جمهورية البوسنة والهرسك ، لذا استعدوا بتجهيز مقاومة مسلحة نظمت سنة ١٩٩٠ م ، وقد تم البحث عن أشخاص مناسبين لتجهيز المقاومة في سرية تامة ، ومما يدل على سرية المنظمة أن كثيرين من المنضمين إليها كانوا يجهلون في البداية أنهم ينتمون إلى منظمة واحدة .

كانت الاجتماعات تعقد أولاً على انفراد ، ثم في مجموعات صغيرة إلى أن تحسنت الظروف الأمنية وبدأ انعقاد الاجتماعات الجماعية الواسعة في المنازل والمحال والمقاهي .

ومما يلي يظهر كيف كانت الاستعدادات في بداية تكوين تلك المنظمة :

- بدأ بصنع الأسلحة وغيرها من المواد التقنية اللازمة في شهر يوليو ١٩٩٠م .

- أقيم أول اتصال لاسلكي عسكري في أكتوبر ١٩٩١م .

- في السنة نفسها تم تأسيس فرق طبية لكل وحدة من وحدات منظمة «القلنسوة الخضراء » ، وفي سنة ١٩٩٢ م بدأ عمل أول فريق جراحي .

- **في سنة ١٩٩٢ م أيضاً : أُسست أولى المدارس التجريبية التي لا يزال** مدرسوها يعلّمون خريجي جيش جمهورية البوسنة والهرسك .

- وفي نفس السنة أيضاً تم تشكيل أولى الجماعات الاستطلاعية والتجريبية والهجومية والهندسية والجماعات المضادة للمدرعات ، وهذا أولاً في **مجموعات قتالية ، ثم على مستوى الألوية ، حيث تحقق بذلك ما لا بأس به من تكوين جيش حديث للبوسنة .**

إن أول من استعد ونهض للدفاع عن حدود سراييڤو وحدود البوسنة والهرسك هم المجموعات المسلحة التابعة لمنظمة القلنسوة الخضراء ، وإليها يرجع الفشل في إخفاق خطة الصرب لدخولهم سراييڤو واحتلالها والقيام بالمجازر فيها .

إن تابعي هذه المنظمة لا يزالون يقاتلون حتى اليوم في ميادين قتال البوسنة والهرسك كلها ضمن وحدات جيشنا النظامي وسيظلون يقاتلون حتى النصر والتحرير بإذن الله .

كتبت تلك السطور لغرض إظهار الحقيقة والحفاظ عليها من الضياع «القلنسوة الخضراء هي النواة التي نشأ منها جيشنا بقيادة أمين شوراكيتش أميجا».

* * *

● خيبة الأمل في مواثيق حماية حقوق الإنسان :

بما أن البوسنة والهرسك قد وقعت ضحية الاعتداء النموذجي المنظم ، فإن شعبها ومعه زعماؤه كانوا يتوقعون تدخلاً عسكرياً أجنبياً ليساعد جنود البوسنة على تحرير وطنهم ، ومع أنه كان يبدو أن التدخل آتٍ لا محالة نظراً لتجمع السفن الحربية التابعة للحلف الأطلسي في مياه البحر الأدرياتيكي ، إلا أنه لم يتم .

تحركت قوة عسكرية هائلة وآلات ووسائل حربية متنوعة أخرى ، لأنه من العار أمام أعين الرأي العام السكوت أمام تلك الجرائم المفجعة التي يمارسها الصرب ضد مسلمي البوسنة ، إلا أن حكام فرنسا وإنجلترا أصروا على حرمان البوسنويين من حقهم في المساعدة الحربية الدفاعية أمام ذهول ودهشة الجماهير الديموقراطية في بلادهم .

ليس فقط غياب الإرادة السياسية لمساعدة البوسنة والهرسك لدى الدپلوماسيين الأوروپيين فحسب ، بل هناك أيضاً نشاطات تَحوُل بصورة مباشرة دون اتخاذ إجراءات مناسبة تؤدي إلى السلام وإلى الاحتفاظ بوحدة الأرض كاملة للشعب البوسنوي المعذب . ولا يخفى على أحد أن هناك تعاون مباشر بين جنود وضباط الفرنسيين والإنجليز والكنديين في وحدات الأمم المتحدة وبين الصرب ، بل أنهم مبعوثون لتنفيذ سياسة حكوماتهم وإتمام ما لم يستطع الصرب إتمامه .

ولا ضرر في أن أذكر هنا ما كنت أسمعه دائماً أثناء حديثي مع الشباب الذين درسوا في المدارس العلمانية في البوسنة والهرسك من تحقيرهم إلى ما ترسله الدول الأوروپية من معونات ، وبالغضب الشديد نحو نفاق هذه الدول. إن الشباب البوسنوي يفكر الآن بحكمة بالغة في خداعه ووهمه مما كان ينسبه الغرب إلى نفسه من حضارة وتقدم . وبمرارة بالغة سألت إحدى الفتيات : « ماذا بقى من فرنسا بلد العقلانية والفلسفة ، الذي ولد سلسلة كاملة من عباقرة المفكرين ، بلد الثورة الفرنسية المشهورة والتي أعلنت شعار – حرية وأُخوّة ومساواة – بالطبع للناس جميعاً ؟ ماذا حدث لما كانوا يقولونه أنه وبإسقاط النظام الإقطاعى في أوروپا وخاصة في فرنسا ، يتم نسخ الظلم والخرافات والاضطهاد والامتيازات الخاصة ؟ وقد وعد المفكرون الفرنسيون -آنذاك – الكل بالحق الدائم والعدالة والمساواة الحقيقية وحقوق الإنسان » ، واختتمت الفتاة السراييڤية الجميلة كلامها بما تعرضت له من القصف والجوع

والتعذيب . أنقل ما قالته تلك الفتاة إلى الشرق والغرب الحر ليفكر فيما قالته.

عامة مواطني البوسنة والهرسك أيّاً كان دينهم ، والذين عاشوا قروناً طويلة مع بعضهم البعض ، ما زالوا يرغبون في العيش المشترك على أرض وطنهم الموحَد . إنهم يرون أن الفرنسيين خدعوا العالم حينما قدموا أنفسهم كشعب ذي تراث قديم ديموقراطي لامع ، لذا فلا عفو بالمرة لما أبدوه من القسوة نحو معاناة البوسنويين ، كما لا عفو لمكر سياسييهم ودپلوماسييهم بما فيهم رئيسهم ميتران .

أودّ أن أذكر هنا أنه أثناء حديثي مع البوسنويين ، لاحظت تنهدهم وغضبهم حينما يتذكرون سذاجتهم وسذاجة الشعب المسلم كافة قبل الحرب . والكل يقسم بالله أن الأمر لن يتكرر مرة أخرى ، خاصة بعدما رأوا وتأكدوا من خداع الدول الأوروپية وخيانتهم لهم كشعب أوروپي قديم ، وليس هذا فحسب بل حينما رأوا صمتهم وسكوتهم بعدما أخذ الجيش الصربي في التسلح وعندما أصبح واضحاً للعيان نية الصرب في توسيع مساحة صربيا على حساب غيرها من الجمهوريات المجاورة ، بجانب تظاهر الدول الأوروپية بعدم إمكانها إيقاف خطط الصرب في التوسع ، كل هذا بالإضافة إلى احترامهم لواضعي مشروع صربيا الكبرى ، الأمر الذي شجع الصرب على مواصلة أعمالهم العدوانية ، لكي تتاح بعد ذلك الفرصة لكرواتيا بالتدخل المباشر في قضايا البوسنة والهرسك ، التدخل الذي أصبح فيما بعد مطمعاً فعلياً في استيلائها هي أيضاً على جزء كبير من البوسنة والهرسك . كما لم يعد خافياً على أحد لقاءات توجمان وميلوشيڤيتش قبل الحرب للاتفاق على تقسيم البوسنة .

كان المسلمون موجودين مثل وجودهم الحالي ، بل هم الآن موجودون بصورة أشد قوة ووضوحاً مما لا يتيح للراغبين في تقسيمها أية فرصة . فإذا قسنا نسبة الظلم والمصائب التي أُصيب بها البوسنوي المسلم وهو مجرد من

الأسلحة ، وأخذه على غرة لجهد أن قوّته وبطولته عظيمتان . وكلمة الرئيس عزت بيغوفيتش : « بغير القوة لا يُمكن تحقيق أيِّ شيء » تعبر عن قوة مستقبله.

إن واضعي فكرة خطة الاعتداء الصربي على معرفة جيدة بتاريخ أوروبا وأراضيها ، المكتوب غالباً بدماء بريئة لشعوب لم يكن لها بُدّ من التلاشي لا لسبب إلا لأنها شعوب غير مسيحية ، وبناء على هذا الجو الأوروبي المعادي للإسلام ولكل ما هو غير مسيحي ، شنّ الصرب قبل الحرب حملة إعلامية شديدة ضد البوسنويين المسلمين بهدف إثارة التعصب الديني الأوروبي المضاد للإسلام وزرع الخوف منه . فقد تم تدنيس كل قيمة من قيم الدين الإسلامي الأخلاقية والعقائدية والحضارية وآثاره المادية تدنيساً تاماً لتشجيعهم على القضاء عليه . بدماء نسائنا وأطفالنا الأبرياء ، تروى الأراضي البوسنوية المخربة ، بينما الغرب بمختلف مهنه ووظائفه - بدءاً من جنود الأمم المتحدة إلى الصحفيين والمصورين والممثلين والمؤلفين والعاملين في المنظمات الإنسانية - يدوسون فوق تلك الجروح ليسجلوا ويصوروا وهم على وعي ، أن مثل هذا الهول والبشاعة والفزع الذي يحدث على تلك البقعة الصغيرة الضيقة لن يتكرر مرة أخرى في مكان آخر .

يبدو أن الإنجليز حققوا النجاح الأكبر في متابعة الأهوال الواقعة على أرضنا، فلقد تمكنوا من إدخال أفرادهم عن طريق البعثات الصحفية ومراسيلهم في وحدات لجنة الدفاع الكرواتية ووحدات جيش البوسنة والهرسك ، ناهيك عن مشاركة الإنجليز الفعلية وغيرهم من الأجانب في الوحدات الجتنيكية .

* * *

● حقيقة وجود جنود الأمم المتحدة :

هناك إشارات إلى أنه في إنجلترا حوالي ٩٠٪ من جملة الوثائق المتعلقة بجرائم الحرب المقترفة في البوسنة ، لكنهم يرفضون تسليمها للّجان والهيئات

المسئولة عن التحقيق . لذا نجد أن مواطني البوسنة والهرسك قد فقدوا بسرعة الثقة في الوحدات البريطانية والفرنسية والكندية كوحدات تابعة لقوات الأمم المتحدة ، لأنهم لا يتمسكون بالأوامر التي يأمرهم بها قوادهم في الأركان العليا للأمم المتحدة ، بل يعملون معتمدين على توصيات حكوماتهم .

فلنتأمل في دور الچنرال الفرنسي موريون القائد الثاني لقوات الأمم المتحدة في البوسنة والهرسك ، ومن قبله الچنرال مكينزي الذي كان يشارك بصورة مباشرة في الجرائم ضد المسلمين البوسنويين .

مما نقل عن عدد من رجال الفكر الفرنسي الشرفاء أن أحد الجنرالات الفرنسيين المتقاعدين حينما استعرض القوات الفرنسية المقرر إرسالها إلى يوغوسلافيا السابقة عام ١٩٩٢م سألهم عن واجباتهم التي يجب القيام بها ، أجابوه : « نحن ذاهبون للدفاع عن الصرب » فقال وهو مضطرب إلى حد ما «لماذا تساعدون الصرب؟ » أجابه الجنود الفرنسيون : « إنهم حلفاؤنا التاريخيون» .

كان الچنرال موريون الفرنسي قائداً لقوات الأمم المتحدة المسئولة عن حفظ السلام في البوسنة والهرسك صيف عام ١٩٩٢م حين قام بمنع الجنود الفرنسيين من وصل منطقة بوتمير المسلمة بمدينة سراييڤو ودوبرينيا ، الأمر الذي يؤدي إلى حرمان أهل سراييڤو وجنودهم من القيام بخرق الحصار القائم حولهم . بل إن الجنود الفرنسيين كانوا يتدخلون عند كل هجمة دفاع يقوم بها جنودنا لإقامة جدار « حائط حيّ » ليمكّنوا الصرب من الانسحاب واتخاذ موقف تجمع أفضل وأقوى ليطلقوا من جديد النار على البوسنويين وهم مستورون ومحميون خلف الفرنسيين . وفي إحدى تلك العمليات الفاضحة للجنود الفرنسيين والجتنيك وقعت قذيفة من القذائف المضادة للمدرعات وقتلت ثلاثة من الجنود الفرنسيين ، فما لبث أن ثار الحكام الفرنسيين واتهموا الجيش البوسنوي وحكومته بالإرهاب، كما لوحظ تغيير اسم البوسنويين بـ «المسلمين» في وسائل إعلامهم وكانوا يلفظونها بالحقد والغضب .

تلك القوات نفسها هي المسئولة عن حفظ مطار سراييڤو ، المطار الذي افتتحه الرئيس ميتران أواخر شهر يونيو ١٩٩٢م ، كشبح من الأشباح هبط ميتران على مطار سراييڤو في أوج القصف الصربي لا لأي غرض آخر سوى منع التدخل العسكري المنتظر على مواقع الصرب .

لذا فإن مساهمة ومشاركة ميتران وجنوده في المجازر البوسنوية كبيرة ، ولا سيّما بعدما تبين أن افتتاح المطار بالنسبة لمواطني البوسنة والهرسك ليس إلا أملاً زائفاً لحياة أفضل . ذلك لأن المطار في أيدي الذين يكرهون المسلمين ويعملون لخدمة الجتنيك . **ولنذكر هنا المصير المأساوي لنائب رئيس الحكومة البوسنوية « حكى تورايليتش » حيث قُتل على يد الصرب بعدما فتح أحد الضباط الفرنسيين باب الناقلة المدرعة التابَعة لقوات الأمم المتحدة والتي كانت تنقله من المطار إلى سراييڤو . إن باب الناقلة لا يمكن فتحه من الخارج بل يُفتح من الداخل مما يفهم منه أن الضابط المذكور هو الذي فتحه للجنود الجتنيك ليتمكنوا من إطلاق النار بسهولة عليه ، ومغادرة الموقع بسهولة أكبر . وباقي الجنود الفرنسيين يشاهدون ما حدث في صمت وهدوء . أما التحقيقات اللاحقة لذلك الحادث فلم تُسفِر عن شيء إذ لم تقع مسئولية ما حدث على عاتق أحد ؟**

إن القائمة بجرائم الجنود الفرنسيين وضباطهم ضد البوسنويين طويلة فلا عجب إذن من سخط أهل سراييڤو وسخط كل مواطن شريف عليهم .

حينما كنت أسمع إلى كل هذا الظلم وهذه الجرائم كنت أسأل نفسي : كيف لا تنشقّ الأرض لتبلع هؤلاء المجرمين المنافقين إلى الأبد ؟

إني متأكد أن هؤلاء الناس يدعون الله وفقاً لتقاليد دينهم ، يطلبون الصحة والعافية لهم ولأولادهم ، بينما لا يخطر ببالهم في أية لحظة من اللحظات المصير الأسود الذي خلقوه للعائلات البوسنوية البائسة . أما البوسنويون المؤدبون بالآداب الإسلامية ، فهم لم يتمنوا في يوم من الأيام أن يفعلوا

الشرور تجاه أي بشر على وجه الأرض ، لأن للحياة الإنسانية قيمة عُليا لا يجب أن تهلك أو تدنس بمثل هذه اللارحمة واللاإنسانية تبعاً لما جاء في القرآن الكريم : ﴿ مَن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ [سورة المائدة : ٣٢] .

هل يعرف الجنود الفرنسيون وعلى رأسهم رئيسهم ميتران والجنرال موريون ما هي العقوبة التي تنتظرهم ؟ ألا يتذكرون الآلاف من الناس الذين قتلهم الجتنيك بسهولة على أرض المطار أثناء محاولتهم الخروج من سراييفو لأن الفرنسيين الذين يحرسون المطار كانوا يكشفونهم للصرب بإلقاء الأضواء الكاشفة « الصواريخ المضيئة » عليهم ! .

وعندما اخترق الجيش البوسنوي خطوط دفاع الجتنيك على جبل ترى باويتش فوق سراييفو ما لبث موريون أن أرسل هناك جنوده ليقفوا كما يزعمون بين الجانبين المتنازعين ويستروا بأجسادهم الجتنيك ، ثم يصرّح موريون بعد ذلك وبكثير من الفخر والاعتزاز بأن جنوده قد أنقذوا هدنة إيقاف النار .

بالإضافة إلى كل ذلك تجرأ موريون وطلب من الصرب من أهل توزلا أن يغادروا مدينتهم مستهدفاً بذلك تلويث تلك المنطقة التي لا زال يعيش فيها المسلمون والكاثوليك والأرثوذكس في وفاق .

ومن بين خدعات موريون ما فعله شتاء عام ١٩٩٣م عندما بدأ حصار مدن سربرنيتسا وغوراشدا وجيبا الواقعة شرقيّ البوسنة . كانت سربرنيتسا قد بدأت تسقط وكان متوقعاً حدوث المجازر التي يقوم بها الصرب بعد وضع أيديهم على أية مدينة ، لذا ركعت النساء والأطفال وقبلن قدمي موريون راجين منه ألا يتخلى عنهم ويتركهم للجتنيك ، فانتهز موريون الفرصة ليعلن : سأبقى مع هؤلاء الناس إلى النهاية ، فإننا لم نفعل شيئاً إذا لم ننقذ هؤلاء الأبرياء ، ولن تسقط سربرنيتسا إلا بعد موتنا جميعاً . ولكي يقوى الانطباع ويظهر نفسه

كبطل يغامر بحياته ، كانت المكالمة تنقطع وتتوقف بين الحين والآخر حين ظهر عليه التوتر والاضطراب في إذاعات الأقمار الصناعية العالمية وأصبح صوت موريون ضعيفاً لكنه حازماً ، وبذا صار موريون « الرجل الذي أنقذ سربرنيتسا » .

ماذا فعل هذا الرجل في الحقيقة ؟

مع أنه ضمن لأهل سربرنيتسا توصيل كميات تافهة من المعونات الإنسانية ، إلا أنه قد نجح تماماً في منع الطائرات الأمريكية وطائرات الحلف الأطلسي بالقيام بالهجوم الجوي ، وهي الخدمة الكبيرة التي أداها للصرب . وقد أظهر موريون وجهه الشيطاني الحقيقي عندما قام بمحاولة تهجير سكان سربرنيتسا وهو يصرخ : أخشى أنه لم يبق لنا إلا هذا .

ثم قام بتجريد البوسنويين الذين يدافعون عن المدينة من الأسلحة كجزء من الإجراءات التحفظية ، وفي مقابل هذا أن ينسحب الصرب وتوضع أسلحتهم الثقيلة تحت مراقبة قوات الأمم المتحدة ، ومن المعلوم أن الجتنيك لم يفعلوا ذلك أبداً . ومكافأة لما قام به في سربرنيتسا ، سمى موريون « الجنرال الشجاع » وأصبح مثالاً للرجل الذي ضحّى بنفسه وتمسّك بمبادئه مقابل مركزه المهني .

وأنه طيلة الحرب القائمة ولمدة عشرين شهراً كان الدپلوماسيون الفرنسيون يطالبون وبصوت عال بالهجوم الجوي على الصرب وبمساعدة الديموقراطية البوسنوية وبالتدخل العسكري البرّي لإنقاذ البوسنة ، وبافتتاح مطار توزلا وبفرض إيصال المعونات الإنسانية بالقوة وبتشديد الحظر ضد صربيا وبالتدخل العسكري الحاسم لفض الحصار عن سراييڤو ، وغير ذلك من مطالبهم الكثيرة الزائفة الجوفاء الغير مقنعة ، حيث كانوا يطلبونها بطريقتهم الفرنسية الدپلوماسية الشهيرة .

وفي النهاية منح الرئيس ميتران چنراله وساماً بأعلى تشريفات الدولة الفرنسية لأنه لعب دوره الخطير في المأساة البوسنوية تبعاً لما أملتْه عليه الحكومة الفرنسية وبدرجة ممتازة .

* * *

● المعونات الإنسانية :

فيما يتصل بكل تلك الأعمال المعادية للبوسنة والبوسنويين وللإسلام والمسلمين من قِبَل فرنسا وإنجلترا وجنودهما وحكامهما ، وفيما يتصل بلا مبالاتهم ، يأتي دور الغرض من المعونات التي تُرسَل إلى الشعب المعذَّب الذي لجأ إلى كرواتيا وإلى كثير من دول العالم .

إن إرسال المعونات الإنسانية إلى المدن والقرى البوسنوية المحاصرة ، حيث الموت الذي يتربص بهم في كل مكان وفي كل لحظة ما هو في الحقيقة إلا عمل ماكر مستهدف إلى طمس الحقيقة وستر التصرفات المتحيزة للدول الغربية نحو الجيش الصربي المعتدي . إن حكومات الدول الغربية تؤيد إن لم تكن تشجع نشاطات منظماتها المدنية في تقديم المساعدة على شكل ملابس وأغذية وحتى الأموال لمواطني البوسنة والهرسك المحكوم عليهم مسبقاً بالموت . وقد قررت تلك الحكومات الأوروبية عدم تطبيق أي بند من بنود الميثاق العام لحقوق الإنسان في جمهورية البوسنة والهرسك ، مما يعني أنه على البوسنويين أن ينسوا المباديء التي تقول بأن كل مخلوق بشري يولد حراً ومتساوياً في الحقوق مع غيره من الناس ، كما عليهم أن ينسوا أنهم مولودون ولهم الحق في الحياة والحرية والأمن الشخصي ، وإلا فما عليهم إلا أن يقاتلوا بالرغم من حظر الأسلحة .

الحقيقة إذن ، هي محاولة إخفاء المساعدات التي يقدمها الفرنسيون والإنجليز للصرب المعتدين ليمكنوهم من تحقيق خطتهم العدوانية ، لذا أدخلوا إلى المسرح منظماتهم الإنسانية .

فالمنطق المضحك المبكي لزعماء أوروپا - إذا كان البوسنويون محكوماً عليهم بالموت فليموتوا ولو وهم غير جياع .

لأجل إظهار الحقيقة ، لا ينبغي تجاهل جانب من قضية علاقة أهالي أوروپا بمواطني البوسنة والهرسك ، فهناك عدد لا بأس به من رجال الفكر وغيرهم من عامة الناس في أوروپا يعارضون سياسة حكوماتهم مما يساعد على فهم كثرة المعونات من أوروپا إلى البوسنة والهرسك .

المسلمون البوسنويون يحترمون إنسانية وشجاعة هولاء القوم والأفراد من الغرب الذين قاموا بإغاثتهم بصدق وإخلاص ، وأحياناً كانوا يأتون إلى البوسنة فيُقتلون فيها . فكل ضحية بريئة من الضحايا الأجانب الذين وصلوا إلينا برغبة إخبار العالم بمصائبنا أو لمساعدتنا عن طريق المنظمات الخيرية ، كل هؤلاء الضحايا كان لفقْدهم أثر عميق في قلوب البوسنويين ، ولذا فبعدما تنتهي الحرب بتحرير وطننا - بعون الله - سيقوم من تبقّى من أولادنا على قيد الحياة بالبحث عن عائلات هؤلاء الضحايا ليحاولوا التخفيف من آلامهم وأحزانهم الناتجة عن فقدهم آباءهم .

* * *

الجزء الأول

لا تنكروا على أحدٍ دينَه وقوميَّته
وقاتِلوا الذين يُريدُون القضَاء عَليكم

● زيارتي الأولى لوطني الحبيب كانت أثناء الحرب سنة ١٩٩٢م :

كنت أشعر باضطراب نفسي عجيب وأنا أعيش ديناميكية عادية يعيشها كل **مواطني الولايات المتحدة ، وكنت أتساءل ماذا يحدث لي ؟ وما هو سبب حالتي = تلك = العجيبة ؟ واكتشفت مؤخراً أن الاضطراب العجيب يرجع إلى رغبتي الملحّة التي كنت أدفعها عني طويلاً في زيارة وطني وعاصمته** سراييڤو المدينة الفريدة في الجمال والجاذبية .

وفيما سلبتني واجبات عملي والواجبات العائلية وغيرها العام تلو العام من حياتي ، كان الاشتياق إلى وطني يزداد والرغبة في زيارته تشتد . وفي انتظار سنة تقل فيها واجباتي والفصل المناسب من فصول السنة ، صادف أن حلّت سنة ١٩٩٢م ، السنة الأكثر بؤساً بالنسبة لي ولشعبي ، إنها السنة التي سقطت فيها كميات لا تقاس من البؤس والشقاء على كاهل شعبي ، سنة حملت لنا معها خيبة الأمل ، إلا أنها قدمت لنا حقائق هامة عن الموقف المعادي لكثير من دول العالم لشعب البوسنة والهرسك .

عرفنا المجرمين الكثيرين الذين يمارسون القتل والذبح مباشرة ضد البوسنويين الأبرياء ، والذين لهم دور رسمي شريف كممثلي دول العالم الحر أو الوسيط من وسطاء السلام الذين يساعدون الصرب في عدوانهم وهم يسوِّفون ويماطلون في المفاوضات ، بينما يزداد فناء البوسنويين المسلمين في المجازر الصربية ومعتقلاتهم ويزداد عدد الفتيات المسلمات المغتصبات ثم المقتولات أو المهجَّرات .

كانت مقابلاتي مع أهل وطني مؤلمة للغاية ، بحيث أنني وبعد رؤية آلاف الشباب المشوّه بدأت أسأل نفسي : « هل يؤمن هؤلاء المجرمون الأرثوذكس بوجود الله ؟

إن سنة ١٩٩٢م تعتَبر سنة الفصل في حياتي وحياة كل بوسنوي مسلم . إنها قد محت من ذاكرتي التاريخ العادي ، فقد أصبحت أنظر إلى الأحداث بمقارنتها بتلك السنة ، قبل سنة ١٩٩٢م أو بعدها . وأصبحت وأينما كنت لا يغيب عني أهلي ووطني وعدد الشهداء الذي لا يحصى عن خاطري، وكذلك الأمهات والزوجات الباكيات لكنهن متباهيات ، والأيتام الحائرون الذين نضجوا مبكرين ، ثم المناضلين البواسل الذين عاهدوا الله على الدفاع عن وطنهم حتى آخر قطرة من دمائهم البوسنوية . كلهم معي دائماً في ذهني وخاطري وقلبي . عاهدت الله أن أظل أنا أيضاً معهم وأن أقوم بعمل كل ما يسهل لهم الحياة لمن بقيت له حياة ، لهؤلاء الذين آثروا الصبر على ما يصيبهم من بلاء ، فقد آثروه حباً لله تعالى وللبوسنة الحرة .

بسبب الذكريات المؤلمة التي تطاردني باستمرار ، كنت أتجه إلى الله لأسأله: « يا ربي ، هل هذه كوابيس أم حقيقة مزعجة ؟ ماذا فعل بنا الوحوش » ؟

والناس في العالم يسيرون في الشوارع مشغولين بواجباتهم اليومية ورغباتهم الدنيوية ، وكأنه لا تحدث أشياء رهيبة في مكان آخر من العالم .

إن كثيراً منهم لا يعرفون إطلاقاً أن هناك بلداً صغيراً يسمى البوسنة ، حيث الحياة البشرية لا تساوي شيئاً وليست ذات قيمة ، وأن كبار سياسييهم ودبلوماسييهم المسيحيين هم المسئولون عن ذلك . لذلك كله غالباً ما أتجه إلى الله بالدعاء : « اللّهُم انصُرنا وانْصُر جيشَنا على أعدائنا الكافرين » .

غالباً ما يبدو لي أن كل ما رأيته وسمعته ويسجلته بآلة التصوير أثناء وجودي في البوسنة لم يتوقعه الخبراء العسكريون . فالذي يحدث في البوسنة التي تروى يومياً بدماء الناس الأبرياء ، ودماء الغرباء النجسة الذين جاءوا لنهبها وتدميرها ، كل هذا يبدو لي غالباً وكأنه تابع لعالم وهمي آخر غير هذا العالم . يبدو لي أن كل مشاهد الهول وعذاب الناس في جانب ، ومشاهد المعتقلات والمجازر في جانب آخر ، قد أنتجها خيالي ، إلى أن أحس بثقل

الأحداث على جسدي وبضغط الواقع القاسي وحقيقة المأساة البوسنوية على صدري ، فأُحدِّث نفسي من جديد قائلاً : يا خليل ، لا داعي للشك كما لا داعي للحزن ، فأنت مسلم ، والمسلم مأمور من الله بالصبر ، حيث قال وهو أصدق القائلين : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران / ٢٠٠) .

إلى جانب إيماني بأن الله مع شعبي وأنه وهبه القوة والشجاعة ، إلا أن المصائب تؤلم جسدي وتجرح روحي . صارت الراحة والنوم في الليل مستحيلاً والناس في وطني يرتعدون برداً وجوعاً .

ومما كان يقع في نفسي أشد الوقع معرفتي المؤلمة بأن الناس في العالم ، شرقه وغربه ليسوا قادرين على أن يضعوا أنفسهم ولو للحظة من اللحظات موضع شعب البوسنة المعذَّب . فزعماؤهم المستعمرون والأسرى لعقولهم الفاسدة التي تقبل الرق والقتل باسم العقائد لا يفهمون الآية القرآنية التي تقول :

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ﴾ (المائدة : ٤٨) . أما صدق الآية القرآنية التالية فلا شك فيه ولا مراءَ ، لكن مراعاتها والالتفات إليها على مستوى الحياة الفردية والجماعية على السواء قليل إن لم يكن معدوماً :

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ﴾ (الزمر / ٥١) .

* * *

• في بلدي الحبيب :

بانفعال عاطفي عقلاني بالغ ، استقبلت فجر يوم ١٩ أكتوبر عام ١٩٩٢م، حين تأكدت تماماً من أني سأنطلق لزيارة شعبي وسأخطو على أرض وطني الحبيب المروي بالدماء .

كانت تنفلت من صدري تنهدات ناتجة عن كابوس حقيقي ، كابوس سببته ذكرياتي للوطن من جانب ، وفيض من الأخبار عن الدمار والقتل من جانب آخر . ومع أنه كان يبدو أن كل شيء جاهز للسفر ، إلا أن اليوم كله مضى في إتمام بعض الأعمال ، فانطلقت من زغرب في الساعة التاسعة والنصف مساءً ومعي ثلاثة من رفاقي الأوفياء « بلال وباشو وياسين » حيث أمامنا طريق شاق طويل وخطير .

كنا على وعي تام بأن الطريق لن يكون سهلاً أبداً ، لا بسبب العمليات الحربية فحسب بل بسبب الوضع السياسي المعقد للغاية . الطريق يبلغ طوله ألف كيلو متر ، وهو بعيد جداً عن الطرق الرئيسية الممهَدة التي كنا نقطعها قبل الحرب .

اجتزنا المسافة بين زغرب وسپليت بدون مشاكل والحمد لله . في سپليت استقبلنا خبر جاء فيه أن وحدات لجنة الدفاع الكرواتية قامت بالهجوم على مدينة « بروزور » المدينة المسلمة الواقعة في الجزء الغربي من البوسنة والهرسك « حيث اقترفوا عدداً كبيراً من الجرائم ، ومع أنهم نصحونا بالبقاء في سپليت إلا أن نيتنا الحاسمة في مواصلة الطريق إلى البوسنة مهما كانت الظروف أقوى. وعندما رأينا المتاريس المقامة قُبَيْل دخولنا البوسنة أدركنا أن نصحهم لنا كان في محله وأن النزاع جاد لا شك » .

اقترب هنا رجل في الزي العسكري وقال : لقد اقتربتم من البوسنة ولا بد من التفتيش الروتيني ، فهل معكم سلاح ؟ بعد التفتيش الدقيق للأفراد والأمتعة أخذوا من رفيقي مسدسه ماركة « مجنوم » وبعض الذخيرة .

في مدينة إيموتسكي اقتادونا إلى مركز الشرطة ، حيث ذهب الشيخ باشو وعمامته على رأسه إلى كبير الشرطة للمحادثة ، ثم خرج بعد استجواب قصير وإظهار بطاقته الشخصية، انطلقنا نواصل طريقنا ونحن ساكتون راضون.

بعد عبور الحدود الكرواتية وبعدما كنا نظن بأن المشاكل الرئيسية قد تلاشت

لاحظنا سائق سيارة « رينو » يشير بيده إلينا كي نتبعه ، ومرة أخرى وجدنا أنفسنا في مركز الشرطة ، حيث أخبرونا أن هناك أمر بوليسي بمنع دخول أي مسلم في زي عسكري إلى أراضي ما يسمى بـ « هرسك بوسنة » . تلقيت تلك الحقيقة المؤلمة بمرارة بالغة ، فشعبي المحصور من كل ناحية من الصرب والذي يقصف بالمدفعية ليلاً نهاراً قد انسدَّت عليه الناحية الوحيدة ، والآن فَقَدَ كل اتصال له بالعالم الخارجي بعد تآمر الكروات عليه . تساءلت للحظة أتكون تلك آخر محنة تقع على رءوس الناس الأبرياء والأطفال البوسنويين التعساء ومدافعيهم البواسل ؟

وكما أن لكل قاعدة استثناء ، فهذا الأمر البوليسي أيضاً كان عاجزاً عن التطبيق على كل مسلم ، فاقتربت من الشرطي وأخبرته بأني مواطن من الولايات الأمريكية وأن السيد باشو إمام مسجد ، مما أدى إلى تغيير الموقف تغييراً جذرياً بالنسبة إليّ وإلى الشيخ باشو ، أما بالنسبة لرفاقنا الآخرين فقد أرادوا بقاءهم والتحفظ عليهم . لكن بعد معارضة شديدة من ناحيتنا وكلمات حادة وشجار ، تنازل الكروات عن قرارهم وتركوا رفاقنا . واصلنا الطريق بالسيارة لكن الصراخ والشجار والكلمات الحادة كانت لا تزال تدوي في أذني.

أخذنا نُكَبّر ونهلل حتى وصلنا إلى يبلانتسا بسرعة وكأن لنا أجنحة نطير بها. يبلانتسا المدينة الصغيرة المشهورة منذ الحرب العالمية الثانية ، وهي تتبع جيش جمهورية البوسنة والهرسك . انتابني الشعور بالسعادة ، هأنذا في بلادي ، حيث الجبال المنسوجة فيها أجمل ألوان الدنيا ، فحولت البيئة إلى أجمل لوحة فنية . ومع أن الوقت غير مناسب للأفكار الشعرية ، إلا أنني حتى في هذه اللحظات التي تنزف فيها دماء البوسنة أريد أن أمتص كل ما فيها من جمال وأحلَّه داخلي ، إذ إن جمالها يزيد من اعتقادي بأن كل ما حولي يستحق التضحية وبذل المجهود . أسمع تنفس بلادي فأسأل باشو هل يسمعه

هو أيضاً ؟ نظر إليّ متعجباً وقال : عندما تصل إلى أعماق أراضيها ستسمع بكاءها أيضاً .

استيقظت من أحلامي وعدت إلى الواقع . أمامنا نهر « نرتفا » أرى جسراً حديدياً قديماً مدمَراً . الجسر الذي كان عليه أن يذكّرنا وينذرنا خلال السبعة والأربعين عاماً الماضية إنه رمز الشيوعية ، يرمز إلى حملة من الحملات الهجومية في الحرب السابقة . هنا استطاع الشيوعيون خداع الألمان ، لذلك احتفظوا بذلك الحطام الحديدي لتأتي إليه أجيال الشباب والأطفال ليقصوا عليهم بطولاتهم عن الوحدة والأخوة ، وبالتأكيد أتت إليه الرحلات المدرسية من البوسنة الشرقية وأثناء حضورهم إلى هذا الجسر عبروا جسر فوتشه الذي ذُبح عليه آلاف المسلمين عام ١٩٤١م .

هؤلاء الأطفال إمّا أنهم كانوا يجهلون الحقيقة أو أنهم كانوا يصدقون ما يقصّه عليهم معلموهم الصرب بصدق أعمى فجهلوا الحقيقة . لماذا لم يسأل الأطفال أنفسهم وكذلك أطفال المدن الواقعة على نهر درينا ولو مرة واحدة «لماذا لا توجد على أي جسر من جسورهم أي لوحة أو أي رمز من الرموز التي تذكرهم بضحايا قومهم في الحرب الماضية ؟ » .

لماذا لم يقص عليهم آباؤهم وأجدادهم أو معلموهم قصص المهاجرين من البوسنة الشرقية الذين هربوا حفاة الأقدام من سكاكين الجتنيك عام ١٩٤١م . إن أطفال الصرب مجهزون ومدربون لما يفعلونه الآن من تسابق لسفك الدماء. لماذا لم يذكّر أحد أطفالنا بالمذبوحين من رجالنا ونسائنا وأطفالنا وشيوخنا الطافية جثثهم فوق سطح نهر درينا ؟ بل قَبِل إخواني الوحدة والأخوّة المزيفة، مما نتج عنه الآن ما سيدخل في كتب التاريخ كأكبر مأساة من مآسي الشعب البوسنوي ، إن لم يكن مسلمي العالم بأسره .

تنبهت إلى وجود راياتنا ذات الزنابق . لقد اختار البوسنويون شعارهم من الماضي القديم لدولتنا . إنه شعار على شكل تُرس منشطِر إلى شطرين بخط

مائل عريض ، يتسع كل شطر منهما إلى ثلاث زهرات من أزهار الزنبق ، فأصبحت الزنبقة رمزاً للبوسنة والهرسك ورمزاً للسلام في أواخر مايو سنة ١٩٩٢م ، أي حينما كانت الدولة الحديثة معرَّضة إلى حد بعيد للعدوان الخارجي والداخلي .

تلقينا توصيات بألا نواصل طريقنا إلى سراييڤو لأن المعارك تجري في كل مكان وبشدة .

البوسنة تحترق . البوسنة تنهار . البوسنة تودع خير أبناءها أمام أعين العالم الغربي وعلى عتبة القارة الأوروپية التي لا تستطيع الحياة بدون الحروب الصليبية .

الآن فقط أنتبه إلى الموقف الحرج الذي يعيشه شعبي المحصور من كل جانب . ماذا تعمل الجمعية الأوروپية ؟ الأمم المتحدة ؟ ماذا تعمل الولايات المتحدة الأمريكية ؟ هل قام منهم أحد بإدانة الصرب كمعتدين ؟ أم هي خطوات الهدف منها إعطاء البوسنويين أملاً زائفاً في المساعدة الخارجية لخداع المناضلين البوسنويين وإبعادهم عن المخرج الوحيد لهم وهو : « تنظيم القوى الذاتية للدفاع عن بلادهم وأنفسهم » .

إن التاريخ الذي سيكتبه البوسنويون بصدق هو الذي سيعطي الأجوبة على هذه الأسئلة التي فرضت نفسها عليّ طوال وجودي في البوسنة .

في النهاية قررنا المبيت في ييلانتسا بسبب التعب الشديد والانفعال الأشد .

وجد لنا الشيخ باشو منزلاً آمناً ومريحاً للمبيت فيه ، مع القهوة البوسنوية الضرورية ، طال بنا الحديث حتى ساعات متأخرة من الليل . مع أن الحديث كان مثيراً وشيّقاً إلا أن مشهد الجنود المسلمين التابعين لسرية « البجعة السوداء » المنقادين إلى مركز الشرطة في مدينة إيموتسكي لم يَغِب عن بالي لحظة واحدة. كانت رغبتي قوية لمعرفة مصيرهم وهل سُمِح لهم بمواصلة الطريق إلى البوسنة كما سمحوا لنا ؟ لا أحد يعرف الجواب .

بعد استفساري الكثير عن قصة تلك السرية وخاصة عن أصل اسمها . أخبروني أنهم أبطال لا مثيل لهم . عددهم ١٥٠ جندياً كعدد النجوم في برج البجع ، أما زيّهم الأسود فإلى جانب أهميته العملية له أهمية رمزية حيث يرمز إلى الموت الشريف الذي آثروه وهم على وعي تام بذلك . ومن ميْزات تلك السرية قيامهم المستمر بالتدريبات وبالمشاركة في العمليات الدفاعية في كل مكان ، مع ممارسة نظام أخلاقي صارم وانضباط عسكري شديد . بالإضافة إلى إيمانهم الشديد بجهادهم في سبيل الله ، فهم يرددون دائماً قبل القيام بعملياتهم الحربية عبارة « الشهادة بإذن الله » .

بعبارة الشهادة إن شاء الله أستيقظ وأقوم منتظراً بفارغ الصبر لحظة انطلاقنا إلى الطريق المؤدي إلى أعماق البوسنة ، حيث عذاب الناس أشد والمعارك أصعب .

الأسئلة تكثر محلقة في الهواء ، أي طريق أفضل وأسرع ؟ فالمعونة التي معنا من المهم جداً توصيلها إلى المحتاجين إليها ، وظروف السفر تزداد تعقيداً من لحظة لأخرى ، والوضع العام يزداد توتراً . قصدنا مدينة « زنيتسا » المدينة التي كانت قبل الحرب من أهم المراكز الصناعية للمعادن في البوسنة والهرسك .

انطلقنا داعين الله سبحانه وتعالى أن ييسر سفرنا حيث الطريق وعر عبر الجبال العالية ، وضيق شديد الانحدار ، بالإضافة إلى أنه من الطرق الحديثة التي أجبروا على شقها أثناء الحرب ، فهو صعب وغير ممهد ، ولو كانت الظروف ظروفاً أخرى غير الحرب لما تجرأ أحد على السفر عبرها .

كلما اقتربنا أكثر وأكثر من كيسلياك وفيسوكو كانت متاريس لجنة الدفاع الكرواتية أكثف ، والتوقف في مراكز التفتيش أكثر أيضاً . ومما كان يزيد الوضع سوءاً رغبتي الملحّة في الوصول بسرعة إلى المعذبين وإلى قواتنا البوسنوية ، فكنت أرتعش كارتعاش ورق الشجر في الريح . وفي كل نقطة

من نقط التفتيش الكرواتية كانوا يقولون لنا بأن مرور المسلمين ممنوع بتلك الطرق . الاستماع إلى هذا الكلام صعب وقبول الحقيقة أصعب وأمر ، أبعد المحاصرة الصربية الطويلة للمدن الواقعة في المنطقة المركزية للبوسنة تصبح نفس المدن الآن محاصرة من الكرواتيين أيضاً ؟

كيف إذن يبقى قومي على قيد الحياة في هذه الظروف المنقطعة النظير في تاريخ العالم المتحضر ؟

قبل وصولنا إلى مدينة فيسوكو وعلى بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً منها لاحظنا قافلة من السيارات العسكرية ليست لها نهاية . إنها سيارات قوات لجنة الدفاع الكرواتية التي كانت وإلى الآن حليفة لنا ضد الصرب المعتدين ، إلا أنها الآن أصبحت موجهة ضدنا ؟ وضد وحدة وتكامل البوسنة والهرسك؟ إنهم يريدون تقسيمها بينهم وبين الصرب ؟

انتابتنا الحيرة لكنّا لم نترك لها مجالاً طويلاً ، واتجهنا إلى طريق آخر عبر غروميلياك . أخذ المارة يحذروننا بأننا لن نستطيع التغلب على الأمطار والطريق موحل وزلق ، لكنا لم نكن نفكر إلا في غايتنا المنشودة . لكن ما لبثنا أن وجدنا أن تحذير المارة له ما يبرره فقد تورطنا في الأوحال إلى حد من العمق الشديد ، فظننا للحظة أن الحظ في طريقنا العادل قد ودعنا وما بقي لنا إلا أن نتجه إلى الله بالدعاء للخلاص ، وبينما كان كل منا يدعو الله بما يعرفه من الدعاء بصوت عال ، إذ اقترب منا شاب طويل القامة عريض الابتسامة وهو يسأل : « ألديكم مشكلة ؟ » وقبل أن نتفوه بأي كلمة قال : « أنا في خدمتكم» ، وبعد مساعدته لنا شكرناه مبتسمين وكنا على علم تام بأنه ستقابلنا مشاكل جمة في الطريق من نفس النوع ، وهو ما حدث بالفعل إلى أن وصلنا إلى فيسوكو .

وصلنا أخيراً إلى فيسوكو برعاية الله والتكبيرات على شفاهنا ونحن سالمون وسعداء ، كان لقاؤنا بالشرطة البوسنوية المسلمة أحسن جزاء لي ولرفاقي .

رفيقنا بلال بقى مع أسرته في فيسوكو ، أما نحن فقد واصلنا الطريق بعد استراحة قصيرة ، وأثناء سفرنا كنا ندعوا الله أن يوفقنا في مهمتنا توفيقاً يرضيه عنا ويرضي الشعب البوسنوي .

* * *

● زنيتسا قلب البوسنة الحرة :

وصلنا إلى زنيتسا عبر طريق أسلك وأسهل حيث نزلنا في أحد الفنادق ، ثم ذهبنا إلى أخت باشو للعشاء ، فقضينا وقتاً ممتعاً في الجو العائلي البوسنوي المسلم . قضيت الليل كله في اضطراب وانتظرت بفارغ الصبر بزوغ الفجر كي أصلي لأشكر الله بإخلاص على عونه لي ولتحقيق أحلامي لزيارة شعب البوسنة .

مرَّ عليَّ رفاقي في التاسعة صباحاً لنزور مدير المركز الإسلامي في زنيتسا الشيخ محمود كاراليتش . في العاشرة وصل بلال من فيسوكو فاستطعنا وضع برنامج صغير لنشاطنا اللاحق والخاص بالمساعدة المباشرة للناس . وفعلاً وزعت المساعدة التي أتيت بها توزيعاً كاملاً عادلاً والحمد لله .

مضى النهار بسرعة غريبة ، أما في الليل فقد أُكرمت بلقاءات ممتعة إلى حد أني كنت أظن في بعض اللحظات أني أحلم .

التقيتُ في إحدى الصالات ، إلى جانب رجال من البوسنة كلها برجال من تركيا وإيران ومصر . فقد وصلوا كمجاهدين من العالم الإسلامي لإنقاذ إخوانهم الأوروبيين المسلمين ، وهم على استعداد للاستشهاد في سبيل ذلك . أخذت أتحدث إليهم وعيوننا مليئة بالدموع ، وأتمشى بينهم وأقترب منهم وأمسهم بيدي كي أتأكد أن هذا واقع وليس حلماً . وقع نظري صدفة على أحد الرجال ، كبير السن دامع العينين ، اقتربت منه لأتعرف عليه ، عمره ٧٣ سنة وقد أتى من تركيا مع أربعة من أبنائه . عندما سمعت أن أحد أبنائه

الأربعة قتل في البوسنة ويُعتَبر أول شهيد من تركيا استشهد على أرض البوسنة لم أستطع إيقاف دموعي المنهمرة .

في اليوم التالي ، يوم الجمعة ، ذهبنا إلى الجامع للصلاة ، وهناك استمعنا إلى محاضرة ألقاها الشيخ خليل مهتيتش « حافظ القرآن » محاضرة تطرق فيها أولاً إلى قضية العدوان على المسلمين بصورة نظرية ، ثم انتقل إلى مسائل معينة خاصة بالمهاجرين والمتضررين من الحرب والجرحى .

مصائب جمة في مكان واحد ، لست أدري هل شهدت أي مستشفى في العالم وفي أية حرب من الحروب في التاريخ كله مثل هذه البلايا والآلام والأهوال ؟ في آنٍ واحد أناس يتوجعون بلا أيد ، أناس بلا أرجل ، أطفال كثيرون مصابون بجروح يبكون ، أمهات حزينات أقرب منهن إلى الأموات من شدة الآلام ، فتيات مغتصبات ومعذبات . . . ماذا فعل بنا أعداؤنا ؟ ماذا فعلوا بشبابنا ومستقبلهم ؟ أيها الصرب السفاحون عليكم اللعنة ، هل ستتجرءون في أي وقت من الأوقات المقبلة على النظر في أي عين من عيون المسلمين ؟ لا يسعني في تلك اللحظات إلا أن ألعنهم « فلعنة الله عليهم إلى أبد الآبدين » .

عجزت عن إيقاف دموعي وأنا أشاهد هؤلاء الشباب المحصورين « نجاد ومحمد وإبراهيم » وغيرهم مئات محكوم عليهم بالحياة كمعوقين ومشوهين .

يرقد أحدهم أمامنا بلا حركة . قالوا : إنه طبيب ، كان إلى وقت قريب يقوم بخدمة المصابين وأصبح الآن أحوج إليهم للمساعدة ، لقد أصيب بجروح فَقَدَ بها القدرة على النطق ، فاضطررنا أن نخاطبه بالإشارات ، واستطاع الشيخ خليل إخباره بأنه سيُنقل عن قريب إلى زغرب حيث العلاج الأنسب بإذن الله .

بعد زيارة المستشفى ، عدنا إلى الفندق وأنا ضعيف مهموم حزين لما رأيته

من المشاهد الحزينة والآلام التي لا أستطيع تخفيفها إلا بأن أشعرهم بأنهم ليسوا وحدهم .

أتجول في شوارع المدينة . يمر بي رجال كبار السن ونساء وأطفال . وجوه شاحبة معذبة وعيون غائرة بلا ضياء ، الابتسامة نادرة وحلَّ محلها تشنُّج لا يُمحى ، فهو صادر من أعماق نفوسهم ، وهذا التشنج يجعلهم جميعاً متشابهي الوجوه .

أنحرف من الشارع الرئيسي إلى اليمين لأرى كل زاوية من زوايا المدينة التي أصبحت مدينة المهاجرين . فلقد لجأ المهاجرون إليها أياماً طوالاً متتالية ، ولا تزال تأتي إليها فئات اللاجئين المسلمين الذين أصبحوا مشهداً للفقر والعذاب في المدينة . كَمٌّ هائل من المصائر البشرية المعذبة وآلاف من الحكايات والمآسي المؤلمة .

أثناء انشغالي وتفكيري في هذه المصائب كدت أصدم امرأة مقوسة الظهر كبيرة السن مغطاة الرأس بغطاء ملون ، طلعتْ عليَّ من أحد الشوارع الجانبية، نظرت إليّ برهة وهي تواصل طريقها ، أردت الاعتذار لها إلا أني تأخرت فقد ابتعدت عني بخطوات واسعة . أواصل طريقي وأشاهد المارة ، أطفال حفاة بلا ابتسامة ولا حياة أو حيوية ، شباب بلا فتوة ، أناس كبار السن شيب الرءوس مجعدو الوجوه تشهد سَحْنتهم بأمرّ التجارب ومختلف أنواع العذاب.

ومرة أخرى أتجه إلى الله وأدعوه بأن يعطيني مزيداً من الحول والقوة لأساعدهم بأكثر مما أستطيع .

رأيت العجوز التي اصطدمت بها قد توقفت تنتظرني ولما اقتربت منها سألتها عن حالها : « كيف حالك يا أختي ؟ » ردت : « ومن يهمه حالنا نحن هنا ؟ » ترددت لأني لم أجد كلمة مناسبة للرد ، ثم قلت أخيراً : « أنا يا أختي ، أنا الذي يهمه حالكم ، لقد جئت من قارة أخرى من أمريكا

لأزوركم وأساعدكم على قدر استطاعتي ، جئت باسم إخوانك وإخواني المسلمين » .

لن أنسى أبداً وما دمت حياً تلك اللحظة التي تغيَّر فيها وجهها ، ظهر بريق من عينيها اللتين كانت قد انطفأتا ، ظهرت لمحة من ضياء وعادت إليهما الحيوية والصفاء ، وتذكرت قول المرحوم أبي : « العيون مرآة النفس » .

انتابني شعور قوي بالسعادة والسرور وكأنني نلت أجنحة أطير بها من السعادة ، إذ كنت سبباً لإعادة أمل لنفس جريحة .

قالت العجوز : « سأقص على أهلي أنه قد جاء من أمريكا ليزورنا وإنه ناداني باسم « أختي » . وعندما سألتها عن سبب انتظارها لي ، قالت وهي تغضّ نظرها حياء : « وعدت أطفالي الجياع ألا أرجع إليهم هذه المرة بدون طعام ، أنا لست متسولة وممن أتسوَّل فكلنا بلا طعام ، ولما لاحظت أنك غريب عن هذه المدينة » . . . هنا اغرورقت عيناها بالدموع ، أما أنا فقد انتابني شعور باليأس « كيف أساعد الجميع » ، أعطيتها نقوداً لتتزود بالطعام ، وبعدما شكرتني ابتعدت بخطوات واسعة ثم اختفت في نهاية الشارع المنحدر. إنها كانت واحدة من النساء قد شابت قبل الأوان . إذ تلك كانت ظاهرة كثيراً ما كنت ألتقى بها في تجوالي . أطفال لا تتجاوز أعمارهم العشر سنوات وهم شيب تماماً ، رجال ونساء قد عجَّزوا في سن الثلاثين .

* * *

● على الخطوط الأولى للمواجهة :

اتجهنا بعون الله إلى الخطوط الأمامية للمواجهة ، في سيارة جديدة طراز نيسان اجتزنا الطريق إلى قرية ستوباريجي عن طريق فيسوكو ، صاحبنا المطر طول الطريق وكان هدفنا الاقتراب من مواقع الجتنيك على قدر الإمكان .

أثناء الطريق كنا نمرّ بالمناضلين البواسل المسلحين بسلاح خفيف وفي ملابس مدنية رقيقة .

توقفنا فجأة عندما لاحظنا أمامنا دخاناً ولهيباً . لكن الحمد لله عرفنا أن مخابيء الجتنيك وقواعدهم التي كانوا يرسلون منها النار والموت هي التي تحترق . متحمسون لنجاح مناضلينا ولاضطرار العدو للانسحاب والتراجع خطوة خطوة أمام أبطالنا ، لم نشعر أننا قد دخلنا أراضٍ يراقبها العدو ، فلم نشعر إلا بدويٍّ النيران وأزيز الرصاص الآتي إلينا من الجبال المجاورة ، فوجئنا بذلك إلى حدّ أننا بقينا واقفين ولا نعرف إلي أي اتجاه يجب أن نتجه ، لاحظ ذلك محاربونا المتيقظون فأرسلوا إلينا أحدهم الذي بادرنا قائلاً :

- إلى أين أيّها الناس ؟ انسحبوا ، فالنار تُطلَق عليكم أنتم .

استطعنا الانسحاب ووصلنا إلى مقر القيادة في النقطة ٧٥ الخطيرة جداً لتعرّضها المستمر للقصف المركّز من جهة العدو ، نصحنا المناضلون في تلك النقطة بعدم مواصلة الطريق إلى حيث نريد ، لأن القصف الذي رأيناه الآن هو بمثابة لعب أطفال بالنسبة لما سنجده في سراييفو ، لكنا رددنا عليهم بألا يقلقوا من أجلنا ، فكم نتمنى الموت كشهداء مع مناضلينا .

أقنعتْهم إجابتي لأنهم هم أيضاً قد نفروا للدفاع عن وطنهم ولا يخشون الموت الذي سيوصلهم إلى الجنة .

وهذا بالذات هو سر الروح القتالية العالية لمناضلينا التي يبقى الجتنيك وأنصارهم من الغرب - أمامها - مذهولين منهزمين .

هناك وعلى خط المواجهة تحدثنا مع جنود رابطة الوطنيين الذين كان من بينهم عدد لا بأس به من المسيحيين الذين أدركوا من البداية أن صربيا والجبل الأسود قامتا بالاعتداء على وطنهم الوحيد ، وتضحّي بآلاف الأرواح من أبنائهما لاحتلال أراضي الغير . إنهم يعرفون أيضاً أن واضعي خطط العدوان ومنفذيها قد آووا أبناءهم وعائلاتهم في أماكن بعيدة آمنة ، بينما يدفعون أبناء غيرهم إلى الموت وإلى قتل البوسنويين الأبرياء وهم يحرضونهم على ذلك بكلمات المكر والخديعة . إن هؤلاء الجنود القتلة المضللون ، حتى وإذا بقوا

على قيد الحياة لن يسلموا أبداً حتى فيما تبقى لهم من حياتهم ، فستلاحقهم في يقظتهم وأحلامهم وَلْوَلات الأمهات على أطفالهن المذبوحين وحشرجة الفتيات اللاتي عُذِّبْنَ حتى الموت ودموع وعويل البنات الصغيرات المغتصبات.

بعد الحديث معهم ، واصلنا طريقنا الوعر المنحدر لبضعة كيلومترات ، وبعد كل المتاعب كان في انتظارنا الجزاء الجميل - وهو لقاؤنا مع المجاهدين كمال وبلال وعلي . لم أستطع إخفاء دهشتي عندما علمت أنهم تركوا عائلاتهم وأمهاتهم وأقاربهم وكل شيء لهم وأتوا إلى البوسنة ليقاتلوا ، يا لهم من أبطال وما أقوى روحهم القتالية .

أطلق المجاهدون النار بعد التكبيرات بصوت عال . أحد الأعداء الجتنيك قد سقط على الأرض بعد إصابته إصابة قاضية .

عدنا إلى زنيتسا في المساء وتحدثنا مع الناس مرة أخرى ، ثم غادرناها في نفس الليلة إلى زافيدوڤيتش ، إذ كان علينا أن نزور أكبر عدد ممكن من المناضلين ، وأن نجمع أكبر كمية من المعلومات عن قتالهم البطولي لنقلها إلى العالم ليعرف ماذا يجري في أوروبا وهي على مشارف القرن الواحد والعشرين ! .

* * *

● مع مناضلي زافيدوفتيش :

وصلنا إلى زافيدوڤيتش بسرعة وسهولة حيث قضينا فيها الليل ، وفي الصباح اجتمعنا مع كبار المسئولين لتلك المنطقة . ومما كان ذا انطباع خاص لقائي مع السيد حسين مرادوڤيتش رئيس حزب العمل الديموقراطي الذي بدل عمله في ألمانيا وحياة النعيم فيها بحياة المناضل الشاقة في وطنه البوسنة . ولقد مضت سبعة أشهر وهو يقاتل في سبيل الله . كما التقينا بقائد جيش المنطقة عصمت ميماغيتش واتفقنا معه على زيارة المناضلين بعد الغداء المشترك .

كانت زيارتنا لإحدى النقط الاستراتيچية الهامة والتي كانت تحت سيطرة الصرب إلى يومين سابقين . كان الجنود المناضلون يرددون : « إنها الآن في أيدينا » في سرور فائق لنجاحهم بينما كانت كلماتهم بمثابة الإنعاش لنا . شاهدتهم وهم بملابسهم الرقيقة وأسلحتهم الخفيفة كيف يهاجمون القوة الجبارة التي تقاتلهم بالأسلحة الثقيلة التي دفع ثمنها أجدادنا وآباؤنا في الماضي للدفاع عن الوطن لا لهدمه وتخريبه .

أرفع يدي إلى الله داعياً بأن تصل البضاعة التي توقفت في زغرب إلى هؤلاء الأبطال الذين غدر بهم الغرب وأوروبا ، كما أدعوه أن ينصرنا ويحرر وطننا الوحيد .

بعد تمام زيارة المنطقة المحيطة بزافيدوڤيتش التي بقيت الآن في يد الجيش البوسنوي ، نوينا زيارة وحدة مسلمة في قرية متشيڤيشي كوّنت حديثاً ، ووصلنا أثناء المغرب الذي صليناه جماعة مع المناضلين ، وبعد الصلاة أتى دور توزيع الهدايا التي كانوا يتأثرون بها كثيراً .

وإلى جانب المناضلين تعرفنا على إخوان لنا من المملكة العربية السعودية الذين يقاتلون جنباً إلى جنب مع البوسنويين أكثر من نصف سنة ، إنهم معاً في الصلاة وفي الخندق ، معاً على المائدة ، وإن شاء الله في الجنة .

لست أدري ماذا يحدث لو لم يستطع كل هذا الحب أن يجعلهم ينتصرون على القوى الظالمة المظلمة الموجهة ضدهم .

ذهبنا بعد ذلك إلى هايدارفيتش ، وهناك تعرفت على الملازم عاصم ، الرجل الذي يشع سكينة وطيبة .

كنت على يقين بأنها مشيئة الله أن التقي بهذا الرجل الطيب في هذا المكان .

بعد الوضوء والبسملة اتجهنا بخطوات واسعة إلى الخطوط الأمامية مجتازين المراعي الواسعة والغابات التي بها عدد كبير من الخنادق ونقط الحراسة للجيش البوسنوي . وحيث الهدوء والسكون الذي كان يقطعه حديث أحد المناضلين بما سمعته مرات كثيرة منهم وهو أنهم لا يفهمون ما حصل للمسلمين في البوسنة والهرسك ويتقبلونه بصعوبة . فلم يخطر ببال أي واحد منهم حتى ولا في الأحلام أن أقرب جيرانه الذين جمعتهم كل تلك السنين من الحياة المشتركة يستطيع فعل كل هذه الجرائم ، فالمسلمون يؤمنون دائماً بأن « جارك أولى من أخيك » .

ومن الواضح اليوم كما اتضح في الحروب السابقة أن معنى تلك الحكمة لم يتطرق أبداً لنفوس القتلة الصربيين . وبينما كنت أنصت لحكاية المناضل وحديثه كنت أفكر : « هل ستكون هذه الحرب البشعة بمثابة الإنذار ليفيق إخواني المسلمون ؟ وهل ينضجون أخيراً ويدركون أنه لابد لهم من الوقوف على الأرض البوسنوية الدامية ثابتين بكلا القدمين ؟ » .

كانت هناك بندقية جديدة ، وفكرت فيمن أعطيه تلك البندقية ؟ لا بد أن يكون مؤمناً خالصاً ومناضلاً جيداً ، من بين الذين التقيت بهم أعجبني رجلٌ متوسط السن يُسمى سالكو من قرية غوستوڤيتش ، ويعتبر سالكو أحد أفضل المناضلين في المنطقة ، لذا أهديته البندقية ببالغ السرور والرضا ، وكذلك مبلغاً من النقود ليخفف قليلاً من عيشة أهله الصعبة .

بكى سالكو من الفرحة ، لأنه سيُدخِل السرور على أسرته (خمسة أولاد وابنتين) . كان سالكو منذ صغره في نزاع صريح مع الشيوعيين ، ولم تحفظ له حياته إلا بتعلقه بالله - عَزَّ وجَلَّ - .

ومع أن معرفتي بسالكو معرفة حديثة ، إلا أن فراقي له كان له وقع حزين على نفسي ، تصافحنا وتعانقنا ثم قلت له عند الوداع : « رافقتك السعادة يا سالكو » .

* * *

السّجُود لله

حان الوقت لاستراحة قصيرة لشرب القهوة ، فذهبت مع رفاقي إلى رجل حديث العهد بالإسلام اسمه حمزة ، وهو شاب وُلِد له ابن في تلك الأيام العصيبة ، فأذنت الأذان والإقامة في أذني الطفل الوليد ، وقدمنا له ولزوجته التهاني القلبية والدعاء بالعمر الطويل والرزق الواسع .

وفي بيت حمزة تقابلت مع بعض جيرانه وتبادلنا الحديث الذي أدركت من بعده أن الحرب الشرسة قد جعلت هؤلاء الناس يدركون بأن العودة إلى الله وتعاليم القرآن الكريم هما المخرج الوحيد من الفوضى التي وجد المسلمون البوسنويون فيها أنفسهم بعد الحياة الطويلة الضالة في ظل الشيوعية . فبقتالهم البطولي وصبرهم الشديد ، قد أظهر البوسنويون انتماءهم إلى الإسلام ، حيث فعلوا كما أمرهم الله في الآية القرآنية التي تقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . . . . ﴾ (آل عمران / ٢٠٠) .

ذكرتهم أيضاً بقول الله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونَقْص في الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ﴾ ثم بأمره : ﴿استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين ﴾ ، ولما حان وقت الصلاة خرَّ الكل ساجداً لله . تيقنت مرة أخرى أنه بأقل مجهود تنفتح النفوس البوسنوية الطاهرة وتتجه إلى الصواب ، حيث إن كل ما كان يقدم في السابق من مقومات الحياة الدينية والأخلاقية كان يخنق في المهد ويُلغى عن طريق التربية والتعليم في النظام البائد.

ولما ذكرتهم بقول الله تعالى في سورة العصر : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي

خُسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ شعر بعضهم بالقلق لأنه أدرك أنه أضاع كثيراً من وقته في لا شيء قبل الحرب.

* * *

● في مواجهة الجتنيك :

في اليوم التالي وبعد صلاة الفجر ، ذهبنا إلى قرية ليفيتسه ثم إلى الخطوط الأمامية في غوستيفيس مسقط رأس سالكو القنّاص ، وهناك حدث اشتباك عنيف بين رجالنا وبين الجتنيك ، حيث رد رجالنا على نار الجتنيك بمثله برغم عتادهم البسيط وأسلحتهم الخفيفة لأنهم يعلمون أن الله معهم في قتالهم العادل، إلا أننا اضطررنا للانسحاب بعدما نفد العتاد مع المناضلين ، فخرج لاستقبالهم عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال منهم يعرفون أنهم مشتاقون إلى كلمة أخوية حارة وإلى كلمات المدح والتشجيع لما يصبرون عليه من الشدائد .

ألقى عليهم الشيخ باشو كلمة مناسبة كان لها الوقع الحسن على نفوسهم ، فما كانت تعبّر عنه وجوههم أنهم نالوا مزيداً من الإرادة والعزم والصمود والصبر حتى النصر . وفي ختام الكلمة دعاهم الشيخ باشو إلى الدعاء الجماعي ، وتأثروا بالمشهد هتفت بصوت عال : « الحمُد لله ، الحمد لله » .

عندما عُدنا إلى زافيدوڤيتش ، قررنا المبيت في بيت أحد الضباط الذي يعيش هناك مع أمه واسمه « رنات » ، وقد أعجبني شعورهما بالوفاء نحو وطنهم البوسنة ، إنهما يؤمنان حقاً بالخالق الواحد للناس جميعاً ، ويؤكدان على ضرورة فعل الطيبات وإقامة الوفاق بين الناس .

قلب الملازم رنات يلتهب رغبة في تحرير البوسنة والهرسك من كل من يدمرها ويخربها ويريد تقسيمها بعد بث الفتنة بين المواطنين البوسنويين . وفي بيت رنات صلينا المغرب واستمعنا إلى الأخبار الإذاعية . تألمنا للوضع السيء

في يابيتسه بينما فرحنا للعمل على وضع دستور جديد لجمهورية البوسنة والهرسك . ذهبنا مبكرين للنوم بعد صلاة العشاء لكي نواصل طريقنا في الغد الباكر .

مرة أخرى مع الجنود وقوادهم ، أتحدث إليهم ، لن يهدأ قلبي حتى يتم تحرير كل شبر من أرض الوطن . بعدما أتركهم وأذهب إلى أمريكا سأكون معهم أيضاً لا بفكري فقط بل بالعمل أيضاً ، فكل الأعمال الإجرامية من جانب الصرب ضد شعبي وأهلي جعلتْ مني رجلاً آخر . ومع أني كنت فيما سبق رجلاً نشيطاً ذا روح ثائرة ، إلا أن هذه الثورة التي استولت عليّ استيلاء تاماً هي شيء جديد بالنسبة لي .

لقد فهمتْ أسرتي تحوُّلي هذا ، خاصة زوجتي طاهرة فانضموا إليَّ وشاركوني في كل عملية من عملياتي ، فقبل حضوري إلى البوسنة أخذت طاهرة كل أعمالي على عاتقها ، وأثناء حديثي عمَّا يجب عمله أثناء غيابي ، لاحظت إلى جانب قلقها ، فخراً لقراري بزيارة وطني في الظروف الحربية القاسية ومعي كمية لا بأس بها من المعونة المادية ، إضافة إلى التأييد المعنوي بإشعارهم بأن العالم المسلم معهم . تلقى القائد والجنود كلماتي تلك بحماسة وقالوا : أنهم أيضاً فضلوا القتال لأجل الوطن على الحياة مع أهليهم في الغربة . استنتجنا أن العلاقة الخفية بين الوطن وأبنائه لم تكن أوضح لنا من قبل مما هي عليه الآن .

عند عودتنا إلى زنيتسا أحسست بنفس الرضا الذي كنت أحس به في الماضي بعد الفراغ من الواجبات الصعبة التي نجحت فيها . استطعت للحظة قصيرة أن أفلت من هذا الواقع القاسي الذي يعيشه شعبي يومياً وأتخيل عودتي إلى أمريكا إلى أهلي وأولادي . كيف سيكون لقائي بهم ؟

أدركت أنه سيختلف عن لقاءاتنا السابقة لأني سأعود إليهم هذه المرة ومعي آلاف من الحكايات والمعلومات عن الشعب البوسنوي المسلم وأوضاعه .

● زنيتسا بلد اللاجئين :

أعادني إلى الواقع صوت الشيخ باشو عندما أخبرنا أننا وصلنا إلى زنيتسا ، أعادني إلى آلاف المهاجرين الجياع الحفاة والعراة وإلى واجباتي التي تنتظرني .

توجهنا إلى المركز الإسلامي ، حيث التقيت بالشيخ محمود والشيخ خليل. بعدما استمعوا إلى جزء مما عشناه ورأيناه أثناء زيارتنا لزافيدوڤيتش ، وبعدما اتفقنا على برنامج نشاطنا المقبل توجهت ورفاقي إلى الفندق وأنا أحس بتعب شديد تراكم على جسدي أثناء السفر .

وما لبثت أن نمت حتى أيقظني صوت طلقات الرصاص . وشطت غضباً وأسفاً عندما سمعت أن ما حدث كان نتيجة نزاع بين رجلين مدنيين أحدهما بوسنوي والآخر كرواتي ، وقد تنازعا حول أمور تافهة ، يريد كل منهما قسطاً أكبر من الغنيمة . قضيت الليل بعد ذلك في نوم منقطع ، وسررت بحلول الفجر ووقت الصلاة إذ كان النوم عذاباً لي .

بعد الصلاة خرجت إلى شوارع المدينة التي ما زالت نائمة ، فهناك الكثير من أهل زنيتسا الآن يأرق ولا ينام حيث جاءت بهم الرياح من مختلف أنحاء البوسنة والهرسك بعد تعذيبهم وطردهم من ديارهم ومن بيوتهم المريحة الثرية، من مروجهم الفسيحة وحدائقهم المزهرة بأكياس البلاستيك في أيديهم أو بدونها على الإطلاق ، لجئوا إلى زنيتسا ليحافظوا على حياتهم المجردة من كل شيء ، نزلوا في المدارس والصالات الرياضية وروضات الأطفال وغرف المؤسسات وفصول الكليات ، عشرون شخصاً أو أكثر في غرفة واحدة ، كيف أساعدهم جميعاً ؟ كيف أجمع ولو ليوم واحد كل تلك الأسر وأطعمها ؟ كيف أخفف من عذابهم ولو يوماً واحداً ؟ كيف اكتشف مَنْ منهم أحوج للمساعدة ؟ هناك هيئات ومؤسسات مسئولة عن تلك الأمور غالباً ما سألتهم عن النصيحة ، لكني في بعض الأحيان أرضخ لرغبتي في رؤية ابتسامة على وجه من الوجوه .

زنيتسا مدينة مصنع الحديد الكبير الذي يقع وسطها ، وهي مدينة أغلبية سكانها من المسلمين ، واعتبرت المدينة أثناء الحكم الشيوعي من أكبر مدن أوروپا تلوثاً . وليس هذا مصادفة أن أنشيء مصنع حديد ذو أفران عالية تسمم الناس في قلب مدينة مسلمة ، لأن القوميين الصرب كانوا ينتهزون كل فرصة للإضرار بالمسلمين ، إن رغبتهم القديمة في القضاء على كل شيء غير أرثوذكسي وغير صربي أصبحت أثناء هذا العدوان المرسوم واضحة كل الوضوح وحقيقة مُرة واقعة .

* * *

● المجاهد أبو عبد العزيز :

انطلقنا إلى تراڤنيك بهدف زيارة رجل قد دخل التاريخ للتعرف عليه ، وهو قائد كل المجاهدين في البوسنة والهرسك وكل المجاهدين الأجانب يسمى «عبد العزيز » .

أثناء الطريق أحسست بقلق نفسي يمتزج بالخوف من وقوع شيء يضيّع فرصة لقائي مع هذا الرجل العظيم . أتساءل كيف يبدو هذا الرجل الذي فضل حرية إخوانه البوسنويين على حياته الذاتية ، ثم تذكرت أني أيضاً أتيت إلى البوسنة لمساعدة شعبي ولو بإظهار الحقيقة للعالم ، فلا عجب إذن من قراري إذا قيس بقرار عبد العزيز أو غيره من الذين جاءوا من أنحاء العالم ليشاركوا البوسنويين في قتالهم العادل .

ما هذا الذي يدفع هؤلاء الرجال الأبطال إلى القتال والتضحية ؟

الإجابة تكمن في أن المسلم إذا رأى أخاه المسلم معرضاً للخطر قام لنجدته، ومسلمو البوسنة معرضون لخطر حقيقي عظيم من الصرب ومن والاهم من مسيحي أوروپا والمتآمرين معهم .

لذا أتى هؤلاء من بلادهم البعيدة لنجدة إخوانهم في الدين .

وبينما أنا غارق في التفكير في كل ذلك وفي حضور هؤلاء الغرباء إلى البوسنة للدفاع عنها ، وصلنا إلى تراڤنيك دون أن أشعر بالطريق .

كان أول لقاء لنا في تراڤنيك مع المناضل الشهير في المنطقة الوسطى للبوسنة « زيرو » ، أردت بأي ثمن التعرف على هذا الرجل لما خلفه في نفسي من أثر قوي ، حيث أني نسيت تماماً اللقاء الذي كان هدفاً لرحلتي هذه والذي كنت أحسب له ألف حساب ، قبل بضعة أيام وأثناء وجودي في زنيتسا وزافيدوڤيتش ، حدث نزاع بين قوات لجنة الدفاع الكرواتية والجيش البوسنوي ، أسفر عن هزيمة الكروات ، ولم نتبين إلا فيما بعد أن هجوم القوات الكرواتية على تراڤنيك لم يكن إلا مقدمة لعملية عسكرية شاملة مرسومة بالتفصيل لإزالة المسلمين من المنطقة الوسطى للبوسنة والهرسك . كما تبين للمسئولين في كافة هيئات ومستويات الحكم البوسنوي أن الدفاع الناجح عن تراڤنيك هو انتصار حاسم لمصير سراييڤو .

وبالأحرى هي معركة حاسمة قام بها الوطنيون من أجل جمهورية البنوسنة والهرسك و« زيرو » معهم من أول يوم .

كان زيرو قبل الحرب بطل أوروبا في مسابقات المتوسيكل الأكرباتي ، وهو شاب طويل القامة بعمامة خضراء على رأسه يشع قوة وعزيمة ، والأهم من هذا كله في تلك الظروف الصعبة أنه يشع تفاؤلاً . وهنا عرَّفني زيرو بالشيخ «أبو عبد العزيز » .

شعرت كأني أطير من السعادة عندما اقترب مني الشيخ أبو عبد العزيز وقال لي أولى كلماته : « يسرني جداً أن أتعرف ولأول مرة على مجاهد من أمريكا البعيدة » .

من لحيته الحمراء التي غطت جزءاً كبيراً من وجهه ، ثم من عينيه الواسعتين حيث يشع منهما نور سماوي وبصوت عميق وحركات متزنة ، قدم لي نفسه حيث قال : « في كل المعارك في سبيل الله نستطيع الجهاد بالقلم والكلمة

والفعل والسلاح » . كان واضحاً أني أمام وفي حضرة رجل ذي خبرة عالية في الحياة والمعارك . وقال : إنَّ الحرب في أفغانستان كانت أصعب بكثير من البوسنة ، اعترافه هذا أعطاني أملاً كبيراً في انتصار شعبي وتحرير وطني ، فذهبت في تلك الليلة للنوم وأنا راض سعيد وبقلب ممتليء بالإيمان بالانتصار.

في اليوم التالي ذهبنا لزيارة مقر لكثير من المهاجرين في « بوسانسكي بترڤاتس » ، وكغيرهم من المهاجرين تسعدهم زيارة أي ضيف مستعد لمشاركتهم آلامهم فاجتمعوا كلهم حولنا . ولما كنت متأكداً أنهم قبل الحرب كانوا محرومين من المشاعر الدينية الكريمة ، نصحتهم أولاً بالعودة إلى الله وأن يتحلوا بمحاسن الدين الإسلامي وأخلاقه التي علمنا إياها نبينا محمَّدٌ – عليه الصلاة وأزكى السلام – .

اشتكوا مما فعله لهم أقرب الجيران والزملاء في العمل ، وندموا على ما كانوا عليه من سفاهة وسذاجة ، التخريب والتدمير المنظم لعدد كبير من الجوامع التي كانت أفضل شاهد للروح الإبداعية لشعبنا ، وأوضح دليل على وجود المسلمين في تلك المناطق على مدار مئات السنين . هذا التخريب كان يصعب عليهم إدراكه كما لا يمكن نسيانه . اضطررت للرد على شكواهم بشيء من الغلظة المتعمّدة : « تخريب جوامعنا قد بدأ منذ زمن بعيد ، منذ أكثر من خمسين عاماً ، حينما هجرناها وتركناها » . تنبهت لامرأة عجوز تبكي بصوت خافت وقالت في صوت منخفض ضعيف : « نعم يا ولدي ، أحسنت قولاً ، إننا قد نسينا ربنا » .

انقضى ذلك اليوم بسرعة في زيارة ومقابلة المهاجرين والمناضلين والجرحى.

في الغد وبعد صلاة الفجر ، لبينا دعوة القائد الأعلى للمجاهدين وذهبنا لزيارته مرة أخرى ، ومما حسّن وأكمل الزيارة المشهد الرائع القائم أمامنا ، مئاتُ الفتية ذوو الوجوه الجميلة ، مجاهدون جدد جاءوا للتعلم والتدريب

العسكري ، السرعة في حركاتهم والمهارة والمرونة في بدنهم ، ومع ترديد التكبيرات ، كان مشهداً لن أنساه أبداً .

أتى الغد وأتى موعد الفراق الصعب ، فتعانقنا معانقة أخوية وتصافحنا ثم اشترينا لحم خروف مشو للطريق .

أثناء طريق العودة إلى زنيتسا مرة أخرى ، وكالعادة أخذت أفكر في لقائي مع الشيخ أبي عبد العزيز ، وفكرت في أن « الحتف إذا لقيه المجاهد لا يحسبه موتاً بل استشهاداً » هو انتصار لتمسكنا بالحق وبالمباديء السماوية ، وانتصاراً لأخلاقنا التي نولد بها وننمو عليها ونموت من أجلها ونحن على وعي تام بها .

* * *

● إيغمان - الهدف المرغوب :

لاحت لدي وأخذت تنمو وتنضج فكرة زيارة سراييڤو المدينة التي أصبحت رمزاً للتصدى والصمود من جانب ، ورمزاً للعذاب من جانب آخر ، ليس فقط على مستوى الشعب البوسنوي وإنما على المستوى العام .

قصدت أولاً زيارة جبل إيغمان في مرتفعات سراييڤو .

فبعد صلاة الظهر في مسجد زنيتسا ، حيث كان مكتظاً بالناس المشتاقين إلى كلمات الهدى والتشجيع والأمل والسلوى . وبما أنه لم تكن هناك نفس واحدة لم تصب بمصيبة في تلك الحرب ، لذا تابعوا الحديث في الجامع وعيونهم مليئة بالدموع من التأثير والألم والسرور .

بعد الصلاة ذهبنا لزيارة الشيخ جولان توفيق حيث قضينا وقتاً طيباً في الحديث مع شرب القهوة ، أثناء الطريق لم يخف « ياسيمن » السائق اضطرابه وقلقه طوال الرحلة لأن الطريق الذي يجب أن نقطعه مظلماً بدون أضواء ، ولهذا السبب كان يستعجلنا للإسراع بالسفر ، إلا أننا بدأنا متأخرين فوصلنا إلى فوينيتسا وقت العشاء ، هناك استقبلنا الناس فرحين ، نصافح

ونحيي كل واحد منهم تحية أخوية حارة ثم وزعنا الهدايا على المناضلين والأطفال ، كان الجميع في أشد الشوق لكلمة مواساة لغدر الصرب والكروات بهم على حد سواء .

ومما قلته لهم إننا بعون الله وإرادته ، وبالشجاعة والصبر سيعود لنا وطننا حراً ، وإننا قادرون على الرد على العدو المتعطش للدماء ، إذا أفاق المسلمون البوسنويون من غفوتهم إفاقة كاملة نهائية . وبعد الاستفسار عن الوضع في فوينيتسا عرفنا كل ما كان يهمنا .

جاء صباح يوم الأحد ، ومرة أخرى تنمو الرغبة في ذهابي إلى إيغمان ثم إلى سراييڤو ، نبهنا الذين يعرفون الأوضاع جيداً إلى أن رحلتنا ستكون خطيرة، لذلك قررنا الرحيل أولاً إلى أوستروغاتس لنستفسر هناك عما يجب فعله فيما بعد . كانت المفاجأة كبيرة حينما لم نعثر على متاريس للجنة الدفاع الكرواتية فشكرنا الله على ذلك . المشاهد التي شاهدناها أثناء الطريق إلى أوستروغاتس جعلتنا نطير فرحاً ، حيث الرايات الخضراء ذات الهلال والنجمة، بالإضافة إلى الرايات الحكومية ذات الزنابق الذهبية .

وبعد أحاديث ومقابلات نافعة واصلنا الطريق إلى بازاريتش ، مدينة صغيرة قريبة من سراييڤو ، وبالأحرى كانت قريبة قبل الحصار الثلاثي حول عاصمة البوسنة . يا إلهي . . كيف يتم إهلاك عاصمة دولة من الدول ذات السيادة وهي محاصرة بثعابين صربية سامة ؟ ما أشد الحقد ضد شعبي ؟

عند الوصول إلى بازاريتش ، توقفنا للسؤال عن الإمام عزت ترزيتش ، ولما لم نجده عدنا ، وأثناء العودة وقع بصري على مشهد رهيب ، عدد هائل من القبور الجديدة الحديثة الحفر ، دفن فيها الشهداء البوسنويون . قرأنا الفاتحة على أرواح الشهداء والدموع تنهمر على وجوهنا ونظراتنا تتجه إلى السماء ونحن ندعو : « اللّهم اقض على الشر ، اللّهم بدّل الباطل حقاً والحقد حباً ، والظلم عدالة ، اللّهم ارحمنا وانصرنا وأنت خير الناصرين » .

اقتربنا من قبر الشيخ خير الدين بوبوڤاتس وقريبه محمد المناضل الذي لم يعرف الخوف عند مواجهته الجتنيك السكارى المسلحين بأسلحة فتاكة . ويذكر أهل المدينة أن محمداً كان أول شهداء بازايتش ، كما يذكرون رائحة زكية طيبة كانت تنبعث من قبره سبعة أيام كاملة ، بعد وفاته .

اتجهنا بعد ذلك إلى معسكر من المعسكرات لنتشاور ونستفسر عن الوضع في إيغمان وسراييڤو ، أتتنا المعلومات التي قالت : إن إيغمان تجري فيها معارك شديدة فليس من الحكمة أن نتعرض للمخاطر .

عند خروجنا من المعسكر التقينا بموكب يلتقي بأمثاله من المارين في الأزقة وبكثرة في الوقت الراهن . إنها « جنازة » جنازة شهيد فقده والده كابن ، وفقدته امرأة على وشك الوضع كزوج ، وفقده الطفل الذي لم يولد بعد كأب .

وقفت متحجراً عاجزاً عن فعل أي شيء . . . ، واصلنا الحديث عن إيغمان ، وليكون الحديث الوسيلة الوحيدة لأتحمل لهفتي للاقتراب من المدينة البطلة التي تدفع الثمن غالياً لانفتاحها لكل من اختار الحياة فيها ، مدينة سراييڤو .

كان القائد فخر الدين مصراً على أن يصرفني عن غرضي وهو الذهاب إلى سراييڤو فقال : لا أسمح لك يا خليل بالذهاب ، فنحن أحوج إليك حياً مما أنت ميتاً . واستمر محاولاً شارحاً الأسباب التي تعوق الذهاب إلى سراييڤو وانضم إليه « بكر » الصديق القديم لرفيقي باشو والذي دعاني معه إلى بيته للعشاء .

عاش بكر عيشة صعبة أثناء الحكم الشيوعي . اضطهدوه واعتقلوه أكثر من مرة ، وكان يأمل بسقوط يوغوسلافيا الشيوعية أن تأتي الحرية والسعادة له ولشعبه ، لكنه وكما هو معروف بقى الشيوعيون الدكتاتوريون يتولون زمام

الحكم في جمهوريات يوغوسلافيا السابقة ، وعندما انتبهوا بأن ما لهم من امتيازات مختلفة باقية سوف يقضي عليها بعد الانفصال لجئوا إلى القوة والقتل والاعتداء .

بعد تناول العشاء واصلنا الحديث الذي نتج عنه اتخاذ قرار نهائي ، إنه من الحكمة الآن العودة إلى زغرب والتنازل عن الذهاب إلى إيغمان . حيث يلزم كثير من الوقت والصبر لاجتياز الطريق الملتوي البالغ طوله ألف كيلومتر ، علاوة على العقبات والمتاريس وغيرها من المشاكل التي ترافق الأوضاع الحربية .

* * *

● العود إلى زغرب :

ومع أن الطريق كان مظلماً وموحلاً وعراً ، فقد وصلنا بسرعة نسبية إلى يبلانتسا ولم نقابل في الطريق سوى متاريس جيشنا فقط .

تورُّط السيارة في الأوحال ، الزحلقة في الوحل والطين ، التوقف لكي تمر مواكب السيارات ، والتوقف للتفتيش ، كل ذلك كانت المشاكل التي رافقتنا على طول الطريق حتى برسوشيا ، حيث أخبرونا أنه يجب المبيت بها بسبب حظر التجول ، الأمر الذي كان من الصعب قبوله ، حيث لاحظنا كراهية الكاثوليك الكروات للمسلمين البوسنويين .

وأسفاه ، أردت مواصلة الطريق بلا توقف ، لكن هذه العقبات ستؤخرنا. قررت استخدام الوسيلة التي أعرف أنها ستنجح في إقناعهم . كشفت لهم عن جواز سفري الأمريكي ، قلَّبوا صفحاته فاحصين كل تفاصيله جيداً ، ثم سمحوا لنا بالمرور . كانت هذه مشيئة الله سبحانه وتعالى لنجتاز طريقاً صعباً في أقصر مدة ممكنة .

وصلنا إلى الحدود الكرواتية حيث انتظرتنا مرة أخرى أسئلة الشرطة : من نحن ومن أين ؟ وكيف استطعنا الوصول إلى حدودهم ، لأننا أول مسلمين

استطاعوا الوصول إلى الحدود الكرواتية منذ مدة طويلة . فقد قالت لنا الشرطة : « أنتم أول مسلمين يدخلون الأراضي الكرواتية » ، بعد ذلك أصبح واضحاً لي الوضع الصعب المستحيل الذي يعيشه قومي في البوسنة المحصورة بحصار قوي تام .

وأستنتج أخيراً أنه باجتهاد مناضلينا فقط وشجاعتهم ، وبالصبر الذي ترضعنا به أمهاتنا منذ الصغر ، سينتصر البوسنويون المسلمون بعون الله - تعالى - على أعدائهم ، استنتجت ذلك بنفس أليمة وقلب جريح .

تنبهت فجأة بعد استسلامي للحظة قصيرة إلى مشاعري ، الأمر الذي لن يغفره لي إخواني بالجبهة إذا علموا به ، ورفعت رأسي بشموخ وكبرياء وأخذت أرد على أسئلة الشرطي الذي ما إن رأى معنا واجداً فلسطينياً يدرس في كرواتيا اسمه عاطف ، حتى بدءوا يستفسرون عنه وعن هُويَّته وسبب ذهابه إلى البوسنة معللين كل ذلك بأن هناك أوامر حاسمة بعدم السماح بدخول أو خروج أحد من كرواتيا .

وأخيراً وبعد فحص طويل وتفتيش دقيق سمحوا لنا بالدخول إلى كرواتيا واجتزنا الطريق بعد ذلك إلى زغرب بدون صعاب .

في مثل هذه الحالات يصعب على الإنسان إيجاد كلمات مناسبة ليخاطب ربّه بها ، مع أنها في الوقت نفسه بسيطة معروفة : « اللّهم ، إنا نشكرك على عونك وتوفيقك ، الحمد لله ، الحمد لله » .

* * *

● تحياتنا إلى إخواننا المسلمين في أمريكا :

وصلنا إلى زغرب بعد التاسعة صباحاً ، ولما كنا قد عرفنا أثناء وجودنا في البوسنة أن رئيس جمهورية البوسنة والهرسك السيد علي عزت بيغوڤيتش سيزور هذه الأيام زغرب ، سعينا تواً إلى معرفة ما إذا كان قد وصل أم لا ؟

فعلمنا أنه ما زال في زغرب ، حيث كان بالأمس في اجتماع مع رئيس كرواتيا فرانيو توجمان ، فأسرعنا لنبحث عن أنسب وسيلة للالتقاء به وفي المكان المناسب .

سألت الله أن يساعدني لمقابلة هذا الرجل الصالح الحكيم الذي لم يزعزع إيمانه بالله ، كل تلك المشاق والصعاب والأزمات التي مرَّ بها شعبه ، أسرعنا إلى مسجد زغرب الذي أصبح في هذه الأزمنة الصعبة الملاذ والملجأ الوحيد للمسلمين في كرواتيا ، المقيمين إقامة دائمة فيها ، أو الآلاف المؤلفة الذين هاجوا إليها فارين أمام سكاكين الجتنيك .

شعوري الداخلي بأني سألتقي به لم يخب ، إذ وجدناه في المسجد يتحدث مع المهاجرين البوسنويين ، انضممت إلى المجموعة الضخمة من الناس واستطعت أن أقدم له نفسي تقديماً مختصراً ، وعندما غادر الرئيس المسجد رافقته إلى سيارته حيث صافحني مصافحة حارة وهو ينظر إليّ نظرة بالغة الأهمية ، وقال : « يا خليل ، بلِّغ تحياتنا إلى إخواننا المسلمين في أمريكا » .

كانت تلك الكلمات القليلة تعبر عن الكثير أولاً ، وقبل كل شيء تعبر عن اعتقاد الشعب البوسنوي بما فيهم رئيسهم بأن مسلمي أمريكا ككل المسلمين في العالم هم الوحيدون الذين يتعاطفون حق التعاطف مع مسلمي البوسنة ويساعدونهم مساعدة حقيقية .

كما أنها أيضاً دعوة يدعوهم بها إلى زيادة مساهمتهم في نضال البوسنويين العادل حسب إمكاناتهم ، بإجراء نشاطات تنشر خلالها الحقيقة على العالم كما تقوم بجمع التبرعات والمعونات المالية .

أما بالنسبة لي ، فكانت كلماته كالوعد بألا أتخلى عن سُبُل الجهاد من أجل البوسنة والهرسك .

وذات يوم تشرفت بالالتقاء بسفير جمهورية إيران الإسلامية السيد نايت الله ، استنتجت بعد الحديث معه أن الإيرانيين إخواننا الحقيقيون وأنهم معنا

لمساعدتنا في الحاضر والمستقبل . كانت تسرني عودتي القريبة إلى أمريكا لأني سأقوم بعرض الكميات الضخمة من الأفلام والصور الفوتوغرافية ، بالإضافة إلى التجارب والانطباعات الكثيرة التي عشتها بنفسي . كان يسرني عودتي لأمريكا لأقوم بنشاط أوسع لمساعدة الشعب البوسنوي ، لأنه بِنِيَّتي تنشيط كل مسلمي أمريكا لإنقاد مسلمي البوسنة عن طريق إلقاء المحاضرات وإقامة المعارض اليومية للصور الفوتوغرافية المتعلقة بالجرائم المقترفة ضد شعبي ، ولترى شعوب أمريكا وتتأكد مَنْ هو المعتدي الحقيقي ؟

اللقطات والأفلام الأصلية لميادين القتل والإعدام وحطام المنازل المحروقة والمدمَرة ، لا بد أنها ستحرك كل إنسان ذي قلب سليم وكريم ليقف ضد هذه الفاشية البشعة ، ضد الكارثة الهائلة الواقعة على أبواب القرن الحادي والعشرين والتي لم يسبق لها مثيل .

أعود إلى أمريكا بنية زيارة البوسنة مرة أخرى . أعرف أنني لن أهدأ نهاراً ولا ليلاً بعدما رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت ، أعرف أني سأصبح وأمسي بقلب جريح يُسمى البوسنة ، إلا أني أعرف أيضاً أن الوطن واحد وأنه يستحق دموع أبنائه كما يستحق دماءهم وحتى حياتهم .

* * *

الجزء الثانى

الجنتيك يَخافون حَتّى منَ الأموات البُوسنويّين

● **زيارة سراييڤو :**

بينما أطوف في العالم ساعياً لعرض مأساة البوسنة والهرسك ، وبينما أنا أقيم في أمريكا وأتحدث عن البوسنة وعن عاصمتها سراييڤو ، وبينما الأخبار الإذاعية تذيع التطورات والأوضاع السيئة التي تتكاثر وتتشابك بها ، نرى أن العالم الغربي يبدو وكأنه لا يتأثر بالأخبار السيئة وكأنه تشبَّع بها ، إلا أنه في بعض الأحيان يتابعها بشيء من حب الاستطلاع ، مما لا عجب فيه ، فالبشرية لم تتح لها منذ زمن بعيد فرصة مشاهدة مثل هذه الأهوال .

أسمع أن برك الدماء البشرية مشهد يومي في شوارع سراييڤو ، قطع اللحم البشري تتناثر في الممرات وعلى جدران المباني المدمَرة ، الناس يتلوون من الآلام في الساحات .

أشهر طويلة مضت والمجرمون من فوق الجبال يغمرون المدينة الأوليمبية والبوسنة والهرسك كلها ليلاً ونهاراً بوابل من القذائف والصواريخ الفتاكة . الحيوانات المجندة في صربيا والجبل الأسود ، الحيوانات ذات القدمين لهم أسرهم ومنازلهم ولهم أيضاً آمالهم ، لكن ذلك لا يمنعهم من قتل أطفال غيرهم في المضاجع نائمين ، أو أمام بيوتهم يلعبون ، وقتل الكبار وهم يبحثون عن قطرات المياه القليلة يروون بها مرضاهم أو قطعة من الحطب يوقدون بها النار .

المجرمون فوق الجبال استعدوا مقدماً وأعدوا العدة لما يفعلونه الآن ومعهم جيش يوغوسلاڤيا السابق ، فقد استولوا في مستهل الحرب على كل النقط والمراكز والمواقف المهمة الحساسة ومنابع المياه ومحطاتها ، كما قطعوا خطوط الكهرباء العالية وأنابيب الغاز وهم يحسبون حسابهم تماماً - إن من لم تقتله القذيفة أو الرصاصة سيقتله بلا شك الجوع أو البرد - أو أنه سيجنّ من الخوف

من استمرار سقوط القذائف التي كانت تطلق عليهم ليلاً نهاراً بدون انقطاع ، وكذلك من الرصاص الذي يُطلَق بشدة من كافة أنواع الأسلحة .

يحاولون يومياً خرق خطوط الدفاع والدخول إلى سراييڤو للقيام بالمجازر ونهب الأموال ، كما اعتادوا فعله في مئات القرى والمدن الواقعة في وادي نهري درينا وسافا . أهالي مدينة سراييڤو ، بطعامهم القليل والماء النادر ، بلا كهرباء ولا غاز ولا وقود يتعرضون ببطولة للبربرية والوحشية ، كل صباح تواجه المدينة جراحاً جديدة ، ودمار عمارات لا تقدر قيمتها بثمن ، وانهيار المباني السكنية على من فيها . خير أبناء البوسنة وسراييڤو بدّلوا منازلهم بقبور حفرها لهم أقاربهم بسرعة لأن المقابر والجنائز كانت من الأهداف المحببة للجتنيك . فقد حدث أكثر من مرة أن سقطت القذائف على المقابر والجنائز فتصيب شظايا القذائف المنفجرة ميتاً لم يضعه أقاربه بعد في القبر . الجتنيك يقتلون الأموات مرة أخرى .

باستطاعتنا أن نقول بصراحة أن ما حدث وما يحدث لمدينة سراييڤو لم يحدث لأي مدينة من قبل في التاريخ ، لو سئل : لماذا ؟ لقلت بلا تردد : لأن سراييڤو أهم المراكز الإسلامية الأوروبية .

إن قراري بأن أحضر إلى سراييڤو مرة أخرى وإلى البوسنة وهي في أسوأ الظروف لم يفارقني للحظة واحدة .

أغادر أمريكا وأطير إلى أوروبا التي كُتب تاريخها بدماء أبنائها الأبرياء ضحايا الحروب الصليبية التي شنها ملوكها المتصفين بالتعصب الديني والتطرف. ووصلت زغرب عن طريق ڤيينا ثم سپليت لأوفر الوقت الذي سأحتاج إليه وأنا في طريقي إلى سراييڤو .

* * *

● البوسنة محصورة تمام الحصار :

في مطار زغرب استقبلتني المشاكل ، فقد كان كافياً لأفراد الشرطة في المطار رؤية اسمي المسلم في جواز السفر ليتخذوا مني موقفاً عدائياً قاسياً ، في نقطة التفتيش اكتشفت جهاز الأشعة كاميرا في حقيبتي مما كان سبباً كافياً لتشديد التفتيش وتوسيعه أكثر من المعتاد . ووجدوا لدي مبلغ ١٠ر٠٠٠ مارك ألماني طالبوا بتفسير منبعها وأصلها .

كان الوضع متوتراً وكريهاً ، وأخيراً تدخل قائد الشرطة وكأنه أدرك أن مأموريه قد بالغوا في الأمر ، فوجَّه إليهم التوبيخات الحادة لأن ما فعلوه مخالفاً للقانون . لست أدري هل كان صادقاً في فعله هذا أم لا ، لكن وبينما كان يأمرهم بالاعتذار لي كنت أتابع بنظري إقلاع الطائرة التي أخَّروني عن ركوبها ، بحزن وغضب خفي حوَّلت نظرة الاتهام إلى الشرطة الذين ظلموني ، وفجأة كشف أحدهم عن دافع من الدوافع التي جعلتهم يسيئون إليَّ فقال : « إنه قرأ أنَّ إمام مسجد زغرب الدكتور مصطفى تسيريتش ينسب إلى الكرواتيين مسئولية وقوع الحرب ، وأضاف بصوت متقطع : إنه يجتمع في المسجد يومياً عشرون ألف مسلم وأن هناك احتمال دائم لوقوع انفجار به» . كنت في أول الأمر أتعود بصعوبة على هذا الوضع الجديد وكان يؤلمني إدراكي بأن البوسنة والمسلمين فيها أصبحوا محصورين تماماً ومن كل جانب بعدما اعتدى عليهم الكروات هم الآخرون .

قررت السكوت ، فالمعارضة والمشاجرة لن تؤديا إلا إلى ازدياد الوضع سوءاً ، فبقيت أنتظر طائرة أخرى إلى سپليت . وبصورة عامة ، لم يكن هدفي تحقيق العدالة في زغرب ، بل الوصول في أسرع وقت ممكن إلى إخواني ومساعدتهم بقدر المستطاع .

في مطار سپليت استقبلني باشو وموسى وهارون إماموڤيتش ، ولم يستغربوا إطلاقاً مما حدث لي في زغرب ، لعلمهم جيداً أن حكام كرواتيا يعملون ومنذ

وقت بعيد لتقسيم البوسنة والهرسك بينهم وبين الصرب ، إلا أن المسلمين البوسنويين يَحُولون دون ذلك ، فلقد تخلصوا من وهمهم السابق وضلالهم وهم مستعدون للدفاع عن وطنهم إلى آخر قطرة من دمائهم .

بينما كنا بالسيارة قال باشو : ليس لدينا وقت للأحاديث الطويلة أو الشكاوي . وبدون أي توقف وصلنا إلى مستوطَن كرواتي اسمه « بلاتو » حيث تعرفت على رجل اسمه أمين شوراكيتش الرجل الذي أحسن البلاء في الدفاع عن سراييڤو ، حيث ساهم مساهمة كبيرة وفعالة من أول يوم من الاعتداء الصربي عليهم . تعرفت على السيد مصطفى جليلوڤيتش أيضاً ، وعلى سيدة اسمها أميرة نوميتش لم تستطع البقاء بعيداً عن أطفالها وزوجها فقررت الذهاب إليهم في سراييڤو بعد فراق دام أكثر من عام مهما كانت الظروف التي ستقابلها . واصلنا الطريق سوياً حتى وصلنا إلى بازاريتش بدون صعاب . بازاريتش المدينة الصغيرة التي زرتها قبل ثلاثة أشهر وتعرفت فيها على أناس طيبين وزرت مقابر الشهداء .

هذه المرة أتيحت لي فرصة الالتقاء بالشيخ عزت ترزيتش إمام مسجد بازاريتش ، وقد سر كثيراً لزيارتنا له ، ومع أن رغبتنا كانت في البقاء لنتحدث طويلاً كما كانت رغبته أيضاً ، إلا أننا واصلنا الطريق إلى جبل إيغمان بعد الإفطار .

في المرة السابقة تمنيت الصعود إلى إيغمان ، وهأنذا الآن صاعداً إليه والحمد لله . قبل الحرب كان جبل إيغمان جبلاً محبباً للتنزه لأهل سراييڤو ومن جميع الأجناس ، كما أنه مفتوح أمام العالم كله بما فيهم الصرب طبعاً . وقد كانوا يفدون إليه بأعداد كبيرة ليقضوا وقتاً مع أطفالهم !

وكيف لا يفهمون أنَّ الله تعالى خلق الكرة الأرضية كلها لصالح الناس جميعاً ؟ كيف لا يعلمون أن الطمع والجشع وأخْذَ أموال الغير بالباطل يعود على الظالم بالمصيبة والهلاك ؟

أثناء طريقنا إلى إيغمان مررنا بقرية صغيرة اسمها لوكفي ، تقع على مقربة تامة من الخطوط الأمامية للجبهة ، وكل سكانها مسلمون معروفون بشجاعتهم وروحهم القتالية العالية ، وقد استشهد منها حتى الآن عشرون رجلاً ، مما يشكل نسبة كبيرة باعتبارها قرية صغيرة . استشهد أيضاً إمام مسجد تلك القرية الذي كان يرأس الدفاع عنها في إحدى المعارك الشديدة مع الجتنيك .

المسجد المتضرر في القرية ومنارته أحسن شاهد على ما كان الجتنيك ينوونه. فقد كانوا ينوون دخول القرية بعد قصفها المركّز من بعيد ، ليمارسوا أعمالهم المحببة إلي نفوسهم من قتل المسلمين ، وذبحهم ونهب ما يريدون من ذهب وأموال وإحراق ما يتبقى لمحو كل أثر للمسلمين .

بعد قرية لوكفى أصبح السفر أصعب وأصعب ، الطريق منحدر والدنيا ظلام ولا يمكننا إضاءة أنوار السيارة لقرب الخطوط الجتنيكية الواقعة على بعد لا يتجاوز المائتي متر ، لا أشعر بالخوف ، لكن عيناي تحملقان في الظلام وتمتص ما تستطيع امتصاصه مما حولها .

على مسافة بعيدة منا أرى أضواء مدينة هجيتش الواقعة على بُعد عشرين كليومتراً من مدينة سراييفو .

مدينة هجيتش في أيدي الجتنيك حالياً ، ومع أن جيشنا استطاع دخولها وطرد الجتنيك عدة مرات ، إلا أن العدو استطاع الثبات فيها لما له من كميات ضخمة من الأسلحة والعتاد والعدد الكبير من الجنود . سمعت أن سقوطها الأخير قد كلف المسلمين مائة وثلاثين شهيداً .

ما كنت أخشى وقوعه طول الطريق قد حدث لنا هنا بالذات ، إذ تعطلت السيارة ، اضطررنا لتصليحها في الظلام والبرد ، كما اضطررنا فيما بعد لدفعها بأيدينا والطريق مرتفع ، لكنا بعون الله استطعنا مواصلة الطريق .

بعد مشاكلنا مع السيارة بمدة قصيرة أوقفتنا دورية من دوريات الجيش البوسنوي . كل لقاء مع هذه الدوريات كان يزرع فينا إيماناً بأننا سنوفق في

سفرنا كما سيوفق الشعب البوسنوي في حربه العادلة مع الأعداء . بينما كانوا يحذروننا بأخذ الحذر لأقصى درجة كنت أرقب كلماتهم وحركاتهم كلها لأعرف مدى الروح القتالية لديهم . استنتجت بسرعة أن روحهم القتالية عالية بالنسبة للمشاكل التي يواجهونها بقلّة أسلحتهم إذا ما قيست بنسبة الكميات الهائلة التي يملكها العدو وتنوعها . **هذه الروح العالية التي بها يصبح ذنباً على كل مسلم في العالم إن لم يبادر إلى مساعدة هؤلاء المناضلين ليستمروا في طريقهم الرشيد .**

نواصل سفرنا والليل مظلم معتم تماماً وأضواء السيارة وكأنها غير موجودة إطلاقاً ، البرد ينخر في العظام ، لكننا سنصبر وننجح ، كان هارون يضطر لإضاءة أنوار السيارة فقط حينما كنا نشك بأننا ضللنا الطريق ليطفئها بسرعة ، لأننا علمنا أن رشاشات الجتنيك قريبة جداً من الطريق .

عندما استعد جيش يوغوسلاڤيا لتنفيذ فكرة تكوين « صربيا الكبرى » كان عنده وقت كاف لوضع وتحصين أسلحته حول سراييڤو مثل الطوق ، مبرراً ذلك بأنه سيقوم بمناورات عسكرية عادية ولا داعي للخوف كما لا داعي ولا يحق لأحد التدخل في ذلك .

اجتزنا الطريق متراً متراً إلى أن أخبرنا هارون أنه لا يستطيع القيادة بالمرة في هذا الظلام الدامس ، ويأسف لذلك فهو يشعر كأنه في حفرة عميقة . نزلت من السيارة وتمشيت أمامها ببطء فعثرت على متاريس أقامها مناضلونا وهم أيضاً ذكّرونا بعدم استعمال الإضاءة بالمرة لأننا في نطاق خطر جداً .

عندما أصبحت القيادة مستحيلة ، نزل سناد من السيارة ليمشي أمامها ملوحاً بشاله . وبينما كانت هذه الدراما تجري اعترفت لنفسي بأنني ما توقعت أبداً أن تكون هذه الطريقة الوحيدة الصعبة لا بديلَ لها لدخولنا سراييڤو . إلا أنني أدركت فيما بعد أن ما جرى لنا إلى الآن ليس إلا جزءاً ضئيلاً من المخاطر والمشاق التي كانت بانتظارنا إلى أن ندخل سراييڤو . تساءلت كيف

أصف للبوسنويين المقيمين في الخارج ما يتحمله مناضلونا من المكاره والمشاق أثناء نقلهم الأسلحة والعتاد لسراييڤو المحصورة .

كيف يستطيع من عاش هذه الآلام والصعاب مرَّة ألا يتألم لفظائع هذه الحرب التي يتعرض لها شبابنا المحروم من حق الدفاع عن حياته ووطنه ، وللشهداء الذين استشهدوا في النضال غير المتساوي من الناحية العسكرية من أجل وطنهم ، « استشهدوا فقط لأنهم لم يستسلموا » . كيف لا يتألم وهو يعرف أن الجتنيك يملكون كل شيء ، الألوان المختلفة من الأطعمة واللباس والعتاد ، وكل شيء يحتاجون إليه وهم يقاتلون . كل هذا على حساب المسلمين الذين أحبوا وطنهم السابق ، الوطن الذي كان الصرب فيه يستعدون ومنذ زمن بعيد للقيام بهذا الحساب النهائي كما صرح زعيم الصرب البوسنويين « الطبيب النفساني » رادوڤان كاراجيتش ، إلا أني لا أيأس لأن كلمة الله هي العليا ، وتقديره هو التقدير النهائي لكل أمر من الأمور . فبإرادة الله وحده ودعمه ، أنشيء جيش جمهورية البوسنة والهرسك الذي يصبح يومياً أشد قوة وأحسن تنظيماً . **إنَّ شجاعة وفعالية جيش البوسنة الذي يقاوم ثالث أكبر قوة عسكرية في أوروبا مقاومة ناجحة لا يمكن تفسيرها سوى أنها إرادة الله وتأييده .**

إذا كان الجتنيك قد اغتالوا لأنفسهم كل تلك الكميات الضخمة والأسلحة والفولاذ ، فإنَّ الله قد زرع في قلب كل مناضل من مناضلينا قوة أشد من ذلك الفولاذ ، فكأنّه له أجنحة وهو يقوم بأكثر واجباته خطراً وأشدها مشقة. إنهم لا يعرفون الخوف أو الفزع ، كما أنهم لم يعرفوا التردد ، وبجانب الشجاعة والعزيمة يتصف مناضلونا بالسكينة والهدوء ، وهم هنا ليحرروا بعون الله كل جبل وكل نهر وقرية ومدينة واقعة في البوسنة والهرسك الشيء الوحيد الذي لا يقدرون عليه هو محو عدد القتلى الذي بلغ ٢٥٠ر٠٠٠ نفساً .

وبينما أفكر في كل هذا اتخذت قرار تسجيل هذه التجارب وقصها على

الناس في أمريكا . سأحتفظ بكل تفاصيل زيارتي للبوسنة الحرة لله ، لأقص عليهم قصص التصدي للبلايا والمكاره ، ونحن على إدراك تام أن تلك إرادة الله الذي يبتلينا . إن الله لا يحب الظلم والظالمين ، إنه سيعاقب الفاشيين في الدنيا والآخرة بإذن الله .

* * *

● **عبر إيغمان إلى سراييڤو :**

لقد بلغنا أعالي جبل إيغمان ، وينتظرنا الآن الهبوط نحو سهول سراييڤو . مدحنا هارون لا لشجاعته فحسب ، بل لمهارته في القيادة في الظروف الصعبة ، ومجهود لا يصبر عليه إلا المجاهدون .

كان الليل لا يزال مظلماً حينما وصلنا إلى السفح ، ومرت بنا سيارة الإسعاف وسرعان ما رأينا سيارتين محطمتين بجانبهما رجل ميت . إنها حادثة مرور ، مشهد يومي عادي في تلك الأيام .

كلما اقتربنا من سراييڤو يصبح دوي الانفجارات أقوى وأوضح ، تصعق السماء والأرض ، دوي طلقات الرصاص على أشده . سراييڤو تُدمَّر بشدة والناس يموتون باستمرار ، كلما ازداد عدد القتلى ازداد رضا الجتنيك . قلبي يتمزق وأنفاسي تتوقف بعد كل دوي لما أتخيله من الهلاك والقتل .

على أحد مفترق الطرق نبهنا هارون إلى ضرورة زيادة سرعة القيادة في ذلك المكان ، وبعد وقت قصير أخبرنا أننا قد وصلنا إلى هراسنيتسا ، لم نبق طويلاً فيها حيث واصلنا السفر إلى سكولوڤيتش كولونيا لنقترب أكثر من منطقة بوتمير التي بها مطار سراييڤو ومدرجه الشهير . في سوكولوڤيتش زرنا عائلة من عائلات السنجق وشربنا عندهم القهوة وقالوا لنا : الجتنيك لا يبعدون أكثر من ٢٠٠ متراً عن الخطوط الأمامية التي أقامها المناضلون من أهل الحي ، ولا يوجد بينهم وبين مناضلينا إلا ملعب لكرة القدم الذي تم تصليحه وتثبيت سياجه السلكي قبل الحرب بشهر واحد . هذا الملعب كان بنية الجتنيك أن

يجعلوه معتقلاً للبوسنويين والكروات من مناطق بوتمير وسوكولوفيتش كولونيا وهراسنيتسا وإيليجا ، إلا أنه خاب أملهم ،.فلم يتمكنوا من احتلال تلك المناطق ولا من اعتقال الناس بسبب الدفاع الجيد الذي نظمه المسلمون في الوقت المناسب ، كما أنهم استطاعوا إجراء عدة عمليات ناجحة جردوا فيها الصرب من كثير من الأسلحة التي كانوا يملكونها وبكميات كبيرة ، وبذا تزودوا بكميات ضخمة من الأسلحة والبنادق الأوتوماتيكية والقاذفات اليدوية والرشاشات الثقيلة والقنابل اليدوية وكميات ضخمة من الرصاص .

من أشد الأمور دهشة أن وجد البوسنويون عند أحد أصحاب سيارات الأجرة الصرب ستة آلاف كيساً بلاستيكيا أعدوها للجثث . ما أبعد ما دفعهم إليه زعماؤهم بفكرة خلق صربيا الكبرى ، فقد حفروا خنادقهم وشيدوا حصونهم ومتاريسهم على بعد مائتي متر من منازلهم ليطلقوا منه يومياً كميات هائلة من الرصاص والقذائف على جيرانهم وزملائهم المسلمين .

السناجقة « نسبة إلى منطقة السنجق » وغيرهم من أهل الحي لم يستطيعوا تفسير الأسباب الحقيقية وراء هذا التغير لدى جيرانهم الصرب ، لذا ما كان منهم إلا تكوين وتنظيم مقاومة للدفاع عن بيوتهم وأطفالهم وبقائهم في أراضيهم .

مستمعاً إلى تلك الحقائق المرَّة ، قرأت بصوت جَهْوَرِي أدعية النجاة لهؤلاء الناس الأبرار .

في سكولوفيتش كولونيل وجد هارون رجلاً وافق على أن يقودنا عبر أرض المطار إلى سراييفو . وهذه المهمة ليست سهلة على الإطلاق ، إذ كان على من يريد عبور هذا المدرج « أرض المطار » أن يجري جرياً سريعاً حوالي ثلاثة كيلومترات ، جرياً لا ينتبه إليه الجتنيك وهم على مسافة مائتي متر ، ولا تتنبه له أيضاً قوات الأمم المتحدة المشرفة على المطار وأرضه . لاحظت قلق هارون وانزعاجه لما ينتظرنا بينما لم أنزعج أنا لشيء .

تذكرت المقالات الصحفية حول افتتاح مطار سراييفو والدور الخائن للرئيس ميتران ، كما تذكرت أن ميتران دافع عن المصالح الصربية من بداية اعتدائهم على البوسنويين ، وهو يمثل بمهارة شخصية الإنسان الواقعي والإنساني العالمي ، وذلك من أجل الصداقة القديمة بين الصرب والفرنسيين ، كذلك من أجل منع انتشار النفوذ الألماني في جزيرة البلقان . كان ميتران يؤيد فكرة افتتاح ما يسمى بـ « الممرات الإنسانية » في البوسنة والهرسك ، وفجأة وفي أوج وقمة القصف الصربي المركز من الجبال المحيطة بسراييفو على سراييفو ، وعندما كانت سماء سراييفو تحترق ولا يوجد فيها طير واحد ، هبط ميتران فجأة على مطار سراييفو وليفتتح بهذا المطار المحصور بمدفعية الصرب وجنوده . وبعمله هذا رفع التدخل العسكري الذي كان ينويه الرئيس الأمريكي چورچ بوش .

بافتتاح المطار للأنشطة الإنسانية والمعونات ، ترك ميتران الانطباع بأن سراييفو ليست محصورة بالكامل ، كما ترك أهلها يقتلهم الصرب المتوحشون يومياً من الجبال .

* * *

● **أرض مطار سراييفو :**

انطلقنا نحو سراييفو ونحن على علم تام بأننا على مقربة من الموت لم يسبق لنا مثلها ، نتحرك بحذر عبر المزارع والبساتين بينما تَئِزُّ فوق رءوسنا رصاصات الجتنيك بغير انقطاع وهم يطلقون نيرانهم إطلاقاً عشوائياً وغزيراً لعلهم يصيبون كل من يتحرك حول المطار .

فجأة قال لنا هارون بصوت منخفض وفيه انزعاج ملحوظ : ارقدوا ، واحذروا جيداً لأن هناك حصن جتنيكي يبعد عنا مئة متر فقط ، وأمامنا أيضاً أنصارهم جنود الأمم المتحدة .

رقدت وأنا أنظر إلى البرج الذي ينير مساحة أرض المطار . الجتنيك يطلقون القذائف المضيئة فيصبح المطار منيراً مثل النهار ، وأنا راقد على الأرض أفكر

بحزن وأسف شديد في كل هؤلاء البوسنويين الذين قُتِلوا وما زالوا يُقْتَلون في هذا القتال غير المتكافيء في الحرب التي تآمر عليهم فيها الجميع . أتذكر أهلي وعائلتي في أمريكا البعيدة ، ولا يخطر ببالهم الآن الوضع الذي أنا فيه ، أتذكر كل إخواني المسلمين الذين تبرعوا بالأموال التي معي الآن ، فيما أرقد هكذا عاجزاً عن فعل أي شيء سوى الانتظار ومتجمداً من البرد ، سألت نفسي : أهي إرادة الله أن أُقتَل هنا ؟ إذا كان الأمر كذلك فليكن ، إلا أنه يؤلمني أن زوجتي وأولادي لن يعرفوا أين قبري .

نقوم ونواصل المشي متابعين الأضواء في المطار والقذائف الجتنيكية ونسمع في نفس الوقت دوي انفجارات الصواريخ والقذائف التي يطلقها الجتنيك على المناطق الإسلامية المجاورة للمطار دون انقطاع ومن كافة أنواع الأسلحة . تعيش سراييفو إحدى لياليها الصعبة ، ولا أحد يعرف كم ليلة عاشتها مماثلة لتلك الليلة ؟ وكم ليلة تنتظرها شبيهة بتلك ؟

أبلغنا هارون أننا قد اجتزنا حوالي الكيلومترين ، إلا أننا عثرنا فجأة على أسلاك شائكة يجب الولوج خلالها بحذر ، وبعد اجتيازها بنجاح نزلنا في قناة عمقها ثلاثة أمتار لننتظر بها إلى أن يحين الوقت المناسب للخروج منها ومواصلة الطريق . كنا ننصت باهتمام ونحفظ كل كلمة يقولها لنا الدليل .

خرجنا وواصلنا المسير حتى وجدنا ناقلة مدرعة تابعة للأمم المتحدة ، ركبنا الناقلة .

لقد فشلت في ظني وحسابي ، وتأكدت من أن كل ما يقال عن هؤلاء الجنود واتهامهم بالتحيز لجانب الصرب المجرمين حقيقة ، مع العلم بأن مصاريفهم تقع على عاتق كافة دول العالم بما فيها الدول الإسلامية ، الأمر الذي أحدث الجَيَشَان في نفسي . أقلَّتْنَا الناقلة المدرعة وأوصلتْنا ، لكنهم أوصلونا إلى حيث بدأنا ، إلى القناة الوحلية ، انتابني حزن ويأس ، ووقع نظري على السيدة أميرة فتساءلت كيف حالها وهي في كل هذه البلايا ؟ لكن أميرة لا تشكو ولا تيأس ، إنها شجاعة وصبور للغاية . خرجنا من القناة وأخذنا نفكر فيما نفعله، اقترح علينا الدليل أن نستريح قليلاً لنحاول مرة أخرى من البداية .

ومما أعجبني أكثر إعجاب مثابرة المجاهد سناد الذي كان يحمل على ظهره حملاً ثقله خمسة وستون كيلوجراماً وفي يديه حقيبة ثقلها عشرون كيلوجراماً. كان دائماً يسقط ويقوم تحت الأثقال دون أن يصدر عنه أي تبرم أو ضجر. هذا البطل لا يوجد إلا في البوسنة، وهذه الحقيقة ستتأكد منها أوروبا وستخجل، إنها لا تعرف كل من لها من الأبناء، لا تعرفهم لأنهم لا يدينون بدينها. إن نقصان عقول السياسيين الفرنسيين والإنجليز واضح وملحوظ مثل فسادهم، والقواعد التي تقوم عليها سياستهم في هذه الحرب لا أخلاقية ولا إنسانية.

أتوجه بأفكاري إلى الله وأتساءل: هل سنصبر ونتمكن من دخول سراييفو؟ التي أصبح مصيرها أوضح لدي بمرور كل لحظة جديدة.

أتذكر مرة أخرى زوجتي وأولادي في أمريكا، أتذكر أصدقائي الأعزاء سناد أفندي وحسين جيفالي ومحمد إما موڤيتش متسائلاً هل سأراهم بعد؟ وهل سيصدقون - إذا بقيت على قيد الحياة - كل هذه الفظائع التي نمرّ بها الآن؟

ننطلق مرة أخرى في الطريق الخطير ما دام الليل والظلام، نجري مدة من الزمن تجاه مبنى المطار ثم نتحول ونجري تاركين مبنى المطار خلفنا لنجعل جنود الأمم المتحدة يظنون أننا خارجون من سراييڤو فيأخذوننا إليها. لكن لا جدوى فقد أخذونا مرة أخرى إلى الوراء. هؤلاء الملاعين يرون كل شيء ويعرفون الحيل كلها ولا يريدون مساعدتنا لكرههم الشديد لنا لأننا مسلمون. رجعنا للمرة الثالثة إلى بداية الطريق. قال هارون ليخفف عني اليأس الذي انتابني: إن حالتنا ينقصنا فيها حسن الحظ فقط، لأن هؤلاء الجنود خاصة الفرنسيين والأوكرانيين يقبضون على الفتيات والفتيان ويسلمونهم للجتنيك مقابل مبلغ من العملة الصعبة. فلتسليم فتاة مسلمة يحصلون على ألفي مارك ألماني، وهي نفس الماركات التي نهبوها ممن قتلوهم من المسلمين. كما يحصلون

على ألف مارك ألماني مقابل تسليمهم رجلاً مثقفًا من أهل سراييفو أو مناضلاً من الجيش البوسنوي .

كنت مذهولاً لمعرفة تلك الحقائق ، لذلك رجوت الله أن يدفع عنا هذا الشر .

تجددت محاولاتنا إلى المحاولة الخامسة ، لكن المحاولات كلها باءت بالفشل . وقبل المحاولة الأخيرة صلّينا في القناة راجين الله أن يكون معنا ، انضم رجال كثيرون إلينا يريدون عبور أرض المطار ، لكان هارون أشار علينا بأن نتخلى عن المحاولات هذه الليلة لأن هذه الليلة ليست ليلتنا لعبور المطار قائلاً : « سنؤجل ذلك لليلة التالية » .

رجعنا مشياً إلى سوكولوفيتش كولونيا ونحن منهوكو القوى ومتجمدو الأبدان من البرد . بعد استراحة قصيرة ركبنا السيارة وذهبنا إلى مقر هيئة الإغاثة حيث استرحنا وصلينا الفجر وذهبنا للنوم ، وكل واحد يحمل داخله رغبة واحدة وهي أن يأتي الغد بمزيد من الحظ والتوفيق .

استيقظت في التاسعة صباحاً وقضيت اليوم في المقابلات والتعرف على الناس والاستماع إلى قصص البطولة أو إلى الجرائم الفظيعة . من الذين تعرفت عليهم هذا اليوم حسين أفندي راميتش الذي أعطاني رسالة لصديقه سناد أفندي في شيكاغو .

مضى اليوم بسرعة وحان وقت الإفطار ، وكلما اقترب الليل ازداد اضطرابي وانزعاجي حيث أعرف الآن ماذا ينتظرنا على أرض المطار .

قبل انطلاقنا قرأنا الأدعية راجين الله أن يوفقنا ، صلينا المغرب على شرفة بناية الشرطة العسكرية ، حيث رأيت مجموعة من الجتنيك المأسورين ، هؤلاء الوحوش الجبناء الذين لا يتجرءون إلا على القذف من بعيد ومن أماكن آمنة ومن أعالي الجبال ضد الجيش المسلح بأسلحة خفيفة ، وعلى الأطفال الأبرياء أثناء لعبهم وعلى البيوت الآهلة بالنساء والأطفال وعلى المستشفيات والمعابد

والمدارس وروضات الأطفال ، ليس لديهم أي شيء على أرض البوسنة يستحق الاحترام ويستثنونه من التدمير . رأيت المجموعات الكبيرة التي تريد مثلنا عبور أرض المطار للوصول إلى سراييڤو إلى أسرهم حاملين إليهم شيئاً من الطعام .

أثناء الطريق سمعت حكايات كثيرة تؤكد أن أفراد شعبنا لهم قدرة عالية على مواجهة المشقات والبلايا الناتجة عن العدوان الصربي . إنهم يحتالون ويخترعون الحيل ليحتالوا على المعتدين والقتلة من صربيا والجبل الأسود والعالم الغربي .

ومن حيل رجالنا أنهم كانوا ينقلون الأسلحة في توابيت الأموات إذ لم تكن هناك طرق أخرى لإمداد سراييڤو بالأسلحة الخفيفة . هل يمكن إطلاقاً - بالعقل - فَهْم حالة مناضلينا المدافعين عن البوسنة وهم محصورون هكذا من كل جانب ؟ ومع ذلك فالبوسنة تقاوم وتتصدى ولا تسقط كما توقع الصرب وأنصارهم .

انطلقنا ، اجتزنا مائتي متر ، كنا نجري ثم نرتمي على الأرض بعدما نتنبه لوجود ناقلة الأمم المتحدة التي تظهر من بعيد ، الأوحال والتورط والسقوط يتكرر ، كما يتكرر جر الأثقال والأبدان ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

اكتشفونا مرة أخرى ، أضاءوا بأنوارهم العالية بحيث أصبح في مقدور الجتنيك رؤيتنا وقذفنا بالرصاص أو اصطيادنا بالقناصة ، حاصرنا جنود الأمم المتحدة وركبونا بسرعة في ناقلتهم ، كانت الناقلة تتحرك وكأنها تدور إلى أن لاحظت بريقاً في عيني هارون يدل على وقوع مفاجأة جميلة .

* * *

● سراييڤو أخيراً :

توقفت الناقلة ، فتحوا الباب ، رأينا مجموعة من الرجال وراءهم سياج وخلف السياج مبان سكنية ، إنها سراييڤو الحبيبة . جريحة هي ومريضة لكنها

تقاوم المرض والجروح ، أهناك أحد في العالم لا يأسف ولا يتألم لجروحها ومرضها ؟

عندما مسسنا أرضها بكينا من فيض السرور وتعانقنا ونحن نصيح « الله أكبر، الله أكبر » .

« لا ترفعوا أصواتكم » حذرنا هارون وشرح : لا بد من الهدوء ، لأن علينا مواصلة الطريق مشياً فى الظلام الذي هو دائم في المدينة ما دمنا في لحظات انفجار الصواريخ والقذائف الجتنيكية » .

قادنا أحد الحراس إلى الشرطة ، حيث فحصوا وثائقنا الشخصية وسمحوا لنا بالراحة ، ثم قادنا واحد منهم إلى الشرطة العسكرية حيث نسمع تحية الإسلام « السلام عليكم » في كل مكان ، وهي التحية التي كان يُسجَن بسببها المسلمون تحت الحكم الشيوعي ، بعد التأكد من سلامة وثائقنا قدموا لنا الشاي لنستريح ونتعشى ، ثم أخذنا قائد الشرطة إلى السيد حسين كسير .

تبادلنا الحديث مع السيد حسين أثناء شرب القهوة كما تبادلنا الآراء ، ثم اتصلنا هاتفياً برئاسة الطائفة الإسلامية في جمهورية البوسنة والهرسك حيث تلقينا منهم دعوة لزيارتهم ، زودنا القائد بسيارة وسائق وأوصلنا إلى المدينة .
هنا ودعنا السيدة أميرة والسيد هارون وسناد وتوجهت أنا نحو المدينة .

أخذت أنظر من نافذة السيارة إلى ما تبقى من مدينة سراييڤو .

بدت سراييڤو وكأنها مدينة الأشباح ، كنت أعرف منذ زمن بعيد أن الحياة من جانب والأحاديث عنها من جانب آخر أمران مختلفان عن بعضهما كل الاختلاف ، وتأكدت من تلك المعرفة مرات عديدة للأسف عندما أتيت إلى سراييڤو ، إن صور أفلام الكاميرات التليفزيونية كلها والبيانات بمختلف لغات العالم كله ليست إلا صورة باهتة للواقع الفظيع الذي تعيشه المدينة الفائقة الجمال في الماضي .

إن الصورة الواقعية والحقيقية لما حدث وما يحدث فيها لا يدركها سوى من أتى إليها في هذه الفترة الحربية وبشرط أن يكون ممن لا يكرهونها . إن من يرى كل هذه الفظائع والقتل والحرق والتدمير والخوف والجوع لا يفسره سوى أنه ناتج عن حقد دفين عميق تجاه أهل المدينة .

أراني عاجزاً عن ترديد أي شيء لكني أقول متألماً :

« يا ربّ ، ما أسوأ ما فعله هؤلاء البرابرة في سراييڤو الجميلة » .

مررنا كثيراً بدوريات عسكرية وشرطية تقوم بواجباتها التفتيشية ، وكنا نمر بهم بدون أية مشاكل لأن هؤلاء الرجال قد تعلموا في هذه الحياة الجهنمية أن يميزوا بسهولة بين الصديق والعدو .

وعمّا قليل نصل إلى فندق « هوليداي إن » حيث حُجِزَت لنا غرفتان ، بعدما وضعت أمتعتي اقتربت من النافذة ، لست أدري كم استمر وقوفي ، إلا أنني أعرف أن قدمي أصبحتا متحجرتين وقلبي تمزق بينما كنت أنقل نظري من مشهد لآخر من مشاهد المدينة المدمرة بكل معنى الكلمة .

الحياة منعدمة .

أين اختفى الناس من شوارع سراييڤو ؟

أين شباب سراييّڤو ؟

أين ذهبت الحياة ؟

في مكان ما يدوي انفجار عال ، ألم يشبع الوحوش بعد ؟ ربما لا يتحملون الحياة بلا شر ولا دماء ؟ قد يكون الشر هو غذاءهم ؟

في المساء نويت صيام الغد ، ومع أني لم آكل شيئاً إلا أن هناك السرير أستطيع على الأقل أن أستريح ، استرحت بعد كل تلك المشاق وبداخلي شيء من السرور والرضا ، فقد استطعت دخول المدينة وباستطاعتي الآن أيضاً أن

أعيش مع من تبقى من أهلها ولو مدة قصيرة لأشاركهم مصاعبهم ومشاقهم اليومية .

يبدو أن النوم لم يأتني إلا قبيل الفجر ، إذ استيقظت متأخراً جداً ، ما إن قمت حتى دنوت مرة أخرى من النافذة .

المارة قلائل ، يسعون خائفين في الشوارع ، يقطعون الساحات وهم يركضون لأن كل دقيقة يتحركون فيها ببطء قد يدفعون ثمنها غالياً . تساءلت: هل يستطيع هؤلاء الناس العيش بعد كل هذا الخوف عيشة طبيعية ؟ ومَنْ يبقى على قيد الحياة بعد هذه الحرب هل سيستطيع العيش عيشة عادية سليمة تليق به كمواطن وكأب وعامل وجار ؟

تؤلمني وتؤسفني رؤية هذه المصائب ، وأنا عاجز عن فعل أي شيء للقضاء عليها أو التخفيف منها . يتوقف نظري على ناطحتي سحاب كبيرتين قريبتين من الفندق . لم يبق منهما إلا جدرانهما الخراسانية ، فكل شيء ما عداها قد احترق ، وقد سميت هاتان الناطحتان قبل الحرب باسم « مومو وعزيز » وهما اسمان شعبيان يرمزان للمسلم والمسيحي . إن هذه الفكرة لا تخطر إلا ببال أهل سراييڤو ، لأنهم عبّروا بهذه الفكرة عن ميلهم واستعدادهم للعيش في وفاق ومحبة مع كل إنسان بصرف النظر عن ديانته أو جنسه أو لونه .

إن المسلمين البوسنويين لا يعرفون المقت أو الحقد أو التطرف لأن الطفل المسلم تغرس في نفسه منذ صغره فكرة لزوم المحبة نحو الجميع . ذلك وفقاً للآية القرآنية الكريمة : ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شُعُوباً وقبائل لتعارفوا . . . ﴾ ، وبينما كنت أفكر في نشأة اسم ناطحتي السحاب وأنظر إليهما بحزن ويأس حدث اهتزاز للأرض ودوت انفجارات مزقت الأبدان ودمرت المباني المشيدة بأموال الناس وعرقهم . شعرت بالصداع في رأسي لأن الإنسان لا يتعود بسهولة على هذه الأصوات الفظيعة .

بما أن القصف المدفعي قد استمر طيلة النهار لذلك بقينا في الفندق إلى أن

حان وقت الإفطار ، أخبرنا صديقنا سعد أننا سنتناول الإفطار في الفندق مع المديرين والمستخدمين .

تعرفنا على مدير الفندق السيد / عبده هادروڤيتش الذي خفض لنا من قيمة أجر الفندق لأننا من ضيوفه الأعزاء . بالرغم من أصوات الانفجارات والقذائف إلا أننا سمعنا صوت آذان المغرب من أحد المساجد فبدأنا الإفطار . استرخينا ونحن نأكل ونتحدث لننسى الواقع الأليم لما حولنا ولو لبضع لحظات . إن هذا الفندق أحد الأماكن النادرة التي يستطيع فيها الإنسان الاسترخاء ولو قليلاً .

كان الليل أسوأ من النهار . الوحوش الصرب السكارى التي زودت مزابلها الواقعة حول سراييڤو بكميات كافية من الطعام والكحول بدأت زفافها الدامي من جديد ، الأرض والسماء تحترقان وتهتزان من شدة الانفجارات . وفجأة وعندما أردت النوم بعدما تعودت إلى حد ما على هذا الجو ، دوى انفجار هائل ، كان صوته أعلى من أي صوت سمعته في حياتي ، وبعدما جمعت حواسي رأيت الدخان وحطام الزجاج المتناثر في الغرفة وباب الغرفة قد انخلع من قاعدته مع إطاره . لقد أصابوا الفندق مرة أخرى . تذكرت في تلك اللحظة بأن كل طوابق الفندق العليا مدمَّرة من أثر القذائف والصواريخ ، وأن هذه الإصابة حلقة فقط من سلسلة الإصابات لهذا المبنى .

دخل عليَّ الغرفة في هذه اللحظات مدير الفندق السيد عبده وهو يتنفس تنفساً سريعاً يدل على أنه صعد إلينا راكضاً ، وقال بعد أن رآني أقف متجمداً: « هل أنت سليم يا سيدي ؟ » .

نظرت إليه محاولاً الابتسام ولكني غير متأكد أن المحاولة قد نجحت ، ورددت عليه بكلمتين فقط : « إن الله معنا » ، ثم أمرني بالنزول حالاً إلى الطابق السفلي .

بزغ الفجر وأنا واقف عند النافذة أفكر كيف أساعد هذه المدينة ؟ ذهني لا

يخلو من التفكير ، إذا طال العمر وطالت السلامة سأفعل المستحيل أنا وأصدقائي من أمريكا وغيرها من العالم .

قالوا : إن الليلة السابقة قد سقطت فيها ألفا قذيفة على المدينة .

في يوم الثلاثاء يجب زيارة مدرسة الغازي خسروبك كما حددنا موعد الزيارة مسبقاً ، حيث نلتقي مع عدد من المدرسين ورجال الإدارة فيها ، الذين كان من بينهم السادة مصطفى سباهيتش ومحمد على هجيتش وسناهد بريستريتش ومنير أحمد سباهيتش وغيرهم ، حيث ذهبنا معاً إلى مسجد الغازي خسروبك لأداء صلاة الظهر ، والتقينا بعد الصلاة مع حافظ القرآن عصمت أفندي سباهيتش الذي فقد في هذه الحرب زوجته وثلاثة من أولاده وإحدى حفيداته . قالوا : إن مصيبته قد تحملها تحمُّلاً يليق تماماً بمقامه ، فقد صلى على كل منهم صلاة الجنازة دون أن تفلت دمعة من عينه .

لما لم يكن هدف الجتنيك فقط قتل المسلمين ، بل إهلاك كل ما لديهم من الآثار الثقافية المادية والمباني العامة مثل المستشفيات والمدارس ، لذا كثيراً ما حدثت المجازر الدموية في تلك المباني العامة مثل المستشفيات والمدارس ، أثناء قيام سكانهم بواجباتهم الدينية أو الثقافية أو التعليمية أو غيرها . وهكذا قُتلَت الثلاث بنات وحفيدة عصمت سباهيتش عندما وقعت قذيفة الجتنيك على إحدى مضخات المياه الواقعة في المدينة القديمة ، فقتلت البنات الثلاث والحفيدة أثناء انتظارهم دورهم لأخذ الماء ، كما قُتِل معهم بنفس القذيفة خمسة آخرون كلهم صغار السن .

دعوت الله تعالى أن يدخلهم فسيح جناته وأن يغمرهم برحمته . . . آمين .

الإنسان لا يستطيع إخفاء إعجابه بهذا الرجل الذي تحمَّل الصدمة بقوة المؤمن الحقيقي ، إنه كان مثالاً لأهل سراييڤو كلها وعلَّمهم كيف يتصرفون في تلك المواقف الصعبة وعند ضربات القدر الشديدة . أما أعداؤنا الصرب فقد رأوا معنى القوة التي يهبها الإسلام لأتباعه .

بعدما انتهى عصمت أفندي من قراءة الفاتحة على تربة الغازي خسروبك ، ذكر لي أن قراءة القرآن اليومية المنتظمة في كثير من مساجد سراييڤو أثناء رمضان لم تتوقف يوماً واحداً ، مع أن المدينة يتم قذفها ليلاً ونهاراً ، ثم قال مختتماً كلامه : « إن الحرب ستنتهي ، وسنبني إن شاء الله مساجد جديدة وسنصلح ما أتلفته ودمرته الحرب بشرط أن تكون قلوبنا سالمة » .

* * *

● **مقابر مقابر :**

بعد هذا اللقاء الذي لا ينسى والحديث الشامل ، أتى إلينا السائق « فودو » ليوصلنا إلى كوڤاتشي لزيارة مقابر الشهداء ، كوڤاتشي هو حي من أحياء المدينة القديمة يقع على تل من التلال الكثيرة المحيطة بمنطقة وسط البلد المسماة « باتشاوشيا » .

تقع في كوڤاتشي ومنذ زمن بعيد وفي مساحة تمتد فيما بين شارعين مقبرة مسلمة قديمة لم يدفن فيها أحد منذ مدة طويلة من الزمن ، بقيت المقبرة في هذا الخلاء الواقع بين الشارعين مع أحجارها الناصعة البياض كسمة من سمات المدينة الهامة ، وبقيت كذكرى لمن يفكر بعمق في الحياة والموت ، وأن هذه المقابر تذكر الإنسان بفناء الحياة الدنيوية وباتصال الحياة والموت الذي لا ينقطع .

منذ بداية شهر إبريل عام ١٩٩٢ ، عندما بدأ الجيش الصربي الشرس وحشيته بهجومه على سراييڤو بكل أنواع الأسلحة ، وحوَّل الحياة إلى موت ، يموت الناس محصودين بالقذائف في الشوارع والمنازل والمدارس والمستشفيات وخطوط الدفاع عن المدينة . هنا ظهرت مشكلة دفنهم ، المقابر لا تتسع لكل هذا العدد الهائل من الموتى والقتلى ، بما أن مقبرة المدينة الرئيسية قد احتلها الجتنيك ولا يمكن الوصول إليها ، لذا أصبحت المقابر القديمة والحدائق والبساتين والملاعب المساحات الوحيدة لدفن الموتى . وهكذا فتحت المقبرة

القديمة في كوڤاتشي لدفن الموتى ولتستقبل في جوف أرضها خيرة أبناء سراييڤو الأبطال ، وبين لحظة وأخرى تنبت أمام أعين أهل سراييڤو الدامعة قبور جديدة .

وفي أشد الآلام والمآسي يجد أهل سراييڤو الكلمات المناسبة ، مع أنها عادية وبسيطة ليعبروا عما حدث، فبخصوص المقبرة في كوڤاتشي قال أحدهم :

« احتلنا الألمان واحتلنا الكروات ولم يدفن في كوڤاتشي أحد ، ولكن عندما جاء هذا من جبل دورميتور « يقصد كاراجيتش » ، ومع أننا استقبلناه كما يليق به وبنا ، إلا أنه قد صعد هو إلى الجبال حول سراييڤو ، هو إلى الجبال ونحن إلى كوڤاتشي » .

انظر إلى قبور الشهداء ، كلهم فتيان محصودون في أوج شبابهم كسنابل الحنطة ، أُم من أُمهات الشهداء تقرأ الفاتحة على روح ابنها ، البيوت القديمة المحيطة بالمقبرة كلها مدمَّرة ، إنها مبنية منذ زمن بعيد ، لكن الأجيال واحداً بعد الآخر كانت تقوم بصيانة وتجديد وترميم تلك المباني بعناية واهتمام ، مما جعل قيمتها عالية وكأن كل مبنى منها متحف . وأعتقد أنه لهذا السبب بالذات يقصفها الجتنيك كل يوم وباستمرار .

من تلك الأنقاض يخرج مَن بقى حياً من أصحابها ، يسعى بعضهم في الأزقة والبعض الآخر يتمهل وهو يمشي في أزقّته المعهودة وكأنما لا يحدث شيء غير عادي .

في تلك الأثناء كانت سراييڤو تهتز كلها من شدة الانفجارات ، والدخان المتصاعد نحو السماء في كل أنحاء المدينة يشهد بأن معظم المكاسب المادية والاقتصادية تكاد تضيع وتفنى .

رحلنا من كوڤاتشي إلى بيت عصمت أفندي سباهيتش الذي سرَّ بزيارتنا ودعانا إلى قضاء ما تبقى من الوقت لصلاة العصر عنده ، أجبنا دعوته من القلب لمعرفتنا أن زيارتنا ستخفف ولو بعض الشيء من آلامه الشديدة ، بعد

صلاة العصر جماعة ذهبنا مع عصمت أفندي إلى حرم المسجد المدفون فيه أسرته وقرأنا على أرواحهم الفاتحة ودعونا الله أن يدخلهم جناته .

مرة أخرى جئنا إلى « باتشارشيا » حيث تحققت رغبتي في أن أصلي وسط المدينة ركعتي الشكر ، مما ملأ قلبي سروراً وبهجة .

بعد الظهر ذهبنا إلى كوشيفو ، الحي الواقع بالقرب من مركز المدينة ، الحي الذي كان به قبل الحرب عدد كبير من المؤسسات والهيئات الثقافية والصحية والعلمية ، إضافة إلى المقابر القديمة التي لم يدفن فيها أحد منذ عشرات السنين .

لكن هذا الاعتداء القاسي قَلَب كل أصول الحياة في سراييڤو رأساً على عقب ، المقابر القديمة امتلأت بقبور جديدة ، بجانب هذه المقابر والعدد الكبير من المقابر التي نشأت في ملاعب كرة القدم والملاعب المدرسية والبساتين والحدائق يمكن القول بأن سراييڤو مدينة المقابر ، مدينة تموت وتقتل .

زرنا أيضاً المركز الرياضي الشهير المسمي بـ « زترا » الذي بني في بداية الألعاب الأولمبية الشتوية سنة ١٩٨٤م ، وقد كانت فيه مساحات واسعة لمختلف أنواع الرياضة ، غير أنه الآن محروق ومدمَّر والمساحات الخضراء المحيطة به تحولت إلى مقابر ، توقفت لأتساءل : هل من المعقول أن يلعب الناس في أوروپا وفي العالم وينامون نوماً هادئاً مع آلاف القبور هذه التي دُفِن فيها الأبرياء من أهل سراييڤو ؟

إن زيارة المستشفيات في سراييڤو ينتج عنها انطباعات أصعب من زيارة المقابر ، لأن الموت هنا في كثير من الحالات أحسن من العيش بلا يدين أو بلا رجلين أو بلا عين أو عينين أو بلا قدرة على النطق أو الحركة .

وبما أن سراييڤو بلا كهرباء وبلا ماء لُمدد طويلة ، فإن عمل الأطباء وغيرهم من العاملين في المستشفيات يصبح أشق وأصعب من أعمال العبيد في الأزمنة الغابرة .

يشكل أطباء سراييڤو وأطباء البوسنة كلها أساطير حية ، وإنجازاتهم في علاج المصابين ومداواتهم لا مثيل لها في كل تاريخ حضارتنا هذه الهالكة واللاإنسانية .

نستطيع أن نقول بصراحة إن أوروپا قد رسبت في امتحان إنسانيتها ونضوجها الحضاري كما رسب معها في نفس الامتحان العالم الغربي كله ، لا لأنه يشاهد ويتجاهل جرائم الصرب المنقطعة النظير فحسب ، بل لأنه لا يزال يشاهدها وهو ساكت إن لم يكن مؤيداً بحظر السلاح عن البوسنة ، وخداع العالم بأنه يعمل ما بوسعه لحل المشكلة (*) .

أنا في المركز الطبي الكبير في كوشيڤو حيث استقبلني مدير مستشفى «تراوماتولوچيا » الدكتور فاروق كولينوڤيتش فتحدثت معه عن المشاكل التي يواجهها المستشفى ، المشاكل كثيرة ، الأدوية نادرة ، والماء نادر ، والكهرباء منقطعة ، بجانب مشاكل الجرحى والموتى . الظروف التي يعملون فيها مستحيلة تماماً ، مع كل هذه المشاكل فإنك تسمع عند دخولك مبنى المستشفى الموسيقى الخفيفة ، الأمر الذي يدل على أنه حتى في هذه الظروف الرهيبة تربى الروح الثقافية الفنية ، المسلمون البوسنويون يؤدون الصلاة ويقرءون القرآن بكل ما فيه من الفلسفة وعلم النفس وعلم الفلك والنجوم ، كما يستمعون إلى موزارت وباخ . هذا الشعور يشجعني ويزيد من قوتي وصبري على المكاره التي أواجهها حينما أقوم بزياراتي . وبقدر ما كان يسرني ما أقدم لهم من التأييد والتشجيع كان ينتابني بالقدر نفسه شعور بأن ذلك لا يكفي مقابل ما بذلوه من جهود في سبيل الله .

إن كل نوافذ مبنى ذلك المستشفى مكسرة ومهشمة ، وبعض أجنحته مدمرة، ووُضع مكان الزجاج ورق البلاستيك .

(*) ولا يمكننا أن نغفل هنا رسوب المسلمين أيضاً !

دخلت غرف المرضى ، يرقد في إحدى تلك الغرف شاب اسمه « أدين » عمره ٢١ سنة ، فَقَدَ رجليه وإحدى عينيه ، اشتكى لي بأنه ينتظر رجليه الصناعيتين ثمانية أشهر كاملة ، وإنه قد طال عليه الانتظار ، ثم أضاف قائلاً: « بهذه العين الباقية أستطيع استعمال بندقية القناصة » . وعندما قدمت له هدية كما يجب في تلك الحالات رفض وامتنع طويلاً وهو يقول : « لا تفعل ذلك دعنا نتحدث » . وبصعوبة بالغة استطعت أن أضع الهدية على منضدة شبه مكسورة قائمة إلى جانب السرير .

وعلى السرير المجاور فتى يتلوى من شدة الآلام ، أصابوه بالمدفع المضاد للطائرات وهو لا يتذكر سوى أنه قد رأى الروس يطلقون عليه النار . يعني أن الإخوان الصليبيين من روسيا جاءوا لمساعدة الشعب الصربي المعرض للخطر؟!

بعد زياراتي لغرف الجرحى أتى دور قاعة الموتى ، حيث تجد جثث الفتيان من مناطق آريتش وستوب ، حيث نُقِلوا إلى المستشفى قبل يومين بعدما تم تبادل القتلى الجتنيك . البعض لا يمكن إثبات هويته حتى لو قام بها أقرب الأقرباء ، إذ إن غالبيتهم مشوهون أقصى تشويه ، إما أنه بلا رأس أو بلا يد أو قدم أو غيرها من أعضاء الجسم المبتورة . الشعور الذي انتابني وأنا أنظر إلى تلك الأجساد المشوَهة الناقصة لا أستطيع وصفه وصفاً دقيقاً ، إنه ليس خوفاً ولا ذعراً ولا حتى ألماً ، إنه أقرب إلى الحزن والحسرة .

عدت مرة أخرى لأواصل زيارة المرضى والجرحى المصابين ، وقد تبين لي من وجوههم وأشكالهم أنهم صغار السن لم يبلغوا سن الرشد بعد ، أما جروحهم فرهيبة فظيعة ومعظمها بالغة إلى حد أنهم سيضطرون لملازمة الفراش طيلة حياتهم . ومع ذلك ، هناك ما أثار إعجابي لدى هؤلاء الجرحى ويغلب على كل شعور ، هو رغبتهم الشديدة بعد شفائهم بإذن الله إلى العودة إلى الجبهة والقتال مرة أخرى ، والكل يفكر في كيفية استعمال أعضاء جسمه

الباقية أحسن استعمال للقتال لتحرير الوطن إن شاء الله ، ولم أجد في عيونهم أثراً للحزن أو الخوف مما ينتظرهم في حياتهم المستقبلة . وهذا كله يزيد من عزيمتي وقدرتي على الاستمرار في طريقي ، فمثل هذا الشعب يستحق بذل كل جهد واستخدام كل ذرة من ذرات النفس لأجله . يا إلهي ، كم أتمنى أن يرى كل من تبرع بجزء من مال لأجل البوسنة هذه الوجوه ، إني أعرف جيداً أن أية كلمة أستعملها أو أية صورة أصورها لا تستطيع تسجيل ما في قلوب هؤلاء الفتيان من حب وحنان للوطن وما في أبدانهم من ألم يغلب عليه استعدادهم للتضحية من أجله .

ومن جملة ما قاله الدكتور فاروق إن غالبية هؤلاء الفتيان في بداية دراستهم الجامعية ، وإن التاريخ سيسجل أن هذا الجيش أكثر جيوش العالم علماً وثقافة، حيث أنه يتألف من طلبة كليات الطب والهندسة وكافة العلوم الطبيعية الاجتماعية الأخرى . باختصار إنه شباب بوسنوي مسلم بحت يريد الصرب ومن والاهم القضاء عليه .

خرجت من مبنى المستشفى وأنا أسأل نفسي : يا تُرى لماذا يكرهوننا إلى هذه الدرجة ؟ هل الإجابة هي في تفوقنا الديني ؟ ولأنهم يشعرون بذلك ويخشونه فهم يريدون إهلاكنا ؟ إنهم يريدون فناء الإسلام بفناء المسلمين ، لكنهم لا يشعرون أن النتيجة عكسية وأن الإسلام ينتشر رغماً عنهم . ولقد قال تعالى في القرآن الكريم : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نورَهُ ولو كره الكافرون ﴾ (التوبة / ٩ ، ٣٢) اللهم ، يا رب لك الفضل ولك الشكر لما لنا من التفوق الأخلاقي والعقائدي والإنساني .

سرني هذا الشعور وأنساني تعبي ، وتوجهت إلى بقية المباني والغرف لزيارة من لم أزره بعد من الجرحى .

في آخر النهار المتعب جداً ، ذهبت إلى رئاسة الجماعةُ الإسلامية حيث

تمكنت من الاتصال هاتفياً بأحد أصدقائي بزغرب لأخبره بأن يتكرم بإخبار زوجتي في أمريكا بأنني دخلت سراييڤو وأنني بخير .

تعرفت في الرئاسة الإسلامية على مدير المؤسسة الإنسانية الإسلامية «مرحمت» السيد إيداه بتشيروڤيتش ومدير البنك الوقفي نور الدين كوستوريتشا ومستشار الرئاسة محرم عمرديتش .

* * *

• الجتنيك يخافون حتى من أموات البوسنويين :

القذائف لا تزال تملأ سماء سراييڤو وهي تدمر وتحرق كل ما هو قائم بعد من ممتلكات الناس ووسائل حياتهم . يجري تدمير روح المدينة وقتل كل مخلوق حي ، كل كائن يتنفس .

في هذا اليوم قتلت القذائف ثلاثة مدنيين . فهذه الحرب شاملة موجهة ضد المدنيين والمدنية والثقافة بما فيها من كافة مكاسبها المادية والاقتصادية والروحية . إنها أيضاً حرب ضد الأموات ، فبينما تحفر فئة من الناس قبراً لأحد الموتى أو القتلى يقوم الجتنيك بإطلاق النيران عليهم ، وبينما تصلي فئة أخرى صلاة الجنازة أو تقوم بدفن الميت يطلقون عليهم أيضاً الرصاص أو القذائف .

الجتنيك إذن خائفون حتى من أموات البوسنويين .

قال لي أحد المسئولين عن الدفن : إنه نادراً ما كانت تؤدى جنازة أو يدفن ميت بدون قذيفة . تنهدت ونظرت إلى السماء : « يا أوروبا إلى متى ستغمضين عينيك على هذه الكوارث ؟ إلى متى ستدعون دعوة النفاق وهي المفاوضات حول ما انتزع بالقوة ؟

إلى متى ستصرين على المفاوضات من أجل إعطاء متسع من الوقت للمعتدي لنَيْل فتوحات جديدة ، التي ما نالها لولا تفوقه في السلاح وفي أثناء

المفاوضات بالذات ؟ وفي الدورة التالية من المفاوضات تأخذين تلك الفتوحات الجديدة قاعدة للمفاوضات المقبلة ؟

إنك تريدين بتلك الطريقة الماكرة الدنيئة تجاهل الاعتداء والظلم ، إنك تنسين أن فوقك وفوق الجتنيك، كما أنه فوقنا جميعاً، رب عادل يسهر لا تأخذه سِنة ولا نوم والذي سيحكم عليكم حكمه الأخير العادل ، ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (الشعراء / ٢٦ ، ٨٨ - ٨٩) .

* * *

الجزء الثالث

لا أحد يدري كيف تُسَمّى هذه الحرب

● أحمل سراييفو في قلبي :

بعد زيارة تمت بالخير والحمد لله لمدينة سراييڤو الباسلة ، تركت بقلب حزين أهلها الطيبين الصابرين ومئات المرضى والجرحى يعيشون في جحيم دنيوي بالإضافة إلى آلاف القبور الجديدة لشهداء البوسنة .

وقد عقدت العزم أن أزور هذه المدينة المعذبة مرة أخرى في الحرب أو في السلْم . غادرت مدينة سراييڤو وفي نيتي طرح سؤال باسم المواطنين المعذبين والمحاصرين بكل أجناس العدو أمام دول الغرب وأسألها : لماذا تسمح بتنفيذ مثل هذه الخطة المدبرة القاسية التي ترمي إلى إبادة الشعب المسلم ، بالقتل اليومي للمواطنين الأبرياء وطردهم من بيوتهم وأملاكهم وهدم وتخريب خيراتهم وتراثهم الحضاري والثقافي ؟

لماذا تسبب كل هذه الآلام وهذا الظلم لأمهات البوسنة ونساء البوسنة وأطفال البوسنة ؟ قمت بزيارة العديد من عائلات استشهد أطفالهم وإخوانهم وآباؤهم وأزواجهم بقذائف صربية أطلقت عليهم من الجبال . يتألم الإنسان عندما يرى هذه الوجوه المشوهة من الألم ، وإن كان الأشد ألماً هو الاستماع إلى النفثات المؤلمة العميقة التي تخرج مع أنفاس النساء البوسنويات الجريحات النفوس . غير أن أشد الأمور ألماً هو اللقاء مع أمهات قتل المجرمون لهن طفلاً أو أكثر ، إنهن من شدة الألم صامتات ، لا يملكن القوة على عمل أي شيء سوى التضرع إلى الله سائلات إيَّاه أن يلحقهن بإرادته بأولادهن ، لا ترغب هؤلاء الأمهات شيئاً سوى الموت حتى تنتهي آلامهن في هذه الحياة الدنيا .

أتمنى أن أترك مثل بعض النساء السعيدات النادرات هذه الأرض الدموية لأذهب إلى أبنائي ، لألتقي بهم في الحياة الأخرى ، هكذا عبرت إحدى

الأمهات من سراييڤو والتي فقدت ابنين لها عن إحساسها ، لم أستطع إيقاف دموعي أمام تلك الأم الهادئة الصبورة .

ماذا ينتظر أولئك المجرمون الذين سببوا كلَّ هذا الشر ؟ هل يمكن أن يفلتوا دون عقاب على أعمالهم القذرة التي حوَّلت الحياة الهادئة العادية إلى جهنم ، لدرجة أن أمهات هذا الشعب يرون الموت نجاة ومخرجاً وحيداً من هذا العذاب ، فالموت سيأخذهن بعيداً عن القتل والدمار والعذاب اليومي ، بعيداً عن أكاذيب الناس الذين يكرهون بلا حدود ، وبعيداً عن غلاظ القلوب الذين أعمتهم الكراهية لدرجة تحدي الله – سبحانه وتعالى .

كيف يمكن لرجال السلطة في أوروبا ألا يقيسوا حياة أطفال البوسنة بحياة أطفالهم ولو للحظة واحدة ويقوموا باسم تلك الطفولة البريئة الطاهرة بوقف تلك القبائل الجتنيكية الهمجية المتعطشة للدم الإنساني ؟ وكيف تكون قلوب أولئك الرجال الذين يقررون مصير كافة الشعوب ، ويسمحون لتلك العصابات الصربية العدوانية بزرع الخوف في عيون أطفال البوسنة ، والألم في نفوسهم، ويسمحون بحرمانهم حقوقهم في الحياة ، حيث يعذبونهم بالجوع والخوف والحزن على فَقْد والديهم .

إن الناس جميعاً في البوسنة ، على علم تام بمدى الظلم الذي يرتكب في حقهم، فعندما كنت أتحدث معهم عن المساعدات التي تمدُّهم بها الدول الأوروبية والغربية من أدوية وطعام ، كنت غالباً أسمع كلمات الاتهام ، يمدوننا بشيء من الأطعمة محدودة الكمية حتى يبقونا على قيد الحياة مدة أطول لنكون صيداً جميلاً للكلاب المسعورة من فوق الجبال .

إنها لكلمات صعبة ، لكنها كلمات صادقة من البوسنويين المعذَّبين .

أثناء وجودي في سراييڤو عند وحدة المجاهدين المسماة بـ « فاتح » استنتجت من اسمها أنها تتميز بشيء ما عن غيرها من الوحدات . هي في الحقيقة تتكون من الجنود المؤمنين الأقوياء ، هدفهم الوحيد الجهاد في سبيل

الله ، عندما تعرفت على القائد آدم سينانوفيتش والمجاهد شوّال غني ، كنت سعيداً بقدر ما تسمح سراييڤو المدمَرة والقبور الجديدة في كل مكان أن يكون الإنسان سعيداً ، لقد أُعجبت بهؤلاء العمالقة البوسنويين الطيبين وقررت أن أغادر سراييڤو بصحبة شوّال كمرافق لي أثناء عبور أرض المطار الخطير جرياً على الأقدام مرة ثانية .

كنت حزيناً لترك سراييڤو ومغادرتها ومغادرة أهلها الذين لا حول لهم ولا قوة ، يُقتَلون لأنهم مسلمون فقط ، ويعيشون على أرض البوسنة ملتقى الثقافات المختلفة ، خاصة الثقافة الإسلامية التي يرغب الجلادون من الجبال في تحويلها إلى تراب وغبار .

من ناحية أخرى أسرعت لمغادرة المدينة ؛ لأحاول بكل الوسائل الممكنة التقديم ، والشرح للعالم المتدين اليوم ، ماذا يجري في قلب أوروبا لشعبها العريق ذي الديانة الإسلامية . النتيجة واحدة وجليّة : يجب إبادة مسلمي البوسنة مثل ما تمت إبادة الشعوب الأخرى غير المسيحية ، هناك قوة عاملة على إبادتهم منذ وقت طويل . التعطش للقضاء علينا موجود عندهم منذ زمن بعيد ، غير أن البوسنويين لسذاجتهم ولطيبة قلوبهم لكل ما حدث قد فقدوا الاتجاه وأصبحوا ضحايا من جديد ، عاشوا مستريحي البال يتجولون بدون أية مقاومة في شوارع الجزء القديم من المدينة ذات الأغلبية السكانية المسلمة في الأحياء التي كانت تحمل أسماء مثل ميلوش أو بيليتش وسفيتوزار ماركوفيتش وفوك كاراجيتش وبوك بوغدان . . . إنهم لم يحتجوا لعدم ذكر آدابهم ولا أدبائهم القيمة والغنية في كتبهم أو كتب أولادهم الجامعية منذ القرن الخامس والسادس والسابع عشر ، كما لا توجد معلومات ولا حتى جزئية عنهم . كل الثروة الأدبية للشعب المسلم البوسنوي مسجلة باللغة العربية والتركية فقط .

لم يسمع الشباب البوسنوي غالباً عن كتّابهم وشعرائهم المسلمين . فقد أتيحت لي فرصة اللقاء مع الطلبة البوسنويين في أمريكا . قالوا : إنهم

سمعوا عن صفوت بك باشا ليتش وحسن كافي بروشجاك ورضا بك كبتا نوفيتش هنا في أمريكا وليس في يوغوسلافيا السابقة . غير أنهم سمعوا وتعلموا جيداً ودرسوا للأدباء الغرباء مثل نيكوش حتى جوبيشيتش ، تعلموا الأدب القروي الاتجاه ، القصصي غالباً .

ومجَّد هذا الأدبَ الريفي القاتلون والجلادون ورفعوهم إلى مرتبة الأبطال . وكان نتاجاً لهؤلاء الأدباء المتوحشين الذين حاصروا المدن وزرعوا الموت ودخلوا القرى وذبحوا وحطموا كل ما هو إسلامي .

تحركنا من ثكنة « فاتح » بسيارة « جولف » ، إن الخروج إلى شوارع سراييفو أو الوجود في أية غرفة في المدينة المحصورة خطير جداً ، لكن ركوب السيارة والسير بها في شوارع سراييفو لمغامرة حقاً ، لأنك تضع حياتك عمداً تحت رحمة المقادير . كانت القيادة سريعة جداً وملتوية تشبه القيادة في بعض مشاهد الأفلام البوليسية ، كان الموت ينتظرنا على كل مفترق طرق ، وجنود القناصة الجتنيك المرتزقة يتابعون بحذر كل ما يتحرك ليقتلوه بلا رحمه ، أما أنا فلم أكن أخاف أولئك المتوحشين لأن حب الله وشعبي المعذَّب حجب الخوف عني .

وصلنا إلى منطقة دوبرينيا البطلة سالمين وبدون جروح . دوبرينيا أكبر حي سكني في سراييفو ، مئات الصفحات الحزينة والمثيرة كُتِبَت عن مأساته الحربية. بدءًا من دوبرينيا في يد « الفاتح » وقاعدتها توجد في منزل صربي هارب من المدينة ، هذا الصربي كانوا يسمونه قبل الحرب « الجار الهادىء » مثله مثل بقية الجيران الذين تركوا المدينة وذهبوا إلى الجبال قبيل العدوان على سراييفو ، واثقين أنهم سيرجعون إليها بسرعة بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر. غير أن سراييفو لم تسقط لا في ثلاثة أيام ولا حتى بعد مضي اثنين وعشرين شهراً حتى الآن .

وجدت في قاعدة « الفاتح » المجاهدين الذين لمحت على وجوههم

استعدادهم الكامل للدفاع عن وطنهم الحبيب ، لا يستطيع الإنسان أن يكون متشائماً ، عندما يشاهد هؤلاء الرجال البواسل ، الممتلئين قوة وإرادة للدفاع والكفاح ، إلا أنهم رقيقو الملابس خفيفو الأسلحة . تحدثت معهم طويلاً لأني كنت أنتظر مجيء الليل وسقوط الظلام لمحاولة عبور أرض المطار الخطيرة تحت جنح الظلام .

تساقطت الثلوج باستمرار وبدون أمل في انقطاعها رغم أنها بلغت نصف المتر ارتفاعاً ، يطلق الجتنيك باستمرار ، فبحوزتهم الكثير من الذخيرة التي دفع ثمنها باهظاً مسلمو البوسنة قبل الحرب ، المسافة بيننا وبين تلك العصابات الشريرة ٢٠٠ متر فقط . لديهم الطعام بكميات ضخمة لأنهم نهبوا وما زالوا ينهبون ، كما أن الإمدادات وكل ما يرغبونه تصل إليهم من صربيا . أتذكر مشاهد الجتنيك التي رأيتها على التليفزيون وهم سمان الجثة وبكامل أسلحتهم وعدّتهم وأقوم بمقارنتهم مع جنودنا الأبطال الكرام ، نحاف الجسم في سراويلهم ، وأحذيتهم الرياضية أو في أحذيتهم الخاصة العادية ، في البرد الشديد يخوضون المعارك .

كيف يتم تقديم كل هذا الظلم الذي يسود ربوع دولة ذات سيادة للناس في العالم ؟ الواقع الحي في البوسنة رهيب ومؤلم لدرجة أن حكاياتي المستمرة والأقلام المسجلة لن تستطيع تصوير كل هذه المآسي التي حلّت بالشعب البوسنوي البريء .

إن الحزن الذي استولى عليَّ لفترة قصيرة قد تحوَّل إلى قوة مفعمة بالحب نحو الشعب الذي هو بحق في عذاب لا حدَّ له ، « عليَّ أن أساعد هؤلاء الناس بكل ما أستطيع فهم يستحقون ذلك » أكرر هذا دائماً في نفسي . «أصبحت قليل الاحتمال في انتظار الليل الذي يأخذني في أحضانه ويخرجني من المدينة تحت ظلامه كي أتجه إلى أمريكا وأجمع من إخوتي في الإسلام التبرعات بأكبر قدر ممكن كمساعدة لسراييفو » .

غادرنا دوبرينيا في الحادية عشرة مساءً ونحن جياع ومرهقون . ينتظرنا البرد القارس خارج البيت حتى ظننت أن الدم في عروقي قد تجمَّد ، إلى جانب الثلوج الكثيفة كانت هناك الرياح العاصفة تعوق سيرنا ، نظراً لأننا في الخط الأمامي ناحية الجتنيك ؛ فقد تابعتنا رصاصات القناصة خطوة بخطوة . لذا كنا مضطرين أن نستلقي على الأرض المغطاة بالثلوج الكثيفة من حين لآخر ، ثم نقوم لنواصل الطريق وهكذا باستمرار . السفر بهذه الطريقة وسقوطنا وقيامنا قد أرهقني لدرجة أني ظننت أني لن أتحمل الطريق إلى النهاية ، لكن ، لا رجعة ، إذ من الواجب عليَّ أن أتحمل . وصلنا إلى سياج المطار المعروف لدي جيداً في وقت قصير ، ألقيت نظرة على تلك الأماكن المقطوعة السياج والتي لا بد من اجتيازها كي نعبر المسافة المطلوبة إذا كان التوفيق معنا . استلقينا قرب سياج المطار في انتظار اللحظة المناسبة للعبور . أحس بالبرد الشديد في جسدي وأتساءل هل باستطاعتي أن أتحرك ؟ على قدمي حذاء عسكري دامَ لحسن حظي حتى النهاية ، فشوارع سراييڤو مغطاة بالزجاج المكسور المهشَم وأكوام الملاط ، حيث إنَّ أي حذاء كان لا يدوم كثيراً . لحق بنا أناس آخرون يريدون مغادرة المدينة بنفس الطريقة مثلنا . ذكر لنا أحدهم أنه يعبر هذه المسافة (أرض المطار) من حين لآخر لشراء بعض المواد الغذائية لأهله .

قررت مجموعة من الناس أن تقوم بالعبور ، أردت الاقتراح أن نتحرك معهم لكن شيئاً ما منعني من ذلك . فجأة ، أخذ رجل غير معروف في التحدث ، ظننت في البداية أنه يتحدث مع نفسه إلا أني أدركت أنه يتحدث معي ويخاطبني :

– يا أخي ، كم منهم بقى هنا في هذا الحقل ، فهنا قتلت جارتي فاطمة ، عمرها تسع وعشرون سنة ، كان لها ولدان ، زوجها رغاب الذي كافح على جبل « جوتش » قد استشهد ، ومنذ شهر حاولت هي عبور المطار جرياً لتأتي بالطعام لأولادها ، غير أن هؤلاء الأعداء هنا قد أضاءوا المكان فأصبح الليل

مثل النهار ، فرآها الكلاب الجتنيك من فوق الجبال وأصابوها بالنار وقتلوها . قال الذين كانوا معها : إنها ظلت سائرة على قدميها فترة طويلة بعد إطلاق الرصاص ثم تعثرت وسقطت ، لقد كان في جثتها تسع عشرة ثقب من الطلقات . فاطمة وزوجها مهاجران من روغاتيتسا وليس لهما أحد هنا ، فأخذت أولادها عندي ، أولادي الثلاثة وولداها .

يا صديقي هناك مثل شعبي يقول : « إن الجوع لا عيون له » ، اسمع يا صديقي ، إن الأطفال يبكون أولاً من الخوف ، لأنهم واجهوا الموت ، ورأوا الجثث المتقطعة من القذائف ، والقذائف تطلق باستمرار ، حتى الأطفال يعرفون أنه ليس هناك مكان واحد أمين في المدينة لنحميهم فيه . ألا ترى يا صديقي أني لا أستطيع مساعدتهم من تلك الناحية ، ثم يبكي الأطفال من البرد ، والله لقد استعملت كل أثاث المنزل في الفرن للتدفئة والطبخ : المنضدة، الكراسي ، الخزانة ، كل شيء ، والآن نلتف جميعاً في البطانيات، لكنهم يرتعشون من البرد ، الخوف الشديد والبرد القارس إذا اجتمعا حينئذ يرتعش الأطفال مثل الرّعاش . وفي هذا أيضاً لا أستطيع معاونتهم .

أما إذا بكوا لأنهم جياع ، وهو ما يحدث كثيراً ، هنا أعرف أن هناك أرض المطار ، إما العبور أو الجوع ، في المرة السابقة أحضرت لهم كيلو من الدقيق وتفاحتين ، آه ، لو تعرف كم كانت فرحتهم عظيمة عندما رأوا التفاحتين ؟ فرحة لا يمكن وصفها ، فتحوا عيونهم مثل الفناجين ، لا يصدقون .

قطع الرجل كلامه واختفى مع مجموعة من الناس بدءوا في محاولة العبور. أنا آسف لأني لم أر وجهه في الظلام ، ولم أحفظ اسمه ، لكني أعلم جيداً أني في كثير من الليالي رأيت فاطمة وهي تجري عبر المطار وتعثر وتسقط . كم من فاطمة يا إلهي ، في بوسنتي ؟

قمنا وتحركنا داعين الله أن يكون معنا ، سرنا في الطريق الضيق الممهد في الثلج بخطوات سريعة قدر استطاعتنا ، لكن بسبب الأخاديد التي تقطع

الأرض سرنا ببطء شديد ، اختلط الثلج بالتراب فنتج عن ذلك الطين اللاصق بالأحذية ، لذلك كنت أرفع قدميَّ المتجمدتين والباردتين بآخر ذرة من قواي. لقد فقدت نعل فردة من حذائي العسكري ، أظن أننا قطعنا نحو خمسين متراً من الطريق . فجأة واجهتنا الأسلاك الشائكة ، **عندما وقفنا أمام الحاجز الذي لم نتوقعه كشفتنا قوات الأمم المتحدة التي وجهت مرايا المدرعة العاكسة نحونا، كان لا بد من الرقود في الطين ، بمجرد أن رقدت سقطت إحدى رصاصات القناصة بجانبي ، إذن ، رآنا جنود القناصة فحاولوا قتلنا ، جنود الجتنيك وقوات الأمم المتحدة يعملون معاً ويكمِّلون بعضهم بعضاً .**

فكرت بمرارة ما العمل وكنت مبلولاً تماماً وأرتعش من البرد ، وفجأة رأينا جنود الأمم المتحدة أمامنا وهم يأمروننا بأن نركب مدرعتهم .

على الرغم من أني لاقيت معاناة كثيرة معهم من قبل ، وعلى الرغم من أني على علم بأنهم يتعاملون مع الجتنيك إلا أني كنت آمل بأن يعاملوننا بطريقة إنسانية ولو مرة واحدة وأن ينقلونا إلى هدفنا ولو شفقة علينا ، لكني لم أكن على صواب ، بدون رحمة ولا قلب ولا نفس رجعونا إلى دوبرينيا من جديد، رجعونا ونحن متجمدون من البرد ملطخون بالطين وفي آخر قوانا . حاولت التحدث معهم باللغة الإنجليزية وأطلب منهم المساعدة لكنهم لم يستمعوا لي ، بل إني كنت قرير العين لأن هؤلاء الأسياد ، أسياد أرض البوسنة وأسياد حياة رجال البوسنة لم يستولوا على الأشرطة والوثائق التي أحملها رغم أنهم كانوا يستطيعون ذلك فهم لا يُسألون عما يفعلون .

لم نتراجع عن نية العبور عبر ذلك الطريق الخطير مرة أخرى ، لكن بعد استراحة قصيرة ، بينما كنا نتشاور عمَّن نختار ليكون مرشداً لنا في المحاولة الجديدة ، قررنا أن يكون شوَّال مرشداً لنا في محاولتنا الجديدة للعبور . أبدينا الرغبة في التحرك في أقرب وقت ممكن ، حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كنا في نقطة التجمع .

لم تنقطع معاناتي التي تأتي من الأحذية الرديئة ، كنا نشق طريقنا في الوحل والثلج والطين غير واثقين أننا نسير في الاتجاه الصحيح المطلوب . شعرت أننا لا نسير باتجاه هدفنا ، وللأسف الشديد أدركنا بعد نصف ساعة من المشي الشاق أني كنت على حق ، إذ كنا ندور في الحقيقة في دائرة حيث وصلنا إلى مكان الانطلاق ، رغم أننا كنا منهكي القوى ، متجمدين من البرد ومتشائمين بسبب الطريق الضال ، قررنا المحاولة مرة أخرى وأن نختار قائد وحدة الفاتح « آدم » ليكون مرشداً لنا في هذه المحاولة لمغادرة سراييڤو .

لم ننسَ الدعوات الموجهة إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، وبرفقة آدم عبرنا أول الطريق ووصلنا إلى الأسلاك الشائكة واجتزناها ، لكن خاب أملنا مرة أخرى إذ وجدنا مدرعة قوات الأمم المتحدة أمامنا فجأة . بدت وكأنها سقطت من السماء ، أمرنا رجالها بأن نركب ، كنت واثقاً أنهم سيرجعوننا مرة أخرى إلى بداية الطريق ولا أمل لنا اليوم في الوصول إلى هدفنا ، لا أعرف مدة السفر ، لكن توقفت فجأة وفتح بابها ، خرجنا ، لم نصدق ، إنهم نقلونا إلى الجهة الأخرى .

سِرْنا ونحن في غاية السرور إلى سوكولوڤيتش كولونيا رغم البرد الشديد ، أخطو بصعوبة قصوى لأن فردة حذائي اليسرى لا أثر للنعل عليها ، ولذا كانت قدمي تلتصق مباشرة بالطين والثلج ، وكنت أشعر بالضعف الشديد من الألم والبرد .

استجمعت قوتي في مقر وحدة الفاتح ، لم أصدق لمدة طويلة أن منطقة دوبرينيا خلفنا . هذا الحي ، رمز الألم والعذاب في سراييڤو ، كما أن سراييڤو رمز الألم والعذاب في البوسنة والهرسك كلها . لا أريد أن أتحدث عما عاناه أهل دوبرينيا الباسلة حتى الآن ، بل أترك الكلمة لأديب من سراييڤو اسمه نجاد إبريشيموفيتش وأنقل نصاً من كتابه الذي ألفه أثناء الحرب وفي دوبرينيا :

« .. إنهم يضربون المنازل من الدبابات والمدافع المضادة للطائرات أوّلاً ، إن لم يقبضوا عليك ولم يذبحوك ، ينهبوا منزلك ويشعلوا فيه النار ، إذا توغلت داخل دوبرينيا عند أحد معارفك أو جارك يجبروك بقذائفهم أن تجلس في البدروم حيث لا ماء ولا نور ولا طعام ، إذا مللت وخرجت أمام البيت لتقطف أوراق الهندباء للسلطة يصبك القناصة برصاصهم ، يصيبك بجروح مثلاً ولا يقتلك ، وإذا قبض جنود دوبرينيا على ذلك الشرير المجرم الذي أصابك بالجروح يطلب الجتنيك إعادة ذلك المجرم لهم ، إذا أردت أن توصلك سيارة الإسعاف إلى أول مستشفى في سراييفو - حيث أن دوبرينيا محاصرة - يجب إعادة ذلك المجرم للجتنيك ليسمحوا لك بمرور سيارة الإسعاف إلى سراييفو ، وفي مكان آخر تنتظر نفس السيارة « في مويميلو مثلا » جتنيك آخر ليقتل المرض من كمينه ، عندما تأتي إلى المستشفى تكون أنت جريحاً والمرض ميتاً جانبك في السيارة ، عندما تنزل في المستشفى الذي لا دواء فيه ولا طعام ، يطلق الجتنيك عليه القذائف من الجبال المجاورة ، أولئك المجرمون الذين شبعوا من الخنازير المشوية وشربوا الخمر وطربوا على ربابتهم وغنوا أغانيهم أخذوا يطلقون القذائف على المستشفى ، وفي طريق عودة سيارة الإسعاف يقتلون سائقها من ثكنة المارشال تيتو ، ويسلبون السيارة نفسها أو يتلفونها تماماً ، إذا مُتَّ في المستشفى من الجروح يحفروا لك القبر في أول حديقة ، وأثناء الجنازة يطلق الجتنيك النار من جديد من جبال تريباويتش على التابوت وعلى الإمام وعلى الرجال الطيبين الذين أتوا لتشييع الجنازة إنهم يضربون بالقذائف حتى قبرك » .

* * *

● **لا أحد يعرف ما اسم هذه الحرب :**

في الحقيقة لا أحد ذو عقل ولا أحد ذو طبيعة سليمة يمكن أن يصف أو يعطي اسماً لهذا الرعب البوسنوي ، الذي هو قبل أي شيء قتل الأبرياء من

المواطنين وهدم بيوتهم ومعابدهم ، ثم تليها معركة حربية يخسرها الجنود الصرب ويضحون بحياتهم للا شيء ، ثم يفرغون غيظهم من الجبال حول المدن البوسنوية بإطلاق القذائف على المواطنين العزل من السلاح .

من خلال محادثاتي الكثيرة مع المواطنين والمجاهدين ومع كبار رجال الدولة استنتجت أنهم كلهم بالرغم من وعيهم التام بمأساتهم ، ما زالوا حائرين أمام الكم العظيم من الظلم .

بينما يقتل الصرب الشعب الوحيد المعتنق للديانة الإسلامية بمعاونة دول الغرب ، يجب طرح السؤال الآتي : كيف يمكن أن يكون هؤلاء الأفراد الكثيرون - وهم مسئولون مباشرة عن إراقة أنهار الدماء البريئة - في حياتهم الشخصية آباء رحماء ، وكيف يتضرعون في الكنيسة طالبين من الله السعادة والصحة لهم ولعائلاتهم ولشعوبهم ؟ ما هو تصورهم لله ؟

أتذكر قرارات « الميثاق العالمي لحقوق الإنسان » ، وأتساءل والدموع تسيل من عيني ، من أجل أي كائن حي تم اتخاذ هذا القرار ؟ وضعت كمية كبيرة من الوقاحة والكذب في وصايا هذا « القرار » - كل شخص له حق الحياة والحرية والأمان الفردي - لا يجب أن يُعذَب أحد أو يُعامل معاملة قاسية غير إنسانية .

أتنفس بصوت عال بينما رفيقي البطل شوَّال ينظر إليَّ وهو مضطر ، وبعد وقفة قصيرة سألني ماذا يحدث لي ؟ ربما أنا مريض ، وبدلاً من الإجابة وجهت له سؤالاً في هدوء وسخرية : هل تعرف يا أخي شوَّال كيف يشعر الإنسان الجريح النفس ؟ ابتسم شوال في ألم ولم يجبني ، غير أن ابتسامته وإيماءه الهاديء بالرأس كانتا إشارة بأنه يعلم جيداً ما معنى ألم النفس .

أعادني من تفكيري الذي غرق فيه صوت شوَّال الحنون يذكرني من جديد بأن وقت الطعام قد حان وعلينا أن نأكل ونأخذ راحتنا . لم يبق من الليل إلا وقت قصير إذ لم نصل إلى دوبرينيا إلا في الرابعة صباحاً . على أي حال ،

نمت قليلاً ، وبعد نوم عميق لكنه قصير قمت وذهبت مع صديقي من «الفاتح» إلى الإمام سليمان كورتانوفيتش ، حيث كان في استقبالنا الكلمات الجميلة الأخوية الحارة والقهوة والفطير البوسنوي المسمى « كليوكوشا » اللذيذ ، عجزت أنا وأصدقائي صالح وجفر وسالم ومفيد عن التعبير بالكلمات المناسبة لنشكر بها سليمان أفندي على استقباله الحار لنا .

* * *

● عبر إيغمان من جديد :

في الثلاثين من مارس سنة ١٩٩٣ قررنا مغادرة هراسنيتسا لنواصل طريقنا إلى جمهورية كرواتيا . ذهبنا إلى نقطة الشرطة في هراسنيتسا لنستفسر عن كيفية السفر إلى بازاريتش . وبعد المحادثات مع نائل الميكانيكي وافق على مرافقتنا فتحركنا وانطلقنا . كان الطريق عبر إيغمان رديئاً جداً لكن نائل الميكانيكي كان معنا فلم نهتم كثيراً .

وصلنا إلى بازاريتش بخير ، ونزلنا عند عزت أفندي ترزيتش الذي استقبلنا بحرارة ، شاهدنا الأشرطة التي كانت معنا ، بعد صلاة الظهر وتناول الغذاء واصلنا الطريق ، صاحبنا في الطريق بايرو أفندي بانديتش الذي كان يزودنا بمعلومات كافية عن الطريق والحرب والمعاناة والبطولات طول الطريق ، كان نظري متجهاً إلى الناحية اليسرى ، حيث كنت أتمتع بمنظر جبل بوسنة «بيلاشنيتسا » الشهير .

« ذلك الجبل قاس وخطير ، قص علينا نائل وأضاف ، خاصة في فصل الشتاء حيث تتساقط الثلوج بكثافة وتحملها الرياح ويصبح ارتفاعها بضعة أمتار فيضل المتزحلقون طريقهم لأنهم لا يعرفون طبيعة ذلك الجبل ، وغالباً ما يفقدون حياتهم » .

غارقاً في الشمس الساطعة ومغطى بالثياب البيضاء الشتوية لا يسمح ذلك الجمال بالنظر إليه طويلاً دون صعوبة .

فكرت : ليس غريباً أن يأتي أعداء البوسنة من كل ناحية محاولين احتلالها، وهذا ما فعلوه أكثر من مرة في تاريخ البوسنة الطويل ، وعندما لم يفلحوا في ذلك يقومون بهدمها وتخريبها .

أتساءل : كيف حدث للإنسان البوسنوي - بعدما حدث له في الحرب العالمية الثانية - وبعد أن تأكد له أن للصرب نزعة طبيعية لإراقة الدماء وشهوة كبيرة لنهب أموال الآخرين وقتل الأبرياء ، كيف حدث له أن يصدق خدعة إمكانية الحياة السعيدة المشتركة معهم ؟

في طريقنا إلى كيسلياك مررنا بمدينة صغيرة تسمى تارتشين ، منتزه جميل ومكان لقضاء عطلة نهاية الأسبوع لكثير من أهل سراييڤو من قبل ، زودنا سيارتنا بالوقود في محطة البنزين . استنتجنا أن الحالة في تارتشين لا هي سلم ولا هي حرب ، المعارك الحربية في هذا المكان تركت جانباً وخير شاهد على ذلك البيوت المخربة والمسجد المهدم ، فهدم المساجد قانون همجي اتخذه الصرب لأنفسهم . قد علمنا من بايرو أفندي أن في ذلك المكان الصغير يعيش ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة من بينهم كثير من المهاجرين من مختلف أنحاء البوسنة والهرسك ، حيث وجدوا ملجأ لهم في تاوتشين .

واصلنا سفرنا والطريق سيء وغير ممهد ونحن خائفون باستمرار من تعطل السيارة ، مررنا في قرية كونياني بسيارتين من سيارات الأمم المتحدة غير أن جنودهما لم يلتفتوا إلينا ، صار الطريق أصعب وأصعب وكانت السيارة تتورط في الأوحال تارة وتنزلق على الجليد تارة أخرى .

وأخيراً وصلنا إلى قرية بلينيا ، حيث التقينا بقوات لجنة الدفاع الكرواتية . نذكر هنا أنه في البداية كان في الوحدات الكرواتية كثير من المسلمين البوسنويين وذلك لأن عدو هذين الشعبين واحد .

كما كان في صفوف الجيش البوسنوي عددٌ كبيرٌ من الكروات والصرب الذين أرادوا المساهمة في الدفاع عن وطنهم . ولما كان أغلبية السكان في

البوسنة والهرسك من المسلمين ، فكان من الطبيعي أن يكون عدد المسلمين في الجيش البوسنوي أكثر بكثير من الآخرين ، ولذا كان المراسلون للوكالات الأجنبية يسمون هذا الجيش بـ « الجيش المسلم » ! (*) .

كان لقاؤنا مع قوات لجنة الدفاع الكرواتية قصيراً وبدون صعوبات على الرغم من أننا كنا نتوقعها بسبب النزاعات بين الجيشين .

وصلنا إلى كريشيڤو ومررنا منها دون توقف ، إذ كنا نريد قطع المسافة بينها وبين كيسلياك في أسرع وقت ممكن ، لم يخْفِ أحد منا تعبه وإرهاقه لأننا كنا قريبين من هدفنا ، مررنا بحصن باريت الواقع في مستوطن بوليا ثم وصلنا إلى قرية الأغيتش حيث أوقفتنا شرطة لجنة الدفاع الكرواتية التي عاملتنا معاملة رسمية عادية ، واصلنا الطريق إلى قرية دوهري القريبة من كيسلياك حيث مررنا على بيت صالح أفندي آغيتش الذي استقبلنا بفرحة وهو ينتظر منا أخباراً عن كيسلياك وأخباراً عن ابنه في شيكاغو ، أجبت على أسئلته بصبر وسرور ، وبسرور أيضاً قبلنا دعوته للمبيت عنده .

صلينا صلاة العشاء في مسجد القرية حيث تحدثت مع الحاضرين وكنت أحثهم على ضرورة العودة إلى صراط الله المستقيم وضرورة الجهاد ضد الكافرين . وفي صباح الغد وبعد تناول الفطور ودعنا صالح أفندي مع رجائنا بزيارته مرة أخرى فوعدته بذلك .

ركبنا السيارة وذهبنا إلى زينتسا ، حدثنا رفيقنا بايرو عن الشيخ الحافظ أفندي موييتش فقال : إنه ولد في مدينة صغيرة اسمها روغاتيتسا وهي واقعة شرقي البوسنة ، المنطقة التي كانت في الحرب العالمية الثانية كغيرها من الأماكن الواقعة على طول نهر درينا محتلة كما هي محتلة الآن في هذه الحرب وسكانها مهجرون مثلما هم الآن .

(*) ولماذا لم يسموا الجيش الصربي بجيش المسيحيين أو جيش الأرثوذكس ؟

بعدما شاهد موييتش وعاش ألواناً كثيرة من الظلم والمعاناة والمكاره التي تعرّض لها المسلمون في المناطق الواقعة شرقي البوسنة جاء هذا العالِم إلى قرية باليج قرب كيسلياك واستقر فيها وتفرغ لتربية وتعليم أطفال المسلمين . وقد أدب وربّى أجيالاً كثيرة من الأئمة وحفظة القرآن الكريم ابتداء من سنة ١٩٣٥ حتى بداية الاعتداء الصربي على البوسنة والهرسك سنة ١٩٩٢ .

لم يطلب الحاج مصطفى موييتش مقابلاً مادياً لعمله هذا أبداً ، إذ رأى أن جزاءه في رؤية سعادة شعبه ، وفي هذه الفترة الحربية الصعبة نقل إلى مدينة فيسوكو ، وما أسعد البيئة التي يعيش فيها مثل هذا الرجل ونادراً ما يُولَد أمثاله ، جزاه الله أحسن الجزاء .

* * *

● عودتي إلى البوسنة مرة أخرى :

مررنا في طريقنا إلى زينتسا بنقط التفتيش الكرواتية مما جعلنا نشعر بشيء من القلق لما سمعناه عن الجرائم الكثيرة التي اقترفتها القوات الكرواتية ضد المسلمين البوسنويين ، لكن يبدو أن جواز سفري الأمريكي كان بمثابة الضمان لمرورنا منهم بسلام ، إذ أننا عبرنا النقط كلها بسهولة نسبية بعد فحص أوراقنا وتفتيش أمتعتنا ، إلا أنني أحسست في النهاية باليأس لوقوع هذا النزاع الجديد وهبوط مصيبة جديدة على كتف البوسنويين المسلمين .

عند مدخل زينتسا أوقفتنا الشرطة البوسنوية وفحصت أوراقنا ، وبما أن الوقت كان ليلاً لاحظت تواً أن المدينة كلها في الظلام إلا بضعة أنوار ضعيفة .

وصلنا إلى أحد الفنادق ، استقبلتنا في مدخله البارد امرأة تقول لنا : ليس عندنا تدفئة ولا كهرباء والماء والكهرباء يصلان نادراً ، وظهر إلى جانبها شاب قال : باستطاعتكم الصعود إلى الغرفة لكن السرائر بدون بطانيات إذ تبرعنا بها لصالح المهاجرين والمجاهدين .

إلا أنهم وبعدما صعدت إلى الغرفة أحضروا لكل واحد منا بطانية خفيفة ، شعرت بالجوع بعدما جلست على السرير ، فنزلت إلى قسم الاستقبال آملاً أن أجد هناك شيئاً من الطعام - خبزاً على الأقل - سألت المرأة هل المطبخ مفتوح ؟ نظرت إليّ نظرة غريبة وقالت : نعم ، هو مفتوح ، لكن ليس به شيء الآن ، غير أنها وجدت شيئاً من الخبز أعطتني إياه ، فصعدت إلى الغرفة ، وأخرجت من حقيبتي علبة من علبتي السمك اللتين كانتا عندي ونزلت وأعطيتها للمرأة ، ثم رجعت وفتحت الثانية وأكلتها بالخبز مع أصدقائي ، اضطجعت دون أن أخلع ثيابي ، فالبطانية الخفيفة وحدها غير كافية لأن الجو بارد جداً .

ذهبنا ظهر الغد إلى المسجد ، حيث التقينا مع الحافظ خليل مهديتش والدكتور جلال إماموڤيتش والأستاذ بلال حسانوڤيتش بعد أداء الصلاة دعانا الدكتور جلال إلى حضور دعاء ختم القرآن ، فسألته من هو الحافظ ؟ فلم يجبني وكأنه لم يسمع سؤالي فتخلّيت عن السؤال . إن الدكتور جلال رجل مثقف ومؤمن يستفيد منه كل مَنْ يصاحبه ، كما أنه يساهم مساهمة فعالة في الدفاع عن الوطن ، فهو من الذين يدافعون في الملابس البيضاء كطبيب .

حضرت إلى بيته حيث كانت المفاجأة العظيمة والحدث العظيم إذ استمعت إلى قراءة الجزء الأخير من القرآن الكريم من ابنه أحمد البالغ من العمر عشر سنوات فقط ، إذن فابن الدكتور جلال هو ذلك الحافظ .

إن عذوبة وصحة قراءته وسنه الصغير جعل قلبي يدق دقات سريعة - كلمات الله الجليلة بصوت طفولي رقيق - يا إلهي ! يا رب ! ما أطيب وما أجمل هذه اللحظات ! اللّهم انصره في سبيلك . بُشرى للبوسنة مع هذا الشباب ، اللّهم اهده في حياته كما هديته إلى حفظ القرآن الكريم ، اجعله يا ربّنا قدوة لنا في حياتنا وشفيعاً لنا بعد مماتنا واهدنا إلى صراطك المستقيم . آمين .

استيقظت في اليوم التالي وأنا منتعش مرتاح البال ، فلا يزال يرن في أذني صوت تلاوة القرآن الرائعة ، جلسنا على المائدة للفطور إلا أن الدكتور جلال لم يجلس معنا وأخبرنا أنه يصوم صوم النبي داود عليه السلام مما فوجئت به مرة أخرى ، أعجبني حقاً تعلُّق هذا الرجل بالله وبدينه ، وبدأت أفكر فيما إذا كنت أنا وأهلي متعلقين تعلقاً كافياً بالله العظيم . بعد الفطور شاهدنا الأشرطة التي أتيت بها من سراييفو ، مشاهد العذاب في المدن والقرى والمستشفيات وميادين القتال البوسنوية تتسلسل وتتلاحق ، صور قبور جديدة في ملاعب وساحات رياضية وحدائق عامة ومعابر قديمة تبدو غير واقعية ، لأن ما يحدث قاسٍ إلى حد لا يمكن قبوله بسهولة . فالمدن تحولت إلى مقابر بحيث يتساءل الناظر إليها : هل بقي أحد على قيد الحياة ؟

ثم أتت مشاهد المجاهدين وهم يؤدون اليمين معاهدين الله بالدفاع عن وطنهم إلى آخر قطرة من دمهم ، وصور غيرهم من المجاهدين في المستشفيات وهم ينتظرون بفارغ الصبر إتمام علاجهم ليلحقوا مرة أخرى بزملائهم في الجبهات . فإن الجرائم الرهيبة المقترَفة ضد المسلمين قد أيقظت ضميرهم الديني والقومي النائم وذكرتهم بأن التاريخ المأساوي إلى جانب العذاب والضحايا قد أتاح لهم فرصة الكفاح والحصول على الوطن . يتابع أصدقائي الصور متابعة دقيقة وهم يعرفون قيمتها الغالية الآن أثناء العدوان ، إلا أن أهميتها ستصبح أعلى بكثير بعد انتهاء الحرب عندما تحين كتابة تاريخ البوسنة والهرسك ، أو بسبب تسجيلاته المنصفة التي ستتم بالعقل والقلب وروح العلماء البوسنويين وشهادات المشاركين في النضال ، بلا وصاية الصرب الغاشمين الذين لهم ميل غريزي إلى الكذب والتزييف .

غادرنا زينتسا متوجهين إلى بازاريتش سالكين مرة أخرى الطرق الملتوية الوعرة ، فالثلوج الكثيفة تعوق سيرنا ، لكن رغبتنا في زيارة أكبر عدد من المدن الحرة أقوى من الصعوبات ، نيّتنا إخبار المجاهدين في كل مكان أنهم ليسوا منسيين ولنبلغهم تحيات المسلمين في أمريكا المستعدين لمساعدتهم بكل

الطرق الممكنة ، فقد لاحظت أن حديثي مع الجاهدين أحب إليهم من طعامهم، إذ كانت تزودهم بروح معنوية وبقدرة إضافية على تحمل المصاعب والمشاق التي وضعها العدو على عاتقهم . وكان تمسُّكي بأحكام ديننا الإسلامي يثبتهم ثباتاً إضافياً وحاسماً في اعتقادهم بأننا جميعاً على صراط مستقيم وأن عليهم أن يصبروا ويستمروا في قتالهم إلى أن يوفقنا الله بالنصر .
وصلنا أخيراً إلى بازاريتش حيث نويت البقاء عند صديق لي اسمه عثمان أيوبوڤيتش ثلاثة أيام ، إذ نويت زيارة المناضلين في الخطوط الأمامية لأرى حالهم وروحهم القتالية لما كنت أعرفه من مدى سرورهم ، عندما يزورهم زائر صديق ، خاصة إذا جاء من بلاد بعيدة . كنت مصراً على اقتحام الثلوج العميقة لأصل إلى الخطوط لكن دون جدوى ، فاقتصرت على الحصول على معلومات أعطاني إياها أهل القرى المجاورة وبعض المناضلين الذين كانوا في إجازاتهم القصيرة . وقد جرت في بازاريتش وضواحيها معارك شديدة تكبّد فيها العدو خسائر جسيمة في النفوس والعتاد . فقد كان أهل بازاريتش يقظين جداً ، وأدركوا بسرعة قصد العدو ، فأقاموا خطوط دفاعهم بمجرد أن بدأ الجيش اليوغوسلافي في حصار سراييڤو واستيلائه على بعض المواقع الهامة مما مكّنهم من قتال ناجح منذ البداية ، فمنعوا الجتنيك من الاقتراب من أغلبية قراهم . وقد لقي حتفه هناك عدد كبير من قادة الجتنيك ، أما الباقون على قيد الحياة فلن يخطر ببالهم أبداً العودة إلى هذه المنطقة مهما كان تفوقهم العسكري . يروي أهل بازاريتش عدداً كبيراً من الحكايات التي تشهد بالخوف الذي عاشه الجتنيك هنا .

* * *

● **بطولات العصابات الجتنيكية :**

في إحدى المعارك الشديدة بين قواتنا الإسلامية وقوات العدو ، أسرت قواتنا مجموعة من الجتنيك المسلحين تسليحاً جيداً ، لكنهم كانوا مذعورين

غاية الذعر ، وبعدما أجرى أفراد من جيشنا الحديث معهم وعاملوهم معاملة تليق بجيش متحضر ، سأل أولئك الجنود المذعورين : أين جنودكم ذوو الملابس البيضاء ؟ وكان من الصعب على جنودنا إقناعهم بأنه ليس هناك في بازاريتش جندي واحد في ملابس بيضاء . الحقيقة أنهم كانوا يخشون جنودنا إلى حد تنتابهم فيه الهلوسة .

إلى جانب مدينة هديتش يرتفع جبل اسمه تينوڤو ، وقد تكبد فيه الجتنيك عدة هزائم فادحة ، وحصل مناضلو الجيش البوسنوي على كميات كبيرة من الأسلحة والعتاد ثم انسحبوا ، بالرغم من أن الجتنيك بعيدون عن الجبل إلا أنهم يقومون دائماً بالاستطلاع لخوفهم من إعادة قواتنا للهجوم . وبدأ يخيل إليهم أن جيشنا يقترب منهم حقاً بقصد الهجوم عليهم . وقد كلفتهم إحدى تخيلاتهم كلفة مأساوية . فقد اتصلوا اتصالاً لاسلكياً بوحداتهم وبلغوهم أن جيشنا يقترب من الجبل ، وطلبوا منهم الهجوم عليه بكل أسلحتهم ، الذي حدث بعد ذلك أنهم هم أنفسهم ضربوا جنودهم الموزعون في مواقعهم ، وقد اكتشف مناضلونا خطأهم هذا عندما كانوا يستمعون إلى مكالمتهم اللاسلكية .

تؤكد كل هذه الأحداث عون الله المباشر للشعب البوسنوي المسلم في قتاله العادل من أجل الوطن والحرية والحق في الحياة . فبمقاومتهم البطولية يؤدون واجبهم الإنساني الأساسي الذي فرضه الله تعالى عليهم . إنهم نهضوا لا ضد الصرب المعتدين فحسب ، بل ضد مجموعة كبيرة من السياسيين والدپلوماسيين الغربيين الظالمين المعادين للإسلام والمسلمين الذي يبحثون دون انقطاع عن طريق ملتوية لإتاحة الفرص للصرب ولإتمام خططهم ، وهي القضاء التام على الشعب البوسنوي المسلم .

وقد قيل في هذه السنوات الأخيرة في الغرب أقوال كثيرة فارغة عن ضرورة الحرية لكل الناس في الأرض وضرورة تعايشهم المبني على أقصي حدود التسامح . الشعارات الفارغة تطلق من خلال كافة وسائل الإعلام العالمية ، وفي

الحقيقة أن هذه الشعارات والمباديء تخرق وتلغي بأيدي صانعيها كما هو واضح مما يجري في البوسنة والهرسك .

واصلنا طريقنا عبر جبل « إيفان - سيدلو » حيث لاحظنا في سفحه كثيراً من آثار المعارك التي دارت أيضاً في هذه المنطقة ، أخبرني رفاقي بأن أشد المعارك عنفاً جرت هنا في مايو ١٩٩٢ ، يعني إثر بداية الاعتداء على البوسنة والهرسك حين كان الجيش البوسنوي ضعيفاً ولم يمض وقت طويل على تأسيسه . قالوا : إنه في تلك المعركة قتل في يومين فقط ١٥٠ جتنيكياً وأسر حوالي ٦٠٠ منهم ، فتصوروا أهمية هذا النجاح لمناضلي البوسنة والهرسك المسلحين بالأسلحة الخفيفة فقط . ومن أهم نتائج هذا النجاح أنه وبسقوط هذا الموقع الجتنيكي الهام قد افتتح الطريق الموصل بين بازاريتش والبحر الأدرياتيكي . كان ذلك في بداية الحرب عندما كان المسلمون والكروات معاً يقاتلون جنباً إلى جنب ضد عدوهم المشترك ، الأمر الذي جعلهم يقاومون الصرب المعتدين مقاومة ناجحة ، لكن الظروف تغيرت وأصبحت أصعب بكثير مما هي عليه الآن أثناء زيارتي هذه :

* * *

• الكروات والبوسنة والهرسك :

بعد عبور جبل إيفان - سيدلو وصلنا إلى كونييتس حيث دارت في الأيام الأخيرة معارك شديدة بين الجيش البوسنوي والجناح الفاشي من قوات لجنة الدفاع الكرواتية ، مثلما حدث أيضاً في يبلانتسا وبروزر .

كان التوتر يتزايد إلى أن أصبحت أبعاده ذات نتائج مأساوية ، فالنزاع الذي بدأ حينئذٍ استمر ولا يزال مستمراً وقد مضى على بدايته عام كامل .

هل كان النزاع لا بد منه ؟

أعتقد أن مسئولية النزاع لا تقع فقط على الصرب والكروات ، وإنما تقع

أيضاً على عوامل خارجية كثيرة متمثلة في كثير من الأفراد والمنظمات بما فيهم الأمم المتحدة . إن الإجابة الكاملة على هذا السؤال سيعطيها المؤرخون وعلماء الاجتماع والسياسة ، أما نحن - الناس العاديين - فمن الواضح لنا ما يلي :

كان الصرب يحسبون حساب النزاع بين الكروات والمسلمين ضمن خطتهم لتكوين صربيا الكبرى ، لذلك كان جنرالات الجيش اليوغوسلافي يعملون مع زعماء الحزب الصربي في البوسنة والهرسك قبل الاعتداء على جمهوريتنا على زعزعة العلاقات السياسية بين المسلمين والكروات من أجل تقوية الوضع الصربي في البوسنة والهرسك . كانت الصحف الصربية اليومية والأسبوعية والمجلات العلمية قبل الاعتداء بعدة سنوات مليئة بمقالات عن أصولية إسلامية مزعومة عند مسلمي البوسنة والهرسك ، وهي بمثابة الإنذار الخطر لأوروبا أولاً ثم للعالم كله بعد ذلك . وكان الصرب يقدمون أنفسهم بأنهم القوة الوحيدة القادرة على إنقاذ أوروبا من ذلك الخطر المحدق بهم . وليس من المهم الآن ما إذا كان السياسيون الأوروبيون يصدقونهم أم لا . المهم أنهم شاهدون ويؤيدون قتل المسلمين في البوسنة والهرسك ، وقد كانوا يسكتون طويلاً على المعتقلات التي تكاثرت بسرعة رهيبة في ربيع سنة ١٩٩٢م وهم يتظاهرون وكأنهم لا يرون شيئاً ولا يعلمون شيئاً إلى أن كشفها وأعلن عنها الصحفيون .

وحتى اغتصاب الفتيات والسيدات لم يجد تأثيراً على القيادات الأوروبية الرئيسية لموقفهم من الاعتداء على الشعب البوسنوي المسلم البريء . كانت بيانات كل زعماء البوسنويين والعاملين في المنظمات والمؤسسات العامة والأدباء البوسنويين والمفكرين الأوفياء لا تجدي فتيلاً عند دول أوروبا الغربية .

وفيما استمر القتل والتعذيب ، وفيما كانت تصل إلى جماهير العالم معلومات عن جرائم تقشعر لها الأبدان ، وتتوقف لها الأنفاس ، أسرع الزعماء السياسيون في أوروبا والعالم إلى تسمية ما يجري على أرض البوسنة

والهرسك بـ « الحرب الأهلية » ، خاصة بعد وقوع الحرب بين المسلمين والكروات . ولا بد هنا من ذكر أخطاء كبيرة فعلها السياسيون الكروات في سياستهم نحو جمهورية البوسنة والهرسك ، أولها : الاجتماع الذي تم بين الزعيم الصربي ميلوشيفيتش والزعيم الكرواتي توجهان واتفقا فيه على طريقة تقسيم البوسنة والهرسك فيما بينهما ، أي بين صربيا وكرواتيا ولنفس الهدف الذي احتلت به أراضي البوسنة والهرسك وهو خلق صربيا الكبرى وتحقيق فكرة كل الصرب في دولة واحدة .

بينما أكتب هذه السطور تسبقني الأحداث فأحس بواجبي المعنوي أن أذكر أن زعماء الشعب البوسنوي والشعب الكرواتي قد توصلوا إلى إدراك الحقيقة، أنه لا يمكن حل المأساة البوسنوية وإعادة تكامل الأراضي الكرواتية بدون نشاط مشترك ، وإنه من الصعب توقع كرواتيا الكاملة إذا كانت البوسنة والهرسك غير كاملة .

وصلنا إلى مدينة (غورني واقف) دون أن نشعر بمشاق السفر ، إذ مر الوقت في الحديث عن كل تلك المشاكل .

كان لقاؤنا الأول مع هذه المدينة محزناً لأنها مثل العديد من المدن تكبدت أضراراً فادحة ناتجة عن القصف المدفعي اليومي ، اعتدى عليها الصرب أولاً ودمروا بيوتها ومساجدها ومستشفياتها ومدارسها وغيرها من مقومات حياة المدينة ، ثم اعتدى عليها المرتدون من الشعب الكرواتي ، المقاتلون في لجنة الدفاع الكرواتية .

بمرارة وألم يحكي لنا واحد من أهل تلك المدينة عن المعارك الشديدة التي دارت بين قوات جيش البوسنة والهرسك وبين قوات لجنة الدفاع الكرواتية .

بعد الجرائم التي ارتكبها العدو الصربي الذي لا يتخلى عن حلمه في صربيا الكبرى ، لم يعد الشعب المسلم في البوسنة والهرسك وفي غورني واقف- تسيطر عليه أوهام نحو الصرب في البوسنة والصرب في صربيا، لكن

المشاعر الطبيعية التي كانت موجودة بين المسلمين والكروات لا تزال موجودة مما يجعل الناس لا يتخلون عن محاولاتهم لإزالة أسباب النزاع ، كما لاحظت أنه عند كل بوسنوي رغبة في تجاوز هذا النزاع . إن قتال الكروات والبوسنويين المشترك ضد العدو الصربي المشترك قد ثبت وقوى الصداقة القديمة بين الشعبين بعدما زرعت بينهما بذور العداوة والبغضاء .

وبنظرتي إلى المدينة المدمَرة وإلى المسجدين المهدَّمين شعرت بالتعب في داخلي ، خاصة بعدما سمعت عن مقتل عدد كبير من المناضلين الشباب .

لقد وصل إلى سمعي خبر عن صراع وقع بين جيش البوسنة والهرسك بقيادة فخر الدين آغيتش وقوات لجنة الدفاع الكرواتية . ولقد أثار المعركة واستفزها متطرفو لجنة الدفاع الكرواتية ، الأمر الذي أدى إلى سقوط عدد كبير من القتلي من الجانبين بدون سبب ولا فائدة . أتساءل كيف تعيش عائلات المقتولين في تلك البيوت المدمَرة بعد وقوع هذا الصراع العابث والفاجع للشعبين .

أرفع رأسي إلى السماء بحثاً عن أجوبة لأسئلتي الكثيرة التي فرضت نفسها عليَّ ، والتي يمكن أن تنحصر في سؤال واحد فقط : لماذا أرض وطني مبتلاة إلى هذا الحد حتى تجري عليها هذه الحروب الأكثر دماً في تاريخ البوسنة الطويل ؟ (*) . .

إن كآبتي قد شعر بها أصدقائي الأعزاء الذين نزلت عندهم : محرم ، وطاهر ديديتش ، وأمهما ذات الثمانين عاماً ، حيث إنّ هذه الحرب ليست الأولى في حياتها ، إن جنود لجنة الدفاع الكرواتية أطلقوا على هذا المكان البوسنوي الصغير « غورني واقف » أكثر من ثلاثين ألفاً من قذائفهم المختلفة.

(*) قد تكون إجابة السؤال القول المشهور : « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » ، أو القول الصوفي المشهور : « إنما المنن في المحن » ، والله أعلم !

كان هناك سؤال لا بد منه وهو : كيف يمكن لهؤلاء المتسبين إلي الشعب الكرواتي ، وبعد خبرتهم المفجعة مع العدو الصربي بمدنهم المهدمة أن يتخذوا نفس الوسائل الصربية ضدنا عالمين بأهدافها ونتائجها النهائية ؟

تحدثت مع أهالي مدينة « غورني واقف » بالليل أثناء شربنا القهوة عن كل هذه القضايا والكل يتساءل : هل قبل متطرفو الشعب الكرواتي في البوسنة والهرسك إيماء زعيم الحزب الصربي ، سفاك الدماء رادوڤان كاراجيتش في تهديداته بإزالة الشعب المسلم عن أرض البوسنة والهرسك ؟ وهل هؤلاء الأطراف من الشعب الكرواتي المتطرف اتفقوا مع الصرب على اقتسام البوسنة والهرسك فأسرعوا بإنهاء عملية إفناء الشعب الواحد في أسرع وقت ممكن ؟ في حالة اتفاقهما ، فهذا يعني بأن في وعيهما تعيش الأكاذيب التي أشيعت عبر القرون ، بأن مسلمي البوسنة ليسوا إلا أتراك ، وهم بالتالي غرباء في أوروپا . تحدثت مع أهالي واقف الأحباب عن بعض القضايا السياسية التي علمت بها أكثر بعد وقوع العدوان على البوسنة والهرسك ، إن رغبة الصرب هي الاستيلاء على البوسنة والهرسك وجزء كبير من كرواتيا ، ثم إلحاق الجبل الأسود إليها بعد إلغاء استقلاله .

رغبتهم هذه كانت تتطلب دراسة المشروع الصربي ، فإحدى المشاكل العظمى التي سدت طريق خلق « صربيا الكبرى » كانت مشكلة بقاء الشعب البوسنوي الكبير الذي يعتنق الدين الإسلامي . وهذه المشكلة ظهرت بكل شدتها بعد انحلال يوغوسلاڤيا ، لأنه لاحت للصرب فرصتهم الفريدة بأنهم أخيراً سيحققون حلمهم الدائم .

لقد سبق الإرهاب الصربي ضد الشعب البوسنوي المسلم إرهاب أفظع منه ضد الشعب الألباني المسلم في كوصوفو . حيث كانوا يدخلون البيوت المسلمة ويأخذون رجالها ويقتلون الشباب المار في الشوارع ويفصلون المسلمين من عملهم ، كما كانوا يطعمون الأطفال بأمصال ملوثة مشبوهة ، الأمر الذي

أدى إلى عواقب مرعبة حيث ظهرت حالات تفكك تدريجي لأعضاء «الأطفال المطعَّمين» الحيوية ، إنهم بأساليبهم تلك قد وضعوا الألبان المسلمين في عزلة تامة .

ونفس الشيء في منطقة سانچاك ، ليس هناك بيت لم يتم تفتيشه ، وهذه العمليات تتم بطرق في غاية القسوة والفظاعة ، ويحدث أحياناً أن يجبروا الناس على بيع ماشيتهم ليشتروا بثمنها بندقية ليقوموا بتسليمها إلى مركز الشرطة الصربي ، مجموعات كبيرة من المسلمين كانت تختفي فجأة في منطقة سانچاك ، من القطارات والحافلات والبيوت .

إن النظام الصربي الذي يقر « جميع الحقوق وفقاً للقواعد العالمية » أعد بالدقة أساليبه تلك التي تساعده في محو المسلمين من المناطق كلياً .

والسؤال هو : ما هو الحل مع الشعب المسلم ؟ لقد وجد الفاشيست الصرب « حله » إلا أنّ البوسنويين الطيبين لم يصدقوا ، رغم أن الكثيرين وخاصة السياسيين والعلماء المسلمين البوسنويين قد علموا بهذا الحل الرهيب ، والحل هو أن يقتل أكبر عدد من المسلمين البوسنويين ويطرد عدد آخر ، والعدد المتبقي يُجبَر على اعتناق الدين المسيحي .

إن الكثيرين من الذين تحدثت معهم قالوا ، بأنه حتى أيامنا هذه يُقتل المسلمون قتلاً جماعياً ويُطردون من بيوتهم ويجبرون على اعتناق الدين النصراني بالقوة في المناطق المحتلة .

وأختم هذه الفقرة بكلمات المؤلف البوسنوي إيڤان لوفرينوڤيتش الذي أهدى جميع مؤلفاته إلى البوسنة والهرسك بصورة خاصة ، وهو مرتبط بسراييڤو بشدة حيث قضى بها جزءاً من حياته مع عائلته ، ثم لجأ إلى زغرب في بداية يناير ١٩٩٣ . يقول إيڤان عن الحرب الواقعة بين متطرفي الكروات والبوسنويين ، وهي الحرب الفظيعة لكلا الشعبين : « إن ما يحدث الآن في قلب البوسنة الوسطى وأطرافها من الحرب الجهنمية بين الكروات والمسلمين

التي يقضي فيها هؤلاء السكان القدماء والورثة الأصليون للبلاد على أنفسهم وعلى تلك الأرض القديمة المقدسة أرضهم الوحيدة ، بينما الصرب «الأغراب» الذين أوروا هذه الحرب يتمتعون في سخرية منتظرين استكمال مشروعهم » . يشير إلى أن فكرة انقسام هذه المنطقة وكذلك البوسنة والهرسك الكاملة بالذات لم تكن إنسانية أو شعبية بل إنها إلهام شيطاني لئيم .

* * *

● ليعلم العدو وأعوانه من أوروبا :

إن الذين تحدثت معهم في غورني واقف وغيرها من مدن البوسنة والهرسك، أخبروني بأن الأعمال الوحشية التي تنفّذ باستمرار قريباً من سنتين لا يمكن فهمها إلا بصعوبة ، إن قلوبهم تنزف دماً بسبب قتل وبتر أعضاء مئات الآلاف من أبناء شعبهم ، بسبب حرق وطنهم الوحيد وخيبة أملهم في الشعب الصربي الذي كان يعيش معهم قروناً طويلة ، عفا المسلمون عن وحشية الصرب القديمة ضدهم متأكدين بأنها كانت ظروفاً خاصة جعلت من الصرب وحوشاً . فقد عفوا عن عمليات الذبح والقتل التي وقعت منهم أثناء الحرب العالمية الثانية والتي كان يصعب فهمها أيضاً نظراً لقسوتها ، ولمنع الزعماء الشيوعيين الحديث عن المجرمين بحجة بناء حياة مشتركة في « السلم » ، والهدف من ذلك لكي لا يكتشفوا بأن أكبر سفاكي دماء الشعب المسلم « عند نهاية الحرب العالمية الثانية » قد خلعوا ببساطة لباسهم الجتنيكي وانضموا إلى صفوف البارتيزان « جيش التحرير » ليظهروا أنفسهم للمسلمين بمظهر «المحررين » ، ولما كان هدف الصرب أيضاً أثناء الحرب العالمية الثانية إفناء الشعب المسلم عن أرض يوغوسلافيا السابقة حيث قاموا بعمليات قتل عائلات كاملة لكي لا يبقى أحد حياً يشهد عليهم ، وفي حالة بقاء بعض من أفراد الأسر الكبيرة حياً ، منعوهم منعاً تاماً أن يتكلموا أو يذكروا شيئاً لأحد عن مصيرهم المؤلم . وجدير بالذكر في هذا المجال ، بأن هناك اختلافاً بين وقت

الحرب العالمية الثانية وهذا الوقت ، إن الاختلاف قبل كل شيء في إمكانية جمع المعلومات وإرسالها إلى العالم . إنه في وقتنا هذا من الممكن الاتصال بأقصى بقاع العالم عن طريق أجهزة إعلامية متطورة ، فكان من الممكن معرفة الأعمال الجتنيكية الخبيثة إن كان هناك اهتمام بذلك .

وذكرت آنفاً بأن مخططي الصرب الحربيين تمكنوا بمكرهم وخيانتهم من حصار مناطق البوسنة والهرسك العديدة إعلامياً لكي يرتكبوا جرائمهم الكثيرة وكل ذلك - بعيداً عن وسائل الإعلام العالمية .

إن الحصار الإعلامي الذي سبق عمليات الذبح في بودرينية وفي مناطق البوسنة الغربية العديدة تشهد على وحشية الجيش الصربي ضد البوسنويين المسلمين .

كل ما حدث وما يحدث باستمرار أيقظ مسلمي البوسنة واضطرهم إلى التيقظ الذاتي والنضج التام في ظروف مفزعة . ومن النار ونهر الدماء البريئة ينمو الشعب الذي تحرر من أوهامه عبر العصور التي كانت تقيده . إنه لم يهتم في السابق بماضيه ، إلا أن المسلمين الآن يفكرون في ماضيهم ، وأصبحوا واعين جداً لامتياز علمائهم ، إن الإسلام وجد معتنقيه بين أهل البوغوميلية القدامى « المؤمنين بالله » ، حيث كانت مبادئهم الروحية تتفق تماماً مع مبادىء العقيدة الإسلامية .

إن البوسنويين الطيبين تعرضوا بشدة لجميع أنواع القهر ، وهم الذين تربّوا وفقاً لمبادىء أقصى درجات التسامح بالنسبة لأفكار وشعور ومعاملات الغير بشرط ألا تهدد بقاء الناس . فالعدوان المنفَّذ شديد ووحشي لكي يهزهم أخيراً ويظهرهم إلى فتح أعينهم نهائياً ليروا أين يعيشوا وأن يقاوموا الشر بشجاعتهم الخارقة .

* * *

● عبر الهرسك :

بعد زيارتي لغورني واقف والمحادثات التي أجريتها مع أهالي تلك المدينة والتي كانت مفيدة لكلا الطرفين ، بدأت سفري وأنا مسرور لأن يقظة الشعب وتنبهه لواقعه المرّ أصبحا أمراً واقعاً ، فعمليات ذبحه وقتله الجماعية لم يحدث مثلها خلال المائتي سنة الأخيرة . الطريق كان يوصلنا من جديد إلى مدينة بازاريتش العزيزة عليّ حيث أشعر بأن سكانها كأقرب أقربائي ، كان لدينا وقت للمبيت ، فذهبنا إلى عثمان الذي فرح بنا كثيراً ، وقصصنا عليه كل ما رأينا وسمعنا في غورني واقف فاستمع إلينا باهتمام رغم أنه كان ملماً بكثير من هذه الأحداث .

بزغ الصباح وأنا قلق ، لأني أترك سراييڤو وغورني واقف وبازاريتش وغيرها من المدن والقرى المعرضة يومياً لهجمات (الدو) الآتية من كل الجوانب مع منع دخول الطعام ، أو أي نوع من أنواع الإغاثة إليهم ، إن بلدي البوسنة يشبه (الصَّفَّار المُحَاصَر) من جميع الجوانب . وأنا متأكد بأنه لم يوجد ولا يوجد بلد في العالم أُحكِم الهجوم عليه بهذا الشكل العنيف .

مررنا بأماكن معروفة جداً بالنسبة لي « تارتشين ، برادينا ، كونييتس ، يبلانيتسا » ثم وصلْنا إلى موستار .

* * *

● مدينة موستار :

كنا صامتين يعلونا الوجوم أثناء زيارتنا الأولى لمدينة موستار ، إن هذه المدينة جوهرة شاطيء نهر نيرتفا الجميل ، مدينة موستار مدمَّرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى . فالغضب والحقد نحو الذين يعتنقون الدين الإسلامي ونحو منشآت حضارتهم المادية يُشاهَد في كل جزء من المدينة . من الذي استطاع أن يعمل كل ذلك ؟ تساءلت وأنا واقف بالقرب من الجسر القديم المحطم الآن ،

وهو الذي يعتبر مقدَّساً لجميع أهالي موستار بصرف النظر عن قوميتهم أو ديانتهم .

عندما قام الجتنيك بتدمير هذه المدينة الرائعة ، استطاع المدافعون المسلمون والكاثوليك رد تلك الهجمات ، إن هذين الشعبين يستطيعان التغلب على الجتنيك بقواتهما المشتركة ، ولكن ما حدث فيما بعد أصبح أمراً مفجعاً خاصة بالنسبة إلى الشعب المسلم .

المسلمون في موستار أصبح لهم عدو جديد بجانب عدوهم الصربي القديم، ويصعب عليهم قبول الحقيقة المُرة بأن زملاءهم بالأمس في الحرب ، ينزعون الآن سلاحهم ويعتقلونهم ، وبهذا يساعدون العدو الصربي بطريق مباشر ، ونكرر مرة أخرى بأنَّ هذا التحول في سياسة كرواتيا ناحية البوسنة والهرسك هو مسئولية أطراف متطرفة من الشعب الكرواتي التي لها مصلحة خاصة مثل الصرب . وهذه المصلحة هي إلغاء استقلال البوسنة والهرسك وضم هذه الدولة ذات السيادة إلى جمهوريتهم كرواتيا . لقد قُتِل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ في مدنهم وقراهم التي ولدوا فيها وعلى أعتاب بيوتهم ومنازلهم . . لماذا ؟

إن أهالي موستار المعروفين ببعد النظر وتسامحهم الديني الواسع ولباقتهم وابتهاجهم وهم فخورون بمدينتهم ، فقدوا الثقة بكل أحد . فقد قُتل الكثيرون وتشرد عدد كبير منهم في العالم ، وبقى الأوفياء ليدافعوا عن أنفسهم ضد الفاشيست الكروات .

فهجوم قوات لجنة الدفاع الكرواتية على مُدافعي موستار نتج عنه تدمير موستار الشاسعة ، بحيث أنه هدمت في الغالب المنشآت الإسلامية العديدة أكثر مما كانت خلال حملة الصرب على مدينة موستار والمناطق المحيطة بها .

ولقد أبديت اهتمامي بمدينة موستار وتاريخ تأسيسها وبمنشآتها الرئيسية ليكون تدميرها من قبل الجتنيك والقوات الكرواتية المتطرفة أكثر وضوحاً لديّ.

علمت أن الأتراك عام ١٤٦٨ استولوا على مكان على مصب نهر رادوبوليا إلى نيرتفا حيث أقيم هناك وقتئذٍ جسر خشبي بسلاسل حديدية مع حصنين عليه، أحدهما باقٍ حتى الآن ، وقد أطلق الأتراك اسم « كوبري حصار » على هذه المحلّة الصغيرة ، ومعنى الاسم « الحصن على الجسر » ، وعام ١٤٦٨ أطلقوا عليه اسمه المعروف : « موستار » . وخلال مدة خمسين عاماً طوّر الأتراك المدينة وحصّروها مستخدمين الحصن على الجسر ذي السلاسل حتى عام ١٥٦٦ عندما بنوا « الجسر القديم » حسب مشروع المهندس المعماري خير الدين تلميذ المهندس المعماري الشهير سنان .

وفي المنطقة الشمالية من الجسر الخشبي وفي الساحة الخالية خطّط المعماريون الأتراك مع سنان بناء مدينة ذات شوارع عريضة ومتاجر وجوامع وفنادق ذات طابع شرقي . ثم المجاري والدكاكين الحرفية والتجارية وأسوار للمدينة ومع كل ما تتطلبه مدينة شرقية الطابع والشكل .

وفي « جادة الملك » وهو الشارع الرئيسي الذي يمتد في اتجاه الشمال الجنوبي ، والذي كانت تمر به القوافل في العصور الوسطى ، بني أول جامع عام ١٥٥٢ وهو جامع تشيفان - تشيهاينا الذي كانت له مئذنة مربعة الشكل دعا منها المؤذن المؤمنين لأداء الصلاة . وجدير بالذكر أن هذه المئذنة هي الوحيدة المقامة على جهة الجامع اليمنى لأن السوق كانت بتلك الجهة . وهو سوق موستار الشهير المسمى بـ « موستارسكا تيبا » حيث كان يباع فيه سلع مختلفة من دوبروڤنيك وڤينيسيا . وبعد هذا الجامع بني جامع فوتشياكوڤيتشا عام ١٥٢٨ مع تفاصيل عديدة من الأسلوب القوطي ممّا يشهد بتسامح كبير من قِبَل الفاتح التركي تجاه أساليب البناء التي وجدها . إن مئذنته العالية كانت تطل على الشوارع والمدينة وكانت محاطة بمبنى المدرسة والنافورة والمقبرة والأسوار الحجرية التي عليها النوافذ التي يطلق منها الرصاص . ومدخل الجامع كان مزيناً بالآيات القرآنية والسجاجيد المحلية والشرقية الغالية التي كانت هدايا الحجاج والتجار الشرقيين .

إن شجرتي « السرو » القائمتين أمام الجامع كانتا تتسابقان في ارتفاعهما مع المئذنة .

* * *

● الجسر القديم :

بعد إتمام بناء الجامع ، أمر المعماري سنان تلميذه خير الدين ، حسب الأوامر الصادرة من السلطان سليمان القانوني ببناء الجسر القديم الذي أقامه المعماري في مدة تسعة أشهر عام ١٥٦٦ . وعلى الشاطيء الأيسر لنهر نريتڤا كانت قلعة هرسكوشا ، وعلى يمينه قلعة هيليبيا وبهما المدافع لحماية الجسر . وفوق المدخل الغربي للجسر بنيت حجيرة - شرفة لضباط القلعة أثناء الحروب، وفي أوقات السلم لمقابلات الشعراء من موستار . وجدير بالذكر أيضاً الجامع المبني على حافة الصخرة الضخمة فوق نهر نريتڤا الذي كان ينبغي أن يكون له شرفتان حسب الزعم الأسطوري ، إلا أنه نظراً للأثمان المرتفعة أُقيمت له شرفة واحدة . إن الجامع وقف محمد باشا كوسكي ، ومن مكانه المرتفع يُرَى أجمل منظر لتراث موستار الحضاري الثمين ، وخاصة الجسر القديم ونهر نريتڤا ، واستُكمِل بناء هذا الجامع عام ١٦١٨ .

إن النافورة الرشيقة التي كانت زينة خاصة للجامع والمدرسة وكذلك خطوط الآيات القرآنية المزخرفة بزخارف ذهبية والقديمة لمدة خمسة قرون كانت تجذب اهتمام وعناية الآلاف من مثقفي العالم . لقد استقبل نهر نريتڤا في أحضانه مئذنة جامع محمد باشا كوسكي ، حيث إنه بعد هجوم الصرب الإجرامي ثم الكروات لم يبق إلا ماء النافورة فقط . أما بالنسبة لجامع فوتشياكوڤيتشا فقد أصيب بقذيفة من جانب الصرب ، أما الكروات فقد دمروه نهائياً .

أما جامع كاراجوزبيغوڤا المشهور فقد بدأ الصرب بقذفه أولاً حيث هدموا مئذنته وأوقعوا أضراراً بقبته ، أما تدمير الجامع والنافورة بصورة نهائية فقد تم من الجانب الكرواتي . ونفس القدر من الهدم قد لحق بجامع شاريتشا في

لوكا (من القرن السادس عشر) ، المشهور بسقفه الخشبي المزخرف بالهلال والنجوم ، مئذنته هدمت من الجانب الصربي ، أما باقي الجامع فقد دُمِّر بكامله من قِبَل الكروات الذين كانوا حتى الأمسِ من معاوني المسلمين . وكانت هناك مقبرة مشهورة لهذا الجامع تم تدميرها أيضاً وتدمير نياشينها الجميلة ، وذلك تنفيذاً لمخطط الصرب بإفناء كل ما يشهد بوجود آثار إسلامية في أي مكان كان .

ويضاف جامع باكوموڤيتشا في زاهوم إلى قائمة المدمَّرات الإسلامية وكان مقاماً بالقرب من الكاتدرائية ، وبجانب هذا الجامع توجد مقبرة لا يوجد فيها أماكن للموتى لأنها مُلئت بالضحايا الأبرياء الذين أتى بهم محاربو لجنة الدفاع الكرواتية ليلاً وقتلوهم هناك ولا لشيء سوى أنهم مسلمون ، في نفس الوقت كان في الكاتدرائية الأسقف الجديد « راتكوبيريتش » الذي وصل من قريته روتيميليه بالقرب من موستار دون أن يفعل شيئاً لإيقاف القتل والتدمير .

ثم تلا تدمير جامع ببيستس الذي يرجع إلى القرن السابع عشر ، فجنود الكروات طردوا المصلين ليقوموا بتلغيم الجامع . أما بالنسبة للجامع في تسيرنيتسا فقد أصيب أكثر من مرة وكان من أجمل الجوامع المحلية الذي يرجع إلى القرن السادس عشر . ثم أتى الدور على جامع لاكيشيتشا الواقع على الشاطيء الأيمن لنهر نريتڤا بالقرب من المدرسة الثانوية المشهورة . والذي بني بأسلوب عربي من قبل عائلة لاكيشيتش . وبالقرب من ذلك الجامع قبر موياغا كومادينا الذي كان عمدة مدينة موستار ما بين ١٩٠٩ و١٩١٨ ، والذي له الفضل في بناء العديد من العمارات النمساوية الهنغارية ، فأصيبت المئذنة من الصرب ، أما الكروات فهدموها نهائياً .

إن الجسر القديم الذي يعتبر من أعظم عجائب العمارة في أوروبا مع قوسه الرشيق الأبيض ومع جريان دائم للماء الأخضر من تحته ومع اللانهاية الزرقاء لسماء البحر الأبيض المتوسط من فوقه . إنه نجا من قذائف الجتنيك ، إذ كان

له مكانه المقدس لدى جميع البوسنويين ، كمعبد دين عمومي بلا اسم ، ورمز اللقاءات والاندماج ، إلا إنه أزيل أخيراً ، أزيل هذا الأثر والكنز الأوروبي والعالمي أيضاً ؟ تساءلت وأنا أرتب تسجيلاتي هذه المتعلقة بزياراتي للبوسنة والهرسك المدمَّرة في فبراير ومارس ١٩٩٣ . التقطت الصور عند قُلَّته، وشكرت الله كثيراً لأنه تحمل همجية الجتنيك الشيطانية . وهأنذا الآن يصل إلى سمعي وإلى العالم أجمع خبر سقوط وهلاك الجسر القديم العظيم بعد ٤٢٧ سنة من وجوده ، ومصارعته مع الزمن والحروب والاحتلال بمختلف أنواعه ؟ لقد كانت تتوقف أمام جماله جميع الجيوش الزاحفة على مناطق البوسنة والهرسك البائسة هذه ، إلا أن مجموعة الهمج الكروات التابعين للجيش الكرواتي بقيادة « ماتة بوبان » لم تكن لديهم حاسة التذوق لهذا الجوهر ، بل صنَّفوا أنفسهم في صفوف نفس الجنس الذي كان يقوده المجرم رادوڤان كاراجيتش الذي دمر دوبروڤنيك وسراييڤو وغيرها من آلاف المباني الدينية التابعة للشعب المسلم والكرواتي على طول وعرض البوسنة والهرسك.

إن الجسر كأجمل أثر معماري بين شاطيء النهر ، كان في الحقيقة تجسيد مادي لروح البوسنة والهرسك . فالشعب البوسنوي لن ينسى ٩ نوفمبر ١٩٩٣ عندما وجد هيكل الجسر المسكين راحته في أعماق نهر نريتڤا ، أما مدمّروه فقد احتفلوا بعملهم المخجل هذا الذي سيبقى وصمة عار في جبينهم أبد الدهر .

* * *

● مدينة بوتشيتيلي :

بعد زيارة موستار وصلنا إلى مدينة بوتشيتيلي القديمة التي أُسست على شاطيء نهر نريتڤا باعتبارها امتداداً طبيعياً له . ومنذ الماضي البعيد كانت هذه المدينة استراحة للمسافرين والقوافل . وكأنها نمت من الصخور فإنها عرفت حتى منذ عهد الرومان ، ففي عام ١٤٧١ استولى عليها العثمانيون حيث قام

معماريوهم بترميمها وتحصينها ، وداخل أسوارها بنى الأتراك مدرسة بها كتب ثمينة باللغة العربية والتركية والفارسية وبعض اللغات الأوروبية . إن المباني الرئيسية لمدينة بوتشيتيلي القديمة حفظت حتى زيارتي : خان ، دار أمين، قلعة، بريد من العهد التركي ، دار عائلة غافران كابتانوفيتش ، برج الساعة وكذلك جامع شيشمان باشا إبراهيم من القرن السابع عشر . لمحت الجامع في عجلة فلاحظت أن قبته مغطاة بالرصاص وبجانب الجامع كانت هناك بئر تجري منها الماء إلى صنبور صغير استُعمِل للوضوء . وأمام الجامع كانت شجرة معروفة إلى حد بعيد وهي شجرة السلو « سلوية » ، وكان كل شيء في حالة جيدة وفي مكانه .

ومثل موستار نرى أن بوتشيتيلي كانت هي أيضاً تزعج الهمج المرتدين للشعب الكرواتي حيث قرروا وكما سمعت هنا في أمريكا - أن يهدموها . أي أن المتسببين إلى لجنة الدفاع الكرواتية قد لغوا الجامع وجميع المباني الأخرى التي كانت لها قيمة حضارية في أغسطس ١٩٩٣ .

* * *

● **مغادرتي للهرسك وأنا كئيب :**

تركنا مدينة بوتشيتيلي متجهين إلى مدينة تشابلينا التي كانت دائماً شبيهة بالقصر المحاط بالحدائق البديعة ، لأن وادي نهر نريتفا الخصيب يمكن أن تنمو به الخضروات الخاصة بمناطق البحر الأبيض المتوسط . إن المباني السكنية الجميلة سابقاً تشهد الآن على الصراعات العنيفة مع الجتنيك . فالمدينة مع أنها حرة الآن إلا أنها غاصت في هدوء عجيب وكريه .

(وبمجرد عودتي إلى أمريكا سمعت عن خبر الصراع بين متطرفي لجنة الدفاع الكرواتية وجيش البوسنة والهرسك ، وأن الزعماء الكاثوليك بالبوسنة والهرسك لديهم رغبة هائلة في قضم جزء كبير من البوسنة والهرسك وضمه إلى كرواتيا . وبذلك أضاعوا شعورهم وصداقتهم الأزلية مع الشعب

البوسنوي المسلم . فأثناء قيامهم بعمليات التنظيف العنصري لمناطقهم طاردوا وقاتلوا المنتسبين للشعب المسلم) .

بعد تشابلينا وصلنا إلى أرض كرواتيا إلى مدينة ميتكوڤيتش حين أوقفتنا الشرطة الكرواتية .

إن الشرطي الذي فحص مستنداتنا لم يخفِ حقده نحونا كمسلمين ، قد أبدى ذلك صراحة حينما قال : « لو كان بيده سلطة أكبر فإنه لن يسمح لأي مسلم بأن يتخطى أرض كرواتيا » .

هذا التصريح أدهشني ، لأنني كمواطن من مواطني الولايات المتحدة لا أفهم بأن شخصاً له مثل تلك الأفكار السامة أن يكون في وظيفة عامة وأن يتعرف على المسافرين من البلدان البعيدة الذين ليس لهم إلا هذا الممر - وفقاً لأسمائهم وأن يعاملهم معاملة سيئة بعد أن يعرف ديانتهم .

لقد انتظرت اللحظة التي أستطيع أن أقول فيها إنني بعيد عن الناس الذين لديهم انحطاط عقلي ، مررنا بميناء بلوتشي دون أية رغبة في الوقوف ولو قليلاً، فواصلنا طريقنا تجاه سپليت ثم بالسفينة وصلنا إلى رييكا ، ثم براً إلى زغرب .

* * *

الجزء الرابع

«وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ، إنّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»

(سورة الحج ، آية : ٤٠)

● **في البوسنة للمرة الثالثة :**

بعد زيارتي الأولى لسراييڤو ورؤيتي للتعاسة المرعبة في الناس والمدينة ، رجعت إلى أمريكا ولديّ هدف واحد : أن أحاول - بناء على الوثائق الضخمة التي جمعتها - إيقاظ الرأي العام العالمي النائم ، ولأخبر إخواننا الكثيرين في أمريكا عن ظروف الحياة الصعبة التي يعيشها من بقى حياً ، آلاف من مشوَهي الحرب من الأطفال والكبار ، آلاف اليتامى والحزانَى من الأمهات والآباء والإخوة والأخوات . أن أشهد بكلماتي وصور الكاميرا والڤيديو عن الموتى والجرحي ، وعن الخراب في كل خطوة ، وحطام الحرائق التي ما زال يعيش فيها الذين بقوا أحياء . وبكلمة واحدة أريد أن أعرّف جميع الناس العطوفين على الحقد الصربي بقتلهم أهالي سراييڤو الأبرياء يوماً بيوم ، وبحرق وتدمير مدينتهم ، المدينة الرائعة التي كانت مدينة الألعاب الأوليمبية عام ١٩٨٤ والتي تحولت الآن إلى مدينة المقابر .

وبعد عودتي لأمريكا ، كثيراً ما كان يخيل إليَّ أن أسمع صوت الانفجارات مثل التي كنت أَسمعها أثناء وجودي في سراييڤو . بدا لي كأن أرض مدينة شيكاغو ترتجف ، وأبواب نوافذ داري ترتعش ، وفي فراشي عندما أغمض عيني تفيض صور لا نهاية لها لمقابر جديدة لشبيبة سراييڤو .

لا أقدر على الهدوء وعدوان الصرب والمؤامرات العالمية ضد شعبي مستمرة .

أسافر وأحكي . أنبه وأنذر في اتساع أمريكا وكندا وأوروپا ، يستمع الناس ويبكون ويفهمون بصعوبة أنه في هذا الزمن وفي قلب أوروپا يجوز ارتكاب هذه الخبائث .

ما أعظم جرم مؤامرات الدول العالمية العديدة وسفاحي ولصوص الصرب بأجهزتهم الحربية الضخمة ضد الشعب البوسنوي الأعزل من السلاح ؟

يسألني أصدقائي : هل هؤلاء الصرب المجرمون ، والمجرمون الأوروبيون سيتحملون مسئوليتهم يوماً من الأيام عمَّا أجرموه نحو الضحايا الأبرياء ؟

تمر الأسابيع والأيام في الأسفار - في القطارات والطائرات وفي التجهيز لزيارة جديدة لسراييفو التي جرحت روحي وملأت قلبي بحب خاص وقيدني إعجابي بها ، فلا أقدر على مباشرة أي عمل إلا إذا كان لصالح سراييفو ولصالح سكانها المعذبين .

* * *

● سراييفو مدينة المقابر :

في هذه المرة سافرت إلى سراييفو المحبوبة بخط جوي مباشر ، وليس هذا معناه أنه لم يعد هناك بعد عبور أرض المطار جرياً والتي فَقَدَ مئات من الناس حياتهم عليها ، أخرج من الطائرة وألمس أرض مدينتي العزيزة .

كان يوم الأحد ، في نهاية شهر نوفمبر ، انتظرني بالسيارة صديقي العزيز رحيم ، بعد مبيت الليل والاستراحة خرجت لزيارة المدينة ، زرت جميع الأماكن المعروفة ، التي أصبحت الآن أكثر تدميراً ورعباً ، أنظر إلى المارة الناحلين شاحبي الوجوه ، الصامتين الذين لهم خطوات بطيئة رغم إطلاق النار ودَوِيّ الانفجارات ، إن هؤلاء الناس وكأنهم احتقروا الموت ولا يخافونه وأصبح سيّان لديهم لأن الحياة ليست أفضل . تحدثت مع بعض هؤلاء الناس، أصعب ما يتحملونه هو الظلم الذي يقع عليهم بتنسيق وإتقان ومثابرة ، ثم فقدان الثقة في المؤسسات العالمية ، إلا أن إيمانهم بإنهاء العدوان بطريقة عادلة وباشتراكهم الذاتي في الدفاع لا يتركهم ، وبما أنني أثناء زيارتي السابقة لم أتمكن من زيارة المدافعين عن سراييفو « المجاهدين على الخطوط الأولى للجبهة » قررت أن أفعل ذلك حالاً .

ذهبت إلى مكاتب رئاسة الطائفة الإسلامية ، ولسروري وجدت الحاج عصمت أفندي سباهيتش ، لقد تعرفنا في المرة السابقة وسر برؤيتي ، جلسنا

وحكينا كثيراً عن كل شيء ، وبعد أن أبديت رغبتي في زيارة أحد المجاهدين على الخط الأول للجبهة وفي أسرع وقت ممكن ، نصحني برؤية حامد أفندي بمكتبه ، بعد المحادثة الوجيزة التي تعلقت بسبب حضوري له ، رجوته أن يصحبني رجل يعرف المدينة جيداً ويكون في نفس الوقت مناضلاً جيداً من خط الجبهة الأول .

إن رغبتي تلك سرت السيد حامد كثيراً لأن مثل تلك الزيارة تعني كثيراً للمناضلين ، وأخبرني بأنه سيعطيني بصفة خاصة رجلاً مؤمناً شجاعاً معه في الوحدة ، اتفقت مع حامد أن يأتي عندي بعد الغداء لنذهب معاً إلى بيت ذلك المناضل ليكون مرشداً لي فيما بعد .

بعد إتمام بعض الالتزامات وتناول وجبة الغداء المتواضعة بدأنا طريقنا ، وجدنا المناضل في بيته مشغولاً في صنع الأدوات اللازمة للحملة الدفاعية القادمة .

* * *

● في مواقع الدفاع بسراييفو :

دخلنا في بيت إسلامي حقيقي ، ومع شرب القهوة بدأ الحديث ، نظرت إلى الرجل الصغير السن برغبة معرفة أحسن ما يمكن منه ، أبلغني أنه قد جرح في الصيف الماضي من إحدى قذائف الجتنيك عندما كان قائد إحدى الوحدات الشرطية الخاصة .

اسمه كنعان بورتشا ، شاب رياضي ، طويل القامة ، عمره ٣٥ عاماً تقريباً ، وقد امتاز هذا الرجل بعدة صفات حسنة ، منها التواضع الذي يلاحظ على التو . حكى كنعان أن الحرب ستكون طويلة ومستنزفة ، ولكن بعون الله سيتغلب الشعب البوسنوي على مجموعات الجتنيك ومعاونيهم ، أعداء البوسنة اللدودين . أحسست أني أجلس مع مجاهد كبير نجا من المعارك العنيفة مع الجتنيك وباستطاعته أن يقص لي عن شجاعة المناضلين وعن

تسلحهم ، وكيفية حصولهم على الأسلحة ، وعن مصاعبهم التي تواجههم فلا يمكن مساعدتهم بسببها .

رجوت عدنان أن يختار من جميع حملاته حملة واحدة اشترك فيها وتركت فيه أشد انطباع ليخبرني عنها ، لم يخطر ببالي أني سأهز هذا الرجل الشجاع بطلبي هذا ، وأنه سيعود إلى الأحداث التي حاول نسيانها ويتذكرها في حزن.

أحسست بضيق لأني طلبت منه أن يذكر لنا ما يكره وأن يتذكر الحوادث المؤلمة ، لكن كنعان بدأ كلماته قائلاً : سأقص عليك كيف استشهد أحد أصدقائي الحميمين الأعزاء ، الذي كان قائداً لإحدى أشجع وأنبل الألوية .

ذكر كنعان ، أن في هذه الحرب الاضطرارية لا يستشهد الجنود العاديون فقط ، بل القواد الذين يوجدون مع المقاتلين في الخنادق أيضاً .

« كان ذلك في نهاية الصيف ، في يوم من تلك الأيام ، أصدرت الأوامر إلى المناوب أن يصف المناضلين لذهابهم إلى تناول العشاء ، وكان ذلك في الساعة الثامنة مساء ، وكنت حاضراً أثناء وصول أوائل الشباب . وكالعادة كان أول من وصل هو زياد هوجيتش سائق التاكسي سابقاً ، وواحد من أحسن المجاهدين ، اقترب مني بوجه مبتسم وسألني :

أيها القائد ، أننطلق في القريب ؟ لمحته بنظرتي ، كان قصير القامة ، ذا كتفين عريضتين ، وشعر بني اللون ، فقلت له : « ستسمع » ، وفي تلك اللحظة أتى المناضلون الآخرون . هذه هي فرقتي « لاستا » التي كانت تعد حوالي مائة مناضل ، كانوا يصطفون في أماكنهم ، ويجري الحديث الحي المتفاءل بين المناضلين، إذ كانوا ينتظرون الذهاب إلى تناول العشاء .

أمر المناوب : « انتباه » ، وفجأة سكت الجميع ، إلا أننا كنا نسمع من بعد دوي وقصف ، إذ كانت المعارك العنيفة الشديدة تجري على جبل جوتش ، ثم أصدر المناوب بعض الأوامر الأخرى ، وبعد ذلك أتى قواد الفصائل ومعهم تقارير بحضور جميع المناضلين سوى كامل هالاتش الذي أصيب بجروح

خفيفة قبل يومين من إحدى القذائف ، ذهب قواد الفصائل إلى أماكنهم وتقدمت خمس خطوات إلى الأمام موجهاً نظرتي تجاه المناضلين ، لمحتهم جميعاً معجباً بجرأتهم وصغر أعمارهم ، فمعدل أعمار هؤلاء المناضلين كان ٢٢ سنة ، كنت صامتاً إلى أن زاد توتر المناضلين ، فعدت إليهم وقلت : «أيها الأخوة ، سنذهب الليلة إلى المعركة ، إن زملاءنا موجودون على الخط الأول لليوم الرابع على التوالي ، ويحتاجون إلى نوبة جديدة ليستريحوا قليلاً. أرجو من الذين يشعرون بأنهم غير قادرين على هذه الحملة أو إذا كانوا مرضى ، أن يخبروني بذلك » ، لم يتقدم أحد ليعلن عن عدم رغبته في الذهاب ، إلا أنني أردت بذلك أن أرى عزمهم على القتال ، تمنيت لهم شهية طيبة وأرسلتهم إلى تناول العشاء . استمر الحديث من جديد ، وطابور المناضلين يتحرك ، انتظرت حتى ذهب الجميع ، كان يمزقني إحساس وخوف بأن يكون هذا العشاء هو العشاء الأخير لكثير منهم ، هنا حدّق كنعان فيّ طويلاً ، ثم أخذ نفساً عميقاً وواصل حديثه : توجهت إلى مكتبي ، وفي مدخله أخبرني المقاتل المناوب في الوحدة أن رئيس الأركان ينتظرني ، دخلت المكتب وسلمت عليه وانتظرت إلى أن جلس فجلست أنا أيضاً ، انتظرَ قليلاً ، ثم سألني : هل أنا متأكد بأن المناضلين سيتحملون العبء ؟ فقد كان يعلم بنفسه صغر سنهم فقد كان منهم كثيرون لم يبلغوا بعد السبعة عشر عاماً ، وكانوا شباباً بدون خبرة ولكنهم شجعان ، فأخبرته بأننا قد مررنا بمعارك كثيرة خرجنا منها بضحايا قليلين وإن شاء الله نمرّ بهذه المعركة كما مررنا من قبل ، لأني لا أشك في شجاعة الأبطال وعزمهم .

تمنى لنا الحظ والتوفيق ، ثم قام واقترب مني وعانقني بشدة ، وغادر مكتبي أسعد مما كان عند دخوله ، توقفت أنظر إليه إلى أن أحرقتني السيجارة في يدي ، وصل قواد الفصائل لتسلم الواجبات ، شرحت لكل واحد ما يجب عمله بالتفصيل ، مركزاً على ضرورة العناية بالمناضلين عناية شديدة .

سألت كنعان : هل كانت لديهم كمية كافية من الأسلحة والذخيرة ؟ ردَّ

عليٌّ : نعم ، كانت لديهم أسلحة ، لكنها لم تكن كافية ، إذ حصلنا على غالبيتها من الجتنيك الموتى ، لكن أكبر مشكلة بالنسة لنا مشكلة الذخيرة التي تنقصنا ، ثم تابع حديثه :

في تمام الحادية عشر مساء ، قدت وحدتي إلى المعركة وأنا على رأسها ، المكان المقصود كان يبعد ساعتين مشياً على الأقل ، ولما كان الوقت ليلاً كان يجب أن نسرع حتى نصل هناك في الثالثة صباحاً ، أسرعنا ، كان الطابور يسير في هدوء دون أي ضجيج ، في منتصف الليل تقريباً وصلنا إلى « كوبيليا غلافا » مكان صغير على مدخل سراييڤو ، هناك أعطيت المناضلين فرصة للاستراحة ، وتوجهت لأرىٰ مرة ثانية الجامع الذي دمره الجتنيك بالقذائف ، لم يستطيعوا هدم مئذنته إلا بعد القذيفة التاسعة عشر ، كان ذلك الجامع جامعاً حديثاً بُني بأسلوب حديث ، دارت الذكريات في خاطري ورأيت المئذنة المهدمة عبر الشارع ، ضغطت على أسناني ، وقلت : « فليجاريهم الله سبحانه وتعالى » .

واصلنا طريقنا ، إن التحرك بطيء مرت برأسي أفكار مختلفة ، تذكرت حكايات جدي عن الحاج لويو ، فقد كان هو أيضاً يدافع عن سراييڤو ، اسمه الحقيقي فيصل لويو ، وبعد ذهابه إلي الحج سماه الناس الحاج لويو ، حسب الزعم ، كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، رجلاً قوياً بمعنى الكلمة، ربما كان هو أيضاً يقود جيشه بنفس الطريق ويدافع عن المدينة على سفوح جبل جوتش ، كان عدونا في وقته هو الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية ، إلا أن عدونا الآن أشد وأكثر عنفاً وهمجية ، غرضهم الرئيسي محو الدين الإسلامي من البوسنة .

أيقظني من هذه الأفكار أول أزيز للطلقات ، طلعنا إلى تل صغير يسمى أورليتش ، ثم ذهبت بهم إلى وحدة وأنزلتهم فيها ، أمرتهم بعدم الكلام حتى لا يكتشفنا العدو ، تقدمت قليلاً إلى الأمام وانبطحت بجانب شجرة ، كنت

أنتظر « رجل الاتصال » الذي يجب عليه أن يوصلنا إلى الموقع ، مضت عشرون دقيقة ولم يأت بعد ، انتظرت عشر دقائق أخرى لكن بدون جدوى ، تحركت الوحدة في بطء أكثر ، كنت أعرف الطريق لكنني كنت أخاف الألغام المزروعة في الطريق ، كنا نتقدم في بطء بسبب الليل والظلام ، دوي انفجار القذائف كان أقرب أكثر وأكثر ، خرجت إلى شجرة في الغابة ومن عندها رأيت أنوار فوغوتشا ، صففت المناضلين وأرسلت رسولاً ليبحث عن أحد القواد للاتصال به ، انتظرنا عودته أكثر من نصف ساعة ، حسب التقارير التي وصلتنا أنه قد سقط على هذه المنطقة أكثر من ٧٥٠٠ قذيفة في الأيام الثلاثة الماضية .

نظرت في ساعتي فوجدت الوقت يقترب من الثانية صباحاً ، أخبروني أن الرسول قد وصل ، اقترب مني ، كان اسمه عمر بالوثيتش ، شاب نحيل وهزيل عمره ٢٤ سنة ، كان مبللاً بالعرق كلياً ، طلب أن يستريح قليلاً ، ثم تنهد وبدأ يبلغني بالتقرير : « هناك جحيم لا يطاق » ، وجدت هناك محمد القائد ، إنه في انتظارنا .

أبلغني عمر أنه يعرف الآن الطريق ، فسمحت له أن يكون مرشداً لنا ، ناديت قواد الفصائل ، انبطح عمر بالقرب مني قليلاً ليستريح ، بندقيته في يده، وصل القواد ، أصدرت لهم الأوامر : « سنتحرك في مجموعات منفصلة بسبب الظلام ستكون المسافة بين الفصيلة والأخرى ١٠ - ١٥ متراً ، سيكون معي عشرة احتياطي ، كما أمرتهم أن يشدوا معدّاتهم وأن تكون البنادق معمّرة وفي وضع الاستعداد .

سنتحرك في الحال .

قفز عمر وتمطى ، رفع بندقيته ، انتظرت قليلاً وقلت : « انطلاق » .

بدأنا نصعد الجبل من جديد ، كان عمر يرأسنا ، أغصان الأشجار والأدغال كانت تعوق سيرنا ، برق شيء على يميننا فجأة ، ثم هزنا دوي

شديد ، انبطحنا جميعاً على الأرض وكأن أحداً أمرنا بذلك ، سمعت خلفي من يقرأ الفاتحة ، سألتهم هل هناك جرحى ، كان الرد بالنفي فأخذنا نسير إلى الأمام ، ومن خلف شجرة البلوط العريضة صاح رجل : « قف ، من هناك ؟ » ، رد عمر في الحال : « بأنه يقود الجيش إلى حسن » ، ثم دارت محادثة بينهما لم أسمعها بسبب دوي الانفجارات الشديدة .

ثم قال: هنا، بسرعة، ها هو ذا حسن في ملجئه على بُعد ٥٠ متراً من هنا.

واصلنا طريقنا إلى الأمام ، الرجل الذي أوقفنا نهض قائلاً : هيا أيها الأبطال ، نصركم الله وأعطاكم الصحة والعافية ، المهم وصولكم إلينا ، مررنا به أثناء اتجاهنا نحو حسن ، حيث وجدناه على حافة الغابة ، عندما اقتربت منه لأحييه رأيت أنه جاري حسن سيينار ، بعد تبادل السلام انبطحنا ، ولـمّا كان قريباً مني رأيت يده ملفوفة في جبيرة ، فسألته : هل كان جريحاً ؟ نعم يا أخي ، وقعت القذيفة قريبة منا فقتلت اثنين من المناضلين وأصابتني ، طلبت منه أن يعرض عليّ الوضع بسرعة ويبدأ في التراجع مع وحدته .

كان يتكلم في هدوء وبطء ، أخبرني بأشياء كثيرة منها خاصة ما يلي : أخي العزيز ، أنهم يهاجموننا باستمرار حتى الآن قُتِل منهم ٣٠٠ جتنيك ، لكنهم يهاجمون دون انقطاع ، إنهم مخدَّرون من المخدرات يا أخي .

بعد انسحاب حسن مع جيشه ، بقيت على الخط منتظراً الهجوم ، أمرت عمر أن يأتي بعشرة رجال ويحفروا ملجأ تحت الأرض ، نظرت في ساعتي فوجدتها الثانية والنصف صباحاً ، أي بقي أقل من ساعتين على انبلاج الصباح، فمن خبراتي الحربية السابقة عرفت أن الجتنيك يهاجمون في الفجر ، أما الليل ، فإنهم يلقون بقذائفهم : « ليسهّلوا الميدان أو يليّنوه » كما يزعمون.

تقدمت قليلاً إلى الأمام ولمحت مكاناً صغيراً مرتفعاً ، كان هذا المكان هو التل رقم ٨٥٠ ، إنه عبارة عن تل صغير ينحدر ببطء تجاه الشمال فيكوّن هناك الجبل المعروف باسم « جبل مويكيتشا » إن كل واحد من هذين التلين

يعتبر المفتاح السري لاحتلال جبل جوتش ، لقد استولينا على هذين التلّين منهما وطردنا الجتنيك ، لكن لمعرفة الجتنيك بأهمية هذين التلّين فإنهم يحاولون احتلالهما بأي ثمن كان ، إلا أنهم فشلوا في ذلك وخاب ظنهم ، لأنه بسقوط جبل جوتش في أيديهم فإنهم يقسمون مدينة سراييفو إلى قسمين وبالتالي يسهل عليهم احتلال سراييفو كلها .

أفقت من أفكاري - تلك - على صوت دوي قذيفتين سقطتا بالقرب منا ، رجعت إلى الخلف فوجدت أن عمر ومناضليه قد حفروا الخندق حتى وسطهم، جلست تحت إحدى أشجار البلوط وأخبرت قاعدتي العسكرية عن طريق اللاسلكي بأنني قد وصلت إلى المكان المقصود ، وأننا نقوم بأعمال الحفريات .

أخذت بندقيتي وفحصتها لأتأكد أن كل شيء كما ينبغي ، كنت متفائلاً ، لمست القنبلتين اللتين كانتا بحزامي وقلت : « ربما أحتاج إليهما » .

سألته : متى بدأ هجوم الجتنيك ؟

في نفس الصباح في الساعة الخامسة ، هجموا علينا فجأة ، كان عددهم كبيراً جداً ، كل ما قاله حسن كان صحيحاً :

- أكان لديك ضحايا وكم بقيت على ذلك الخط ؟

- كانت معارك عنيفة ، بقيت مع وحدتي خمسة أيام ، كان عندي ستة شهداء وثمانية جرحى .

- هل اشتركت وحدات أخرى في القتال ؟

- نعم ، كنت في اتصال دائم مع قواتنا يميناً ويساراً ، والتي كانت في المعركة أيضاً .

- كيف استشهد قائدكم ؟

- كان على اليمين ، وبعد مواصلة المعارك الشديدة أسبوعاً كاملاً وفقاً لأوامر القيادة العليا ، وافق على التراجع والتنازل عن مكانه لوحدة أخرى ، نفذ الأوامر ، لكن أثناء عملية الانسحاب ، أصيب أحد مجاهديه بِلَغم ،

فذهب إليه لينقذه بنفسه ، لكن في تلك اللحظة سقطت عليهما قذيفة في الحفرة فمزقتهما هما الاثنين ، كانت صدمة شديدة ومؤلمة لوحدته ، لقد علمت بهذا الخبر وأنا في الموقع فلم أصدق ، لكنها كانت الحقيقة ، لاحظت أنه يتحدث بصعوبة عن استشهاد صديقه ، فأنهيت الحديث ، سيكون هناك وقت كاف بعد انتهاء الحرب إن شاء الله وسنتحدث عن أشياء أخرى كثيرة ، وسنكتب عنها ، ليعلم الجميع ولأجيال قادمة أنه لن يتكرر أبداً أن يستغل أحد سذاجتنا وسماحتنا وطيبتنا .

* * *

كنت أحاول دائماً أن أجد وقتاً لزيارة شعبي المعذَّب ، أتمنى أن أبقى إلى الأبد لأنني أنتمي إلى هذا المكان ، وفي نفس اللحظة خطر ببالي بأني لست عادلاً في تفكيري هذا نحو أسرتي ، وخاصة نحو شريكة حياتي المخلصة «طاهرة » ، فمنذ بداية وقوع العدوان ليست هناك فكرة أعز عليّ سوى تفكيري في أسرتي بجانب وطني ، وأثناء ما كنت غارقاً في تفكيري هذا وجدت نفسي بالقرب من محل لتصليح الساعات لصاحبه محمد - هامو - سوجوكوفيتش الذي ينتسب إلى عائلة سرايفية محترمة .

دخلت المحل ، وجدته يصلح المنبه القديم في هدوء وكأن الدنيا حوله ليست في حالة حرب وكأنه ليست هناك طلقات الرصاص التي تأتي من الجبال المحيطة به ، ترددت قليلاً حتى لا أُعطله عن عمله ، لكنه رفع رأسه ، ولما رآني ابتسم ، وقام وعانقني وتبادلنا التحيات ، وسلمت إليه فوراً الرسالة المرسلة إليه من ابنته في أمريكا ، جلسنا في ناحية المحل الضيقة أمام المنضدة . كنت أحب دائماً وسط مدينة سرايفو لأنها لها روح خاصة ، حيث الدكاكين الصغيرة والكراسي المنخفضة ، وأنت جالس تنظر إلى المارة راشفاً القهوة مع « الملبن » .

لقد عشت هذا الحلم بوجودي الآن وسط المدينة ، إلا أنني أسمع طلقات الرصاص والمدافع لكني لا أريد أن أسمع ذلك بعد هذه الراحة التي وجدتها

في محل هامو لن أستبدلها بأي مكان آخر حتى لو كان فندق « هيلتون » أو «هيات » أو مثلهما . وبعد حديث جميل اقترحت عليه أن نذهب معاً لنأكل الكباب كما كنا نفعل في الماضي ، ألقى النظر إليّ بدهشة وقال : ويحك يا أخ خليل ، إني لم آكل كباباً ولا لحماً منذ سنة ، وحتى لو كان عندي نقود فإني أخجل أن آكل اللحم والآخرين ليست لديهم كسرة خبز .

وحيث إنه كان منفعلاً لزيارتي ، أغلق محله وطلب مني أن نذهب إلى داره التي تقع في شارع لوغاڤينا على تل صغير ينحدر نحو وسط المدينة ، سرنا في طريقنا ببطء والتقينا ببعض المارة النادر رؤيتهم ، وهؤلاء من الجبل اشتدوا في إطلاق النار ، وعندما نظرت إلى هذا الرجل المحترم بطرف عيني لم ألحظ أنه طرف بعينه ولو للحظة واحدة أثناء انفجار القذائف ، وفي اليوم سقطت قذائف كثيرة ، إلا أنه أحس بأني نظرت إليه فقال : إن الله تعالى معنا ومع مجاهدينا الذين يمنعون العدو من دخول المدينة ، عرفت أنه يفكر في ابنه الوحيد الذي علمت أنه ومنذ اليوم الأول للجهاد قد انضم إلى المقاومة في صفوف جيش البوسنة والهرسك بمنطقة سيدرنيك المعرَّضة للقصف المركز . أعجبت بهذا البوسنوي الكريم ، حكى لي كثيراً عن المناضلين الشجعان في سراييڤو وفي نهاية حديثه ذكر أن ابنه بينهم .

وصلنا إلى داره ، وفي الطريق لاحظت أن ضاحية المدينة القديمة هذه قد دمرت وحطمت كثيراً ، ظهرت الحفر والفتحات على جدران الديار البوسنوية المبنية على أجمل أسلوب تركي وشرقي ، ورغم التدمير الهمجي الذي يصل من مغاور الجبل ، بقيت في بعض البيوت المشبكات على النوافذ والنوافير أمام الديار والأحجار المصقولة التي رصفت بها شوارع الضاحية ، يبدو أن هدف العدو كان إصابة الشُّرَف ، ليس لعلوها بل لجمال أقواسها ونقوشها ، نظرت نحو الجبال المحيطة بسراييڤو وكلي حنق وغيظ ، إن هؤلاء لا يعلمون ما هي الحضارة ولا المدنية ولو كان يوجد بينهم رجل واحد مثقف يدرك معنى الحضارة ما فعلوا هذا الذي فعلوه .

دخلنا الدار واستقبلتنا صفاء زوجة هامو ، التي حاولت بابتسامتها إخفاء

الهالات السوداء تحت عينيها من أثر الليالي الساهرة ، إن البيت كان يتنفس نظافة دائمة ، تعجبت من أين كل هذه النظافة والماء نادر ، فإنه يجب الانتظار طويلاً لكل جالون من الماء في طوابير المياه تحت خطر سقوط القذائف ، فهؤلاء الناس وسط المدينة هدف دائم للقتلة ليلاً ونهاراً ، يا إلهي! كم هي جميلة ديارنا هذه .

صلينا معاً صلاة الظهر جماعة وبعد تناول الغداء « المأكولات الحربية الخاصة » يجب أن أقر بأنها كانت لذيذة وطيبة المذاق ، بعدها سرت وحدي في الطريق ، نزلت بالشارع المنحدر إلى وسط المدينة حتى وصلت إلى سلاتكو تشوشه ، أي ركن الحلويات ، وسمي هذا الموقع من المدينة بذلك الاسم لأنه على ناحيتين فيه محلات للحلوى ، أجد نفسي من جديد في شارع ساراتش ثم في شارع فرحدية الشارع الذي حدثت فيه المجزرة البشعة في مايو ١٩٩٢ ، عندما رمى الصرب قذيفة قتلت ستة عشر شخصاً وأصابت عشرات الآخرين .

يمشي المارة مسرعين ، إن وجود الضباب والبرد الشديد لن يمنع القتلة في الجبال من إطلاق نيرانهم ولو عشوائياً لأن الرؤية ضعيفة . فمن المحتمل أنهم لم يرضوا بعد عن المعاناة التي يعانيها شعبي وعن الأضرار التي حدثت له ، وسيستمرون في إشباع غرائزهم الهمجية ليقتلوا أكثر وأكثر ، اقتربت من مكان الجريمة وهو ليس إلا مكاناً واحداً من الأماكن الكثيرة لجرائم الهمج . إن سراييفو والهرسك كلها أماكن لجرائم الصرب ولتعذيب الشعب المسلم .

ومع هذا فقد وضع البوسنويون علامة للتأشير على مكان حدوث الجريمة الصربية ولو في هذه الظروف الصعبة ، اقتربتُ من السوق الداخلي ، وجدت بعض الورود موضوعة في التمثال المنحوت على شكل وردة الزنبقة ، تساءلت من أين الورود في مثل هذه الظروف ؟ يا إلهي ، هنا استشهد أناس ذنبهم الوحيد أنهم انتظروا الخبز في الطابور ، رفعت يدي لأقرأ سورة الفاتحة ، ولما كنت على وشك النهاية أحسست بيد على ظهري ، التفتُّ خلفي فرأيت رجلاً مسناً ملتفاً بشالٍ حول عنقه ، نظر إليَّ بعينين غائرتين وسألني : « من أين

أنت؟ » قلت : « أخوك من أمريكا أتى لزيارتكم » فتح عينيه على اتساعهما وفحصني بشدة ، وقال بغلظة : « لا تمزح معي يا أخي ، إن الذبابة لا تستطيع دخول سراييفو أو الخروج منها . إذن أخرج جواز سفري ليراه ، هدأت تعبيرات وجهه وقال : اسمي أحمد ، وخاطبني بـ « السيد خليل » ، كنت أنبهه باستمرار إنني لست سيداً بل أخوه في الإسلام خليل .

بدأ يحدثني عن كارثة مرعبة وقعت بالقرب منه : العالم رأى شيئاً بسيطاً مما حدث ، العالم لم ير ما رأيناه نحن ، لم ير كيف أن الصرب يتابعون إطلاق النار على مكان وقوع القذيفة ، إنهم لا يرضون بالموت فقط بل يحبون سفك الدماء أكثر وأكثر ، إن مواطني سراييفو لم يزعجهم إطلاق النار على مكان وقوع المذبحة ، بل بادروا بالمساعدة ، أخذوا يحملون الموتى والجرحى إلى السيارات ، مجمّعين أعضاء الأجسام المقطوعة ، كان هناك حتى الرجال الذين بكوا بصوت مرتفع من أهوال القتل والجرح والدمار ، إن سفاكي الدماء اشتدوا في إطلاق النار من الجبال ، لكن الناس استمروا في قيامهم بعملهم دون مبالاة بالرصاص الساقط عليهم ، الصرخات كانت منتشرة في كل مكان : « أسرع ، إن هذا الرجل ما زال حياً ، أسرع » ، كانت تلك صيحات لإنقاذ من بقي على قيد الحياة .

سقطت الدموع من عيني الرجل المسن وأفلتت منه آهة مؤلمة ، شككت أني أسمع صوتاً موسيقياً ، توجهت إلى مكان الصوت ، رأيت شاباً واقفاً بشعر طويل ، مهندم ممشط ، يلبس معطفاً أكبر من مقاسه بنمرتين على الأقل ، كان يعزف على الكمان بصوت موسيقى يمزق القلب المجروح ، إذ كان فيه شيء من الكآبة والألم والتحدي أيضاً ، كل ذلك استطعت أن أشعر به في كل نغمة ، سألت الرجل المسن الذي كان ما زال بجانبي : « من هذا ؟ » ردَّ: بأنه طالب بالسنة النهائية بكلية الموسيقى بسراييفو ، وهو ينتسب إلى عائلة موهوبة موسيقياً ، إن الله قد وهب أباه المرحوم عبقرية بارعة للتلحين . إن «عبدو » وهذا اسم أبيه ، كان واحداً من عديد من المسلمين المثقفين الذين أضافوا لهذه المدينة لمساتهم الإنسانية .

آه يا أخي ، إنه في مثل هذا الوقت كل يوم يأتي إلى هذا المكان ومعه

وردة الزنبقة التي ترمز للألم والتحدي ويهدي أنغامه للعابرين ، استمعت للموسيقى ثم ودعت الرجل المسن وسرت في طريقي عبر شارع فرحدية ، وما زال بأذني صوت الكمان الحزين الباكي .

يا إلهي ، أشكرك ، وأرجو منك أن تعطي الناس القوة والصبر ليقاتلوا العدو ولو بالموسيقى ، في نفس الوقت كنت على وعي بأن الفضائل التي وهبها الله لشعبي الذي وضعه تحت تجربة الاختبار أو تحت العقاب الدنيوي ، سينشأ منه جيلاً مستقيماً يعرف أن طريق الإيمان هو الطريق الوحيد للخلاص.

هذه الليلة لم تمر أيضاً دون إطلاق النار من زرّاع الموت .

مرة أخرى أنا بجامع « تساريفا » أو جامع السلطان ، حينما استطعت بعد أداء الصلاة أن أُحييَ حمدي جيڤالي والد صديقي العزيز حسين الذي يعيش بأمريكا ، ودائماً كنت أعجب بحسين هذا وبقوته وصبره الذي ساعده خلال حياته هنا وبتحمل الظلم التام الذي عانى منه أثناء النظام الشيوعي في يوغوسلاڤيا السابقة هو وعائلته . إذ كانوا مطرودين من البيئة التي تبعت النظام الشيوعي عميانياً ، النظام الذي اختبأ وراءه خصوم المسلمين الذين عاونهم المثلون العمي من صفوف المسلمين للوصول إلى مصالحهم ، إنه تحمل كل ذلك ، وأثناء وجوده بالسجن تحمل كل تجربة وضعها الله سبحانه وتعالى أمامه ، باتجاهه يومياً إلى الله وتضرعه إليه ، إنه اليوم يعيش مع أسرته في فلوريدا ويبذلون كل جهودهم لمصلحة البوسنة .

اتصل بي أخوه « سي يو » بالتليفون الذي يعمل نادراً في بعض مناطق سراييڤو ، وقال : « انتظرني يا خليل ، سنأتي لنأخذك بالتاكسي » استغربت قليلاً ، أنا لم أر في المدينة سوى سيارات الأمم المتحدة وسيارات الإسعاف فقط ، إن أمتعتي كانت كثيرة إلى حد ما ، فقد حملت معي أشيائي كلها بغرض المبيت عندهم .

بعد مرور نصف ساعة وصل « سي يو » سلَّم عليّ وابتسامة الترجيب تملأ وجهه ، الترحيب الذي يشعرني بأجمل الأحاسيس ، ليس هناك من يسر بالضيوف مثلما يُسر أهالي البوسنة الطيبين .

خرجنا خارج الجامع حيث التحق بنا « رحيم » زوج أخته ، نظرت يميناً ويساراً أبحث عن التاكسي ، وقبل أن أطرح سؤالي ، سبقني « سي يو » بقوله : ها هي السيارة التاكسي ، أضمن شيء ، عندئذ رأيت بجانب رحيم الزحافتين المربوطتين بحبل غليظ ، ضحكنا نحن الثلاثة ، ووضعت أمتعتي فوقها وربطت الآت التصوير بالحبل وسرنا .

مررنا بالجسر المسمى « الجسر اللاتيني » في هذا المكان وفي ٢٨ يونيو عام ١٩١٤ قتل غافريلو برينتسيب الصربي ولي العهد النمساوي - الهنغاري وزوجته الحامل . . . إن طلقة رصاصته تلك سبَّبت الحرب العالمية الأولى ، ولذكرى ملايين الضحايا في تلك الحرب ، أقام الصرب له لوحة تمثالية وتحتها في الخرسانة صبّوا قدميه ، وفي السُّلم كانوا يأتون بأطفال وتلاميذ المدارس ليمجدوا بطلهم القومي الصربي ، وهكذا استبدل اسم الجسر اللاتيني باسم جسر غافريلو برينتسيب ، اسم المعتدي على حياة ولي العهد والمجرم الذي تسبب في الحرب العالمية الأولى !!

تابعنا سيرنا في شوارع المدينة المهدَمة ، نلتقي بالناس الذين يجرُّون على زحافتهم براميل المياه وبعض الأخشاب أو الأحطاب .

بدأ القتلة الصرب في إطلاق الرصاص من القناصة على الشارع الذي كنا فيه ، تشتت الناس في جميع النواحي ولم يتركوا الزحافات من أيديهم ، يبدو أن الموت من الجوع أو البرد أشد من الطلقة ، وهذا هو السبب في كل ما يجرّونه وراءهم ، إن شعبي نزل إلى قاع الهاوية ليس هناك أسوأ من ذلك، بعد مرور نصف ساعة انقطعت النيران ، تابع الناس سيرهم في هدوء حيث أنهم تعوّدوا على تلك الظاهرة .

صعدنا إلى منطقة « بيبلاڤا » المكان الذي تعيش فيه أسرة جيڤالي ، في مدخل الفناء استقبلَنا أبوه حمدي .

لاحظت في الحال أنه ضعف كثيراً ، معدل النقص في وزن جميع أهالي سراييڤو ثلاثون كيلوجراماً ، وهذا النقص كان واضحاً جداً على حمدي ، ووضح أكثر بعدما رأيت الدموع في عينيه .

رحب بنا السيد حمدي قائلاً : تفضل يا خليل ، مرحباً بقدومك ، كانت في البيت ابنته سامية التي تهدم بيتها من قذائف الجتنيك . والآن استقرت في بيت والدها مع طفليها وزوجها . كانت هناك أيضاً زوجة سيبو « جنانة » مع طفليها ، البيت مليء بأفراد العائلة ، كل فرد يعرف مهمته ، وحمدي هو عمود العائلة كلها والمسئول عن كل صغيرة وكبيرة ، ولما رآني معجباً بهذا النظام قال مبتسماً : ينبغي أن يعرف رب العائلة .

طلب مني حالاً أن أخبره عن ابنه حسين وأسرته ، وكلما دخلت في الحديث عنهم ارتعشت ذقنه وذرفت دموعه ، لذلك اتجهت بحديثي إلى المواضيع العامة لكي لا نتحدث عن الذين لم نرهم منذ فترة طويلة ، ولا نتحدث عن الحرب .

كان الأطفال ينظرون إليَّ بفضول ، وكانوا جالسين على الأرض بجانب قدمي جدهم ، عيونهم الصافية أرجعتني إلى طفولتي ، تذكرت جدي عندما كنا أطفالاً ومن سيقترب منه أكثر ، قهقه حمدي قليلاً ، ثم قال : هيا أيها الأطفال ، ليسمع خليل السور التي تعرفونها ليحكي لحسين في أمريكا ، وافق الأطفال وبدءوا يقرءون القرآن واحداً واحداً . كانت تلك مسابقة حقيقية، وأثناء القراءة قام الجتنيك برمي قذائفهم بشدة ، ظهر الخوف في عيون الأطفال، أيديهم الصغيرة التي كانت على ركبهم أثناء القراءة وضعوها الآن على آذانهم ، أما النساء فاستمرَّين في أعمالهن المعتادة كأن شيئاً لا يحدث ، نظر سيبو من النافذة وقال : « ها هم اشتدوا ثانية » ، وبمجرد أن قال ذلك اهتزت النوافذ والأبواب والجدران ، لا تزال أيدي الأطفال على آذانهم والرعب في عيونهم ، بكى أصغرهم ، نهض الجد عن الأريكة وعدل قامته وكأنه لم يحدث شيئاً ودعانا بصوته الهادىء لنصلي العشاء .

قمنا جميعاً للوضوء بماء كانت تصبه زوجة ابنه من وعاء بلاستيكي ، بعد ذلك نادانا حمدي بصوته العذب لإقامة الصلاة .

* * *

● سوق باش تشارشيا – قلب المدينة :

قمت مبكراً وصليت الفجر ، كان صباحاً يوحي بالشتاء القارس الجاف ، إنه صباح سراييڤي ، فكرت وقلبي ينقبض من الحزن من أجل سكان هذه المدينة ، كيف يستقبلون بداية أيامهم بمثل هذا الصباح دون وقود ولا كهرباء ولا غاز ، فالرياح الباردة القوية والحرارة شديدة الانخفاض بدلت الثلج الذي سقط منذ أيام .

وصل مرافقي كنعان بورتشه ، تبادلنا التحيات وكلّنا سرور لأن هدفنا المشترك قد ربطنا ببعض بهذه السهولة ، إذ كان يبدو لي أني أعرفه منذ ولادتي، جلسنا نتحدث عن الالتزامات التي أمامنا وعن ضواحي المدينة التي يجب زيارتها ، وبما أن كنعان من مواليد سراييڤو فكان باستطاعته أن يقودني إلى المكان المراد زيارته بسهولة ، ودّعت أسرة جيڤالي بقلب حزين ، وأخيراً تحركنا بالأمتعة الكثيرة التي أردت أن تكون معي خلال سفري الطويل في البوسنة .

مروراً بمدينة سراييڤو التي ارتبطت بها مثل الأب القَلق الذي يرتبط بابنه المريض ؛ رغبة أن يُشفى في أسرع وقت ممكن ، كنتَ أنظر إلى الأطلال وحطام الحريق بدلاً من العمارات الجميلة سابقاً . إن بعض أحياء المدينة كانت تذكرني بطريقة لا تقاوم بمدمَّرات هيروشيما وناجاساكي التي شاهدناها في الأفلام .

نزلنا إلى قلب المدينة ، إلى سوق سراييڤو الشهير « باش تارشيا » الذي يعتبر هدفاً خاصاً لهمجية الجتنيك ، كان هذا المركز التجاري يشغى بالناس والبضائع المختلفة ، أصبح الآن حطاماً على حطام ، حوانيت عارية بدون نوافذها الزجاجية وبدون سقوفها وكثيراً منها بدون الجدران ، الشيء الغريب الجميل أن أرى في هذه الظروف ولو بعضاً من أصحاب المحال أتى لينظف محله أو ليصلحه ؛ أنه يتحدى العدو بطريقته العادية أن يأتي إلى هذا المكان الخطر ويعرض حياته للموت ويثابر في ترميم ما دمره العدو . . طلبت من

كنعان أن يبحث لي عن حرفي يستطيع أن يصنع لي شيئاً كنت أرغبه منذ الصغر ، أن يصنع لي حزاماً جلدياً جيداً ، كنت أتوقع أنه لن يجد هذا المهني، لكني أخطأت ، فقد كان كنعان يعرف أين تصنع مثل هذه الأشياء وفي تلك الظروف .

في سراتشي وجدنا هذا الرجل الذي لبى رغبتي سعيداً ، لأنه وفي هذا الدمار الذي يحيطه استطاع أن يقدم شيئاً لواحد من الناس وأن يعود ولو للحظة واحدة إلى ما قبل الحرب .

واصلنا طريقنا في باش تشارشيا لنصلي صلاة الجمعة في الجامع السلطاني المبني على مكان الجامع الأول الذي بناه مؤسس مدينة سراييڤو « عيسى بن عيسا كوڤيتش » ، ومن ثَمَّ تتابع بناء المباني العديدة في سراييڤو فكانت رمز المدينة الشرقية الوحيدة في أوروپا .

دخلت الجامع السلطاني ، الذي هو مرآة سراييڤو كلها ، فبالرغم من الحرب وبالرغم من سقوط القذائف العديدة يومياً في سراييڤو ، فإن الجوامع مليئة بالمصلين ، وكذلك جامع السلطان حيث كان الناس يبحثون عن أماكن للصلاة حتى أمام المدخل ، حول الجامع السلطاني حطام ودمار ، إلا أن -الجامع - والحمد لله - سليم تقريباً ، وها هو الشعب المسلم يصلي الجمعة فيه، إن العدو لم يتمكن من منع المسلمين من الصلاة ، أرى المناضلين الكثيرين في الجامع ، على وجوههم تقوى وحنان وفي نفس الوقت إصرار على الفوز متمسكين بصلابة في سبيل الله تعالى .

بعد صلاة الجمعة كنت أسلم على الكثيرين بالرغم من عدم معرفتي بهم .

وفي صحبة كنعان أسير (بباش تشارشيا) ، مررت بجامع الغازي خسرو بك المصاب في أكثر من مكان ولكنه ما زال قائماً ، وبجانبه ضريح الغازي خسروبك ، وبرج الساعة القديم ومدرسة كورشوملي ، أردت أن أرى مدى الخراب والتدمير الذي حدث بعد زيارتي السابقة حتى الآن .

وفي الشارع المودي إلى دار البلدية تدلّت بقايا أسطح المحلات والمنازل البوسنوية المعروفة سابقاً ، استوديو التصوير المشهور « فوتوهلاتشافيتش » احترق كما احترقت داره ، ومن خلال فتحة كبيرة في الجدار رأيت السقف ، السقف ذا الشكل الشرقي البوسنوي الذي هو جزء من التراث الشعبي الرائع .

نحن أمام دار البلدية التي هي رمز سراييڤو السابق والحاضر ، سابقاً حينما كانت مركزاً هاماً للسلطنة العثمانية والإمبراطورية النمساوية - الهنغارية ، وأوروپا ، وحاضراً هي دار البلدية المحروقة رمزاً لسراييڤو المحترقة .

صور هيكل دار البلدية المحترقة أُذيعت في العالم بأسره ، لقد اختفى واحترقت هنا آلاف المخطوطات القديمة القيمة التي كانت تعتبر أيضاً من التراث الحضاري لأوروپا ، ويمكن أن أقول بكل بساطة أنه هاهنا كانت تحترق أوروپا وحضاراتها المتعددة ، ولذا فقد أحرق الصرب الهمجيون دار البلدية .

أثناء تجوالنا لمحنا محلاً للكباب الذي تفوح منه رائحة طيبة ، وبما أننا كنا جياعاً ومتعبين قررنا أن نستريح قليلاً لننتعش ، دخلنا المحل الذي استقبلنا طاقمه بلطف ، وأثناء إجراء الحديث مع صاحب هذا المحل حمدي فرحاتوڤيتش ، أخو اللاعب المشهور لمنتخب كرة القدم وأحد مؤسسي فريق «سراييڤو » المرحوم عاصم فرحاتوڤيتش - هاسه .

كان عاصم وقتئذ واحداً من أحب أهالي مدينة سراييڤو إلى أهلها ، إذ كان صاحب كرم وجميل ومعروف ، وقد توفي صغير السن نسبياً .

علمت بأن حمدي أيضاً لم ينج من النكبة التي أتت بها هذه الحرب للجميع ، فهو كغيره مثل آلاف الأهالي بسراييڤو بقي بدون ابنه ، فقذيفة الجتنيك قتلته أيضاً أثناء انتظاره ليملأ برميله بالماء ليدخل السرور على قلب والديه ، استشهد الشاب في السابعة والعشرين من عمره عند نفس صنبور المياه الذي استشهدت عنده أسرة الشيخ عصمت سباهيتش .

حان الوقت للذهاب إلى وحدة « الفاتح » العسكرية أثناء طريقنا إلى الوحدة التقطت صوراً لجميع الجسور القائمة على نهر ميلياتسكا ، وعند جسر « تشوموريا » صورت مشهداً مؤثراً ، إذ صورت أماً صغيرة السن تحمل طفلاً بين ذراعيها والآخر يمشي بجانبها ماسكاً يدها ، تجد صعوبة في حفظ توازنها عند عبور الجسر على لوحاته الخشبية الضيقة ماسكة السلك الحديدي أمامها ، ساعدت المرأة في عبور الجسر متعجباً لشجاعتها للمرور في هذه الناحية من البلدة المعرضة للقصف الشديد في كل وقت .

استمريت في سيري بالشوارع الجانبية متجهاً ناحية فندق « أوروپا » ، وبالقرب منه سوق « بازيستان » المسقوف ، وهو مبنى في عهد الأتراك وله انسجام عمراني رائع ، وقد أُصيب من نواحيه المختلفة ، إلا أنهم لم يتمكنوا من إفنائه ، فإنه قد نجا ويتحدى بجماله الشرقي الرائع كل عدوان ، أمامنا من جديد محل للكباب ، هذه المرة صاحبه أرسلاناغيتش لاعب كرة القدم في هجوم فريق هاسه ، وكان نجم كرة القدم في سراييڤو في الستينات ، وفي محل الكباب هذا كان يجتمع هواة كرة القدم للمناقشة ساعات طويلة .

إن بالمحل تلفاً كبيراً ، لكن ما زالت على جدرانه صور اللاعبين ، عندما أردت أن ألتفت إلى معظم « الدائرة » واحة الهدوء في باش تشارشيا سابقاً ، لمحت مشهداً توقفت له أنفاسي ، إذ رأيت امرأة في الثلاثين أو أصغر في معطف مهلهل تبحث في صندوق الزبالة الكبير عمَّا تأكله ، أعرف جيداً أن ما في الصندوق هو طعام فاسد متخمر ، لأنه في مثل هذه الظروف الصعبة ليس هناك من يرمي طعاماً صالحاً ، اقتربت منها ببطء وقلت لها :

« يا أختي حذار هذا الطعام فاسد ، ستمرضين ، إنه سم » ، لم تهتم بي أو بكلامي في البداية ، ثم وقفت لحظة ولمحتني بعينيها المغمضتين وكانت نظرة تائهة ، أعتقد أنها كلمتني دون أن تراني : إنني مضطرة ، أرضع طفلاً ، أخشى أن يموت من الجوع .

بدأت الأرض تهرب من تحت أقدامي ، رأيت أيضاً حول فمها آثار سائل متخمر ينتشر منه رائحة كريهة .

فهتفت من أعماقي أين الآن أنتن يا نساء أوروبا ويا نساء العالم ؟ أين أنتُنَّ لترفعن أصواتكن ؟ هل تفكرن في أطفال البوسنة حينما تلاعبن وتدللن أطفالكن حُمْرَ الوجوه في الحدائق والبيوت والبساتين ؟ لماذا لا تخرجن مع أطفالكن إلى شوارع نيويورك وباريس ولندن وتطلبن من حكوماتكنّ أن تفعل شيئاً ؟ إنكن أيضاً تحت الاختبار ، يجب أن نذكر هنا أن أطفال سراييڤو أطفال- متحضرون عاشوا في الجو الثقافي . إنهم منذ صغرهم يعرفون الكومبيوتر ، وكثير منهم يعزف الموسيقى ، إن الأطفال ما بين السادسة أو السابعة يباشرون تعلم إحدى اللغات الأجنبية ، وبعد سقوط الحكم الشيوعي العفن اتجه الأولاد إلى الناحية الدينية ليُشبِعوا احتياجاتهم منه ، أدركت قوات الظلام ذلك فقرروا إزالتهم من على وجه الأرض .

وصلنا إلى المبنى الذي توجد به وحدة الفاتح المشهورة بشجاعتها وعزيمة مجاهديها ، وجدنا قائد الوحدة هارون إماموڤيتش الذي يجب أن يرافقني جزءاً من الطريق ، وبما أن الوقت كان وقت صلاة الظهر ، قمنا وتوضأنا وصلينا جماعة ، ودعونا الله سبحانه وتعالى أن يهدينا في طريقنا المقصود . أخذنا بعض الصور التذكارية لأيام الحرب المتعبة للقاءاتنا الأخوية الصريحة والتي ستكون نافعة للبوسنة بإذن الله .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر اتجهنا نحو دوبرينيا حيث كان يجب أن نلتقي بقائد لواء كان يعمل « متولى » لأحد الجوامع وهو عصمت هاجيتش ، وكان القائد في انتظارنا حيث استقبلنا وأثناء تناولنا فنجان القهوة حاولت أن أنظر إلى ملامح وجهه وأدخل إلى صميم روحه وفقاً لحديثه وحركات يديه لأتعرف عليه جيداً ، كان الرجل عملاقاً طويل القامة في الثلاثين على الأرجح ، بلحية طويلة سوداء ، ملامح وجهه متناسقة ، استنتجت أنه شخص جميل

الطباع ومؤمن ، كما لاحظت أن القائد يحمل جهازاً لتثبيت عظامه المكسورة، تكلمنا في مواضيع الحرب والمناضلين والألوية ، إذ تعرفت على تفاصيل تأسيس هذا اللواء ، وفي سرور تام قدمت له ما نويته من الهدايا وبعد قبوله إياها وجه إليّ كلمات الشكر الحارة .

كان علينا مواصلة طريقنا ، فكل شيء في هذه الظروف لا بد من تخطيطه جيداً ، حذرونا من عدة أماكن يطلق فيها القناصة نيرانهم ، فعبرنا مجموعة المباني جرياً ، فخطر ببالي أثناء الجري خاطر : يا ربي ، ما هو الشيء الذي لم يفعله المجرمون ضد سكان مدينة « شهير » سراييڤو الشجعان ، هذه المدينة الجميلة المخلدة في الأغاني .

* * *

● النفق تحت المطار :

الجهاد للحياة والحرية في سراييڤو حفر نفقاً ، ممراً من تحت الأرض سمّاه أهالي سراييڤو المحاصرة « نفق الحياة » .

لقد كتبت عن منطقة دوبرينيا وعن مصائبها وصعابها الفريدة التي يمر بها الباقون على الحياة ، إن هذه المنطقة سميت « المنطقة البطلة » لأن هذا الجزء من سراييڤو كان معزولاً عن المدينة ثمانية أشهر كاملة ، كان أهلها قائمين بالمقاومة البطولية ، ومع ضحاياهم الكثيرين قد تحملوا آلافاً من الهجوم المتكرر عليها ، إذ حاول الصرب الاستيلاء عليها وبذا يسهل عليهم تهديد سراييڤو ، وسيكون واضحاً للمقاومة والكفاح والبطولة والعذاب والألم إذا عرفنا أن دوبرينيا وحدها قدمت أكثر من ألفي شهيد ، وأثناء حصارها لم يستطع أحد أن يقدم لها أي عون سوى أحد المناضلين الشجعان « كاميكازا » الذي استطاع أن يحضر لهم بعض الأدوية ، فقد خطر بباله أن تهبط طائرته التي يتحكم فيها من بعيد والتي تسمى التنين وسط الشارع ليلاً ليسلم الأدوية. وبعد التسليم رفع طائرته بعون الله وأقلعت في الجو ورجعت إلى المدينة ، إن

مشكلة منطقة دوبرينيا الخاصة كانت صحة أهاليها ، فهم منذ بداية العدوان كانوا بدون كهرباء وماء بجانب الطعام القليل والأدوية الأقل ، إن تحملهم للمصاعب فاق حدود التحمل المعروفة إلى الآن .

فكر المجاهدون في العمل اللازم والذي يجب القيام به لتحقيق الاتصال بمنطقة بوتمير لمساعدتهم في صد العدو ومقاومته ، ولكن وكما هو معروف ، كان المطار تحت رقابة قوات الأمم المتحدة الذين يساعدون العدو الجتنيك ويعاونونه ، وهو ما يعني مباشرة أن قوات الأمم المتحدة كانت ضد شعبي دوبرينيا وبوتمير ومناضليهم ، وبصرف النظر عن ذلك كله فإن سكان سراييڤو كانوا مضطرين لعبور أرض المطار جرياً للوصول إلى بوتمير بسبب الجوع ، فقد كان الطعام يصل إلى بوتمير ولا يمكن وصوله إلى سراييڤو ، فكان الأهالي يضطرون إلى العبور الخطير مرتين ، مرة للذهاب لإحضار بعض الطعام لأطفالهم ومرضاهم وكبار السن ومرة أخرى أثناء العودة به .

ومن أول عبور للأرض قبل بداية عام ١٩٩٣ وإلى شهر مارس من نفس العام، قتل فوق الألف شخص ، أصيبوا جميعاً من مواقع الجتنيك بعد أن تضيء لهم قوات الأمم المتحدة أرض المطار بالأضواء العاكسة ليروا العابرين ويسهل عليهم اصطيادهم وقتلهم ، وكما كتبت من قبل كان رجال الأمم المتحدة يسلمون الرجال للجتنيك مقابل نقد ماليّ بالعملة الصعبة .

وبعد انتهاء شهر رمضان ١٩٩٣ ولدت فكرة حفر النفق بين دوبرينيا وبوتمير وفي سرية تامة ، فقد استمر حفر هذا الممر حوالي خمسة أشهر متتالية ، إن هذا النفق قد أخذ ثمنه الدامي ، حيث استشهد ٨٠٠ من الذين قاموا بحفره.

أثناء تدويني هذه الحوادث ، تساءلت : هل سجل التاريخ في أي بقعة من العالم مثل هذه المعاناة الشديدة والقسوة التي وقعت على عاتق أهالي مدينة واحدة ؟ كيف ستستطيع أوروبا أن تعيش مع هذا العار وتواصل خداع القوم بتصريحاتها عن حقهم في الحياة ؟

أخبروني بأن بناء النفق كان صعباً للغاية لأسباب عديدة منها أن المنطقة المحيطة بأرض المطار كلها مائية ، والمواد الرئيسية الأساسية اللازمة لاستعمالها كدعامات أفقية وكأعمدة حاملة كان يجب استيرادها وبصعوبة ، لأن أهالي سراييڤو اضطروا إلى قطع جميع جذوع الأشجار تقريباً من الحدائق والغابات واستعمالها وقوداً للتدفئة ولطبخ الطعام ليبقوا على حياتهم .

طول النفق ٨٢٠ متراً ، ويصل ارتفاعه في المدخل والمخرج إلى حوالي ١٨٠ سم ، أما الجزء الأوسط من النفق ولحوالي ٤٠٠ متر طولاً فإن الارتفاع لا يزيد عن ١٤٠ سم ، وهذا الجزء من النفق موجود تحت أرضية المطار الخرسانية بالضبط .

ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا النفق الشريان الوحيد الذي يمكن أن نخرج من المدينة أو ندخل عن طريقه ، طبعاً مع كل الأخطار الموجودة من الجتنيك عند الاقتراب من المدخل .

هذا النفق يستعمله جميع سكان سراييڤو ، حتى الرئيس علي عزت بيغوڤيتش يستعمله عندما يطلبون منه الحضور الفوري ولا يسألون عن كيفية خروجه من الحصار الجتنيكي ليصل إليهم ، إن قدم الرئيس علي عزت بيغوڤيتش قد وطأت هذا النفق قبلي بيومين .

وإلى القراء الأعزاء أترك لكم هذه الأسطر لتحكموا برأيكم في علاقة رؤساء الدول الأوروبية تجاه شعب البوسنة والهرسك وتجاه زعمائه الذين استشهدوا وهم في حماية قوات الأمم المتحدة .

* * *

● عن طريق إيغمان إلى الهرسك من جديد :

مررنا بهذا النفق نخوض في مائه ، نرفع رءوسنا ونحنيها لمدة ثلاثين دقيقة تقريباً ، مبتلين بالماء نتابع سيرنا إلى هراسنيتسا ، حيث كان في انتظارنا سيارة

لوري ، وانتهزنا الفرصة وزرنا الإمام صالح أفندي آغيتش ، إنه يرسل وصيته إلى ابنه الذي يعيش في أمريكا بأن يفكر ويعمل من أجل وطنه البوسنة والهرسك في كل لحظة من لحظات حياته . وبالرغم من تقدم صالح أفندي في السن إلا أنه يقدم لسكان هراسنيتسا ومناضليها التأييد المعنوي الهام ، حيث يُقوِّي إيمانهم بأن الله تعالى معنا وأن الحرية آتية بعون الله إلي المناطق البوسنوية .

تركنا صديقنا متجهين إلى سيارتنا « باترول » ، حيث وجدنا بجانبها سبعة أشخاص . هذه السيارة مخصصة للقيادة الجبلية ، ولكنها للأسف لم تعمل ، اكتشفنا أن البطارية ضعيفة ، كنا في حاجة إلى سيارة أخرى لتقوي بطارية سيارتنا ، كنا في الحقيقة محظوظين إذ وصلت بسرعة سيارة النقل الصغيرة ، وبعد أن قوي المناضل البشوش بطاريتنا ، انصرفنا برعاية الله .

سرنا بطريق جبل إيغمان المعروف ، وصلنا إلى أول نقطة مراقبة لقواتنا ، حيّونا بحرارة وبعد التفتيش تمنوا لنا سفراً سعيداً مع نصحهم لنا بأن نطفيء أنوار السيارة .

عندما وصلنا إلى أعلى الجبل قص لنا هارون بالتفصيل عن المعارك التي جرت في هذه المناطق مشيراً لنا إلى الأماكن التي أوقف فيها اللواء التاسع الإسلامي تقدم الجتنيك حيث أفسد عليهم خططهم لاحتلال جبل إيغمان .

واصلنا سيرنا هابطين الطريق الخطير بالجبل تجاه مدينة بازاريتش المحبوبة ، زرنا صديقي الحافظ الذي اسقبلنا بحرارة حيث استرحنا وانتعشنا .

سرنا اتجاه كونييتس ، وعندما لمسنا الطريق المعبَّد الأسفلتي كادت سيارتنا تطير بنا ، وصلنا في ساعة واحدة من بازاريتش إلى كونييتس ، توجهنا إلى مدرس كونييتس الذي استقبلنا استقبالاً لم نحلم به ، فقد كان هناك البطاطس المشوية والقشطة والجبنة الدسمة ولحم الخروف المجفف (على الدخان) ، كان هذا متعة لنا بعد السفر المتعب ، سألت الناس عما ينقصهم لأجمع أكبر

قدر من المعلومات لأتابع عملي نحو تقديم المساعدة للبوسنة ، بتنا جميعاً في هذا البيت على فراش مريح .

استيقظنا مبكرين حتى لا نضيع وقتنا الثمين في النوم ، فإننا في حاجة إلى وقت كاف للمحادثات النافعة والزيارات ، بدأنا أول ساعات الصباح بصلاة الفجر ، ثم ملعقة العسل ، تناول القهوة الساخنة والفطور ، ثم انصرف كل منا لأداء مهامه .

مع اقتراب وجبة الغداء اجتمعنا جميعاً مع الخبرات والمعلومات والمشاريع الجديدة ، صديقي العزيز والمرافق كنعان يعود إلى سراييڤو فله أعماله وواجباته التي يجب أدائها ، كان فراقنا صعباً وعلى أمل أن نتقابل في القريب في ظروف أسهل وأحسن للبوسنة وسراييڤو .

* * *

● مع مدافعي وجرحى كونييتس :

ما زلت في كونييتس حيث أبحث عن أسهل طريق يوصلني إلى زينيتسا ، ثم تحقيق رغبتي القديمة وهي زيارة توزلا .

إن مدينة كونييتس تقدم إمكانات كثيرة لنشاط الرجل الذي وصل من أمريكا البعيدة بغية أن يحس ويشعر ولو بجزء من مآسي الحرب البوسنوية ، وأن يأخذ على عاتقه جزءاً من المتاعب التي ضغطت على هذا الشعب ، فكونييتس تقدم معرفة الأشخاص الذين يتميزون بميزات خاصة تدخلهم أساطير مناطقنا تلك ، وأحد هؤلاء هو السيد ناظم خليلوڤيتش نائب مدرس كونييتس الذي سمعت عنه كل خير .

ذهبنا إلى بيت ناظم للمبيت عنده وللتعرف عليه أكثر .

هو شاب صغير السن ، له لحية كثيفة طويلة ويلبس نظارة طبية ، وما يميزه

عن المناضلين الآخرين الشال والشريط الأسود حول رأسه والذي كتب عليه «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

ويعرفه الجميع بعلاماته تلك ، يحكي قليلاً عن نفسه ، لأنه مشغول دائماً بما فيه مصلحة المسلمين عامة ، إن الإسلام بمبادئه الواضحة الخاصة بحياة الفرد والعائلة والمجتمع يمثل أساساً وقاعدة عظيمة في تحقيق وحدة كتيبة العالم الإسلامي أجمع ، يحدثنا ناظم فيقول :

إن ناظم ينتمي إلى منطقة بودرينيه ، وبالأخص إلي مدينة « جيبا » البطلة والمحفوظة في ذاكرة الجتنيك جيداً نظراً لمقاومة أهاليها الشديدة البطولية وهم جياع وبدون سلاح ، فقد ترك مئات الجتنيك عظامهم حول جيبا .

يا إلهي يا عظيم ، كم من البوسنويين الذين أنتسب أنا إليهم أيضاً يتمتعون بالمتانة والعزم والكرم ، قبل بداية الحرب التقى بأخيه أحمد ، ولما بدأت الحرب وصلت إليهما رسالة من أبيهما من جيبا يوصيهما بأنه لن يغفر لهما إذا لم ينضما إلى كفاح الشعب العادل .

فمنذ بداية العدوان نظم ناظم الناس ، كأنه قائد عسكري خبير ، لمقاومتهم وكوّن وحدته المثلى ، فأعطى المناضلون اسم « ناظم » لتلك الوحدة ، إن الغاية المثلى التي ترفرف أمام عيون ناظم ومناضليه هو انكسار الجتنيك ، عدو الشعب المسلم ، ثم تحقيق الحرية لوطنهم لذلك لا نستغرب إذا عرفنا أن حملاتهم كانت دائماً معدة جيداً وناجحة . فالقائد ناظم جرح مرتين ونائبه أربع مرات ، وقدمت هذه الوحدة عدداً كبيراً من الشهداء . إن تواضعه ورغبته في القيام بأعمال جيدة ناجحة تميز هذا المؤمن المخلص ، وأريد أن أقول : أنه خلال اثنتين وخمسين سنة في حياتي لم أر رجلاً مثالياً مثله ، فبحديثه الحكيم وحركاته المعتدلة وصراحته ووفائه نحو هدفه العادل يرغب الناس ويشجعهم على الاشتراك في الجهاد في سبيل الله ، وأخيراً التقيت

برجل أعجبني بأقواله وأفعاله . إن لقائي مع هذا الرجل يُعتبر مكافأة لي من الله تعالى لكل الجهود التي بذلتها لأجل البوسنة .

إن ثروتي الغالية هي تحقيق العلاقات الطيبة مع الناس الذين زينهم الله تعالى بأطيب الصفات وهم الذين يُعرفون في مجتمعهم بطيبتهم وشجاعتهم واعتدالهم في كل شيء . بعد تناوله الفطور رحل أصدقائي إلى سراييفو وأنا ما زلت باقيًا أنتظر طريقة مناسبة لمواصلة طريقي ، انتهزت وقت الانتظار لأزور المدينة ، فوجدتها مدمرة للغاية من الجتنيك ومن قوات لجنة الدفاع الكرواتية التي تقوم بالرقابة على كلا ممرى الجسرين لنهر نيريتفا .

للأسف الشديد ليست لدى الكروات المتعصبين أي شيء مقدس في هذه الحرب البائسة مثلما لم تكن هناك مقدسات بالنسبة للجتنيك ، إلا أنه هناك فارق جوهري يجب تأكيده هنا ، وهو أن الشعب الكرواتي لم يقف جماهيريًا بجانب سفاكي الدماء الكروات كما وقف الشعب الصربي بجانب سفاكي الدماء الصرب ، لذلك نجد أن هناك فرصة لإيقاف الصراع بين لجنة الكروات الدفاعية وجيش البوسنة والهرسك .

إن عددًا كبيرًا من السياسيين التابعين للقومية الكرواتية وعوا لفجيعة هذه الصراعات التي ليست لها سوى نتيجة واحدة وهي تقوية العدو الصربي المشترك . فمجموعات الشعب الكرواتي المتطرفة من البوسنة والهرسك والتي قبلت القاعدة والمبدأ الجتنيكي فقتلوا الشعب البريء ودمروا بيوته ومدارسه وجوامعه ، وقتلوا الآباء الذين كانوا يبحثون عن لقمة الخبز لأطفالهم وبذلك خلقوا جيشًا من اليتامى ، جيشًا من مشوهي الحرب ، وذلك فقط لأنهم لا يعتنقون الدين المسيحي ، فقد أرادت هذه المجمعات المتطرفة أن تخلق في البوسنة والهرسك الأرض ذات الأقوام المختلفة الجنسية ، وفي الأرض التي يمثل المسلمون فيها أكبر نسبة ، دويلة ما « مصفاة عنصريًا » (مصفاة من الأديان الأخرى) تكون للكروات « الكاثوليك » فقط ، وسموها « هرسك ـ بوسنة » .

لقد بدأ ظلام الليل يهبط عندما اتجهت لزيارة مستشفى كونييتس بهدف تبليغهم تحيات مسلمي أمريكا ، وأن أقدم لهم الهدايا والنقود لنشاركهم في تحمل همومهم ومشاكلهم .

أول جريح التقيت به اسمه « ألمير مصطفيتش » المدعو بـ « عربي » من مواليد ١٩٦٤ ، وصل إلى المستشفى بعد أن داس على لغم في ١١ أكتوبر عام ١٩٩٣ ، فبترت ساقه ، لكنه يدرك أنه واحد من ضمن آلاف مثله في البوسنة قد بترت أرجلهم ، إنه يتحمل قدره محاولاً أن يكون بشوشاً من أجل نفسه ومن أجل الآخرين من الجرحى حوله ، أخذنا ألمير إلى صديقته الشجاعة البوسنوية الجميلة ، وعلى باب غرفتها قال لها : « أريد أن أتصور معك لأننا نحن الاثنين أجمل اثنين في المستشفى » ابتسمت الفتاة في ألم ، اسمها صابينه سيبار ، وهي مناضلة في الجيش ولدت في راشتاليتسا بالقرب من تارتشين . اشتركت في معارك حربية كثيرة ، أصيبت أثناء عودتها من إحدى تلك المعارك في رجليها ، كما أصابت إحدى الشظايا حرقفتها (*) اليسرى واستقرت بالقرب من كليتها . جرحت صابينه في لوكفيتسه بالقرب من كونييتس ٤ سبتمبر عام ١٩٩٣ .

الجريح الذي زرته بعد ذلك كان عمره ١٧ سنة « چنان راميتش » ، جرح في كونييتس ٩ نوڤمبر ١٩٩٣ من طلقة قناص ، دخلت الرصاصة فوق عينه اليسرى ووقفت تحت أذنه اليمنى ، يصعب الفهم كيف بقي هذا الصبي حياً بعد جرحه الصعب هذا .

يحكي جنان أنه تعثر بعدما جرح وأثناء سقوطه أستند على يده ولكنه قام في الحال ، عندما رأي الذين حوله الجرح فوق عينه فزعوا واضطربوا ، لكنه دخل وحده السيارة التي حملته إلى المستشفى وخرج منها دون أية مساعدة ، وأجريت له العملية الجراحية السريعة حيث أخرجوا الرصاصة من فوق أذنه اليمنى ، إن إرادة الله سبحانه وتعالى هي التي أبقت هذا الشاب المناضل على

(*) الحرقفة : رأس الورك .

قيد الحياة ، إنه يرى بعينه اليسرى رغم الأضرار التي أصابت عضلات عينه ، لكنه لا يستطيع القراءة ، يقول جنان : إنه بعد خروجه من المستشفى سيعلق طلقة الرصاص في سلسلة حول عنقه . إن القوة التي يملكها هذا الشعب تتكلم من داخله .

يا إلهي ، إني أدعوك أن تساعد هذا الشعب ، فقلبهم كبير ومتين ، يا ربي ساعدهم ، كنت أدعو بهذه الكلمات حينما كنت أستمع إلى جنان وقصته .

ذهبت بعد ذلك إلى حجرة العناية ، لدخول تلك الغرفة كان يلزم موافقة رئيس القسم الدكتور سعد بطورويتش ، الرجل الذي وجد بالمستشفى منذ بداية الحرب متحملاً أكبر مجهود .

التقيت أولاً بالمناضل شمس الدين تشاغالي الملقب بالسلطان ، من مواليد ١٩٦٠ يرقد في هذا القسم بسبب جرح غائر ، لقد جُرِح برصاص القناصة من مواقع قوات لجنة الدفاع الكرواتية في ٢٣ من نوفمبر ١٩٩٣ .

وفي نفس الحجرة وجدت شهيداً أصيب في ذلك اليوم قرب الجسر القديم بموستار ، المكان المركز عليه نيران الأوستاشا الدائم ، وبالرغم من محاولات الأطباء العديدة لإنقاذه إلا أنه قد استشهد .

إن هذا المجاهد واسمه خالد هايدوك قد استشهد عند ظهور الشفق ، رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته ، إن كل هذا ليس إلا جزءاً ممن التقيت بهم أثناء تجوالي ببلدنا البوسنة ، أوجه شكري إلى الدكتور بوطوريڤيتش وطاقم المستشفى ، وكانوا هم أيضاً شاكرين لي زيارتي والمعلومات التي نقلتها إليهم والتأييد الكبير من مسلمي أمريكا لمقاومتهم ، لقد وعدت هؤلاء المناضلين الأخصائيين بالمستشفى أن آتي إليهم مرة ثانية بآلة التصوير (ڤيديو) ليسجلوا عملهم الشاق المثمر ، لكي يُحفظ هذا العمل ولا يُنسى أثناء السلم .

اجتمعنا من جديد في بيت نائب المدرس ناظم ، أخبرتهم عما فعلته في ذلك اليوم ، تحدثنا عن سفري في صباح اليوم التالي .

أصبح ٢٩ نوفمبر عام ١٩٩٣ يوم سفري في صحبة أصدقائي تجاه زينيتسا ، كنا ندرك خطورة الطريق بسبب هجوم لجنة الدفاع الكرواتية ، وبصوت هامس طلبت من الله أن يساعدنا في طريقنا هذا .

ودّعت أهالي البيت الأعزاء ، وحزنت لذلك الفراق لكن كلي أمل أن نلتقي في القريب مرة أخرى ، مجموعة الأطفال التي التقينا بهم أثناء عودتهم من المدرسة جعلتني أنسى أننا فى الحرب ، أخبرني الذين كانوا معي أن هؤلاء الأطفال يسيرون الكيلومترات على أقدامهم ليصلوا إلى مدارسهم .

التقينا أيضاً في الطريق بالجنود السائرين على أقدامهم مُدداً طويلة ليصلوا إلى جهتهم المقصودة ، لو كان لدى جيش البوسنة ولو جزء من الأجهزة الحربية النقلية التي عند الجيش الصربي لكان قوة لا تقهر في العالم ، لفخر وعزة شعبها . وأنا أيضاً فخور لأني ولدت في ذلك البلد بين هذا الشعب الكريم ، وبمغادرتنا برادينا نترك أيضاً الطريق الأسفلتي ونتجه ناحية اليسار تجاه بيتوڤينيا ، أمامنا طريق صاعد مغطى بالثلج ، يصاحبنا أيضاً الضباب الكثيف والبرودة الأشد كلما صعدنا إلى أعلى ، لقد مر بنا وقت طويل في السفر لكننا لم نقابل أية سيارة في طريقنا . مررنا بـ « ريبوڤاتس » فرأينا على مروجها قطعان الغنم وبعض الخيول مثل أوقات السلم الجميلة ، أحسست بوخز خفيف بالقرب من قلبي ، في العمق تحتنا يوجد الضباب الذي ملأ الوديان وغطى البيوت ، أما طريقنا فكأنه أصبح أضيق وأخطر بعد كل خطوة جديدة ، سيطر عليّ الخوف عندما نظرت إلى الجهة اليسرى فوجدت هوة سحيقة ، بينما على جهة اليمين كانت صخرة منحدرة .

كنا مهددين بالخطر في كل لحظة خاصة أثناء نزول السيارة بطريق شديد

الانحدار ، ومن حين لآخر كنا نلتقي ببعض المارة النادرين ، المارة المشاة الذين أجبرهم البؤس الشديد أن يخرجوا في مثل هذا الفصل السنوي وفي هذه الظروف الحربية الخطيرة ، كانوا يمشون على أقدامهم في مجموعات في أردية قديمة بالية وبأيديهم الحقائب واللفائف . هذه المناظر كئيبة ، حيث ترى هؤلاء الناس الأغنياء والأعزاء في الماضي كيف يمشون الآن مرهقين بعبء الحياة منحنين ومتجمدين من البرد إلى اتجاه ما ، لم نسعد عندما مررنا ببعض سيارات النقل الواقفة على الطريق دون أمل في أن تتحرك عن قريب ، لا تنفع الناس ولا المدافعين .

وبجانب كل الصعاب المتعلقة بالطريق الرديء ، بدأ المطر المتجمد يسقط ، فأصبحت كل خطوة جديدة في القيادة أصعب وأشد خطورة ، ولوحظ الاضطراب لدى الجميع ، لحقنا ببعض سيارات النقل التي تسير ببطء بالرغم من وجود السلاسل الحديدية على إطاراتها ، لكنها لا تفيد عند سقوط هذا المطر المتجمد .

وصلنا إلى « دوبوكي بوتوك » الواقعة على مفترق الطريق يسار « يابلانتسا » ويمين « ڤوينيتسا » اتجهنا إلى ڤوينيتسا حيث التقينا بأربعة من المسافرين كانوا يمشون بصعوبة ، أخذناهم في سيارتنا وبعد التعرف عليهم فوجئنا بأنه الشيخ الحافظ من زينيتسا الذي اتجه مع أخيه الأصغر نحو زينيتسا ، كانت أقدامهم مبللة مجمدة ، ومن يعلم ماذا كان يحدث لهم لو لم نأخذهم معنا في السيارة، يا إلهي ، ماذا حدث للبوسنة ولشعبها ؟ وكل ذلك فعله الأشرار الصرب بغرض تخريب هذا البلد الجميل وقتل أهلها ، أما الذين ينجون من الموت فإنهم مجبرون على مثل هذه المشاق والصعاب ، لقد أخروهم على الأقل قرناً إلى الوراء .

واصلنا طريقنا ببطء في انتظار ورطة جديدة ، وقد أتت ، فبعد أن مررنا بـ«غوريليتسا » واقتربنا من كوزي غراد « لاحظنا على الطريق سيارات واقفة ،

وقفنا نحن أيضاً لأن الطريق كان مردوماً بالثلوج المنهارة ، لحسن الحظ كان عند أحد السائقين جاروف ، فقمنا بتنظيف الثلج من الطريق بقوتنا المشتركة وواصلنا الطريق ، وتغلبنا بسرعة على الطريق المنحدر الذي قابلنا بعد ذلك .

سررنا لوصولنا بسهولة إلى ڤوينيتسا ، وبعد ڤوينيتسا زرت أماكن أخرى صغيرة وجمعت أفلاماً ضخمة خاصة أثناء زيارتي لـ « توزلا » والأماكن المحيطة بها .

* * *

● زيارة منطقة توزلا :

لا بد أن أعترف بأن سفرنا إلى توزلا قد أتعبنا جداً ، لا بسبب الخطورة الدائمة من العدو ، أو بسبب توقفنا في الطريق والمراقبات ، بل بسبب المشاكل المتعلقة بتوفير الوقود ، إن نقص الوقود يمكن تبريره نظراً للواقع الحربي ، لكن عملية التهريب لهذا السائل الضروري قد اغتنى بسببها عدد من الأشخاص في هذه الأوقات الصعبة على هذا النحو الخبيث . لكن عدد هؤلاء الناس قليل بالنسبة للذين أعطوا آخر قطرات وقودهم للمستشفيات أو لنقل الموتى أو الجرحى ، كما أحاول أن أبرر تصرفهم هذا بأنهم يريدون توفير الطعام لعائلاتهم مقابل كل لتر مباع من هذا النفط ، حيث بلغ ثمن اللتر الواحد ٤٠ ماركاً ألمانياً .

وصلنا إلى توزلا ، حمد السائق الله على وصولنا بسلامة الله ، استقريت عند أقربائي محرم وسلاداً محرموڤيتش ، كانت إحدى العائلات التي عاشت في سلام وارتياح قبل الحرب بمدينة لوكاڤاتس قرب توزلا ، عندما وصلت وجدت محرَّماً عندما اقتربت وقلت : « السلام عليكم ، أنا خليل ألا تعرفني؟» نظر إليّ ، فرك عينيه المغطاة بنشارة الخشب ، دمعت عيناه وعانقني بشدة ، وقال : « أأنا أحلم ؟ » ولم يقل شيئاً آخر ، بل كان ينظر إليّ فقط ويكرر : « لا أستطيع أن أصدق ، وصل من أمريكا إلى جهنم » .

بعد أن استرد وعيه قليلاً أخذني داخل البيت ، دخلت البيت ، كانت به سلادا مع بعض جاراتها ، نظروا إليّ بدهشة غير مدركين سبب وصولي ، قاطعتهم بسؤالي : « أأنتم غير راضين عن وصولي ؟ » اعتذروا لي واقتربوا مني وعانقوني محاولين إظهار مدى سرورهم لأني بينهم .

إنهم قد استهلكوا كل أغذيتهم الاحتياطية في البيت ، حتى أنهم نسوا متى كانت آخر مرة شربوا فيها القهوة ، أتيت ببعض الطعام الذي استطعت أن أوفره في طريقي ، جلسنا لنأكل ، عندئذ وصل ابنهما أنس الذي لم أره من مدة طويلة ، لم أستطع أن أحول عنه نظري ، كان شاباً في التاسعة والعشرين من عمره ، كان في الزي العسكري وعلى يده شعار ورود الزنابق الذهبية ، شعره الأسود كان يتدلى برشاقة على جبينه ، وعيناه الصافيتان كانت تسكبان قوة زائدة ، شعرت أننا لن نمحي أبداً بوجود مثل هؤلاء المناضلين ، إن هذه الشبيبة ستدافع عن البوسنة .

تحدثنا حتى ساعات متأخرة من الليل في جو البيت القروي الجميل بجانب النار المشتعلة في الفرن ، كم مرة وأنا في أمريكا فكرت في أن أحلى أيام حياتي هي التي قضيتها بجانب شرارات نار الفرن والحكايات الصوفية التي يحكيها المسنون إلى وقت متأخر من الليل ، إن هذا التصوف كان فلسفة الحياة للبوسنويين الصالحين فيها .

وجه محرم سؤاله إليّ : « ما هذا الذي يفعله الصرب بنا يا خليل ؟ ما رأيك أنت في ذلك ؟ نظرت إليه ورأيت فيه كل شعبنا الطيب ، جميع أسلافنا تقع عليهم المسئولية الوحيدة بأنهم لم ينقلوا للأجيال التي تلتهم عمّاً حدث لهم في الماضي وعمّاً سيتكرر في المستقبل لكل جيل جديد .

وهو الإنذار بالإبادة الجماعية لشعبنا » .

• عشر إبادات جماعية ضد شعبنا البوسنوي المسلم

أول هذه الإبادات وقعت عام ١٦٨٤ م وهي كارثة المسلمين العظمى التي وقعت بعد انتهاء الحرب بين السلطنة التركية والنمسا . في ذلك الوقت ضاعت السلطة من الأتراك في : المجر ، سلافونيا ، ليكا ، دالماتسيا ، بوكا كوتورسكا ، إن جميع المسلمين الذين لم ينسحبوا إلى البوسنة والهرسك وغيرها من المناطق الواقعة جنوب نهري سافا والدانوب ـ مثل مسلمي أسبانيا قبل قرنين من ذلك ـ قتلوا أو طردوا أو أجبروا على اعتناق الدين المسيحي . يعني أن في الحرب ما بين تركيا والنمسا كان الضحايا هم المسلمون . وكانت الكنيسة الكاثوليكية وراء ذلك .

الإبادة الجماعية الثانية ضد المسلمين وقعت في بداية القرن الثامن عشر . كان ذلك ليلة ميلاد المسيح في تلك الليلة تم تنفيذ الخطة المسماة بـ « إبادة المتركين » أي إبادة الذين اعتنقوا الدين التركي « الإسلامي » وهنا قاموا بقتل حوالي ألف مسلم كانوا يعيشون في منطقة الجبل الأسود القديمة . إن مخططي هذه الفكرة الوحشية كانوا في هذه المرة « الكنيسة الأرثوذكسية » وقد أكد ذلك شاعرهم بيتار بيتروفيتش تيبفوش في ملحمته « السلسلة الجبلية » التي كان أطفالنا المسلمون مجبرين على حفظها في المدارس .

الإبادة الجماعية الثالثة ، كانت تلك العملية المسماة بـ « تصفية الأتراك عامة من الشعب » وهذه الإبادة استمرت من القرن التاسع عشر حتى القرن العشرين . وكان ذلك من ضمن سياسة صربيا والجبل الأسود . إنهم في هذه الفترة الطويلة أرادوا بقتل المسلمين وطردهم بناء دولتهم ولو على حساب خسارة المسلمين ، بالإضافة إلى دور الكنيسة الأرثوذكسية الأساسي ، كان أيضاً للصرب السياسيين والمؤرخين اليد المصممة لخطط إبادة المسلمين الجماعية .

الإبادة الرابعة تمت عندما أصبحت الصرب إمارة داخل السلطنة التركية ، كان بإمكانها أن تطرد وترحل مسلمي أوغيته ، شاباتس بلجراد وهو ما تم

تنفيذه . رُحل جميع المسلمين المطرودين إلى البوسنة حيث أقيمت السكنات لهم .

الإبادة الخامسة وقعت عموماً ضد المسلمين الأتراك والألبان من ١٨٧٦ - ١٨٧٨ عند حصول صربيا والجبل الأسود عموماً على استقلالهما التام بمؤتمر برلين ، حيث وعدتا باحترام حرية الدين ومنح كافة الحقوق للمسلمين . وفي فترة استمرت ستة عشر عاماً أزيلت مئات الجوامع وأبراج الساعات وديار الضيافة والخانات والأسواق المسقوفة في بلجراد وشاباتس وأوغيتسه ونيش وبيروتو .

الإبادة السادسة ، إن المسلمين عام ١٨٧٩ قد حاربوا ضد احتلال الإمبراطورية النمساوية - الهنغاوية حيث قاموا بهجرتهم أثناء الاحتلال نفسه وبعده نحو تركيا وسانجاك وكوصوفو ومقدونيا . بذلك انخفض عدد المسلمين في البوسنة فجأة .

النتيجة المباشرة للحرب البلقانية الأولى والثانية كانت الإبادة السابعة ضد المسلمين ، وقد تمت ضد مسلمي سانجاك والجبل الأسود ، وبالأصح ضد مسلمي مدينتي بلافو وغوسينيه حيث قامت عمليات تنصير إجبارية ، وكانت تلك هي الإبادة الجماعية الأولى ضد مسلمي سانجاك نظراً لعدم وجود سلطة تحميهم .

أما الإبادة الثامنة فقد وقعت في عهد المملكة اليوغوسلافية ، وكان أكثر المتعرضين لهذه الإبادة مسلمي سانجاك والهرسك الشرقية . وفي عام ١٩٢٤ قتل ٦٠٠ مسلم بقرية شبهوفيتشي الواقعة بسانجاك دون أي سبب أو مبرر ، وبالتالي انخفض عدد المسلمين بالهرسك الشرقية جوهرياً لصالح الصرب .

إن مائة وثلاثة ألف فقدوا حياتهم في الحرب العالمية الثانية ابتداء من ١٩٤١ - ١٩٤٥ وكانت تلك هي الإبادة التاسعة ، أكثرهم راحوا ضحايا الخناجر الجتنيكية الصربية على أعتاب وساحات منازلهم .

وفي الأخير الإبادة العاشرة ، وهي أكبر الإبادات الجماعية ضد المسلمين ،

إلا أنها تختلف اختلافاً تاماً عن الإبادات السابقة ، لأنه في هذه المرة اشترك في الإبادة « بالإضافة إلى صربيا والجبل الأسود » كرواتيا وأوروبا والأمم المتحدة .

بالرغم لتعرض المسلمين للمشاق العديدة ، إلا أنهم هذه المرة ولأول مرة قام المسلمون بمواجهة الفاشية الصربية والكرواتية بطريقة منظمة بجيوشهم وشرطتهم وسياستهم .

عندما فرغت من حديثي هذا ، قلت : لماذا لا تكون تلك الإبادات من ضمن دروس التاريخ لأطفالنا ؟ إنني سأكون مسروراً لو أن كل طفل من أطفال البوسنة والهرسك يحفظ في ذاكرته جميع الإبادات الجماعية بدلاً من نييغوش وفوك وتشوبيتش وغيرهم من معلمي وأدباء الصرب ، وأن يقولوا : لن يتكرر أبداً . وفي حالة إذا ما قرأ جميع البوسنويين المشردين في العالم أجمع هذه النصوص ووعوها تماماً ، سأشعر أني فعلت الكثير وسأكون راضياً. فعندما نظرت إلى أنس الذي كان طالباً ممتازاً في المدرسة والذي أتم دراسته بها ولم يعلم شيئاً عن هذا كله لم أوجه إلى نفسي لوماً بعد . فنتيجة حديثي ومناقشاتي مع تلك الأسرة الريفية بعرض هذه المعلومات التي أعترف بأني أنا أيضاً لم أقرأها إلا في بداية العدوان ، قد شجعني ، وهكذا مر الوقت وحان وقت الفجر فصليناه جماعة .

بعد أداء الصلاة نظر أنس إليّ وقال : « وحتى لو كنت أعلم من قبل كل تلك المعلومات لربما كنت أصدقهم من جديد ، إلا أنه بعد وقوع هذه الحوادث . . . » أردت أن أقول له : « هل يلزم وقوع مثل هذه الشدة في القتل حتى تدرك « تعرف » العدو لكي تقول : « لن يتكرر أبداً » .

لكني سكت ولم أقل شيئاً .

نمت قليلاً ، ثم ذهبت مع أنس إلى زيارة الكتيبة الثانية لجيش البوسنة والهرسك حيث التقيت هناك مع قائدها حازم شاديتش .

كان يبدو لي كأنه جندي صارم ، وعندما قدمت نفسي له ، تقدم وصافحني بابتسام ، إن الوقت الذي مضى بصحبة هذا القائد الأسطوري لا يُنسى ، حدثني عن نضالهم ومشاكلهم التي فرضتها عليهم العصابة العالمية ، لقد تأكدنا معاً أن منع تداول الأسلحة في البوسنة معناه منع استمرار حياة المسلمين، لأن حظر الأسلحة الذي تفرضه علينا السياسة العالمية ليس معناه إلا القضاء على المسلمين بسهولة وفي أسرع وقت ، تحدثنا عن أشياء أخرى ، لكن الذي كان يهمني ، إلى جانب خططه الحربية التي حيرت الصرب وشتتتهم ، مكانته الدينية ، فمدينة توزلا قبل الحرب كانت لا تزال بيئة مصبوغة بالصبغة الشيوعية ، لكن بعد حديثي معه أخرج من جيب قميصه العسكري مصحفاً ، قال : إنه لا ينفصل عنه ، كنت سعيداً جداً بذلك ، فإن أصحابي البوسنويين مسلحون الآن بالإيمان بالله بجانب تسليحهم التكنيكي ومن المؤكد أنهم سيغلبون إن شاء الله .

زرت المستشفى ، كان الدكتور أمين قابل ودوداً في مرافقتي أثناء زيارة الجرحى ، فعادت مرة أخرى الصور الكئيبة ، وسوء حظ المناضلين الذين رغم فقدانهم أعضاء من أجسامهم إلا أنهم متفائلون ، كما أنهم يحملون إيمانهم بالله في صميم قلوبهم وإيمانهم بالقدر خيره وشره .

كانوا يرددون : « سننتصر بإذن الله » .

رغم ازدحام الحجرات بالجرحى إلا أنها كانت في حالة جيدة من النظام والترتيب ، فالجرحى الجدد كانوا يصلون باستمرار وطاقم المركز الصحي يحاول أن يبذل كل ما في وسعه لمساعدتهم رغم نقص الطعام والأدوية .

الشيء الذي أعطاني أملاً كبيراً في الغد ، وأكثر من مرة زيارتي لمدرسة «بحرام بيغوڤيتش » ، وهذا المبنى الذي يجتمع فيه الآن المعلمون والمعلمات للتربية الدينية كان مغلقاً أيام الحكم الشيوعي ، وهم يجتمعون الآن في

سراديب المبنى لأنها في مأمن إلى حد ما من انفجارات القذائف والصواريخ . وأنظر إلى هذه الشبيبة التي مُلئت حباً للإسلام في مثل هذه الأوقات الصعبة .

إنه فوق أي تصور أن يتعلم الإنسان الكثير في تلك الفترة القصيرة ، إن حرارة نفوس هذه الشبيبة التي ستقود الأجيال القادمة البوسنوية المسلمة في السلم نحو الطريق المستقيم تملأ غرف التدريس الباردة دفئاً .

أثناء زيارتي لمدينة توزلا التي استمرت أسبوعاً كاملاً ، المدينة التي تمكنت من مقاومة كل هجمات العدو الجتنيكي لأنها نظمت دفاعها في الوقت المناسب ، التقيت بسالم هوجيتش القائد الأسطوري « الرابطة الوطنية » الذي أطلق أول رصاصة نحو الجتنيك . إن هذه الطلقة كانت طلقة تيقظ المسلمين في تلك المنطقة ، كان شخصية تتسم بالحزم والأخلاق الحربية .

كان أنس يرافقني مع أحد أصدقائه الجنود أثناء طريقنا إلى تيوتشاك ، الطريق الذي يوازي تل الجتنيك سيء السمعة ، حيث يتم منه رمي كاليسيا بالقرب من توزلا بالقذائف والصواريخ .

إن بلدي البوسنة محتلة كلياً ، فقوات الصرب موجودة على الجبال المحيطة بالقرى والمدن لأن هذه هي طريقتهم الوحيدة للقتال من بعيد ! أما الالتحام وجهاً لوجه فهم يهربون ، إنهم لجبناء حقاً ، وبعد الالتحام وجهاً لوجه يستطيع جنودنا اغتنام الأسلحة للدفاع عن أنفسهم . وبهذه الطريقة الوحيدة تمكَّن جنودنا من التسلح .

بالطريق الجبلي الضيق والأنوار المطفئة اقتربنا من تيوتشاك ، المكان الذي عاش فيه الناس في سلام حتى جاء الصرب الجتنيك وبدءوا تدميره بمدافعهم من الجبال المحيطة به . هنا ظهر البطل خيري ميسيتش الذي كان يعمل قبل الحرب في الجيش أيضاً بمدينة كارلوڤاتس بكرواتيا ، عندما أدرك نوايا الجتنيك رجع إلى مدينته ومسقط رأسه وجمع مجموعة للدفاع كانت في البداية ٥٠ رجلاً ثم وصلت فيما بعد إلى ٢٠٠ شخص سدوا على الصرب منافذ

الدخول إلى المدينة . إن خيري لم يتمكن من الدفاع عن بلده فقط ، بل قام بتحرير عدة أماكن أخرى مجاورة له أيضاً . دخلنا بيت أحد سكان تيوتشاك الذي يسمى « منيب » .

« السلام عليكم ، كيف تتحملون كل هذا ؟ » رفع الرجل - الذي كان الثلج قد غطى مدخل بيته - رأسه ، واتكأ على جاروفه قائلاً : « وعليكم السلام ، من أنت ؟ » كان ينتظر جوابي ، حين لمحت على باب البيت بعض الرءوس الصغيرة تطل خفية من البيت ويضحكون .

الحمد لله الكريم إني أسمع في هذه الأماكن الجبلية البوسنوية ضحكات ، وكالمغنط أخذت أحدث مجموعة الأطفال مقدماً لهم الهدايا ، فأخذوها وسعوا جرياً ناحية البيت ، سمعت أحدهم يقول : « ما هذه النقود ؟ إنها ليست نقودنا » .

اقترب الرجل مني ، وقال : « لم تقل لنا من أنت ؟ » رددت : « أنا خليل ، جئت من أمريكا لأزوركم » . كنت أفكر أحياناً ، لماذا لا أقول خليل فقط ، بل كنت دائماً أضيف من أين أتيت ولماذا أتيت لأنني أحببت أن أرى السرور على وجوه أصحابي البوسنويين المسلمين .

تبدلت فجأة تعبيرات وجه الرجل المجمدة من البرودة وعينيه الغامضتين بعد سماعه بأن أحداً أتى لزيارتهم ، وظهرت على وجهه وفي عينيه الحيوية والصفاء ، فاستنتجت أن العيون « مرآة الروح » .

وبدأ يفحصني بعينيه من أعلى إلى أسفل ثم أدخلني بيته ، على جدار الغرفة كانت معلقة صورة لرجل في زي عسكري ، عندما لاحظ منيب أني أنظر إلى الصورة قال لي :

« إنه النقيب خيري ، البطل ، هو الذي أسس أول لواء لتيوتشاك ، عندما أحكي للصغار عمّا كان وعمّا سيكون وما كان عندما كان النقيب حياً أو بعد استشهاده ، لا أرى بيتاً إلا وقد بكى عليه .

إنه أتى من بعيد لكي يحمينا ، آه لو لم يكن هو ؟ رحمه الله رحمة واسعة» .

لعبت قليلاً مع الأطفال ثم خرجت وواصلت طريقي .

معنا المناضلون من مسرح هذا القتال ، وعلى الفور بدءوا في الحديث بفخر عن نتيجة آخر هجوم جتنيكي عليهم ، على حافة المنظمة كانت هناك ٢٧ جثة جتنيكية صفت واحدة جانب الأخرى ، جاءوا ليهاجموا بلدة تيوتشاك من جميع الجوانب مثل الذئاب المتعطشة للدماء ، لكنهم توقفوا أمام مناضلينا عندما قاوموهم ، فقد كانوا قد جمعوا شيئاً من الأسلحة ، كانت جثث الجتنيك متروكة في الحقول والخلاء ، فجمعناها كلها لندفنها في قبر مشترك . .

تحدث المناضلون عن الچنرال المجرم « ملاديتش » الصربي الذي يكره المسلمين باثولوچيا (مرضياً) الذي لم يتمكن من احتلال تيوتشاك أو الاستيلاء على سد سنيج نيتسا . وفي كل مرة جديدة يهاجمون فيها كانت هناك القوى الجديدة الآتية من صربيا ومعها الدبابات والمدافع وأحدث الأسلحة التي يملكها جيشهم الرابع من حيث القوة الأوروبية .

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

لقد خطر ببال مناضلينا الأذكياء أن يضعوا الألغام في جدار السد ، فإذا استمر الڤاشيست الصرب في هجومه على تيوتشاك ، فإن المناضلين سيقومون بتفجير عشرة أطنان من الألغام المركبة بجدار السد ، عندئذ فإن الأمواج التي تعلو ثمانية أمتار ستغرق المناطق الصربية وستكون كارثة .

وقد أكدت الأمم المتحدة صحة ذلك عندما تأكدوا بأنفسهم من هذا .

إنهم سيحكون عن تيوتشاك وقتاً طويلاً بعد انتهاء الحرب ، إنها إحدى الأماكن التي استشهد فيها كثير من الأبطال ولكن ولدوا أبطالاً أعظم ، نموا من الدم والموت وآلام الشعب البوسنوي .

قضيت بينهم يوماً ثم واصلت طريقي .

وصلت إلى أولوڤو . قال لي أنس : « إن أولوڤو مفتاح مستقبل البوسنة ، إنها مهمة جداً من الناحية الاستراتيجية بالنسبة لنا وللعدو أيضاً ، إذا احتلها العدو لتفتت دولة البوسنة والهرسك وانقسمت إلى ثلاث مقاطعات ، وباحتفاظنا بالمنطقة سقطت فكرة فتح ممر احتياطي للصرب في الماء واهتز مستقبل الجمهورية الصربية ، لذلك كان العدو دائماً يقوم بالهجوم بالمدفعية ليلاً ونهاراً على هذه المدينة الصغيرة ، تارة يهجمون مع وحدات المظلات الخاصة من نيش ، ثم مع الفرقة الهجومية من ڤلاسينيتسا ، ثم مع أربع كتائب من صربيا لكنهم لم ينجحوا ، إن شبابنا من أولوڤو بمساعدة الكتيبة الثانية لجيش البوسنة والهرسك والفن الحربي لقائدهم تشاييتش تمكنوا من صد الهجوم بالإضافة إلى تقدمهم إلى الأمام بضعة كليومترات .

أما المدينة فقد هدمت تماماً ، هدموا المركز الصحي ومبنى البريد ومبنى البلدية والسوق التجاري ، إن جميع هذه المباني تحولت إلى مجموعة من الخرسانة والطوب والزجاج .

أنا من جديد بين المناضلين ، ملابسهم رقيقة خفيفة ، غالبيتهم في قمصان عسكرية ودرجة الحرارة انخفضت إلى الثلاثين تحت الصفر . من اللامعقول أن يتحمل الجسم الإنساني ذلك . مشكلتهم الكبيرة نقص الطعام ، فقد استهلك منذ مدة احتياطي مخزون الطعام ، والآن يعاني الجميع من الجوع . إن « البوسنويين الطيبين » يعانون الجوع ويحاربون ، وبمجرد ما سألتهم كيف يناوشوا الجتنيك ، أجابوا بحيوية عن مآثرهم وقالوا :

« إنهما يا أخي جبناء فوق ما تتصور ، عندما فاجأتهم في خندقهم أخذوا ينظرون إليّ غير مصدقين وأنا أضربهم ، من المؤكد أنهم كانوا يظنون أنه ليس باستطاعتنا بالمرة الدخول في خنادقهم » . قلت في نفسي : « سأموت ، سأموت » وهي موتة واحدة ، وقبل أن أموت أحب أن أراهم قد نفقوا مثل

الحيوانات حولي ، إنها حكاية أحد الشبان ، نحيل الجسم ، لا يدل مظهره النحيل أبداً على شجاعته .

تحدثنا طويلاً ، وفي النهاية افترقنا ونحن راضون .

غطى الضباب الشتوي الثقيل مدينة أولوڤو ، حتى هواء الزفير يتجمد من البرودة ، وهؤلاء الشباب موجودون على خطوطهم ، بعد عودتي إلى أمريكا فكرت كثيراً في شباب أولوڤو ، حفظت وجوههم جيداً في ذاكرتي ، رأيتهم كيف يقفزون من البرد في أماكنهم أثناء تحدثهم معي ، وكيف يلوحون بأيديهم لي عند الفراق ، وحولهم الجبال والضباب ، اصبروا أيها الشباب ، فإن الله سيفتح الجبال لكم لتمروا بها ، سيذهب بالضباب لتسطع الشمس بنورها إن شاء الله لأنكم على طريق الهداية .

إن رغبتي القديمة لزيارة غراداتشاتس في وقت السلام قد تحققت الآن . في مدخل المدينة رأيت التدمير الهمجي لجمال تراث شعبنا ، الجوامع مهدمة وكذلك قلة حسين بيغ غراداشتشيڤيتش المشهورة أيضاً قد تهدمت ، وإن كان يلاحظ على الحطام المتبقية آثار القيم المعمارية للمعماريين من تلك العصور الذين استطاعوا بناء عمارات على هذه الشاكلة من الروعة التي كانت تجذب إعجاب الأجيال بانسجامها المتناسق ، هذا الانسجام الذي لا يستطيع عمله سوى المعماريين الشرقيين فقط .

تأملت من جديد الجمال الذي حدثني عنه أنس ، وأدركت الآن لماذا أراد الهمج تدميره ، لقد هجموا على المدينة بالقنابل « الشريطية » والصواريخ «أرض – أرض » نوع « لونا » ، تساءلت هل بقي شيء ليحطموه في هذه المدينة ؟ قال أنس : « إن المناضلين استطاعوا في وقت ملائم أن ينظموا صفوف دفاعهم ، وبجانب هذا الاستعداد كانت هناك الشجاعة الغير متصورة من جانب المناضلين فاستطاعوا حماية أرض مسقط رأسهم ، كان نجاحهم مضموناً بشرط أن تدافع البلاد المجاورة « مودريتشا وأوچاك وبوسانسكي برود»

عن نفسها ، إلا أن تلك البلاد وقعت في يد العدو وبقيت غراد إتشاتس معرضة لخطورة كبيرة ، كانت تحت حصار العدو التام ، اتصالها بكرواتيا كان مقطوعاً ، وفتح العدو لنفسه ممراً ، ومع كل هذا بقيت غراد إتشاتس المدينة الحرة الوحيدة بمنطقة بوساڤينا البوسنوية . كان شهر أكتوبر في العام الماضي من أشد الأوقات حرجاً للمدينة عندما كافحت لأجل البقاء ، فقد أراد العدو وفقاً لحساباته العنصرية أن تكون هذه المدينة باباً للعدو وهاجمها بالدبابات فأتلف المناضلون للعدو ٦٠ دبابة إتلافاً تاماً . إن غراد إتشاتس حققت معركتها ، ولا بد للعدو أن يعترف بذلك حتى ولو من بين أسنانه .

من بين هذه القصص جمعت قوتي الباقية لما ينتظر البوسنة في المستقبل ، وتأكدت من ذلك بعد لقائي بالمناضلين الذين تحدثت معهم ، كانوا جميعاً مسرورين بدون استثناء ، عندما قدمني أنس إليهم ، بدءوا في أسئلتهم الكثيرة التي كانت تتعلق كلها برأي العالم عن محاربينا ، إنهم منذ وقت طويل لا يتوقعون أي مساعدة من هذا العالم ، كانوا جميعاً شباباً صغار السن ، لكنهم عندما يتحدثون عن الحرب تتبدل ملامح وجوههم لتكتسب الجدية ، كل أسلحتهم هي غنائم هذه الحرب ، حصلوا عليها بالطرق المختلفة مغامرين بحياتهم ، أحد هؤلاء الشباب ابن الثلاثين عاماً ، أعجبني لجديته ولحديثه عن الوقائع الحربية بطريقة هادئة :

« عندما أمشي أرى أمامي خنادق الجتنيك ، ولما أقترب لا أراهم ، لكني أطلق النار بدقة على أماكن وجودهم ، لأني أتذكر وجوههم ذات اللحي الطويلة وعيونهم الدامية ، إنها دامية حتى عندما يموتون » .

واصل قصته التي تتعلق بمركز التدريس في كاليسيا ، حيث يتم تدريب المناضلين من كل مناطق توزلا ، يوقظهم الآذان ، فيتوضئون لصلاة الفجر ، ثم بعد تعليم مبادىء الدين الإسلامي يجرون حوالي ٣٠ ك . م على أحلى لحن عسكري في الدنيا ، عندما يصيحون : « سبحان الله ، الحمد لله لا إله

إلا الله ، الله أكبر » ، فيدوي ذلك في الغابة وبقعتها ، وتأتي التدريبات بعد الظهر .

وبعد أداء صلاة العشاء يأتي دور التكتيك الليلي ، الهجوم المفاجيء ، الكمائن ، عمليات الالتحام ، ودعت المناضلين وأنا أكاد أطير فرحاً ، مررنا بشوارع المدينة عند الأصيل وحولنا دوي الانفجارات ، رفع أنس رأسه وقال : ولو ، ولو ، سوف نقضي عليهم مثلما شردناهم مرة سابقة .

وصلنا إلى مكان لا ندري من كثرة أكوام المدمرات والخراب هل هناك شارع أم لا ؟ كنا نبحث عن دار عائلة هاجيتش ، الدنيا ظلام ، والشباب كان قد شرح لنا كيف نجد البيت إلا أننا لم نستطع ، ولكن بعد عبور الأطلال والألواح الخشبية عثرنا على مدخل باب الدار المراد .

وسط هذه الأطلال وأمام باب دار أسرة هاجيتش توجهت إلى الله راجياً أن يكون هذا المكان المهدم وفناء البيت المرشوش بدماء الضحايا وهذه جهنم الدنيوية ثمن حرية البوسنة . بالقرب من البيت وجدت شجرة بلوط ، يوجد مثلها في أمريكا ، لكن شجر البلوط يتنفس بشكل آخر ، قرأت الفاتحة ، وأثناء غيابي عن الدنيا هكذا طرقت الباب ، كان أصدقائي ينظرون إليّ في هدوء ، فقد كانوا يعرفون أني في مناجاة الله .

طرقنا الباب عدة مرات ، لكن لم يرد أحد ، فكرت * الدنيا لَيل وظلام، الناس يخافون ، عندئذ خرجت الجدة وبيدها فانوس ، وفي*الضوء الخافت للفانوس لاحظت وجه المرأة المضطرب لما أخبرناها عن أنفسنا وبلغناها تحيات ابنها من ڤيينا ، أضاء وجهها وأدخلتنا بيتها بخطوات أسرع من خطواتها التي أتت بها إلى الباب . لهب الضوء أنار الحجرة المرتبة جيداً ، الأرائك . . . يا إلهي ، كم كنت أحب الأرائك ، الوسائد المزينة بالدانتيل الجميل ، الدانتيل الذي يقوم بعمله أيدي المسلمات الماهرات .

في ركن من أركان الغرفة جلس الجد والد صديقي سالم ، لما أخبرته عن

المكان الذي وصلت منه ، فوجيء أولاً ثم بدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، من المحتمل أنه أراد إخفاء اضطرابه ، ففي هذه الأيام الحربية وبالليل وصل إليه زائر يبلغه تحيات ابنه . بدأت الجدة تدور في المطبخ لعلها تريد أن تستضيفنا ، حاولت أن أشرح لها بأننا لسنا جياعاً ، لكنها كانت مصرة ، ولما رتبت المائدة وكل ما لديها من طعام ، توجهت إليها راجياً : « ابسطي لنا الفرشة على الأرض ، أريد أن آكل من على البساط المفروش على الأرض كما كنا نفعل في الماضي » ، ومن جديد عدت إلى طفولتي ، إلى أحلى وجبات العشاء عندما كنا نغسل جميعاً أيدينا ، ونصب الماء من الإبريق واحد للآخر قبل أن نجلس على السفرة ، كان جدنا يقول لنا : « أيها الأطفال لا تفتتوا ، إن كل فتّة من فتات الخبز تبكي » ، وكنا نأخذ كلامه مأخذ الجد ، فنجمع الفتات ونضعه في فمنا .

كان الضوء يرفرف على جدران الغرفة عندما كنا نجلس حول السفرة ونتحدث ، الرجل المسن « عابد » وزوجته « نورة » لم يشتكيا من شيء وإن كنت أعلم ما يتحملانه ، إلا أنهما لم يتمكنا من إخفاء تنهيدتهما وقالا : «كل هذا من الله ، وسيمر كل هذا » ، كانا يهزان أكتافهما رداً على أسئلتي الكثيرة حول المعاناة والموت وجهنم الدنيوية التي تحيط بهما ، وحاولا أن يتحول الحديث إلى أشياء أجمل . فبدأا يتحدثان عن ابنهما « محمد » الذي يعيش في سراييڤو .

لما صلينا العشاء وتحدثنا عن الدين ، وعن شبابنا مجاهدي الإسلام ، ومهما تزداد محاولة العدو لإزالة الإسلام ، اشتد دفاعهم عنه .

في الغد ، بعد أداء صلاة الفجر تحدثنا قليلاً ثم واصلنا طريقنا ، أوصلتنا الجدة من جديد إلى باب ساحة المنزل وفي يدها الفانوس لأنه لا يزال الظلام قائماً ، وأعطتنا تفاحتين لنأخذهما معنا إلى ابنها في ڤيينا .

لقد تمكنت من إحضارهما وتسليمهما له .

* * *

الجزء الخامس

إنّ ما سُجّل بقي وما حُفِظ فني

مولاي مصطفى باشسكي

● الشهود على الإبادة الجماعية للبوسنويين المسلمين :

إن كافة أنواع المآسي وإراقة الدماء وكثيراً من الطغيان وخرق المواثيق الدولية وقوانين الحرب وحقوق الإنسان ، تم تنفيذها أثناء العدوان الصربي على البوسنة والهرسك في عدة مراحل بهدف اغتصاب الجزء الأكبر من الأراضي البوسنوية والهرسكية وتطهيرها عرقياً وإقامة الدولة الصربية في البوسنة والهرسك ، ثم ضم تلك الأراضي إلى الكيان المسمى بـ « اتحاد الدول الصربية » .

جرت المرحلة الأولى لذلك العدوان عن طريق الجيش اليوغوسلافي السابق باعتباره القوات المسلحة ليوغوسلافيا ، أو بالأصح لصربيا والجبل الأسود ، وتوزيع قواته العسكرية الهائلة مغطياً بذلك ما يقرب من ٧٠٪ من أراضي البوسنة والهرسك ، ومن ثم تمت تنحية جميع السلطات الشرعية لجميع المحافظات وإقامة مكانها السلطات الصربية بقيادة المجرمين الطغاة فيما بعد .

وقد نفذ كل هذا قبل انتهاء شهر ديسمبر سنة ١٩٩١ ، أي قبل أن يقر برلمان البوسنة والهرسك استقلال جمهورية البوسنة والهرسك . بعد ذلك غادر المثلون الصرب مجلس النواب ، وبتاريخ ٢٧ مارس تم إعلان ما يسمى بـ « الجمهورية الصربية » .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت المرحلة الثانية لتنفيذ مخطط « صربيا الكبرى » عن طريق القتل الجماعي الوحشي وطرد كل ما تبقى وما يسمى باسم مسلم ولكل من نجا من الموت ، إضافة إلى هدم وإحراق المدن والقرى المسلمة بأسرها . كان هذا تنفيذاً لإحدى المراحل المخططة المسماة « مخطط المحو العرقي » للأراضي المغتصبة . وفي الحقيقة ظهر على حلبة المشهد وعلى أعين العالم بأجمعه أبشع وأفظع طرق الإبادة الجماعية التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً حتى الآن .

إذن ، الأمر هنا لا يتعلق بالحرب ولا بالحرب الأهلية كما يزعم بعض

زعماء العالم تحت تأثير مصنع الأكاذيب الكبير المقام على تراب إحدى دول العالم ، الأكاذيب الصربية .

لم يصدر رئيس جمهورية البوسنة والهرسك علي عزت بيغوفيتش أمراً بتشكيل جيش البوسنة والهرسك من وحدات الرابطة الوطنية التي أنشئت ونظمت تلقائياً إلا بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٩٢م .

إن العديد من الحكومات الأوروبية والعالمية لم تقابل هذا العدوان بأي رد فعل مناسب ، وإنما تركوا الصرب يمضون قدماً في تنفيذ نواياهم الشريرة – أي إبادة الشعب الأوروبي القديم بسبب اختياره دين الإسلام الحنيف ديناً له في محيط أوروبا المسيحية ، إن العدوان الصربي مستمر بكل شراسته إلا أن مقاومة الشعب البوسنوي الأعزل من السلاح تزداد يوماً بعد يوم لأن الجرائم العديدة المرتكبة ضد المسلمين البوسنويين تجاوزت كل الحدود من حيث الحجم والقسوة مما يجعل صراعهم من أجل البقاء والدفاع عن كرامتهم المهانة هو المخرج الشريف الوحيد . ومن أجل الآلاف المؤلفة من الضحايا الأبرياء من الأطفال والنساء والشباب والشيوخ وسلب ممتلكاتهم وإحراق بيوتهم ، والهدم والإحراق المنظم لتراثهم الحضاري ، اخترع الإعلام الغربي مصطلح « التطهير العرقي » . كان أول من أطلق هذا المصطلح الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش يهدف تعتيم الأوضاع الراهنة على أراضي البوسنة والهرسك ، لأنه أراد بهذا المصطلح أن يقال أن للصرب الداعين للتقسيم «حسب الحدود العرقية » لهم حق « طبيعي » لتكوين « المناطق المطهرة عرقياً » ولذلك يقومون بتطهير أقاليمهم وممراتهم التي تربط بعضهم بعضاً ، إلا أن الهدف المرسوم لمخططهم لم يكن محو البوسنويين من « بعض الأراضي » ، وإنما كان محوهم وإبادتهم نهائياً من كافة الأراضي البوسنوية والهرسكية ، الأمر الذي يعني أن هناك على المشهد جريمة الإبادة الجماعية بمباركة زعماء بعض الدول الأوروبية .

إن هدف الصرب الأساسي هو ضرورة الإبادة للشعب المسلم البوسنوي من على وجه الأرض ، مما يؤكد أن المخطط مرسوم منذ زمن بعيد ، المخطط الذي تمثل صورته النهائية مذكرة صادرة من مجمع العلوم الصربية « سانو » في حين يمثل همجية العصابات الجتنيكية السادية جزءاً واحداً فقط من المخطط الإجرامي الذي وضعه عباقرة صربيا ومساعدوهم في العالم .

* * *

• معسكرات الاعتقال - مرحلتا الإبادة الجماعية :

في ربيع عام ١٩٩٢ قام الجيش اليوغوسلافي المكون تقريباً من الكوادر الصربية البحتة بإجراء « عملية التطويق » المعروفة باسم « رام » ، وفرض الحصار حول جمهورية البوسنة والهرسك ذات السيادة وذلك من جميع الجهات تقريباً . ففي شرق الجمهورية احتل الجيش حزاماً بمحاذاة نهر درينا «بودرينيه » ، وفي الشمال شريطاً بمحاذاة نهر ساف « بوساڤينا » ، وفي الغرب منطقة حول نهري سانا واونا « بوسانيه وبوونيه » . وفي فترة قصيرة وقعت المذابح المخيفة في مدن بييلينا وزڤورنيك وبراتوناتس وروغاتتسا وفلاسينيتسا وفوتشا وفيشغراد وبرتشكو وبرييدور وسانسكي موست وبوسانسكي برود وكليوتش وكوتورواروش وبوسانسكا غراديشكا وبوسانسكي نوفي وغيرها . . .

تمت مواصلة هذه العملية في معسكرات الاعتقال والموت ، حيث تعرض المعتقَلون لأبشع أنواع القتل والتعذيب والإهانة . إن معسكرات الاعتقال كانت تنشأ نشوء الفقاقيع بعد المطر الغزير « وذلك في أماكن مرسومة مسبقاً حسب المخططات التي وضعها الصرب قبل نشوء الحرب » . ومن أسوأ هذه المعسكرات معسكرات « مانياتشا » معسكر بالقرب من بانيالوكا، و«ترنوبولي» بمدرسة ترنوبولي المحولة إلى معسكر على بعد ١٥ ك م جنوب برييدور ، و«باكوڤيتشي » بالقرب من بييلينا و« كولا » بالقرب من سراييڤو ، ومن ثم

توبولا ، ولوكا ، وكامينيتسا ، وشاكوڤيتشي والعديد من معسكرات الاعتقال المقامة على أرض صربيا والجبل الأسود .

إن شهادات المعتقلين الذين نجوا من الموت تبدو غير واقعية بسبب القسوة الهمجية التي عانوها وعاشوها . فالإنسان لا يكاد يصدق بأن للعقل البشري مثل هذا الاختراع لوسائل وأساليب التعذيب والقتل للشعب البوسنوي المسلم. إن المعتقلين الذين تعرضوا للتعذيب ، والذين نجوا من الموت بأعجوبة أو أطلق سراحهم بواسطة منظمة الصليب الأحمر الدولي أو تم استبدالهم مقابل السفاحين الصرب الأسري ، يقفون حيارى ويطرحون هم والذين يسمعون منهم الأخبار عن المعسكرات سؤالاً واحداً فقط وهو :

كيف يمكن أن يحدث ذلك في هذا القرن وفي بلدنا الأم البوسنة والهرسك وفي أوروبا نفسها ؟ هل من الممكن أن يسمح للفاشيين الصرب في قرية زاكلوبتشه بالقرب من فلاسينيتسا الواقعة في شرق البوسنة بالقيام – وأمام الأم البائسة – بقتل أبنائها الخمسة وزوجها المريض ويتركوها هي لتعيش ، قائلين لها : « لن نقتلك أنت ، فإنك ستموتين ميتة البهيمة حزناً على أولادك وزوجك » .

* * *

● التعذيب المخيف بالأسلاك والسلاسل والكرات المعدنية :

إن أقوال المعتقلين الذين نجوا من الموت في معسكرات الاعتقال الموزعة في مختلف أنحاء البوسنة والهرسك تكاد تتطابق تماماً ، الأمر الذي يدل على استنتاج قاطع بأن المنفذين البرابرة لمخطط التعذيب وإبادة الشعب البوسنوي المسلم مختلُّون ومدربون مسبقاً تدريباً خاصاً في مراكز التدريب المقامة خصيصاً لهذا الغرض ، حيث كانوا يتلقون تعليمات لتنفيذ الإرهاب بهدف تحقيق نتائج معينة . وأثناء تدريبهم هذا ، أتقنوا اختيار وسائل التعذيب المخصصة لمختلف الفئات من المعتقلين ، فمنها ما خصص للرجال ، ومنها ما خصص للنساء ،

أو الأطفال ، وهكذا . وأخيراً هناك الوسائل المخصصة للقرويين والأخرى لسكان المدن ، والأمر الذي يدعو للاستغراب هو أن الصرب العاديين الذين لم يسبق لهم أن تلقوا مثل هذا التدريب كانوا يقومون بتعذيب مماثل لضحاياهم ، ففي معسكرات الاعتقال المخصصة للرجال قامت عصابات الجتنيك بتعذيب المعتقلين بالهراوات وقضبان الحديد والخشب والسلاسل والسياط ذات الكرات المعدنية في أطرافها ، إضافة إلى استعمال أعقاب البنادق. إن الضرب والتعذيب كانا يشملان كل الجسم وبصورة خاصة الرأس والظهر في منطقة الكليتين .

إن هذه العصابات كانت تخدش وجوه المعتقلين وأجسامهم بسكاكينهم وترسم وتحفر عليها علامات الصليب ، وتدلك الملح على الجروح النازفة وتطفأ أعقاب السجائر في صِوَان آذانهم والأجزاء الأخرى من الأجسام ، كما أنهم قاموا بقذف الأجسام المضروبة للمعتقلين بالنار وهم ما يزالون على قيد الحياة . وعندما كانت عصابات الجتنيك في عجلة من أمرها كانوا قبل رميهم بالرصاص يطعنون المعتقلين بخناجر مركبة في أطراف البنادق أو يهددونهم بالذبح واضعين خناجرهم تحت حلقوم المعتقلين أو يكسرون أسنانهم وعظام الفك والضلوع . إن المعتقلين المعذبين بهذه الصورة كانوا في كثير من الأحيان مجبرين على لعق دمائهم السائلة على أرض الغرفة ، أو دم الذين عذبوا من قبلهم . وفي كثير من الأحيان كان المعتقلون يتمنون الموت قتلاً بالرصاص في أسرع وقت ممكن لأن التعذيب أشد من الموت . وكان أشد التعذيب هو الضرب على الرأس بواسطة عقب البندقية ، فقد كان من أفظع أنواع التعذيب وأشدها ألماً . فإن هؤلاء المعذبين كانوا يصرخون طالبين الموت ، أو بعض قطرات من الماء ، وكانت قلوب الشهود لهذه المشاهد وقلوب المستمعين لصراخهم تتحطم خاصة لأنه ليس باستطاعتهم تقديم أي نوع من المساعدة لهؤلاء المعذَبين ولو نقطة ماء ، إذ كان ينتظرهم نفس التعذيب إذا قاموا بذلك.

لكن لحسن حظ المعذبين بتلك الطريقة أنهم كانوا يموتون بسرعة .

ومهما قيل عن مشاهدة قطع الأعضاء التناسلية لبعض المعذبين على أيدي المجرمين فإنه لا يمكن وصفها من حيث الرعب والخوف اللذين يستوليان على الشهود ، كما قيل أن بعض المعذبين كانوا يجبرون على ابتلاع أعضائهم التناسلية المقطوعة .

اللهم ، يا ربي ، يا عظيم ، هل يمكن أن تسجل على قصاصة من الورق مثل تلك الجرائم المرتكبة على أيدي العصابات الصربية المتوحشة ؟

إن الليالي كانت غير محتملة إذ كانت حافلة بالتعذيب الذي لا يطاق وبالصرخات التي كانت تدوي من جميع الاتجاهات وبالإعدام المصحوب بأشد الآلام . بالإضافة إلى ذلك كان هناك التعذيب بالجوع والعطش .

بالمقربة من تلك المعسكرات كانت تجهز الحفر لدفن مئات من أجسام المعذبين القتلى في مقابر جماعية يصب فيها الجير الحي عند دفن الموتى .

إن زملاء المعذبين والقتلى في معسكرات الاعتقال كانوا يقومون بدفن جثث زملائهم إلى أن يأتيهم دورهم للقتل حتى لا يكونوا شهوداً على ما رأوا ولإخفاء حقيقة ما جرى في معسكرات الاعتقال والمقابر الجماعية . ذكر المعتقلون السابقون بالقرب من بريدور ومن بريدور نفسها والذين نجوا من الموت بأن الحفارات كانت تعمل داخل تلك المواقع أياماً طوالاً وبدون انقطاع، وجثث الموتى المدفونة كانت تغطى بالتراب وطبقة من الجير الحي .

إننا الآن نتساءل بعد تقديم هذه المعلومات الموجزة عن جرائم الشعب الصربي المرتكبة ضد الشعب البوسنوي المسلم الأمر الذي اطلع على حقيقته الإعلام العالمي بالتفصيل : هل يمكننا أن نسمى كل ما جرى بالنزاع أو الحرب، أو الصراع العرقي أو بالحرب الدينية أو . . . . . ؟!

إنها ببساطة جرائم لا مثيل لها حتى اليوم ، جرائم العسكريين والعلماء الذين نجحوا في زرع داخل جسم شعبهم البربري جراثيم القتل والتعذيب ضد كل ما هو ليس صربياً . ولنذكر أن السيد وينستون تشرشل قد أطلق في حينه على التشكيلات الصربية الملكية شبه العسكرية والتي اتسمت هي الأخرى في حينها بالذبح والقتل للشعب المسلم البريء خلال الحرب العالمية الثانية اسم : « أوسخ جماعة مسلحة » أثناء الحرب العالمية الثانية . ومن المعروف أن تيتو وجيشه لم يتلقيا أي تأييد يذكر إلا بعد هذا الوصف من قبل تشرشل الذي أرسل ابنه نفسه إلى تيتو كاعتراف بشرعية قتاله وكفاحه ضد النازية . إننا ننتظر أن تحدث هذه الفاشية البشعة اهتزازاً في ضمير بعض زعماء العالم الحديث أو شخصيات العالم البارزة الذين يمتازون بنفوذ وقوة كافية لتوجيه دعوة إلى حكام العالم لاستنكار هذا الشر الخطير الذي يهدد بصورة جدية ليس سلام أوروبا فقط بل السلام العالمي .

في طريقي خلال كرواتيا وجمهورية البوسنة والهرسك التقيت بعدد من المعتقلين السابقين ، نرفق بعض تصريحاتهم الموثوق بها بهذا الكتاب المتواضع الذي كتبته بهدف عدم نسيان أي شيء ليتعظ الجيل الناشيء في العالم وليتعظ البوسنويون الكرام بصورة خاصة لينجوا من كل هذه الأخطار .

* * *

● شهادة ك . أ المولود عام ١٩٥٠ بمدينة بريبدور :

اعتقلوني لأني مسلم ، إذ لم يكن هناك أي سبب آخر ، عندما حدث في أوائل شهر أبريل عام ١٩٩٢ انقسام وتسوية الحسابات بين أتباع وزارة الشئون الداخلية في سراييڤو ، أي بين الصرب من جانب وبين المسلمين من جانب آخر . هذا الحادث انعكس انعكاساً سلبياً على مراكز الشرطة الأخرى في كافة أنحاء البوسنة والهرسك وبالتالي على مركز الأمن العام الذي كنت أعمل فيه. الأمر هنا يتعلق بمدينة كليويتش ، التي انضم للأسف مركزها للشئون الداخلية

إلى الكيان المسمى بـ « جمهورية البوسنة والهرسك الصربية » ، لأن موظفه الأول « رئيس المركز » كان من ممثلي الحزب الصربي ، ولأنه من بين رؤساء الأقسام الثمانية كان هناك ستة رؤساء صرب ، لذلك لم يفز القرار بإتباع المركز للمسلمين والكروات ، على الرغم من أن مجموع نسبة المسلمين والكروات من مجموع سكان البلدة كان أكبر بكثير من مجموع الصرب .

قام رئيس المركز باستدعائنا نحن العاملين بالمركز والغير راضين بقراره (وهو انضمام المركز إلى الجمهورية الصربية) إلى الاجتماع وأبلغنا خلال الاجتماع بأن نبدي ولاءنا للكيان المسمى بـ « جمهورية البوسنة والهرسك الصربية » . طبعاً اندهشنا لهذا الأمر ورفضناه بشدة ، بسبب رفضنا أرسلونا إلى الأجازات السنوية إجبارياً حيث تم خلال تلك الفترة تعيين الصرب في كافة المناصب المهمة في الإدارة ومركز الأمن العام والمستوصف والمدارس والمصانع والشركات و . . . . .

ووضعت الأعلام الصربية ذات الشعار الحامل لأربعة حروف « س » كما تم بجنبها وضع الأعلام الكنيسية . وبعد مضي عشرين يوماً من أجازاتنا الإجبارية استدعونا بصورة عاجلة نحن العاملين من المسلمين والكروات للاجتماع ، حيث حضر الاجتماع المفتشون الصرب من بانيالوكا وطلبوا منا مرة أخرى أن نبدي ولاءنا للسلطات الصربية الجديدة ولبس زي الشرطة الصربي ، لم نوافق مرة أخرى ، الأمر الذي أدى إلى تجريدنا من الأسلحة الشخصية ، في الوقت الذي أخذوا فيه يسلحون الصرب ويلبسونهم الزي الصربي الجديد ، ثم أخبرونا أننا فقدنا عملنا ، ذهبت بعد ذلك إلى بيت أمي العجوز حيث انخرطت في دورية الحراسة لأن الوضع كان متأزماً للغاية .

كان الاتصال الهاتفي مقطوعاً فلم نستطع متابعة الأحداث الدائرة في الأماكن الأخرى التابعة لبلديتنا ، كما كانت حركة المرور مقطوعة أيضاً بينما كان يعلن عن فرض حظر التجول . « ضابطنا للاتصال » الذي انتظرناه أياماً

طويلة لم يكن يرد علينا . وفي ٢٨ مايو أعلن الصرب بأن قريتي التي ولدتُ فيها سوف تتعرض للقصف المدفعي ، ومنذ ذلك اليوم بدأ هدم وحرق البيوت والاستراحات وغيره من ممتلكات المسلمين . وفي اليوم التالي تفقَّد القريةَ أربعُ سرايا من الجنود الصرب ، وكان ضباطهم يقولون بأن الوضع في هذه المنطقة هاديء وعلى ما يرام ، وإنه ليس هناك أي داع للخوف .

أثناء ذلك كنا نقوم بدوريات الحراسة الليلية وننتظر أن يتصل بنا ضابط الاتصال ، إلا أننا علمنا أن مقر قيادتنا منظم بصورة سيئة وليس لدينا موقف محدد متفق عليه وإن بعض المسلمين قد سلموا أسلحتهم وبأن قادتنا معتقلون و . . . . . .

كنا نسمع بطريق التليفزيون أن الوضع في بريدور وسانسكي موست سيء للغاية ، لأن الصرب كانوا يقتادون المسلمين البارزين والمثقفين وذوي النفوذ إلى جهة مجهولة . وأخيراً وعندما قررنا الذهاب إلى مدينة بيهاتش قام الجنود الصرب من فيلق « كينين » باحتلال قريتنا . بدءوا بتفتيش البيوت وإخراج الرجال وأخذهم إلى المدارس المحلية بزعم التفاهم معهم على العيش السلمي، وكان ذلك في ١ يونيو ١٩٩٢ . في ذلك الصباح كنت في زيارة أخي وعندما كنا نتناول الفطور حاصر الصرب بيتنا وأسلحتهم نحونا . في هذه المرة كانوا يلبسون زياً عسكرياً جديداً ذا شعار « كوكاردا » ، وقام عشرة منهم باقتحام البيت ، وأخذوني مع ٤٠ أو ٥٠ رجلاً إلى المدرسة الابتدائية التي كان بها حوالي ٣٠٠ رجل .

وهناك قاموا بزجنا في القاعة الرياضية وإغلاق الباب علينا وقام احتياطي الشرطة بالحراسة حوال المدرسة ، أخبرونا بأنه يجب أن نبقى في القاعة إلى أن يأتي ممثلون من مركز الشئون الداخلية لأخذ بعض الأقوال القصيرة وإنه سيسمح لبعضنا بعد ذلك بالعودة إلى البيوت .

لم يحضر أحد من الشرطة وقضينا في تلك القاعة أكثر من ١٢ ساعة ،

سمحوا لنا بالخروج فقط لأجل شرب الماء أو لقضاء الحاجة لكن تحت حراسة مشددة ، وفي اليوم التالي أخرجونا من القاعة وزجوا بنا إلى الحافلات بزعم نقلنا إلى مركز الشرطة لأخذ الأقوال هناك والتوقيع عليها وكل هذا يجري تحت الحراسة المشددة . كنا نخرج من المدرسة اثنين اثنين وتحت الحراسة ، وفي كل حافلة كان هناك أربعة من الجند المسلحين ، وصلنا إلى مبنى البلدية وخرجنا من الحافلات وكنا نمر خلال الصفوف المكونة ، وكان بينهم بعض النساء . كانوا يمسكون بأيديهم البنادق والهراوات والأسلاك الكهربائية السميكة والقضبان وحتى أرجل الكراسي ليضربونا بها على كل جزء من أجسامنا ، ثم اقتادونا إلى قاعة التمارين الرياضية ، أما أنا فأول من ضربني كان جاري الصربي ثم تبعه الآخرون ، حاولت حماية رأسي بيدي دون أن أعرف إلى أين أذهب وماذا يحدث لي ، وعندما كنت على وشك دخولي المدرسة أمسك بي أحد جنود الشرطة الصرب وطلب مني أن أقف بجانب الحائط لأجل التفتيش، لقد أخذ مني كل النقود التي كانت معي وخلع من أصبعي خاتم الزواج وعندما هممت بأن أقول شيئاً ضربني على وجهي بقبضته قائلاً إنني سوف أتذكره جيداً وطويلاً ، ثم أخذ يضربني بالهراوة على ظهري زميلي السابق في العمل والذي كنت رئيساً له .

كان هذا بداية فقط ، بمجرد أن دخلت القاعة أجبروني على الجلوس أرضاً ممدداً رجلي منحني الرأس واضعاً يدي على ظهري . كنا حوالي ٤٥٠ رجلاً، وبمجرد أن جلست كما طلبوا أمروني أن أخرج من القاعة ، ظننت أنهم سيأخذون مني بعض الأقوال ، لكنني كنت على خطأ فقد بدءوا بضربي بمجرد خروجي من القاعة حيث أوقفني اثنان من الشرطة العسكرية في نهاية الممر وطلبوا مني الوقوف وظهري للحائط فاتحاً قدمي وأن أرفع يدي مشيراً بثلاثة من أصابعي المفتوحة « وهي إشارة صربية تدل على التثليث أو الثالوث الديني لهم » ، وعندما فعلت ذلك اقتربا مني من الخلف وبدأ يضربانني بهراوتيهما واحد عن يميني والآخر عن يساري ، توالت الضربات حتى وقعت على

الأرض ، فقام أحدهما بجر جسمي إلى دورة المياه وطلب مني غسل وجهي ، أدخلوني بعد ذلك إلى أحد فصول المدرسة حيث كان بانتظاري أحد زملاء العمل الذي تعرفت عليه أول مرة أثناء دراستنا في مدينة زغرب ، وبمجرد أن دخلت عليه قال لي : « كان من الأفضل لك الانتحار بدلاً من الوقوع في أيديهم » ، وأضاف قائلاً ، بأنني سوف أنتهي في معتقل غراديشكا شأني شأن الآخرين أو أنتهي كجثة عائمة في نهر سافا ، وعندما سألته لماذا كل هذا ؟ قال : لأنني كنت أحد المنظمين لتمرد المسلمين ضد الصرب ، وإنني قمت بتدريبهم ، وإن الآخرين قد تم القبض عليهم وإعدامهم وإن اسمي مدرج ضمن قائمة المطلوب إعدامهم أيضاً .

بعد هذا الحوار أخذوني ثانية إلى الممر ووضعوني جنب الحائط وأخذوا في ضربي ضربات شديدة فسقطت على الأرض مغشياً عليّ ، وعندما أفقت وجدت نفسي في دورة المياه ، ثم أخذوني وأدخلوني إلى القاعة ولم يسمحوا لي بالجلوس مع الآخرين وإنما وضعوني وسط القاعة منفرداً ، ولم تمض إلا لحظات قليلة حتى نادوا عليَّ لأخرج مرة أخرى خارج القاعة حيث توالت من جديد الضربات ثم الإفاقة في دورة المياه ثم القاعة ، وحتى في القاعة انهالوا عليَّ ضرباً . . .

لم أعد بعد أعد الضربات ، بل كنت أتأوه بسبب الضربات المؤلمة ، وعندما كنت أجلس بالقاعة كنت أنظر إلى الشرطة الذين يتلذذون بضرب المسلمين . لقد كسروا أنف أحد أصدقائي وحلقوا له شعره حتى الجلد ، بينما كان أنفه ينزف دماً كانوا يطلبون منه لعق دمه السائل على أرض القاعة بلسانه حتى لا يبقى أثر منه ، إنهم أجبروا الآخرين على شرب بولهم .

كانوا يضربوننا جميعاً دون تمييز بالأدوات المختلفة حتى بالمجاريف ، إلا أن ضرب الرأس بالأسلاك الكهربائية السميكة وضرب الأعضاء التناسلية بالأرجل كان أشد ألماً وأخطره ضرباً .

طلبوني من جديد حيث تكررت نفس الضربات المذكورة ، الضربات في الممر ثم الإفاقة عند الحنفية في دورة المياه ثم قاعة التمارين الرياضية . بعد هذا استجوبني شرطي عسكري ذو رتبة نقيب ووجه مخدوش ونظرات إجرامية حيث ناولني ورقة لأوقع على ما كنت أجهله ، سألني عن سبب بقائي موالياً لحكومتي البوسنة والهرسك المنتخبة بصورة شخصية . هاج كالثور وثار ثورة عارمة عندما سمع إجابتي ، وأخذ إحدى حوامل المكتب المكسور وبدأ يضربني على ظهري ورجلي وأوقعني على الأرض وأخذ يدوس جسمي بحذائه العسكري ، وفي هذه اللحظة دخل أحد زملائي من العمل والذي درست معه بالجامعة ، وأمر الشرطي بأن يتوقف عن الضرب وسألني ما إذا كنت أفهم خطئي قائلاً ، إن الصرب مستعدون لمواصلة الحرب لمدة عشر سنين ولو لزم الأمر ضد أمريكا نفسها ، أجبته بأنني لم أفعل شيئاً سوى أني رفضت الولاء للصرب ، وكنت في نفس الوقت أنظر في عيني النقيب مباشرة مما أزعجه ، فقام وسب « أمي التركية » وأخذ هراوته من على المكتب وبدأ يضربني بها ويقول : « لماذا حدقت هكذا في عيني » ، بدأ أنفي ينزف فأخذوني إلى حنفية المياه لأغسل وجهي ، ثم أعادوني إلى النقيب ثانية .

كنت أشعر بآلام شديدة في كل وجهي لكن الاستجواب بدأ من جديد ، ومن خلال الاستجواب بدأ يسألني عن أشياء أجهلها تماماً ، وبسبب الجواب الذي أزعجه بدأ يضربني مرة أخرى أكثر فأكثر مهدداً بقتلي واضعاً مسدسه على صدغي ، لم أشعر بالخوف لكني ظننت إني لن أخرج حياً من هذا المكان ، ناولني ورقة ، وقال : إنه سيذهب ليستريح ، وعندما يعود يجب أن يكون كل شيء مكتوباً ، كنت أجهل بصراحة ما هو بالضبط المطلوب مني ، إلا أنني لم أر هذا النقيب بعد ذلك ، بعد ذلك دخل عليّ جاري الصربي وزميلي في العمل السابق والذي كنت رئيساً له ، وسألوني عن حالي ، وناولوني سيجارة إلا أنني رفضتها ، لكني لم أستطع رفض كوب الماء ، لأنني كنت أشعر بالعطش الشديد الذي لا يُطاق ، كانت شفتاي تلتصق ببعضها بسبب

نزيف الأنف الذي كان يؤلمني لدرجة لم أجرؤ معها على مسّه أو مسحه من الدم . أعاد زميلي نفس الكلمات التي قالها لي من قبل ، أي أنه كان من الأفضل لي الانتحار قبل أن يقبضوا عليَّ ، لأنهم سوف يقتلوني ، وأخبرني بأن قادة حزب العمل الديمقراطي قد قُبِضَ عليهم وتم إعدامهم رمياً بالرصاص.

بينما كان يقول هذا كنا نسمع بكاءً وضجيجاً وصيحات وصرخات وإطلاق نار من الأسلحة الأوتوماتيكية ، وبعد فترة وجيزة حضر اثنان من الشرطة وأخذوني إلى قاعة التمارين الرياضية وكانا يضربانني بينما كنت أمرُّ خلال الممر بصعوبة بالغة ، كان جسمي كله يؤلمني ، بينما كنت أجلس وسط القاعة أدخلوا زعيم حزب العمل الديمقراطي وهو يغني بصوت مرتفع أغنيتهما الصربية الشهيرة : « من ذا الذي يقول ، من ذا الذي يكذب بأن صربيا بلد صغير . . . » .

آلمني سماع هذا فعلاً ، عندئذ ظننت أنه لم يبق هناك أمل للإنقاذ ، وأننا جميعاً مقبلون على الموت . كان يمر بي شرطي الحرس قائلاً : احن رأسك وارفع يديك ، وفي كل مرة يركلني برجله في ظهري ، بسبب الضربات الشديدة لم أستطع الالتفات إلى الخلف ، ثم وضعني الشرطي ذو القامة الطويلة على الأرض الخشبية وانهال عليَّ ضرباً ، كانت ضرباته أشد ألماً عندما طلب مني أن أفسح ما بين رجلي وأخذ يضربني على أعضائي التناسلية . لا أذكر مدة هذا الضرب والتعذيب لأني لا أذكر سوى الظلام أمام عيني ، وإنه كان يغمى عليَّ مرة بعد أخرى وإن واحداً منهم أمره بالتوقف عن ضربي ، تعرفت على أحد احتياطي الشرطة الذي كنت أعرفه جيداً من قبل ، إنه أخذني بيده وأوصلني إلى ركن الغرفة ، كنت أمشي على قدمي بصعوبة بالغة، حيث سمح لي بالجلوس ولأول مرة مع المعتقلين الآخرين ، بعد ذلك كانوا ينادون على المعتقلين الآخرين واحداً واحداً إلا أنهم لم يطلبوني بعد ذلك . كان الرجال المساكين يخرجون ويدخلون وعلى أجسامهم آثار الدم النازف نتيجة تعذيبهم وضربهم بالطرق والوسائل المختلفة . . .

كنا مجبَرين على الجلوس واضعين أيدينا على ظهورنا ورءوسنا منكسة . هذا الوضع كان إهانة لكرامة الإنسان كما كان صعباً ومؤلماً للغاية . وعند اقتراب الليل هدأت الشرطة قليلاً إلا أن التعذيب بدأ مع بداية الفجر ، الذي أتعجب له حتى الآن هو بقاؤنا أحياء بعد كل هذا التعذيب وهذا الضرب الكثير. وفي ذلك الصباح كانت المدرسة كلها تدوي من الصيحات والصرخات القائلة : « إنهم يقتلونني » ، نادوا على أسماء خمسين رجلاً ولعجبي كان اسمي من بينهم ، وفي الخارج كان في انتظارنا من جديد صف من الصرب عندما نمر بهم كانوا يشتمون أمهاتنا ويضربوننا بأدوات مختلفة كانت في أيديهم، لا أعرف الطريق الذي مررت خلاله ولا كيف استطعت أن أتحمل كل هذا ، أدخلونا الحافلات مرة أخرى ، كانت هناك أربع حافلات في انتظارنا فقط ، ظننا لأول وهلة أنهم سينقلونا إلى معسكر غراديشكا ، لم نكن نعرف إلى أين نذهب ولا المناطق التي نمر بها لأنهم منعونا من النظر خلال النوافذ وأجبرونا على الجلوس منكسي الرءوس . كان في الحافلة شرطيان يجوبان الحافلة ويضربان من يختارا ، وفجأة أحسست بأن الحافلة تمر بطريق وعر واستنتجت أنهم يقودوننا إلى إحدى الغابات لإعدامنا بالرصاص ، أخذت أفكر في أخي الذي كان في الحافلة الثانية وفي أولاده الأربعة الصغار ، بعد فترة من الزمن توقفت الحافلات وأمرونا جميعاً بالخروج ، وفي الخارج كان هناك صف من الصرب الذين كانوا يستقبلوننا بالضرب ، ومرة أخرى في إحدى المدارس ذات قاعة التمارين الرياضية .

داخل القاعة كان هناك ٥٠ رجلاً من جيراني وأقاربي وزملائي ، كانوا كلهم في حالة من البؤس من آثار التعذيب والضرب والإرهاق ، أخبرونا بأننا سنمكث هنا إلى أجل غير مسمى ، كان يسمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه فقط ، كما قابلت أخي الذي لم يكن على حال أحسن مني ، كان كلانا يشعر بآلام لا تطاق في الجسد كله لدرجة لم نستطع معها النوم ، كانت القاعة تدوي من الأصوات المؤلمة . . . كنا جميعاً نتحمل آلاماً شديدة .

مكثنا سبعة أيام كانوا خلالها يحضرون رجالاً جدداً ويأخذون بعضاً منا . وفي تلك الفترة كانوا يعطوننا فقط شريحة خبز واحدة في الساعة الحادية عشرة، لم أستطع أكلها لشدة الآلام وكان بولي قد اختلط بالدم . وفي اليوم الثالث حضر اثنان من المفتشين وأخذاني لإجراء التحقيق معي .

إنهما لم يقوما بضربي لكنهما كانا مصرين على أن أزودهما بمعلومات كنت أجهلها ، وفي نهاية التحقيق سألاني عمَّا إذا كان لديَّ ما أضيفه ، طلبت منهم التوقف عن ضربي وليتخذوا الإجراءات حول رفع الدعوى الجنائية ضدي ، لكن لم تتخذ ضدي أية إجراءات فيما بعد وانتهى الأمر . في اليوم السابع لم يعطونا الخبز بل أخبرونا بأننا سنسافر إلى مانياتشا غداً مشياً على الأقدام ، كلفوني أنا بتنظيم السفر بحجة أنّ لي نفوذاً بين المعتقلين وذلك لتسهيل الأمر .

في الغد تم تشكيل قافلة طويلة من خمسة صفوف حيث كنت في مقدمة القافلة ، لم يضربوني بل كانوا يضربون المعتقَلين الآخرين الذين كانوا ورائي، كانت مانياتشا على مسافة ٢٥ ك م من ذلك المكان الذي انطلقنا منه . انطلقنا. . . .

كان الشيوخ والمرضى يسقطون في الطريق فوضعهم الصرب على متن الحافلات ، أما الآخرون فقد واصلوا الطريق مشياً على الأقدام ، إن هذا لا يمكن وصفه ، كيف سنقدر على المشي ولم نأكل شيئاً يومين كاملين ، وكان كل واحد منا منهاراً جسدياً ومعنوياً ، وصلنا إلى مانياتشا في المساء ، أوقفونا عند حظائر حولها الأسلاك الشائكة ، نادوا علينا عشرة عشرة ، وزعونا على الحظائر بعد أن فتشونا وجردونا من كل ما معنا من الأشياء الشخصية الثمينة .

طلبوا منا أن نستلقي على البطانيات المفروشة واحداً جنب الآخر ، وكان مكاني في نهاية الحظيرة ، ثم أمرونا بالجلوس ، طلبنا الماء لعطشنا الشديد ، لم نحصل عليه إلا في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وذلك عن طريق رجالنا

الذين وجدوا دلواً بلاستيكياً ، ونجحوا في إحضار كمية من الماء إلى الحظيرة للشرب ، لم أذق في حياتي ماءً لذيذاً مثل ذلك الماء ، شكرت الله على نعمته . بعد أن شربت الماء استعدت قواي قليلاً .

جاء أول صباح لنا في الحظيرة ، ودخل الحارس ، وطلب منا أن نتوجه إلى مكان ما للفطور مشكلين صفاً بالطبع ، وبعد الفطور أخذونا إلى أحد الحلاقين لقص شعورنا ، وأثناء ذلك كله كانوا يضربوننا حيث كان الرجال يصيحون ويطلبون العون ، لكن من أين ؟ وكيف ؟ وبعد ثلاثة أيام علمت أن الحظائر الثلاث اكتظت بالمسلمين الذين بلغ عددهم ٦٠٠ شخص . وفي اليوم الثالث عينونني مسئولاً عن إحدى الحظائر الثلاث حيث كانت هناك التزامات كثيرة وصعوبات جمة غير قابلة للحل . كانت هناك صعوبات كثيرة منذ اليوم الأول لإقامتنا في مانياتشا إلا أني سوف أتحدث عن حادثين فقط .

كان في معسكرنا طبيبان وبضعة ممرضين ، وبصفتي مسئول عن حظيرتي كان يجب عليَّ أن أنادي على المرضى ونشكل صفاً يمشون اثنين اثنين إلى العيادة من أجل الفحص الطبي الذي كان يبعد مسافة ٢٠٠ أو ٢٥٠ متراً . وفي ذلك الصباح كان عدد المرضى ٣٠ شخصاً ، وكان في مؤخرة الصف رجل مريض طاعن في السن لا يقدر على المشي دون مساعدة ، وبدأ يتكيء على كتفي ، ووصل إلى العيادة بصعوبة فائقة . وأثناء العودة التقى بنا على مدخل المعسكر شرطي يسمى « زوكا » الذي كنا نخاف منه جميعاً ، وما أن رآني أساعد العجوز حتى سألني لماذا أساعده ؟ أجبته لأنه لا يقدر على المشي وحده ، فشتمنا وسب أمهاتنا وأمرني بتركه ، وما أن تركته حتى جاء زوكا وأخذ يضرب الرجل المسن بلطماته القوية وبرجله في بطن المريض فسقط على الأرض ، وعندئذٍ صاح « زوكا » : « تستطيع أن تطلق علينا النار ولا تستطيع المشي ؟ » ، وبعد ذلك اقترب مني ولطم وجهي بضع لطمات قائلاً إنه ممنوع عليَّ أن أساعد الآخرين . كانت تلك اللطمات تؤلمني أشد من كل الضربات السابقة .

وأذكر هنا الحادث الآخر . في يوم من الأيام لا أستطيع تحديد تاريخه وعندما وصلت الحافلات المملوءة بالركاب من مدينة بريبدور ، وبينما كنت في طريقي إلى المطبخ إذ ناداني الطباخ لأرى شيئاً مهماً . ومن خلال النافذة شاهدنا خلف الحافلة الأخيرة التي كانت تبعد عنا حوالي ١٥٠ متراً شرطياً يغطي إحدى الجثث ببطانية ، وعلمت فيما بعد أنهم أخرجوا من الحافلات التي وصلت من بريبدور عشر جثث لقتلى ماتوا أثناء الطريق من بريبدور إلى هنا متأثرين بالضرب والتعذيب .

إن هذا الخبر قد أحزنني جداً بحيث لم أستطع نسيانه كما لم أنس المنظر أياماً طويلة ، كما أنني لن أستطيع أن أنسى هذه الجرائم التي ارتكبها الصرب ولا ينبغي للبشرية وخاصة المسلمين أن ينسوها أبداً .

* * *

● الشهادة الثانية :

كان اليوم التاسع عشر من شهر يناير ، حين عزمت في صباح ذلك اليوم على زيارة المشيخة الإسلامية بزغرب لمقابلة رئيسها السيد شفيق عمر باشيتش.

وصلت المشيخة في العاشرة ، كان هناك ازدحام مثل باقي الأماكن الأخرى، واقتربت من رجل وحييته بتحية الإسلام ، عندما تعرفت عليه علمت أنه كان معتقلاً في معسكر مانياتشا وأن اسمه ط . ب وهو من فارتسار واقف ، بدأت في الحديث ، وكان يسرني أن أتعرف أخيراً وأن اطّلع مباشرة عن طريق شاهد عيان للجرائم المرتكبة في معسكرات الاعتقال الصربية ، وعلى التعذيب الرهيب الذي عاشه المسلمون والكروات من البوسنة والهرسك على أيدي عصابات الجتنيك .

كان حوارنا هادئاً ، إلا أن الرجل كان عصبياً وثائراً عندما كان يقص على تفاصيل تجربته في معسكر الاعتقال . وفيما يلي جزء من قصته :

أتوا يطلبونني بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٩٢ في تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً ، كنت في ذلك اليوم مريضاً جداً وراقداً في فراشي ، وبالتحديد كنت نائماً عندما سمعت طرقات على باب منزلي ، ولم تمض إلا لحظات معدودة حتى اقتحم بيتي « النسور البيض » المسلحون وطلبوا مني أن أقوم من فراشي ، لكنني لم أقدر على ذلك دون مساعدة زوجتي ، كان جيراني المسلحون يساعدونني في التجهيز والزج بي في سيارة كانت بانتظارنا في الخارج ونقلوني إلى مركز الشرطة . وعندما سألتهم إلى أين نحن ذاهبون ؟ أجابوا : إلى الجهة المخولة لأخذ الأقوال ، فهمت على التوّ أن هذا الأمر لا يوحي بالخير، طلبت من زوجتي أن تسامحني إن كنت قد أخطأت في حقها في يوم من الأيام ودعوت الله عَزَّ وجَلَّ أن يشملني برحمته وأن يعينني .

عندما وصلنا إلى مركز الشرطة وضعوني في غرفة حيث انتظرت وحدي ساعتين كاملتين ، وبعد ذلك حضر شرطي وطلب مني نزع كل ما هو ثمين وغال ففعلت كما طلب ، ووجدت في زنزانتي كثيراً من جيراني الذين اعتقلوهم قبلي . كان الكلام ممنوعاً ، لذا كنا نتحدث همساً لأن الحراس حول الزنزانة . أقبل علينا الليل الذي كان أطول من سنة ، كان التردد والفزع وسوء المعاملة يسود زنزانتنا ولكن التعذيب الشديد بدأ ببزوغ الفجر ، عندما ظهر على باب الزنزانة « چورو ماركوفيتش » رئيس دورية التفتيش وبدأ ينادي أسماءنا ، كان قد انتصف النهار وبدأ يقترب « وقت الفصل » وكان رئيس الدورية قد وعدنا بأنه سيطلق سراحنا قريباً ، بدءوا ينادون الأسماء مرة أخرى ويأخذون الناس إلى مكان مجهول ، نادوا عليّ أنا أيضاً فسررت إذ ظننت أنهم سيطلقون سراحنا ، لكن خاب ظني حين رأيت أنهم يسوقوننا إلى حافلة فبدأ الخوف الغريب يستحوذ عليَّ . وفي الحافلة تعرفت على بعض زملائي الذين كانوا قد عذبوا وشوهت وجوههم بسبب كثرة الضرب في معسكرات الاعتقال الأخرى ، كنت أذكر الله سبحانه وتعالى وأدعوه أن يكون عوناً لنا ، وبعد ذلك كانت قواي تعود قليلاً قليلاً .

انطلقت بنا الحافلة إلى مكان مجهول وكان معنا ثمانية من الشرطة الصربية وبينهم قائدهم ، كان عددنا في الحافلة ٣٢ شخصاً . كنت أظن أنهم أخذونا للإعدام بالرصاص بينما كانت الحافلة تمر خلال شوارع المدينة وتتجه نحو السلخانة ، حيث زجوا بنا داخل غرفة الثلاجات ، صدر هذا الأمر من الشرطي المسمى « فويو فيداكوڤيتش » ، بينما كنا مكتظين على بعض في غرفة الثلاجات ، كان الهواء والرطوبة ينقصانا ، فبدأنا نلعق بألسنتنا الأجزاء المعدنية لنحصل على بعض الرطوبة ، وبعد فترة ظنناها دهراً فتح باب غرفة الثلاجات وأخرجونا واحداً واحداً .

كانوا يضربوننا ، ولا تسمع إلا أصوات الضرب والتعذيب ، كنت أدعو الله ، وقبل أن ينادوا اسمي انقطع التيار الكهربائى ، وبفضل ذلك لم يضربوني في تلك الليلة .

في صباح اليوم التالي نقلونا جميعاً إلى مدرسة حيث بدءوا بضربنا جميعاً دون تمييز . وهناك توفي يوسيب سفيتينوڤيتش متأثراً بالضرب الشديد . كنا مرهقين فوقعنا على الأرض الخرسانية ، لكن المجرمين لم يكتفوا بالضرب فقط بل أخذونا واحداً واحداً بحجة الاستجواب ، وهم في الحقيقة يضربوننا ويهينوننا بطرق شتى .

كان قائد عصابات الجتنيك المسمى « بيرو ماركوڤيتش » يزورنا كثيراً في حظيرة مكثنا فيها ٣٦ ساعة ، وهناك فهمت أنني موجود هناك لكوني مسلماً فقط لا غير . كان الانتظار صعباً للغاية لأن هناك من أخبرنا بأنهم سيذبحوننا. كان ذلك بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٩٢ ، وصلت في تلك الليلة حافلتان صغيرتان مغلقتا الأبواب في الساعة العاشرة بالضبط ، بدأ قائدهم يسجل أسماءنا بزعم أنهم يريدون نقلنا إلى مكان آمن لأن البعض كانوا يهددوننا بالذبح في تلك الليلة ، فتحوا باب الحافلة الصغيرة وأدخلونا داخلها واحداً واحداً كالغنم ، ساقونا في اتجاه مجهول وكان الطريق طويلاً ، كنت أفترض أنهم يسوقوننا إلى

أحد معسكرات الاعتقال في غراديشكا أو في مانياتشا ، استمر سفرنا حوالي الساعتين وبعدها وصلنا إلى معسكر مانياتشا .

كان قد تجمع حول الحافلة الصغيرة عدد كبير من عصابات الجتنيك الذين أمرونا قائلين : « احنوا رءوسكم وارفعوا أيديكم » ، وكانوا يجبروننا على الجري في ساحة المعسكر في مانياتشا بالرغم من أننا كنا معذبين ومرهقين نتيجة الضرب والسفر .

كان الاستقبال أليماً بالنسبة للجميع بحيث بدءوا بضربنا بكل ما كان في أيديهم بعد أن شكلوا منا صفاً وأخذوا يضربوننا بأرجلهم وأعقاب بنادقهم وهراواتهم ومقابض المجاريف وغيرها . . .

كان هناك خمسة من عصابات الجتنيك يضربون رجلاً واحداً ، وبعد هذا الاستقبال جردونا من ملابسنا وأخذوا يضربوننا ونحن عراة ، ولم يسمحوا لنا بلبس الملابس إلا بعد أن ضربوا كل واحد منا على حدة ، استاقونا بعد ذلك إلى الحظيرة الصغيرة حيث أغلقوا علينا الباب وبدءوا في ضربنا من جديد . استمر الضرب حتى طلوع الفجر ، وجدنا في هذا المعسكر رجالاً آخرين استاقوهم إليه قبل مجموعتنا ، كانوا من سانسكي موست . كانت الحظيرة التي زجونا فيها مخصصة للخيل من قبل ، وفي الساعة السادسة صباحاً أخرجونا من الحظيرة فلم نتمكن من التعرف على بعضنا البعض في ضوء النهار من كثرة الضرب وتشويه الوجوه . كانت عصابات الجتنيك ينادون على بعضهم البعض بأسماء إسلامية مثل : يا فاضل ، يا سليمان ، يا مصطفى . . . وذلك للتمويه ، عندما نادوا علينا بأسمائنا كنا مجبرين على رفع ثلاثة أصابع من أيدينا ومن يرفع إصبعين فقط كان يضرب ويعذب تعذيباً شديداً ويوطأ بالأقدام .

كنت مريضاً جداً طوال تلك الفترة وكنت أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينقذ جميع أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأخيراً ذهبوا بنا إلى طبيبهم من أجل

الفحص الطبي ، طبعاً في صف مشكل منا حيث استمر نفس التعذيب والإهانة ، عندما كنا نخلع الملابس كنا نرى أجسامنا زرقاء اللون أو دامية كان الأطباء يفحصوننا ويكتبون شيئاً ما ، لكن عصابات الجتنيك كان يضربوننا من جديد بمجرد خروجنا من العيادة حيث أغمي عليَّ . قام أحد الجتنيك وكان اسمه المستعار « فاضل » بصب الماء على وجهي وجسدي وعندما أفقت وجدت أمامي رجلاً سميناً ، كان هو ذلك المحقق .

خلال إجرائه التحقيق معي سألني هل أعرف اسم المكان الذي نحن به الآن؟ عندما أجبته بالنفي ، قال : « إنك في معسكر الاعتقال الجماعي مانياتشا » ، كنت أفكر في التعذيب الذي ينتظرني فكنت أدعو الله في نفسي، وعندما سألني ، ماذا أهمس ؟ قلت له : إنني أدعو الله رب العالمين ، لم أستطع أن أرد على أسئلته ، وإنما كنت أقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وبعد أن رأى فعلاً أنني لا أستطيع الكلام وضعني أولاً في الصف ثم أخرجني منه القائد وهذا معناه إنني لست خطيراً ، إلا أنه أجبرني على أن أغني الأغنية الصربية : « أيها الأتراك ، أيتها التركيات ، إن قائد المتمردين قد قتل » ومن كان يرفض أن يغني كان يضرب على ظهره بعقب البندقية ، ثم ذهبوا بنا إلى الحظيرة الكبيرة وأوقفونا بجانب الحائط لكي نقص شعورنا ، أنهم كانوا يضربوننا حتى أثناء قص الشعر الذي استمر طويلاً لأن التيار الكهربائي كان قد انقطع في ذلك اليوم . كان الغيظ يستحوذ عليهم بسبب انقطاع الكهرباء ، فكانوا يقولون : « إن الأوستاشا يقطعون الكهرباء ، ثم يشتمون أمهات الكروات » ، كانوا يعطوننا يومياً كمية من الخبز الفاسد قدره ٣٠ جراماً وجرعة من الماء ، لا أستطيع أن أتصور كيف بقينا على قيد الحياة بهذا الأكل القليل وكل ذلك التعذيب والإهانات المستمرة . كنت منهوك القوى ، لكني كنت أستمد قوة عجيبة من دعواتي ، إنني على يقين قاطع بأن الله عَزَّ وجَلَّ أبقى على حياتي ، وإنني أحمده حمداً كثيراً .

أشد يومٍ من الأيام التي قضيتها في المعسكر والتي كانت ١٥٠ يوماً ، كان اليوم الذي أخرجونا فيه من الزنزانة ونقلونا إلى الحظائر الكبيرة حيث وجدنا عدداً كبيراً من الناس أكثر من ٧٠٠ شخص من المدن المختلفة «فارتسارواقف، كليوتش ، سانسكي موست ، سانيتسه ، ديرڤينتا دوبوي وغيرها » من المدن والقرى . كانوا يستلقون على الأرض منهوكي القوى ومرهقين ، عندما دخلنا عليهم لم يستطيعوا التحرك وكان يبدو على وجوههم آثار التعذيب والضرب .

استلقينا على الأرض الخرسانية بعضنا بجانب بعض دون أي فراش أو بطانية، كان الصرب يدخلون علينا الحظيرة ليضربونا بدون تمييز ضرباً عشوائياً وبدون أية أسباب ، كما أنهم كانوا يجبروننا على الأعمال الزراعية والبنائية دون غذاء أو ماء أو ملابس . هل يمكنكم أن تتصوروا أن الإنسان يمكنه العيش ويبقى على قيد الحياة بخمسين جراماً من الخبز في اليوم ؟ يبدو ذلك مستحيلاً لكنها الحقيقة . وبالإضافة إلى تلك الكمية من الخبز كانوا يزودوننا بكمية قليلة من الماء . وعلى مرور الزمن كنا نفقد إحساسنا بكل شيء ، يبدو لي الآن أننا كنا نشبه أي شيء إلا أن نشبه الإنسان . سمحت لنا الظروف بأن نغتسل بعد ٤٥ يوماً من الاعتقال ، عندما وصلت سيارة المياه ، سنحت لنا فرصة الاغتسال لمدة خمس دقائق فقط إلا أننا كنا نشعر بشيء من الارتخاء والراحة وخاصة بعدما عرفنا أن وجبة الغذاء في ذلك اليوم ستكون فاصوليا . كانت فرحة كبرى وكنا نزدحم في الصف على الغذاء ، لكن عندما وصلنا إلى الطعام خاب أملنا إذا كان الغذاء ماءً ساخناً تسبح فيه بعض حبات الفاصوليا. وبعد ذلك كانوا يزودوننا بشريحة من الخبز « وشريحة من لحم الخنزير أيها الأتراك وإلا فإنكم ستموتون جوعاً » .

كنت أدعو الله في كل لحظة أن يمكنني بالصبر والقوة على كل هذه الإهانات ، وكان الله يجيبني ويرحمني . في بعض الأحيان يعطوننا شاياً بدون سكر وفي الحالات النادرة يناولوننا المكرونة والكرنب (الملفوف) المحشي . وهكذا كانت الأيام تمر يوماً بعد يوم كنا جميعاً نبدو كأننا هياكل عظمية حيث

فَقَدَ كل منا ما لا يقل عن ثلاثين كجم من وزنه . وأنا بعدما كنت ٩٠ كجم أصبحت ٥٥ كجم ، كانت تكثر حالات الموت في المعسكر وخاصة في الشهرين الأولين من الاعتقال ، كما كثرت الأمراض مثل الدوسنتاريا والتيفوئيد المعدي وفقر الدم وغيرها من الأمراض . إن الصراع على الحياة والبقاء لم ينقطع مرة أو لحظة واحدة ، كان من بيننا طبيبان وممرض واحد ، ساعدونا كثيراً .

في كل أوقات الليل كان الناس يصرخون : يا دكتور ، يا دكتور . . . وكان ميهو وشعبا نوفيتش وعاصم يحضرون بسرعة ويقدمون خدماتهم على قدر المستطاع ، إذ كانت تنقصنا الأدوات الطبية والأدوية ، والأهم من ذلك كله أنهم كانوا يطلبون منا المحافظة على روحنا المعنوية ، وإننا كنا معهم أقوى جسدياً ومعنوياً .

التحقيقات والاستجوابات لم تنقطع طوال إقامتنا في المعسكر ، إلا أن التعذيب والإهانة قد خف قليلاً . كانوا يسألوننا عن كل شيء ، كانوا يظنون أنهم باستطاعتهم أن يخدعوني بوعودهم بإطلاق سراحي إذا خنت جيراني وزملائي ، لكنهم لم ينجحوا . كانوا يعذبونني كثيراً بسبب عملي السابق في لجنة المسجد أثناء التحقيقات . ومن الغريب أنهم كانوا مطلعين على المعلومات والتفاصيل حول عملي هذا ، وفي نهاية الاستجوابات استنتجت أنني وصلت إلى هنا لكوني مسلماً فقط . الأمر الذي اعترف به المحقق نفسه أثناء إجراء أحد التحقيقات معي ، حيث أجبته بأنني مسلم والحمد لله ، وإني أعتز بذلك، حيث أؤمن بالله الذي خلق كل شيء والذي يميتني عندما يشاء .

من أيام أغسطس ، يوم صيفي رائع ، كنت في الحظيرة كالبهيمة بجانب الأستاذ عمر فيليبوفيتش من مدينة كليوتش ، كان رجلاً طيباً وقوياً ، كأنه «قطعة صلبة من صخر الجبال » كان يساعدني كثيراً ، كانوا يعذبونه ثلاث مرات يومياً . وفي يوم نحس بعدما عذبوه ثلاث مرات لم يقدر على الوقوف

ولا المشي ، كان ذا قوة معنوية كبيرة ، ذهبوا به في ذلك المساء للتعذيب للمرة الرابعة فلم يرجع أبداً ، قتله العدو في تلك المرة ، كان أخوه يشاهد كل ذلك عندما قتلوه ، وفي نفس اليوم عذبوا حارسه الشخصي وقتلوه أيضاً .

كان عمر قائد الدفاع المحلي لبلده كليوتش ، لم أستطع أن أنظر كيف يعذبونه لكني علمت فيما بعد كيف انتهى ، وضعوه في خندق حيث عذبوه حتى الموت ، بكينا جميعاً في الحظيرة من أجل عمر ودعونا الله أن يدخله فسيح جناته ، وفي نفس اليوم مات رجل من سانسكي موست متأثراً بالضرب والتعذيب ، وخرجت أنفاسه الأخيرة وهو مستلقٍ على يد أخيه ، إنه لشيء فظيع ، ليس هناك ما هو أفظع منه ، كان من أسعد أيامي ذلك اليوم الذي تلقيت فيه رسالة من زوجتي بطريقة ما . كانت قد أرسلتها عن طريق الصليب الأحمر مؤرخة بتاريخ ٢٥ يوليو واحتوت على ٢٥ كلمة لا غير ، كانت بها كلمات التشجيع والتأييد ، تخبرني فيها بأنها على قيد الحياة وبصحة جيدة ، كنت أبكي من السعادة لن أنسى ذلك اليوم أبداً .

وبتاريخ ١٣ يوليو أطلقوا سراح جميع المعتقلين الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة أو يزيد على ٦٠ سنة ، منظمة « مرحمت » الخيرية الإسلامية ببانيا لوكا قامت بتنظيم استلامهم من معسكر الاعتقال ، إلا أن كثيرين من المصرح بإطلاق سراحهم من مدن كليوتش وسانسكي موست وسانيتسه لم يصلوا إلى بيوتهم أبداً ، مما يوحي بأن الصرب قاموا بإعدامهم في مكان ما .

كان يوم ٢٣ أغسطس عندما زارنا الممثلون لمنظمة الصليب الأحمر الدولي، كنت أنظر ولأول مرة منذ إقامتي في معسكر الاعتقال إلى عيني إنسان مباشرة .

إنهم كانوا يشجعوننا وعلمنا بأن هناك أناساً يريدون مساعدتنا ، ولم يمض على تلك الزيارة إلا يومان عندما وصلت إلى المعسكر قافلات المواد الغذائية ، ولأول مرة نحصل على ربع كيلو من الخبز ، إنها كانت حقاً فرحة كبرى ،

حصلنا أيضاً على طبق من البطاطس والكرنب ، الحمد لله ، كما حصلنا على كمية كافية من الماء ، ولو لم يكن ذلك لكنا قد هلكنا فعلاً من الجوع بعد عشرة أيام على الأكثر ، وهناك شيء آخر لا يتعلق بالخبز ولا بالماء ، وإنما بالأدوية لأن النقص في الأدوية كان المشكلة الكبرى ، عندما وصلت الأدوية لم أدر من كان أسعد من الآخر ، أنا المريض أم الطبيب ميهو درويش قاديتش أو الطبيب شعبا نوڤيتش أو الممرض عاصم .

ومنذ ذلك اليوم كانت الفحوص الطبية ممكنة وتوزيع الأدوية أيضاً ، بالإضافة إلى وجود الماء لنستطيع ابتلاع الأدوية بسهولة ، والحمد لله ، كنا قد أسسنا عيادة صغيرة في حظيرتنا ، كما تم تصنيف المرضى والجرحى أيضاً ، إن مستوى المعيشة في الحظائر كان قد تحسن إلى حد كبير ، وكان الصحفيون من مختلف أنحاء العالم يزوروننا ويقومون بتصويرنا ويأخذون تصريحات من الذين يجرءون على ذلك وأن يقولوا كيف كان وضعنا من قبل ، بدأت صور المعسكر تُعرض في العالم كله .

بدأ مستوى المعيشة يتحسن ، فحصلت على بطانيتين ، والحياة بدأت تستقر حيث ازداد التفاؤل عند جميع المعتقلين ، نقل المصابون بأمراض خطيرة إلى المستشفى من أجل العلاج ، إذ ذهب محمد أخو المرحوم عمر مع مجموعة من المرضى إلى إنجلترا ، كان كل شيء قد تحسن وانقطع التعذيب والإهانة لأنه كان دائماً موجوداً بيننا واحد من الصليب الأحمر ، وكانت عصابات الجتنيك قد هدأت قليلاً ، إذ كان الجتنيك يأخذون جزءاً من غذائنا ، لكن هذا ليس مهماً إذ كان الله يرسل لنا رزقنا الذي لم يتمكن الجتنيك من اغتصابه .

وفي صباح ٢٣ من نفس الشهر حضر إلى حظيرتنا شرطي ونادى على أسمائنا ، وطلب مني أن أجهز نفسي وأن آخذ أشيائي الشخصية فعلمت أنهم سيذهبون بي إلى مكان ما . أخرجوني أنا و١٩ معتقلاً ، وأخبرونا أننا سنذهب إلى نقطة استبدال الأسرى الواقعة على جبل فلاشيتش ، سرني ذلك جداً ولكني خفت ألا تنجح العملية .

زّجوا بنا في الحافلة واتجهنا نحو بانيالوكا عن طريق إسكندر واقف ومن هناك إلى فلاشيتش ، وصلنا إلى فلاشيتش في الساعة الثالثة بعد الظهر ، انتظرنا الذهاب إلى الخط الأول للاستبدال لكنهم لم يذهبوا بنا لفترة طويلة ، وبعد الساعة الرابعة دخل علينا ضابط صربي وبرتبة عقيد ، وبدأ يشتمنا قائلاً : إن الأوستاشا لا يريدوننا ، وأضاف : إنهم يرسلون عشرين مقابل ثلاثة من الصرب فقط ولكنهم غير راضين ، كما قال : إنه سيقتلنا جميعاً ، ثم أخذونا إلي الطابق الأرضي لأحد المطاعم حيث انتظرنا هناك أربعة أيام لعملية الاستبدال ، لكن الفرصة لم تسنح ، ولم يعذّبنا الجتنيك أثناء الانتظار وإن كانت هناك محاولات لذلك ، وبعد الأربعة أيام أعادونا إلى المعسكر بمانياتشا، عندما رآنا المعتقلون فرحوا فرحاً كبيراً لأنهم كانوا قد سمعوا بأننا قد قُتِلنا جميعاً .

في الحقيقة الاستبدال لم يتم لأن عصابات الجتنيك لم يحضروا شخصين مطلوبين للتبديل لأنهم قتلوهم من قبل ، كان صعباً جداً عليَّ لأنني كنت قريباً من الحرية وأنا الآن في الاعتقال مرة أخرى . كنت أثناء إقامتي بجبل فلاشيتش وأثناء العودة أدعو الله سبحانه وتعالى بأن يساعدنا ويرحمنا . كان الجو السائد في معسكر الاعتقال يختلف تماماً عن ذي قبل ، لم يعد هناك الضرب أو التعذيب لأن حضور الصحفيين والمصورين والتليفزيون كان يوحي بأنه في النهاية لا بد من إطلاق سراحنا ، كما بدأت عصابات الجتنيك تهدأ قليلاً وكان في متناول أيديهم كثير من الأغذية أيضاً .

بالرغم من ذلك كانت تصل في تلك الأيام مجموعات من المعتقلين من بايتسه وغلاموتش ويتعرضون لنفس سوء المعاملة التي تعرضنا لها في البداية . كان لدينا جميعاً أنواع الفيتامينات المختلفة وبكلمة وجيزة كان هناك إحساس بالتحسن فقمنا بإحياء ذكرى « الأربعين » للموتى في سرية تامة كل في حظيرته . أما أنا فقمت بتشكيل مجموعة صغيرة من الشباب حولي ، وأخذت أعلمهم الدين الإسلامي الحنيف والصلاة ، لاحظ المعتقلون بأنني

أصلي ، فبدءوا هم أيضاً يرددون ما كانوا يحفظون من قبل ما تيسر من القرآن الكريم ، بدأ الناس يسترخون قليلاً قليلاً لدرجة أن بعضنا كان يغني ، بينما كان البعض الآخر ينشد القصائد الدينية والتواشيح بمناسبة حلول المولد النبوي الشريف ، ويكبرون ويسبحون الله عَزَّ وجَلَّ علناً وبصوت مرتفع .

لم يبق أي شيء أخضر حول المعسكر لأننا كنا قد أكلنا كل شيء حتى العشب والحشائش ، كثرت في تلك الفترة زيارات الصحفيين ومن وقت لآخر تظهر بعض الشخصيات البارزة ، فمثلاً زارنا وفد من مفوضي الأمم المتحدة . ومنذ تلك الزيارة أدركت تماماً بأن ميعاد حريتنا قد اقترب .

في ذلك الوقت كانت الأحداث الكثيرة تدور بسرعة بالغة في البوسنة والهرسك ، وكانت الصحف نادرة في المعسكر ، وإن كنّا نجتمع في سرية تامة لنقرأها إذا وجدت ، وخلال شهري سبتمبر وأكتوبر كانت لدينا كمية كافية من الطعام والماء ، والحمد لله بقيت على قيد الحياة وبدأت أستعيد قواي .

يوم ٣١ أكتوبر ١٩٩٢ كان اليوم السعيد في حياتي :

في صباح ذلك اليوم في الساعة الخامسة جاءني أحد زملائي مسرعاً يبشرني بأن اسمي مدرج في قائمة الأسماء المعدّة للاستبدال ، ويجب أن أتجهز للسفر، كنت مسروراً لدرجة أني لم أدر ماذا أفعل وما يجب أن أفعل أولاً ، كنت كالمتشنج ، وجاء الشرطي ونادى أسماء الذين يجب استبدالهم وكان اسمي من بينهم ، فأخذت أعانق وأقبّل زملائي . خرجت إلى الخارج ، ووقفت في الصف ، كنا ٦٢ شخصاً رحلوا بنا ولا ندري إلى أين نتجه ، وإن كنا قد افترضنا بأنهم سيستبدلوننا بالقرب من توربة . مررنا ببانيالوكا وفاتسار واقف وبابيتسه ودوني واقف حتى وصلنا أخيراً إلى بلدة توربة .

عندما وصلنا إلى توربة قام الجتنيك بمحاصرة الحافلة وكان عددهم يبلغ

٢٠٠ شخصٍ ، وأخذوا يستفزوننا ويهددوننا بالقتل في حالة عدم نجاح إتمام استبدال الأسرى ، كنت أكبر الله وأدعوه بأن يتم كل شيء بسلام وتوفيق ، وبعد فترة من الزمن وصلت حافلتان تحملان علامة الصليب الأحمر ، وكان ذلك إشارة بأن الاستبدال سيتم بالرغم عن كل شيء .

دخل الحافلة الوزير السابق للكيان المسمى بـ « الدولة الصربية » أوستوبيتش وأمرنا أن نخرج واحداً واحداً ، وأن نقف في الصف أمام الحافلة لأن الصرب المراد استبدالهم بنا قد وصلوا من مدينة ترافنيك .

كانوا يسألوننا : هل نقبل الاستبدال ؟ وبعد أن عبرنا الخط الفاصل ركبنا الحافلة التي كانت بانتظارنا ، وأخيراً أحسست إني نجوت أخيراً من أيدي المجرمين .

أولاً ، ذهبوا بنا إلى المطعم لتناول الغداء ، كان السكان يخرجون من البيوت ويستقبلوننا بالترحيب الحار ويحضرون إلينا ما لديهم من الأطعمة والماء بالرغم من أنهم كانوا في أمس الحاجة إليه .

كنا نسمع التكبيرات ، الله أكبر ، الله أكبر ، ثم ذهبوا بنا إلى مدينة ترافنيك حيث كان الاستقبال الحار المليء بالبكاء والدموع ، ثم ذهبوا بنا إلى قيادة المدينة « الماء الأزرق » حيث أعدوا لنا وجبة الغداء ، وكانت فرحتي الكبرى عندما التقيت بابني الذي يقاتل في جبهات القتال من عدة أشهر .

غادرت مدينة ترافنيك بتاريخ ٣ نوفمبر ، وكنت سعيداً جداً ، وأنا في طريقي إلى كرواتيا ، رافقني ابني مع بعض الجرحى إلى أن وصلنا إلى «لوفران» حيث عاد ابني ، وواصلت أنا طريقي إلى زغرب .

قضيت في زغرب فترة من الزمن للاستجمام في المستشفى الجديد ، ثم بدأت أعمل في منظمة « مرحمت » الخيرية ، حيث أحاول مساعدة شعبنا الغالي في نضاله ضد العدو الصربي المجرم ولو بهذه الطريقة .

أثناء إقامتي بزغرب تعرفت على كثير من الناس الطيبين ، ومن بينهم الرجل الطيب وصاحب الجميل السيد خليل بوشكار ورئيس جمعية مساعدة البوسنة الخيرية من مدينة شيكاغو ، في الولايات المتحدة الأمريكية .

إن هذا الرجل الطيب حفظه الله فهم وضعي جيداً ، فقام بمساعدتي مادياً ومعنوياً عندما كنت مضطراً إلى ذلك .

* * *

● الشهادة الثالثة :

من خلال زيارتي لمدينة لوكوفاتس القريبة من توزلا ، تعرفت على المعتقل السابق « ج . ج » المولود عام ١٩٥١ بمدينة دوبوي ، الرجل الذي قُدِّر له أن يلجأ إلى هذه المدينة بعد تعرضه للتعذيب والضرب في مدينة دوبوي « مقبرة الأبرياء » .

كانت تكفيني نظرة واحدة إلى هذا الرجل لأعرف كيف عانى كثيراً في المعتقل . بالرغم من أنه كان شاباً إلا أنه كان يمشي منحنياً ، بينما كانت أفكاره مشتتة مثله مثل الآخرين الذين عانوا في حياتهم بلاء هذه الدنيا في هذه الحرب . من خلال حواري معه لاحظت على وجهه آثار آلام عميقة وابتسامة محفوفة بالحزن مما كان يجعله يشبه الشبح العجوز ، الوجه الذي يعبر عن آلامه وآلام شعبه البريء . كانت حركاته في كثير من الأحيان غريبة ولا إرادية كأنه يدفع أشياء غريبة قريبة منه ، يدافع عن نفسه ضد الخنجر الصربي الذي يهدده ويطرد عنه النوم ، الخنجر الذي ذبح ولده وهدم حياته وترك آثاراً لا تُمحى من ذاكرته .

بدأ صمته الكثير أثناء قصِّه تجربته كأنه يعاني مرة أخرى مما عاناه من قبل ، كانت قصته تعبر عن الفزع والرعب السائد حينئذ بمدينة دوبوي . كانت قصته قصة كل يوم في دوبوي .

عندما كان يتكلم عن أشد لحظات حياته صعوبة كان ما زال متأثراً بها ، إذ كان يقطع حديثه ويحدق في شيء بعيد غير محدد ، بينما كانت عيناه مُغرَوْرَقتين بالدموع ، وبعد كل سؤال مطروح عليه كان يصمت صمتاً طويلاً كأنه يفكر بأي شيء يجيب به عن هذه الأشياء الماضية التي غيرت حياته كما غيرت حياة الكثيرين غيره ، لقد قال : « كنت أشتغل بإحدى المدارس الإبتدائية بدوبوي ، حيث كنت أعيش حياة هادئة وناجحة ، كنت أحاول أن أوفر لأسرتي حياة مستقرة هادئة ، وبمجرد نشوب الحرب فصلوا زوجتي من عملها ، بينما قاموا باعتقالي وبالتالي انفصالي عن الأسرة وذهبوا بي إلى معسكر الاعتقال » .

كان ذلك بتاريخ ٣ مايو ١٩٩٢ ، كان بمدينة دوبوي نفسها عدة معسكرات للاعتقال ، كانت قد أُعِدَّت من قبل في نفس الأماكن التي كنا يوماً ما نتناول فيها وجبات الغذاء ونجتمع ونتحدث عن الحياة المشتركة بسلام وعن الأيام الأفضل التي ننتظرها بالمستقبل .

هذه المعتقلات كانت في « نادي بيريتشين والمخزن العسكري وشيفرليه والهناجر » ، وأنا كنت معتقلاً في هذا المعسكر الأخير ، وإلى جانب هذه الأماكن كانت هناك معتقلات في أماكن أخرى معروفة وغير معروفة ، وفي أماكن لم يطرأ على بالي في يوم من الأيام أن تكون معتقلات لنا .

وبعد أن اعتقلوني اقتادوني إلى الهنجر ، معسكر الاعتقال الخاص بالمسلمين. وهناك مع جيراني المسلمين تحملنا العذاب والفزع والرعب المخيف، إذ بينما كنت في المعتقل كنت أتلقى في الغالب معلومات كاذبة عن زوجتي وأولادي في حين إني لم أستطع أن أفرق بين الكذب والحقيقة .

كنت في لحظات الضعف أفكر كثيراً في الانتحار ، أن أنهي حياتي لينتهي كل هذا التعذيب إلى الأبد ، لكن كان هناك شيء من الأمل في أعماق نفسي كان يوقظني في تلك اللحظات الحرجة ، كما كان إيماني بالله ينبهني بأن هناك

ربّاً سينقذني ، إن أسوأ الأخبار تلك التي كنت أسمعها من المعتقلين الجدد الذي كانوا يصلون إلى المعسكر يومياً ، بأن بعض زملائي من المسلمين قد اعتنقوا المسيحية لإنقاذ حياتهم وحياة أفراد أسرهم .

إنني اليوم أحمد الله كثيراً لأنني لم أستسلم لمثل تلك الابتلاءات ، إن الذين قاموا بتعذيبنا كانوا جيراننا الذين كانوا يوماً ما يقسمون بكرامتهم لاستعدادهم للعيش السلمي المشترك معنا نحن المسلمين . إنهم الآن يقومون بالذبح والاغتصاب والقتل الجماعي لشعبنا المسلم ، وذلك بأبشع الطرق حيث أنهم كانوا مع رؤسائهم الذين أتوا من صربيا يتمتعون في فرض الإرهاب والتعذيب وسلطاتهم الشريرة علينا نحن المسلمين . كان عدد المعتقلين في الهنجر حوالي ٤٥٠٠ شخص ، وكان هذا العدد يزيد وينقص تبعاً لرغبتهم .

كانوا يعدون حفلات الشرب كل ليلة بينما كان المعتقلون خلالها يختفون فجأة ، كنت أسمع أنيناً وصيحات وصرخات الاستغاثة الصادرة من المعتقلين المعذبين الذين كنت أنا منهم في كثير من الأحيان . عندما كنت أعود من الأماكن المخصصة للتعذيب ، كان على جسمي دائماً آثار الدم النازف وجروح كانت تؤلمني كثيراً ، لكنهم مهما عذبونا كنا نزداد قوة وصلابة .

في تلك اللحظات انعكست على وجهي علامات الاعتزاز لكوني مثابراً على الصراع الجسدي والمعنوي ضد عصابات الجتنيك في أسوأ أيام إقامتي بالمعسكر .

لم ألتق بأسرتي إلا في يوم ١٠ سبتمبر ١٩٩٢ ، اليوم الذي خرجت فيه من الاعتقال ، أي بعد أربعة أشهر من اعتقالي .

بالرغم من أن الله استجاب لدعواتي بأن أخرج حراً من المعتقل ، أدركت أني كنت على خطأ أثناء فترة اعتقالي ، إذ خروجي من معسكر الاعتقال كان بمثابة دخولي في معسكر أكبر منه وهو « معسكر مدينة دوبوي » .

عندما خرجت من المعتقل علمت أن الجتنيك قد قتلوا عمتي « محرَّمة »

وزوجها « كاظم عليتشيتش » حرقاً بالنار بينما قتلوا ابنهما « دينو » مطلقين الرصاص في فمه بدون أي سبب سوى أنه مسلم . إن مواجهتي بهذا الواقع لم يكن كربي الوحيد بعد إطلاق سراحي المزعوم ، فقد كنت أسمع كل يوم صيحات النساء ونداءات الرجال اليائسة أثناء اعتقالهم والذهاب بهم إلى نفس المعسكر الذي كنت أنا فيه من قبل . عندما سألته عن سوء المعاملة ، لم يرد على سؤالي فوراً ، إنما بقي صامتاً مدة طويلة ، كان يحدق في يديه اللتين كان يشدهما بقوة بينما كانت تجاعيد وجهه تبرز أكثر وأكثر ، كان يرتجف بعض اللحظات ويغمض عينيه فعرفت أنه يستعد للكلام عن شيء أليم عانى منه في لحظة من لحظات حياته ، ثم قال :

بعد فترة وجيزة ذهبوا بي من جديد إلى فرع من فروع وزارة الداخلية في دوبوي وبنفس حوار المرة السابقة ، وبمجرد دخولي إلى مركز الشرطة بدأ سوء المعاملة معي دون أن يسألني أحد عن خطئي أو مخالفتي للقانون مما ترتب عليه هذه المعاملة السيئة ، لكني كنت أعلم خطئي جيداً ، فخطئي الوحيد إني ولدت مسلماً وإني أصلي لله تعالى وحده وأعتز به .

بدأ الأمر يتكرر من جديد وبنفس الأسلوب والطريقة ، الضرب بعقب البندقية وبأدوات يدوية أخرى قد اعتادوا استعمالها لذلك الغرض ، مثل الألواح الخشبية والمجارف والرفشات والبلطات ، إلا أن أصعب التعذيب بالنسبة لي كان الضرب الشديد بالهراوة . ولجعل التعذيب أكثر صعوبة وإهانة كانت تقوم به إحدى النساء التي نعرفها جميعاً جيداً ، إذ كانت إحدى زميلاتنا بالعمل ، كانت تمد عذاب الناس لأطول فترة ممكنة في الوقت الذي يطلبون هم فيه من الله أن يميتهم ، إذ كانت تجعل عذابها مؤلماً لأقصى درجة ، بينما زملاؤها الجتنيك يشاهدون ذلك وهم غارقون في الضحك ويتمتعون بمنظرها الوحشي ، كنت أسبح في دمي النازف ، وخائراً من آلامي الشديدة، كان يغمى عليّ أحياناً فكانوا يوقظوني بصب الماء على رأسي لكي يعذبوني

من جديد ، وهذا ما يستطيع أن يؤكده ٥٠٠ معتقل غيري من الذين أصابهم نفس المصير .

سمحوا لي بالذهاب إلى بيتي وأنا غارق في دمائي النازفة ، لم أقدر على رؤية أي شيء ، كنت أترنح من شدة الألم والإرهاق خلال الأزقة الضيقة ، حتى اليوم لا أدري كيف وصلت إلى البيت ، عندما وصلت وجدت في البيت أختي وزميلتها مع أولادهن (لأن الصرب قد طردوهم من بيوتهن) ، وكانتا في انتظار عودتي .

لم يمض على دخولي البيت ضعيفاً منهاراً في عداد الموتى سوى لحظات قصار حتى سمعنا طرقات الجتنيك على باب البيت ، يبدو أني أسمع حتى الآن تلك الطرقات الحادة التي قتلت أختي بأبشع طريقة ، ولأول وهلة بدا لي كأنهم قد تبعوني وأنا في طريق عودتي إلى البيت ، بمجرد اقتحامهم البيت أمروني بالوقوف بجانب الحائط بينما كان أحدهم يمسك بأختي ويجرها. وبعد قليل رأيت منظراً اقشعر واشمئز منه حتى اليوم ، إنهم كانوا يغتصبون أختي التي كانت تصيح وتصرخ بسبب الفضيحة ، بينما كنت أنا وأولادي مجبرين على النظر إليها ، أمسك أحد أبنائي بيدي بقوة وتشنج ، إنها توفيت بعد ذلك من الآلام الشديدة ، إنهم هدموا حياة امرأة أمام مرأى من أمها التي اغتصبوها هي الأخرى أمام أعيننا جميعاً ، كانت أمي تصيح من الألم والإهانة الكبيرة بينما كنت أشعر بأني أموت من الخزى والإهانة والضعف ناظراً إليها كيف كانت تقتلع شعرها وتتلوى على أرضية الغرفة ، بعد مضي أيام على ذلك الحادث فقدت ابني .

تلك اللحظات التي أرتجف منها كلما أتذكرها حتى اليوم ، والتي تسيل عيوني دموعاً بسببها لا يمكن أن تنسى حتى الموت .

بموت ابني عدنان فقدت جزءاً مني ، ترك موته في نفسي جرحاً لا يلتئم أبداً ، إنما ينزف يومياً بدون انقطاع ، كنت أفكر بأن أخرج من البيت وأمسك

بأول ولد صربي ألتقي به وأقوم بخنقه أو قتله أو ذبحه ، لكنني في نفس الوقت أفكر أن الأولاد الأبرياء ليسوا مسئولين عن ذلك كله ، وإن ابني عدنان راح كضحية بريئة وروح طاهرة . كنت أدعو الله دائماً بدعواتي الخافتة المخلصة أن لا يترك هذا الظلم يمضي دون عقاب وأن يحكم على كل الناس حسب عملهم وأن يحشرنا يوم القيامة جميعاً حيث يؤتى كل نفس حقها ، وبعد قتل ابني سمحوا لي بدفنه مع مجموعة من أقاربي المقربين .

استلمت ابني من المستشفى الذي توفي فيه ، بحيث لم يسمح لنا بالكشف إلا عن رأسه فقط مما يدل بأنه توفي متأثراً من الضرب والتعذيب وليس نتيجة إصابته برصاصة بندقية كما زعموا ، وعندي أدلة قاطعة على ذلك ، لأنهم أخذوا مع ابني عدنان عدداً آخر من الغلمان المسلمين الذين لم يعودوا أيضاً ، تمت جنازته ودفنه بحضور اثنين من الصرب الجتنيك اللذين كانا يصوبان بنادقهما نحونا منتظرين أن ننتهي من المراسم في أسرع وقت ممكن . منَّ الله علينا بالصبر والقوة في تلك اللحظات وتحملنا آلامنا أمام الصرب القتلة بحيث لم يكن هناك أي بكاء أو دموع من أجل حرمانهم من التمتع بآلامنا وأحزاننا . لم يسمحوا لنا بأن نودع ابني على الطريقة الإسلامية ، ولا أن نصلي صلاة الجنازة ، لكنا قرأنا الفاتحة سراً وقلنا في أنفسنا : « يا بني ، إننا كنا نعتز بك في حياتك والآن يؤلمنا فراقك ، نرجو أن نلقاك في جنات عدن فاتحاً يديك ومبتسماً في طريقك لاحتضاننا » .

كلما كنت أمرّ بالقرب من المقبرة فيما بعد ، وذلك في المناسبات النادرة ، كانت ترتجف رجلاي وعيناي تبكيان ، كنت أذكر ابني أيام طفولته حين كنت أحتضنه وأدلله وأمشط شعره بأصابعي وأكلمه بأنه سيحل محلي عندما يكبر ، إنه يرقد الآن في قبره بينما قتلته المجرمون الصرب يتمتعون بالحرية . لمت نفسي فترة من الزمن لموته ، إلا أني فيما بعد علمت أنه ما يجب عليَّ فقط سوى أن أدعو الله عَزَّ وجَلَّ ليرحمه ويرحمنا ، وأن أفعل كل شيء ليحق الحق .

لم نجرؤ أن نحكي لابني الصغير عما حدث لأخيه الكبير ، عندما كانت تحدث بعض الأشياء البسيطة التي تذكرنا به كنا نولي وجوهنا إلي الناحية الأخرى لكي لا يرى دموعنا وعيوننا الباكية ، أو نذهب إلى غرفة أخرى . ومرة بينما كنا نخفي عنه دموعنا وعيوننا الباكية المليئة بالدموع اقترب مني ابني الصغير « دامير » ، عانقني وأسند رأسه على كتفي قائلاً : « يا أبي إن أخي لن يعود أبداً » ؟

لم أستطع بعد ذلك أن أخفي عليه حقيقة أخيه ، وإنما بكيت أمامه وأخذت أعانقه وكان ذلك جوابي على أسئلته ، كانت زوجتي ترتجف ارتجافاً شديداً وتشد على يديها بقوة . رفع رأسه ونظر إليّ وكانت عيناه تعبران عن آلامه الشديدة التي عانى منها كثيراً ، لم أقدر على النظر إلى عينيه الحزينتين فقد كانت نظراته مثل نظرات الرجل البائس .

اقترحت عليه أن يستريح ولكنه أشار إليّ برأسه قائلاً : « إن العالم يجب أن يعلم هذه الحقائق » . إن الإرهاب ضد المسلمين مضى قدماً ، قاموا أولاً بفرض العمل الإجباري علينا نحن المسلمين ، مثلاً ، كنت مضطراً للعمل في مصنع لإنتاج العصير « دوبويكا » حيث كنت أشتغل مع ١٥ زميل لي في قسم إنتاج « الخمر » ، كان الصرب يحضرون يومياً طالبين تزويدهم بهذا المشروب الكحولي ، إذا قلت : إن ذلك محرم علينا ، كانوا يضربوننا جميعاً ، وإذا أعطيناهم ضربونا أيضاً لأننا ارتكبنا الممنوع ، انتابنا الخوف الكبير عندما علمنا أن الصرب فرضوا العمل الإجباري على نسائنا ، **كان عمل النساء يشمل جمع العلف وتربية المواشي وحلب البقر وجمع البرقوق وغسله وأعمال الحراثة والنساء الملزمات بأعمال الحراثة ، كان عليهن أن يقمن بذلك بدون ملابس عليهن بالمرة ، أي عاريات تماماً ، وفي حالة الرفض كنّ يغتصَبْنَ حالاً، وأمام الناس جميعاً ، إلا أن كثيرات قد اغتصبن بدون تلك الحجة السخيفة لا لشيء إلا لأنهن مسلمات . كان موكب ذهابهن إلى الحقول والعودة منه على هذه الشاكلة من العري إهانة كبرى عندما يحين موعد المساء.** إني أشد على يدي

بقوة عندما أتذكر تلك المناظر المهينة . إن المرأة المسلمة «طيبة » فقدت حياتها لكي لا تكون مغتصبة ، عندما دافعت عن عرضها وكرامتها ضربها الصربي بالوتد حتى الموت أمام أعين الناس ، إنهم قتلوا الصبي « آدس » الذي كان عمره ١٥ سنة لأنه أنذر أمه قائلاً : « اهربي يا أمي، إن الجتنيك قادمون ، إنهم يريدون خطفك والذهاب بك » . إن أمثال «طيبة وآدس » كثيرة جداً . كان لي زميل اسمه نارمين أطلقوا سراحه من المعتقل ليخدم لدى أحد الجتنيك كصانع للأحذية ، وفي يوم من الأيام حضر إليه واحد من الجتنيك لكي يصلح له حذاءه ، وعندما عرف بأنه مسلم ، قام هذا بقتله مطلقاً رصاص الكلاشينكوف على صدره ، قتل ذلك الرجل البريء. وأصبح القتل اليومي بهذه الطريقة لا مفر منه في دوبوي ، حاولت بأي طريقة أن أجد منفذاً لإنقاذ أسرتي وإخراجها من المدينة ، إلا أن المدينة كانت كلها محاصرة حصاراً مشدداً من كل الجهات ، وفيما بعد سمعت أنه ليس هناك مكان للمسلمين في دوبوي لأنها ستطهر « تطهيراً عرقياً » ، وامتياز البقاء سيقتصر فقط على المسلمين المتنصرين .

قررت أن أطلب مساعدة منظمة الصليب الأحمر ، لأنها كانت تنظم قافلة المهاجرين إلي هنغاريا ، عندما اقترب موعد المغادرة ، كان هناك شيء يسد حلقي ويخنقني ، كنت أرتجف لترك بيتي ووالدي وإخواني وأقاربي وممتلكاتي، لكن الهجرة إلى هنغاريا كانت خدعة بحتة ، أخذوا نقودنا بحجة أنها لمصاريف السفر ، وأوقفوا القافلة عند بيلينا حيث أدرجوا أسماءنا في قائمة «استبدال الأسرى » ، لم يطرأ ببالي قط أن أترك بيتي وأن أعيش مشرداً وغير مستقر ، أصبحت وحدي بدون أقاربي وزملائي ، لا أريد أن أقول أن الحياة هنا سيئة ، لي هنا الآن أصدقاء ، الناس هنا يعانون من الجوع ويخافون على أولادهم وأقاربهم ، تُعتبر حياتي هنا في مدينة لوكاڤاتس مؤقتة فقط ، لأني آمل أن أعود يوماً إلى بيتي ومسقط رأسي . تركت هذه الحرب جروحها العميقة في نفسي وروحي ، جروحاً لن تلتئم أبداً .

إنني متأكد حتى ولو انتهت الحرب قريباً ، فإنني سوف أسهر ليالي كثيرة واستيقظ بعرق بارد على جبيني وأصرخ ، عندما أمر أحياناً خلال المدينة وأسمع الأم الحنون تنادي أولادها ، أتذكر ابني الميت ، إن حبِّي كان موزعاً بالتساوي بين ولديَّ ، إنهم قتلوا ابني الكبير لأنه مسلم ، إنهم عذبوني لأني مسلم ، إنهم قتلوا أمي لأنها مسلمة ، إنهما اغتصبوا أختي وقتلوها لأنها مسلمة ، حاول الصرب اجتثاث جذور المسلمين لكنهم لم ينجحوا ولن ينجحوا في عملهم الشرير هذا أبداً . إنهم يريدون بالقضاء علينا أن يقضوا على الإسلام ، لكن لن يستطيع أحد القضاء على دين الله الحنيف أبداً . كان إيماني بالله قوياً من قبل ولكنه اليوم أقوى وأمتن .

رفع صاحبنا رأسه وابتسم عند الوداع ومد يده ليصافحني قائلاً :

« أرجو أن تصل قصتي هذه إلى الناس الطيبين جميعاً وأن يتعرفوا على الحقيقة في البوسنة ، أريد أن يعرف العالم آلام بلدي وأن يطَّلعوا على الظروف هنا ، وأن يعرف العالم بأسره أن الدين الإسلامي الحنيف ما زال يحيي في البوسنة وإننا نعتز به . آمل أنني بعون الله سأعود يوماً ما إلى بيتي وإلى مسقط رأسي ، وإن الله تعالى سيحفظ لي حياتي » .

* * *

● الشهادة الرابعة – معسكر اعتقال دريتيلي :

بينما كنت في جولتي عبر أمريكا الشمالية في إطار نشاطي حول جمع المساعدات لشعب جمهورية البوسنة والهرسك المعذب ، وصلت بتاريخ ١ فبراير ١٩٩٤ إلى مدينة بورتلاند في ولاية أوريجان حيث التقيت بأخي في الإسلام أ . ش ، من مدينة ستولاتس ، شعرت لأول وهلة أن الأمر يتعلق برجل يعرف كثيراً عن المعاناة الشديدة فرجوته التحدث معي ، إنني أترك للقراء الكرام أن يحكموا لأي درجة كانت حقوق المسلمين الأساسية معرضة للخرق ليس من جانب العدو الصربي فقط ، وإنما من العدو الكرواتي أيضاً .

تحدث الأخ أ . ش ، فقال :

إنني سأتحدث عن معاناتي أنا ومعاناة شعبي المسلم خاصة في منطقة الهرسك الغربية خلال السنتين الماضيتين ، نظراً إلى المعاناة والتعذيب الذي تعرضت له ، أرجو من الذين سيقرءون قصتي وكانوا شهوداً على تلك الجرائم أن يسامحوني إذا كنت لم أذكر بعض التفاصيل .

إن مدينة ستولاتس مدينة عريقة ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر، وهي تقع على بعد ٣٠ كم جنوب غرب مدينة موستار ، وتحت منحدرات جبل هرغود وعلى منبع نهر بريغافا ، اسمها وحده يدل على أنها كانت في الماضي عاصمة الهرسك ، وادي نهر بريغافا الخصيب من جهتها الشرقية ووادي نهر نيريتفا من جهتها الغربية جعلا هذه المنطقة عرضة للمحتلين الأجانب منذ زمن بعيد .

كانت مدينة ستولاتس مقر الإقامة للباشوات الأتراك الذين حكموا ولاية الهرسك ، وآخرهم كان علي باشا رضوان بيغوفيتش ، كانت الجيوش الكثيرة تمر خلال مدينة يتولاتس في تاريخها القديم بهدف احتلالها إلا أن المدينة بالرغم من الأهوال الحربية احتفظت بشكلها كمدينة قديمة ذات طابع شرقي من حيث أسوارها وأبراجها ومناراتها الرقيقة البارزة لمساجد المدينة .

ومهما كانت الحروب قاسية في الماضي ومهما كان المحتلون غلاظ القلوب إلا أن أحداً منهم لم يقم بهدم روائع المدينة ، روائع الإبداع الإنساني ، تلك العمارات العريقة منذ العهد المعماري الإسلامي الأصيل ، لم أكن لأصدق قط أن الأشباح من جيلي سوف يتجرءون على مثل هذه الجرائم ، لكن للأسف حدث هذا ، حدث أن رفع المجرمون أيديهم ضد مدينة ستولاتس وهدموها .

بدأ ذلك بتاريخ ١١ أبريل لعام ١٩٩٢ ، عندما قامت عصابات الصرب والجبل الأسود باحتلال وادي بريغافا ووادي نيريتفا ، وبدأ طرد المسلمين من

أراضيهم وبيوتهم من دائرة بلدية ستولاتس ، كانت ممتلكاتهم تغتصب وتسلب ثم تحرق بيوتهم بينما كان يتم نقل المسلمين إلى معسكر الاعتقال الشرير بمدينة بيليتشا ، كان الناس يهربون طالبين النجاة من الصرب عبر نهر نيريتفا نحو مدينتي تشابلينا وليوبوشكي حيث يستعد المسلمون والكروات للهجوم المضاد وطرد عصابات الجتنيك من أرضهم المحتلة . وفي ١٤ يونيو قام المسلمون والكروات جنباً إلى جنب بهجوم مضاد ضد الصرب حيث نجحوا في تحرير بلدتي ستولاتس وتشابلينا وطرد عصابات الصرب المحتلة إلى هضاب جبل هرغود . وبعد هذا النجاح كنا نرابط في الخط الأول للجبهة مع الكروات ضد الصرب لمدة سنة تقريباً حيث كنا نحن المسلمين كأغلبية والكروات في نفس الخنادق والمعاقل مستعدين دائماً لرد أي هجوم يقوم به السفاحون الصرب من أي جهة أخرى لجبهة القتال .

استمر هذا الوضع إلي أن جاء شهر أبريل عام ١٩٩٣ عندما فصل المسلمون من عملهم وبدأت الشرطة الكرواتية باعتقال المسلمين البارزين ، الأمر الذي كانت تبرره السلطات الكرواتية بعدم ولائهم لحكومة الكيان المسمى بـ « هرسك بوسنة » ، ورئيسها بوبان . كان الخوف والارتياب ينتابان السكان المسلمين في حين كانت القوات العسكرية الكرواتية القوية قد تمركزت في القرى المسلمة الواقعة في منطقة دوبرافا على مقربة من مدينة ستولاتس ، تكررت أحداث عام ١٩٩٢ ثانية بحيث تمت محاصرة منطقة بلدتي ستولاتس وتشابلينا ، لكن هذه المرة من جانب القوات المسلحة الكرواتية منع المسلمون من مغادرة المنطقة إلى أي اتجاه ، انتظر المسلمون حدوث شيء رهيب لهم وهو ما حدث فعلاً . في أواخر شهر يونيو بدأت الاعتقالات الجماعية للمسلمين في حين كانت جميع القرى المسلمة محاصرة حصاراً تاماً من جميع الجهات من قِبَل الجيش الكرواتي . بدأت عصابات السكارى الجامحين المكونة في أغلب الأحيان من الكروات المحليين عملياتها الدامية .

كانت المساجد الهدف الأول لهجومهم حيث كانت تهدم الواحد تلو الآخر

عن طريق العبوات الناسفة شديدة الانفجار ، في مدينة ستولاتس وحدها نسفت أربعة مساجد وفي منطقة بلدتي ستولاتس وتشابلينا تم نسف وهدم ١٨ مسجداً ، هدف العدو هنا واضح وضوح النهار وهو هدم وحرق وإزالة كل معالم المسلمين وروح التراث للحضارة الإسلامية العريقة التي كانت لها طابع غالب في هذه المنطقة على مدى قرون طويلة .

كانت عصابات « الأوستاش » أي المتمردين المسلحين تقتحم بيوت المسلمين وتغتصب بناتها وتسلب ممتلكاتهم وتحرق بيوتهم بيتاً بيتاً ، وقرية قرية حول مدينة ستولاتس ، كانوا يزجون بالنساء والأطفال معتدين عليهم بالضرب أثناء إدخالهم المدرسة الابتدائية في قرية غلادينيتش . بينما كانوا يأخذون الشباب من ١٢ إلى ١٨ سنة إلى مستشفى أمراض العظام حيث قاموا بتعذيبهم . اقتادونا نحن الخمسة : « جمال سليميتش ، إبراهيم هوجيتش ، سيريڤان سليميتش ، جعفر حيداروڤيتش وأنا » إلى مستشفى العظام بستولاتس حيث تعرفت على جيراني الكروات الذين عذبونا وكان من بينهم: « آنتي كريسيتش، درغان كريسيتش ، إيليا ماركوڤيتش ، بيتار كوكوريك ، وشخص لقبه ماتيتش» ، لا أذكر اسمه لكن اسمه المستعار كان « تشيلو » .

بدأ التعذيب والضرب بمجرد أن شحنونا في الناقلات ، حيث كانوا يضربوننا بأعقاب البنادق ويسبون أمهاتنا ، وعندما وصلنا إلى مبنى المستشفى أخرجونا من الشاحنة وألقوا بنا على طريق أحد المباني ، ثم زجّوا بنا في ممر المبنى ، كان على الممرات آثار دماء من قبلنا لم تجف بعد .

كنا نسمع صيحات المعذبين من جميع الجهات بينما كنت أشاهد في نهاية الممر فيهم جوليتش وأحد أقاربه وهما في أنفاسهما الأخيرة من أثر الضرب والتعذيب حيث ماتا بعد قليل، كانوا يضربوننا بكل ما كان في متناول أيديهم، بهراواتهم ومقابض المجارف والأحذية العسكرية والحبال المطاطية . لا أذكر المدة التي كنت فيها واعياً ، أذكر فقط أنني كنت أفيق من الإغماء عندما

يصبون الماء على رأسي ثم يستمرون في ضربي ، اخترعوا طريقة خاصة للتعذيب وهي « الكرسي الكهربائي » وضعوني على الكرسي وشدّوا يدي ورجلي برباط سلكي ، وبعد ذلك وصلوا الكهرباء في الأسلاك ، أغمي عليَّ إثر ذلك ، عندئذٍ صبوا عليَّ ماء من جديد لكي أفيق ولكي يكرروا نفس الشيء من جديد ، لا أذكر بالتحديد كم مرة أغمي عليَّ في هذا اليوم ، لكني متأكد أن ذلك حدث عدة مرات .

في اليوم التالي ألقوا بنا على متن الشاحنة ونحن أجساد شبه موتى ، ونقلونا إلى معسكر اعتقال دريتيلي الشرير الذي يبعد عن مدينة تشابلينا ٢ كم، حيث زجّوا بنا في المستودع رقم ٣ الذي كان أمامه مهبط مُعبَّد بالأسفلت ، وهذا المهبط أيضاً كان يستعمل لتعذيب المسلمين ، كنت شبه عارٍ من الملابس التي تمزقت من التعذيب ، بمجرد دخولي المستودع أغمي عليَّ مرة أخرى ، عندما أفقت رأيت الناس حولي يصبون الماء عليَّ ، إنهم المسلمون المعتقلون من قِبَل الكروات أيضاً ، ناولني رجل منهم اسمه يوغو سرواله وفانلته لكي ألبسهما ، إنني لم أذق شيئاً هناك أيام كاملة سوى بضع جرعات من الماء الذي كان متوفراً .

كانوا يقومون في كل ليلة بإخراج المعتقلين من المستودع إلى المهبط ويضربونهم حتى الموت ، كنت أسمع صيحات يائسة ، في صباح كل يوم كانت تأتي سيارة الماء ليغسلوا المهبط من الدم ، لم يزودونا بأي طعام لمدة ٨٠ ساعة كاملة ، كانت الحرارة داخل المستودع المبني من صفائح معدنية مرتفعة جداً حيث كان على مساحة ٢٥٠ متراً مربعاً حوالي ٥٠٠ معتقل ، وكانت جميع الأبواب والنوافذ مغلقة .

وخلال نصف ساعة فقط وفي اليوم الثالث من اعتقالي أغمي على أكثر من ١٠٠ معتقل ، ولم يفتحوا باب المستودع إلا بعد هذا الحادث الرهيب ، حيث بدأ المعتقلون الذين بقوا في وعيهم بإخراج المغمى عليهم إلى المهبط ، كان

المنظر رهيباً حيث كان مئات الناس المغمى عليهم يستلقون على المهبط مثل الأسماك الخارجة من الماء ، أحضروا ثانية صهريج الماء وبدءوا يصبون عليهم الماء ، وبمجرد أن أفاقوا من إغمائهم وضعوهم قبالة الحائط رافعين أيديهم وأخذوا يضربونهم حتى الموت . كنت أنظر إلى ذلك المنظر الرهيب خلال الباب النصف مفتوح ، كانوا يعذبون ويقتلون مسلماً اسمه « أمير ريباك » ، لقد تعرفت على قائد هذه المجموعة المناوبة التي قامت بتعذيب المعتقلين ، وكان بينهم أقرب جيراني الكروات « إيفان باليميت ، إيفيتسا كراليفيتش ، كريشورايتش » .

أما الطعام فقد كانوا يعطوننا شريحة من الخبز رقيقة وبضع ملاعق من الحساء يومياً ، بعد ١٥ يوماً من إقامتنا في المستودع نقلونا إلى مكان آخر ، إلى نفق تحت الأرض حيث كان يستعمل في الماضي كمستودع للبنزين ، لم تكن هناك أي نوافذ أو فتحات للتهوية كانت الأبواب مغلقة دائماً ، كنا نختنق بسبب نقص الهواء للتنفس ، لم تكن هناك دورة مياه بل كنا نقضي حاجتنا في ركن المستودع في حين كانوا يوزعون علينا نحن الـ ٥٠٠ معتقل ثلاثين لتراً من ماء الشرب يومياً ، كان صعباً علينا الوصول إلى قدر الطعام التي كانت تبعد عنا ٤٠ - ٤٥ متراً ، فكنا نساعد بعضنا البعض للوصول إليها ، كنا مضطرين جميعاً أن ننهي غداءنا في مدة ١٥ دقيقة ، كان في معتقل دريتيلي حوالي ٢٥٠٠ شخص ، كنا جميعاً نأكل من ٣٣ طبقاً لم يغسل بالماء قط . كان الليل أصعب الأوقات من حيث التعذيب ، لأن الكروات كانوا يأتون بالليل ويُخرجون الناس إلى الخارج (إذا كنا ما زلنا نشبه الإنسان في أي شيء فقد أصبحنا هياكل عظمية) ويضربونهم أمام النفق ويلقون بأجسام الذين بقوا على قيد الحياة داخل النفق مثلما تلقى الأكياس .

كنا نحتفظ بقليل من ماء الشرب لنرطب به قطع من الملابس لنضعها على الجروح النازفة بعد التعذيب كضمادات ، كنا جميعاً نعاني من القتل الكثير ومن الجرب ، كان بعض المتمردين الأوستاشا قد اعتادوا أن يطلقوا علينا

رصاصات متفجرة من أسلحتهم بالليل خلال باب النفق ويجرحون بعضنا ، مما اضطررنا أن نستخرج لبعضنا شظايا الرصاص المتفجر من أجسامهم في الصباح .

في الخامس من سبتمبر أخرجونا من النفق عراة تماماً حيث كانت سيارة صهريج الماء قد وصلت أمام النفق وأخذوا يصبون علينا الماء البارد وذلك في مجموعات مكوَّنة من خمسين خمسين ، وفي هذه المرة سمحوا لنا بالذهاب إلى دورة المياه المقامة على عجلة من أمرهم مما يوحى بأن شيئاً ما سيحدث .

في اليوم التالي وهو ٦ سبتمبر وصل إلى معسكر الاعتقال ممثلو منظمة الصليب الأحمر الدولي وعندما وصلوا إلى مدخل النفق رأينا ملامح الاستغراب على وجوههم وهم يضعون مناديلهم على أنوفهم لأنه كانت تصدر من الداخل روائح كريهة لا تطاق ، وقبل حضور ممثلي الصليب الأحمر قاموا بنقل الذين لم يبلغوا سن الرشد والشيوخ وخمسة من أئمة مساجد ستولاتس إلى مستودعات بالقرب من مدينة تشابلينا وبالتحديد في مصنع البسكويت «لاستا » حيث مكثوا يومين ثم أعادوهم إلى معسكرنا مرة أخرى .

قام ممثلو الصليب الأحمر بتسجيل أسماء من بقي على قيد الحياة وبتسجيل وزننا وطولنا . عندما وقفت على الميزان رأيت إني نقصت ٢٢ كيلوجراماً من وزني خلال أربعين يوماً في المعتقل .

في يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣ وصلت الحافلات إلى ساحة معسكر الاعتقال دريتيلي ، حيث قاموا باختيار ٥٢٠ شخصاً من بين ٢٥٠٠ . كانت المقاييس المطبقة للاختيار فقدان أكثر من ٢٠ ك . ج من الوزن الأساسي ، قالوا : إنهم سيأخذوننا للاستجمام ، ركبنا الحافلات ونحن هياكل عظمية وشبه موتى ، وعندما كانت الحافلات تغادر المعتقل قام الكروات من تشابلينا بإعداد وداعنا عن طريق نصب حواجز الطرق ، فكنا نضطر للانتظار ساعات من الوقت ، كانوا أثناءها يرشقوننا بالحجارة ويرشقون الحافلات ويكسرون

الزجاج ، بينما كنا نستلقي على أرضية الحافلات ، لم يكتفوا بتعذيبنا في المعتقل بل يريدون هلاكنا نهائياً . وفي تلك الليلة بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣ وصلت بنا الحافلات إلى جزيرة بورديا على مقربة من كورتشولا حيث نزلنا في أحد الفنادق للاستجمام ، يا لها من سخافة ، أولاً جعلونا أجسادا شبه موتى لا تقدر على المشي والآن جاءوا بنا إلى دولة الكروات لنستجم ، وهناك علمت أن النساء والأطفال من ستولاتس وتشابلينا قد نفوهم إلى موستار ويابلانيتسا ، وبذلك أصبحت مدينة ستولاتس وتشابلينا حيث كان يعيش ٢٠ ألف مسلم أصبحتا الآن مطهرتين عرقياً ، في حين تم هدم ونسف جميع المساجد وحرق كل بيت من بيوت المسلمين .

في البداية أخبرونا بأنهم سيعيدوننا إلى موستار ويبلانيتسا لكنهم أخبرونا بعد ذلك بأننا يمكننا السفر فقط إلى الدول الأخرى ، لا يمكنني وصف الشعور عندما يمنع الأب من الالتقاء بابنه وألا يلتقي الابن مع أمه أو الأخ مع أخته ولا تفصلهما سوى مسافة ١٠٠ كيلومتر فقط .

إن مشاهد وصول الحافلات لتنقلنا إلى المطار ومن هناك إلى دول العالم طولاً وعرضاً كانت مؤثرة للغاية ، كانت عيوننا مليئة بالدموع وعلى شفاهنا كلمات الوداع المعتادة : « ربما نلتقي يوماً من جديد » .

قربت بيننا أيام التعذيب لدرجة كبيرة ، أنا الآن بأمريكا للعلاج بعدما تبين للأطباء بأن لدي ستة ضلوع مكسورة ولم تلتئم بعد ، كما اكتشفوا بأن كليتي تعرضتا للضرر وصدري مشوه وعظام رأسي منشقة ، إنني أشعر بآلام شديدة في كل جسمي ، ولياليَّ صعبة للغاية حيث توقظني الآلام الفظيعة بعد أن تنتهي فاعلية المسكنات التي أتناولها ، إنني أُستقبلت هنا في أمريكا استقبالاً حاراً ووديا .

إن المسلمين هنا يشاركوني آلامي وعذابي ، لقد كنت أعلم أن للمسلمين قلباً كبيراً ولكن قلب وروح السيد خليل بوشكار نادران ، فقد أسرع لرؤيتي

وزيارتي ، فإن أنفع الدواء في الغربة بعيداً عن الأهل هي الكلمة الحلوة الطيبة. لقد ذهبت معه إلى المساجد لأتعرف على المسلمين من جميع قارات العالم والذين يتضامنون مع مسلمي البوسنة والهرسك ، حيث لا يشعر الإنسان بأنه وحده .

* * *

● الشهادة الخامسة - الرعب والفزع من معسكرات الاعتقال الجتنيكية :

قص عليَّ الرائد (م) من بربيدور قصته التالية :

في ٢٦ مايوعام ١٩٩٢ توجهت مع زوجتي وأولادي من جحيم بلدة كوزاراتس إلى مدينة بربيدور ، فقد كان الناس يغادرون كوزاراتس بشكل جماعي ، بينما كانت البلدة معرضة للقصف المدفعي الصربي المركّز من كافة أنواع الأسلحة المدفعية التي استمرت يومين كاملين بدون انقطاع ، وكان هذا الأمر غير واقعي لنا ، فالأسلحة التي في حوزتنا لا تساعدنا على مقاومة هذا الهجوم بنجاح مدة طويلة .

قام الصرب بإيقاف حشد الناس الهاربين اتجاه بربيدور في مكان يسمى سوشيتشي حيث قامت عصابات الجتنيك بفصل الرجال عن النساء والأطفال ، ومن هناك اقتادوا الشيوخ والنساء والأطفال إلى معتقل ترنوبوليه ، والرجال إلى معتقل بكيراتيرم .

* كيراتيرم :

كيراتيرم عبارة عن مستودع كبير محاط بالأسلاك الشائكة ، مليء بآلاف من أبناء كوزاراتس وأنا ضمنهم ، عندما زجوا بنا في المستودع كنا نجلس على الألواح الخشبية والكرتونات والأرضية الخرسانية كان من بيننا بعض النساء اللاتي اختارهن العدو ، بدءوا مناداتنا واستجوابنا ، قاموا بتوزيعنا في

مجموعات حسب مقاييس معروفة لهم ، بعد إجراء الاستجوابات سمحوا للبعض بالذهاب إلى أقاربهم ، أما الأغلبية فبقيت في المستودعات حيث تعرضوا للتعذيب والضرب .

استجوبني ضابط ذو رتبة مقدم وضابطا الصف واثنان من المدنيين على ما يبدو من « مركز الأمن الصربي » ، استمر الاستجواب طويلاً ٤ - ٥ ساعات، أثناء الاستراحة بين الاستجوابات تعرضت للضرب على أيدي الحراس المجندين أثناء وقوفي في الممر ، قام أحدهم بمسك شعري ووضع رأسي على حائط الممر ، بعد الاستجواب أعادوني إلى المستودع مع الآخرين، حيث مكثنا يومين واقفين أو جالسين على الأرضية الخرسانية .

وفي اليوم التالي نادوا أسماءنا وأدخلونا الحافلات التي نقلتنا إلى مكان مجهول .

*** أومارسكا :**

لم أذق شيئاً من الطعام مدة اليومين السابقين ، حصلت على بضع جرعات من الماء بصعوبة في معتقل كيراتيرم ، كانت الحافلات تسير بنا إلى أومارسكا، وفعلاً وصلنا إلى منجم أومارسكا حيث أدخلونا إلى مبنى إدارة المنجم وقد بلغ عددنا في إحدى القاعدات الواقعة في الدور الأول بضع مئات، كان العدد كبيراً والمساحة صغيرة فلم نستطع الجلوس ، ولذا كنا نتناوب الجلوس ، وفتحنا إحدى النوافذ لنحصل على الهواء . وعندما كنت أنظر خلال النافذة المفتوحة إلى المهبط رأيت اثنين من الجتنيك يقتلون رجلين ، لم أعرف من هما لأن الوقت كان ليلاً والإضاءة خافتة جداً ، سمعت إطلاق النار وأمراً بغلق النافذة، كانت القاعة مزدحمة ونسبة الرطوبة عالية فغرقنا في العرق ، كان أخو زوجتي بجانبي وكنا نتناوب الجلوس معاً وعندما طلبنا الماء لم يحضروه ، لم يسمح لنا بالخروج ولا حتى إلى دورة المياه ، كانت ليلة جهنمية ، كنا

عطاشى وينقصنا الهواء للتنفس والمساحة ضيقة والرطوبة عالية فبدأ بعضنا يسقط مغشياً عليه .

أتى صباح يوم جديد ، فتح الجتنيك باب الغرفة وناولونا بضع زجاجات من الماء وسمحوا لنا بالذهاب إلى دورة المياه ، قضيت يومين في آلام شديدة، في اليوم الثالث فتحوا الباب ونادوني من الممر ، سلّم عليَّ الجميع وعيونهم مغرورقة بالدموع . قال لي أخو زوجتي باكياً : « اصبر يا شيخ » ، بينما قلت له : « اهتم بزوجتي وأولادي » ، كنت أعلم أنهم يأخذونني إما للتحقيق أو للإعدام .

كانت سيارة الشرطة في ساحة المعسكر واقفة وبجانبها مدحت ترافيليانين ، زجوا بنا نحن الاثنين في السيارة قائلين إنهم سيذهبون بنا إلى معتقل « ستارا غراديشكا » ، في الطريق أعطونا قطعة من الخبز ومعجون اللحم المعلب .

عند وصولنا إلى ستارا غراديشكا سلمونا إلى المعسكر العسكري حيث أجرى معنا التحقيق ضابط اسمه المستعار « زيرغا » ، كان يمر بنا مع ثلاثة من الشرطة العسكرية في المعتقل ، جردوني بالكامل من الملابس وفحصوا الملابس المخلوعة وصادروا أشيائي الشخصية الثمينة ، أوقفوني بجانب الحائط وبدءوا يضربونني بالهراوات على كل جزء من جسمي ، إنه لمن الغريب حقاً ألا أشعر بأي ألم أثناء الضرب ، وبعد هذا الضرب أمرني زيرغا بارتداء ملابسي واقتادوني إلى الزنزانة ١٢ ، وأعطوني بطانية وأمروني بالوقوف جانب الحائط متجهاً بوجهي نحوه رافعاً يدي ، كان في الزنزانة رجلان آخران يقفان مثلي ، كنا مضطرين للوقوف بهذا الوضع طول النهار حيث منعونا من الجلوس أو الاستلقاء على الأرضية الخشبية أو الخرسانية ، كان هناك دلو خشبي كبير في ركن الغرفة ، كنا نقضي فيه حاجاتنا ونفرغه في المساء في المرحاض ونغسله ، مكثت في تلك الزنزانة يومين بعدها نقلوني إلى الزنزانة رقم ١٠ وكنت بها ثلاثة أيام ثم أخيراً إلى الزنزانة رقم ٩ حيث مكثت بها إلى يوم ١٦ يونيو

١٩٩٢ ، لقد قضيت في ستارا غراديشكا ١٨ يوماً منها ١١ يوماً وحدي في زنزانتي ، خلال تلك الفترة أجروا معي التحقيقات التي كان يديرها زيرغا في البداية ، وبعده رائدان آخران كانا يطلبان مني أن أكتب تصريحاً بصورة كتابية، لم يكن هناك تعذيب أثناء التحقيق ، بل كان التعذيب في الزنزانة حيث يدخل الحراس عدة مرات يومياً ليضربونا ضرباً مبرحاً .

بعد بضعة أيام كسرت يدي من الضرب بالهراوات فوضعوني في مستشفى «للمسلمين والكروات المتمردين فقط » ، ووضعوا يدي في الجبس بدون أي أشعة ، وخلال وجودي في المستشفى لم يكن لي الحق في السؤال عن أي شيء أو طلب أي شيء ، وإذا سألتهم أي شيء كان ردهم الضرب فقط ، طلبت منهم معرفة أي شيء عن زوجتي وأولادي فلم يخبروني بشيء . وفي النهاية قررت أن أدلي بتصريح كتابي ، كان تصريحي يحتوي على بضع جمل، لكنهم كانوا يصرون على أن أعترف بأشياء غريبة لم يكن لي بها أي علاقة أو علم ، الأمر الذي رفضته رفضاً قاطعاً ، وكذلك استمر الاستجواب والضرب والتعذيب والانتظار ماذا سيحدث غداً ، لم يبلغوني قط لماذا يستجوبوني أو لماذا أنا هنا في المعتقل ؟ كان الطعام في المعتقل فقيراً للغاية من حيث الكيفية والنوعية ، بينما كانت وسائل التعذيب والإهانة ثرية جداً ، مختلفة ومتنوعة :

- ضرب بعد الخروج من دورة المياه بسبب غسل الدلو الخشبي .
- وقوف بجانب الحائط طول النهار رافعاً يدي فوق رأسي .
- الدخول المفاجيء إلى الزنزانة والضرب بدون أي سبب من الأسباب .

حاولت بشتى الطرق إرسال رسالة إلى زوجتي لتعرف أين أنا وإني ما زلت حياً فلم أفلح . وأخيراً علمت بالصدفة أن طبيب المعتقل من بانيالوكا ، فكتبت رسالة إلى زوجتي ووضعت على الظرف عنوان عمتي التي تعمل بالمستشفى ببانيالوكا ، طلبت الفحص الطبي وسلمت الرسالة إلى الطبيب

المذكور وفعلاً سلّم الطبيب الرسالة إلى عمتي ، وكان أهلي في الحقيقة يعرفون أين أنا ، لكن مشكلتي الضخمة هي عدم معرفتي أي شيء عنهم وعن أقاربي ، كان الأمل في أنهم يعيشون دافعاً قوياً للحياة ، كنت في حصار إعلامي تام منذ اليوم الأول لاعتقالي فلم أعرف شيئاً عما يجري في الخارج ، وباءت جميع محاولاتي بالفشل لأعرف شيئاً ، نحن في أيدي الصرب يفعلون معنا ما يشاءون ، يضربنا من يريد ويتمتع بذلك ، لقد تعودت على التعذيب الجسدي ، أما النفسي والإهانة النفسية فقد وصلا بي إلى حد لا يطاق . كان الطعام سيئاً وقليلاً جداً ، لم أعد التفت إلى تهديداتهم بإعدامي فقد استسلمت لمشيئة الله وفكرت في أن الموت أكرم من هذه الإهانات وهذا التعذيب . وبتاريخ ١٦ يونيو ١٩٩٢ دخلوا زنزانتي ليلاً وطلبوا مني أن آخذ بطانيتين وأخرج إلى الممر حيث صفونا ونقلونا إلى إحدى الغرف الكبيرة ، وصلت الحافلات حيث نقلونا إلى معسكر الاعتقال بمانياتشا .

*** مانياتشا :**

انطلقت بنا قافلة الحافلات والشاحنات من معتقل ستارا غراديشكا بعد الظهر ١٦ يونيو ووصلنا إلي مانياتشا عند نزول ظلام الليل ، وأثناء الطريق مررنا بمدينة شبابي بانيالوكا حيث تخرجت فيها من المدرسة الثانوية الفنية ، وبينما كنا نمر بشوارع بانيا لوكا كنت أفكر في زوجتي وأولادي وعيناي مليئتان بالدموع وأسأل هل هم على قيد الحياة ، هل انتقلوا عند عمتي في بانيالوكا ؟ وبعد وصولنا إلى مانياتشا أمرونا أن نصطف بجانب السياج حول المعسكر ، تحولت حظائر المواشي بمدينة مانياتشا إلى معتقلات عسكرية للمسلمين وأحاطوها بالأسلاك الشائكة وزرعت حولها الألغام المضادة للمشاة ، نادوا أسماءنا عشرة عشرة وصفونا وسلبوا منا كل الأشياء الثمينة بعد أن سجلونا في سجل معتقلي المعسكر ثم انصبوا علينا ضرباً بالهراوات وبأرجلهم ثم زجوا بنا في إحدى حظائر الحيوانات . وقبل أن ندخل الحظائر كانوا يرشوننا بمسحوق «دي . دي . تي » ضد القمل والبراغيث .

عندما دخلت الحظيرة مع مجموعتي كان يسودها هدوء قاتل ، بينما كان المعتقلون يستلقون على بطونهم واضعين أيديهم على ظهورهم فظننت لأول وهلة عندما رأيتهم بأنها أجسام موتى فانتابني الخوف والرعب الشديد في كل جسدي .

سألني يوسيب ماريتش أحد المعتقلين الذي دهسته فيما بعد ناقلة الجنود المصفحة في جبل مايڤيتسا ما إذا كانت هذه الجثث جثث الموتى أو أجسام للناس على قيد الحياة ، كان جوابي له إشارة بأن يصمت . وبعد أن حددوا مكان الرقود على الأرض الخرسانية قمت أنا ورامو يودانوڤيتش ببسط بطانيتين واحتفظنا بأخرتين للتغطية ، كانت ليلتنا الأولى بمانياتشا محفوفة بالخوف والرعب .

استلقينا على بطوننا ونسمع صيحات المعتقلين الجدد بمانياتشا ، وعندما دخل الحظيرة جميع المعتقلين أغلق شخص ما علينا الباب قائلاً في الظلام بأنه يمكننا الآن أن نستلقي على ظهورنا وننام . في تلك الليلة لم تر عيني النوم قط . كنت أفكر طول الليل في زوجتي وأولادي وأقاربي وعما حدث لهم وأنا مستلقٍ على الأرضية الخرسانية الباردة جداً .

في الصباح الباكر دخل علينا ثلاثة من الصرب « سينيشا وزوكا وبولا » وبدءوا بضرب المعتقَلين بهراواتهم . إن النظر إلى الوجوه الوحشية التي تتمتع بتعذيب الأبرياء وحده مخيف ورهيب ، فكيف يكون الضرب المتوحش على الجسد البشري ، إنه أكثر فظاعة ، نظرت إلى الحظيرة في ذلك الصباح فبدت لي حزينة يائسة لدرجة أن قلبي انشق من الحزن ، كان في حظيرتنا ٦٥٠ رجلاً معتقلاً ينتظرون مصيرهم في هذا اليوم وما سيحدث لهم ، الموت أو التعذيب ، أو حسن الحظ يوم ذهبنا لتناول الفطور المكون من شريحة رقيقة من الخبز وقطعة قليلة من معجون اللحم المعلب ، وكان الخبز الذي وزنه ٧٥٠ جرام توزع على ٢٠ معتقلاً ، وعلبة معجون اللحم ٧٠ جرام توزع على ١٦

شخصاً ، وبالرغم من ذلك كان المعتقلون يتزاحمون في صف الانتظار للحصول على تلك اللقمة أو على جرعة الشاي الخالي من السكر ، بعد الفطور كنا نوزع في مجموعات للعمل ، أما المجموعات التي لا تقدر على العمل فيمكثون داخل الحظيرة .

أما أنا فكان ممنوعاً عليَّ الخروج من المعسكر فقد كان اسمي مدرجاً مع ٧٤ شخصاً في قائمة الممنوع عليهم منعاً باتاً الخروج من الحظيرة أو السياج المحاط بها . كان المعتقلون يعودون إلى معسكر الاعتقال بعد الظهر من عملهم مشياً على الأقدام ببالغ الصعوبة بسبب الجوع والعطش والتعذيب الذي يتعرضون له على أيدي الحراس الذين يستمتعون بضربهم . كانوا بعد عودتهم من العمل يتناولون شريحة رقيقة من الخبز وقليل من الشوربة الخالية من الملح ، وبعد تناول وجبتهم يذهبون إلى حظيرتهم ليجلسوا في أماكنهم المخصصة لأن المشي خلال الحظيرة كان ممنوعاً منعاً باتاً وكذلك الخروج منها . وإذا اضطررنا لقضاء حاجتنا كنا نخرج في مجموعات عشرة عشرة وذلك في وقت معين وضيق في نفس الوقت . كانت الحياة صعبة للغاية ولكني لم أفقد أملي لسبب واحد فقط هو أسرتي التي كنت أحاول أن أسمع أي شيء عنها . كانت الحظيرة تغلق علينا تماماً الساعة الثامنة مساءً ، فندخل الدلاء الخشبية لقضاء حاجتنا بالليل في ركن من أركان الحظيرة .

كنا في ظلام دائم ، لم يكن هناك ضوء أو أي مصدر للضوء . وعند الساعة الثامنة تبدأ مناداة أسماء المعتقلين وإخراجهم من الحظيرة إلى زنزانة الضرب والتعذيب حتى الموت . كان باستطاعة البعض أن يعود وحده إلى الحظيرة والبعض يحتاج إلى المساعدة والبعض الآخر يحتاج إلى حمله ، كان المعذبون يشبهون أشباح الموتى بعد الضرب والتعذيب الليلي ، إلا أن لحظات انتظار مناداة الأسماء لم تكن أسهل منها ، وهكذا مرت أيامنا في مانياتشا يوماً بعد يوم ، إنها كانت أيام الانتظار والضرب والتعذيب والعمل الشاق

وأشكال أخرى من الإهانات وسوء المعاملة من قِبَل عصابات الجتنيك الذين يتمتعون بآلام المعتقلين . الماء النقي للشرب كان مشكلتنا الكبرى .

فقد المعتقلون وزنهم يوماً بعد يوم وأصبحوا أضعف وأضعف بينما كان الصرب يفرضون عليهم ظروفاً أقسى وأقسى ، فبدأ المعتقلون يموتون من الجوع والضرب والتعذيب . أذكر جيداً اليوم الذي مات فيه عمر فيليبوڤيتش وبندر من التعذيب . أذكر اليوم الذي اختنق فيه ١٨ شخصاً في إحدى الناقلات ، أذكر الأيام التي كانوا يضربوننا فيها دون تمييز بين المريض والسليم أو بين الذين لم يبلغوا بعد ١٨ سنة أو الشيخ فوق الـ ٦٠ سنة ، كانوا ينادون أسماءنا لنخرج وندخل الحظيرة واحداً واحداً ليضربونا أثناء الدخول بدون أي سبب فقد كانوا يعتبروننا حيوانات ، كانت يدي مكسورة وفي الجبس إلا أنهم كانوا يضربونني مثل الآخرين وإن كنت لاحظت أن تعذيبي خف عندما بدأ استجوابي والتحقيق معي . طلبت مرة من أحد الضباط الذين حققوا معي أن يخبرني أي شيء عن أسرتي وعن أولادي ، وعدني بذلك لكنه لم يفعل ، بل استمر التعذيب والضرب ، كانوا يأخذون كل ليلة مجموعات للتعذيب والضرب في غرفة مخصصة لذلك ، كنت أحاول مساعدة الذين يعودون أحياء من زنزانة التعذيب . كنا نخبيء بالنهار عدة لترات من الماء لنعطيها للمعذبين كان معنا ثلاثة من الأطباء منهم ميهو شعبانوڤيتش ورفعت أخصائي الأمراض النفسية ، لكن الصرب منعوهم من الاقتراب من المعذبين أو تقديم أي نوع من المساعدة لهم ، امتثلوا للأمر في البداية خوفاً على حياتهم ، لكن عندما استنكر المعتقلون هذا منهم ، بدءوا يساعدون الجرحى بعد ذلك . كانت الأيام تمر والطقس يزداد حرارة والطعام قليل والماء نادر وأحوالنا الصحية تتدهور ، فكان يغمى على ١٠ - ٢٠ شخصاً يومياً ويقعون على الأرض أثناء انتظارهم في طابور الوجبة الغذائية ، وجبة العشاء لم نتناولها منذ دخولنا المعسكر ، كنا نضع المغمى عليهم على العشب ونحضر لهم وجبتهم ليتناولوها مستلقين ونحملهم بعد ذلك إلى أماكنهم في الحظيرة ، كان كل المعتقلين قد فقدوا كثيراً

من وزنهم ، لم نغتسل مدة ثلاثة أشهر كاملة بسبب نقص الماء ، كنا نشكو البرد الشديد بالليل في حين كانت ملابسنا مهلهلة تماماً .

وأخيراً أخبرونا بأن وفداً من بانيالوكا يريد زيارتنا يتكون من ممثلي منظمة مرحمت الخيرية وممثل فيلق بانيالوكا ، كان علينا أن ننتخب من الحظائر ممثلينا للتحدث مع ممثلي الوفد القادم . من الطريف أن أحداً لم يجرؤ على مثل تلك المجازفة . في النهاية اتفقنا على أن يتحمل هذا عمر فيايبوڤيتش ومساعب طاليتش وأنا ، وعندما التقينا بالوفد تحدثنا معه نحن الثلاثة ، كنا على علم بأننا سنتحمل عواقب وخيمة إذا تكلمنا عن حقيقة الوضع بالمعتقل ، كانت كلمات عمر فيليبوڤيتش أمام الوفد خطيرة للغاية ومتهمة بصورة خاصة ، الأمر الذي كلفه فيما بعد ثمناً باهظاً كلفه حياته فقد قتلوه من التعذيب . أما أنا فقد طلبت من الوفد زيارة المعتقلات الأخرى أومارسكا وكيراتيرم وترنوبولي وتسيغلانا ومعتقلات أخرى سمعت عنها ، كما طلبت من مرحمت أن تقدم لنا المساعدات الغذائية لكي نبقى على قيد الحياة وذكرت لهم في النهاية الضرب والتعذيب الذي نتعرض له جميعاً ولاحظت أن الجتنيك لا يرضون بكلامي مع الوفد وتأكدت من ذلك فيما بعد عندما استدعوني في الغد للاستجواب والتعذيب والضرب . نجحت وأنا أصافح واحداً من الوفد أن أدس له خلسة رسالة كتبتها إلى زوجتي وأولادي . ومنذ ذلك الوقت بدأت المنظمة الخيرية مرحمت تزودنا بالملابس وكمية محدودة من المواد الغذائية ، لكن ذلك كان يشكل ذرة الملح لهذا العدد الكبير من المعتقلين الجياع والعطاش والمرضى والمعذبين .

لم أفرح في حياتي مثل فرحتي في يوم ٢ يوليو ١٩٩٢ عندما علمت أن أسرتي على قيد الحياة ومنذ ذلك اليوم ازدادت إرادتي وقوتي ورغبتي في الحياة، فكنت أفكر دائماً أنه يجب عليَّ التحمل وأن أحافظ على حياتي لأخرج حياً لأجل أسرتي . وفي تلك الأيام دارت أنباء بأن وفداً من الصليب

الأحمر سيزور معسكرنا في مانياتشا . سرَّني هذا الخبر كثيراً لعلمي بأن ذلك معناه بقاؤنا على قيد الحياة بالرغم من تدهور صحتنا يوماً بعد يوم .

بعد ذلك كثرت زيارات الوفود المختلفة من الصحفيين الأجانب والمنظمات الدولية لمعسكرنا وكان على رأس أحد هذه الوفود الوزير الفرنسي كوشنير ، وقمت في إحدى المناسبات بمناقشة العقيد فوكانيتش قائلاً له : بأن التعذيب والضرب للمعتقلين في معسكرنا لم ينقطع بعد . وبالرغم من أن العالم كله كان قد اطلع على الأعمال التعسفية والإجرامية في المعتقلات وبالرغم من زيارات الوفود الكثيرة إلى مانياتشا إلا أن الأوضاع داخل المعتقل لم تتحسن إلا ببطء شديد . لكن الأهم هو زيارة منظمة الصليب الأحمر لنا وقيامها بتسجيل أسماء المعتقلين الأمر الذي كان يضمن لنا بقاءنا على قيد الحياة ، لأن الصرب كانوا يعذبوننا ولو مرة كل أسبوع ، وكانت مشاكلنا الكبرى في ذلك الوقت نقص ماء الشرب والطعام الذي كان يقل يوماً بعد يوم حيث استمر فقدان وزننا . أُصيب كثير من المعتقلين خلال شهر يوليو بالدوسنتاريا حيث نقل المرضى إلى المستشفى ببانيالوكا ووضع الآخرون الذين بلغ عددهم ٣٠٠ شخص داخل الحجر الصحي المقام في إحدى الحظائر للمعالجة حيث استلقوا على الأرض الخرسانية ليغذوا بالسوائل عن طريق الحقن الطبية التي أحضرت بطريق الصليب الأحمر الدولي .

في يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٢ نادوا أسماء عشرة منا « سعاد وسيبو ومدحت وعدنان وتولي وكاتسونكو وستيبي وفلادو وغلاسكوڤيتش وأنا » كانت أسماء الرجال البارزين ، خمسة مسلمين وخمسة كروات ، أخبرنا الصرب بأننا سنذهب للاستبدال الأمر الذي سرنا كثيراً فقد ناولونا أوراقاً كتب عليها «لأجل الاستبدال » للتوقيع عليها . لكن الحقيقة أنهم نقلونا إلى معتقل آخر « مالي لوڤور » ببانيالوكا ، وبمجرد وصولنا إليه استقبلتنا الشرطة العسكرية وبدءوا بضربنا على الفور مدة طويلة ويتناوبون في الضرب ، وفي النهاية ذهبوا بي وبتولي إلى الزنزانة الخاصة للضرب والتعذيب ، حيث كان يضرب كل واحد

منا ثلاثة من الشرطة الصرب ، عذبونا هناك لدرجة أننا لم نستطع الوقوف أو المشي على أقدامنا ، كسروا ذراعي من جديد وعلى ما بدا لي بعض ضلوعي أيضاً ، كما ظهرت بقع سوداء نتيجة الضرب على جسمي كله ، مكثنا في هذا المعتقل شهراً كاملاً ، كان شهر العذاب الأليم .

أنني اليوم أندهش كيف تحملنا كل هذا كيف بقينا على قيد الحياة ، كانت أنواع التعذيب متنوعة فقد أحضروا الصرب الذين مروا خلال معسكرات الاعتقال الكرواتية ليقوموا بتعذيبنا بشتى الطرق ، وبسبب هذا التعذيب فقدت من وزني كثيراً في معتقل بانيالوكا . أعادونا مرة أخرى إلى معتقل مانياتشا وقبل الإعادة قام ممثلو الصليب الأحمر بوزننا فاتضح لي أني نقصت ٢٧ كجم وكانت عودتي إلى مانياتشا فرصة لأحافظ على حياتي . كانت الظروف في مانياتشا قد تحسنت كثيراً أثناء غيابي خاصة الطعام لأن الصليب الأحمر نظم الغذاء ورعاية المعتقلين بنفسه ، كما أن الأدوية اللازمة للعلاج والخدمات والرعاية الطبية قد تحسنت هي أيضاً كثيراً ، كما كنا نحصل علي الأدوية اللازمة ونذهب إلى الفحص الطبي داخل إحدى الغرف التي تحولت إلى عيادة طبية .

بعد القرار بإغلاق معسكر مانياتشا غادرت المجموعة الأولى المعسكر وهي مجموعة المعتقلين الذين ولدوا سنة ١٩٥٠ وما بعدها واتجهوا إلى كارلوڤاتس في شهر نوڤمبر ، الأمر الذي يعني إبعادهم عن الوطن . أما بقية المعتقلين فقد اتفقوا على إطلاق سراحهم يوم ١٥ ديسمبر ، لكنهم نادوا أسماء ٥٢٠ معتقلاً في يوم ١٢ ديسمبر وكان اسمي من بينهم . زعموا أنهم سيستبدلوننا لكننا انتهينا في معسكر باتكوڤيتش بالقرب من مدينة بييلينا ، وواصلت حياة المعتقل من جديد في هذا المعتقل من ١٣ ديسمبر ١٩٩٢ حتى ٢١ يوليو ١٩٩٣ عندما تم في النهاية استبدالي ونفيي إلى كرواتيا .

* باتكوفيتشي :

وصلنا نحن الـ ٢٠ معتقلاً إلى معسكر باتكوفيتشي بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩٩٢ في الساعات المسائية ، وبمجرد وصولنا قاموا بتفتيشنا وإدخالنا في إحدى المستودعات الخرسانية المخصصة أصلاً لتخزين الحبوب ، واعتذروا بأنهم لم يكونوا على علم مسبق بوصولنا ، وما علينا إلا أن نبيت الليلة في المستودع ، وسينقلونا غداً في الصباح إلى مكان آخر . وجدنا في هذا المستودع معتقلين من مدينة شاماتس ومودريتشا وزفورنيك وبعض الأماكن الأخرى من شرقي البوسنة . وفي اليوم التالي نقلوا مجموعة من المعتقلين بمانياتشا إلى معسكر الاعتقال « كولا » بالقرب من سراييفو ، كانت المجموعة من ١٧٠ شخصاً . أما الباقون الذين بقوا فكانوا يستخدمونهم كأيد عاملة . كثيراً منهم كانوا يذهبون بهم إلى الخطوط الأولى لجبهات القتال لحفر الخنادق وإقامة التحصينات والمعاقل العسكرية . تم في معتقل باتكوفيتشي إعدام ٢٦ شخصاً من مانياتشا فيما بعد ، كان هذا المعسكر يعتبر مركز التجمع والاستبدال حيث جرى استبدال عدد كبير من المعتقلين ، بما أني كنت أعيش قبل الحرب بمدينة توزلا فكانت هناك عدة محاولات لاستبدالي عندما جاء دور مدينة توزلا ، إلا أن عصابات الجتنيك كانت ترفض أن يستبدلوني ، لكنهم وافقوا في النهاية بعد إصرار المسئولين من مدينة توزلا ، لم يسمح الجتنيك لي بالذهاب إلى توزلا في يوم ٢١ يوليو ١٩٩٣ إلا أنهم نفوني إلى كرواتيا ، حيث وصلت أخيراً بعد صعوبات جمة إلى كارلوفاتس في صباح ٢٢ يوليو ١٩٩٣ والتقيت بأسرتي . في نهاية الأمر أشعر بحرية إلى حد ما لأن وضعي في كرواتيا لم يكن آمناً أيضاً ، لأنه بمجرد وصول الحافلة إلى حدود كرواتيا توقفت الحافلة ، وأُخرجت منها للاستجواب على أيدي الموظفين من الأمن الكرواتي .

أريد أن أقول أخيراً أن التعذيب والضرب والإهانة وسوء المعاملة التي ذكرتها في قصتي هذه كانت كلها على يد الصرب وحدهم . وإن من بين

هؤلاء المجرمين عدداً كبيراً من الصرب الذين كنت أعرفهم قبل الحرب ، هم الآن يخدمون في الوحدات الصربية الشريرة ، إن العقيد باسارا والرائد رادميلو زيليالا مسئولان مسئولية مباشرة عن قتل آلاف من أبناء مدن برييدور وكوزارات وسانسكي موست وكليوتش وغيرها من المدن ، لأنهما كانا قائدي الوحدات الصربية التي ارتكبت كل هذه الجرائم التي لم تعرف البشرية لها مثيلاً حتى اليوم .

كما أن الرائد سلوبودان كوروزوڤيتش قائد المعسكر في ترنوبوليه مسئول شخصياً عن قتل كثير من المعتقلين ، دوشان تاديتش المدعي بـ « دولي » من كوزاراتس مسئول بشكل مباشر عن قتل أبناء كوزاراتس الكثيرين ، فقد قام بنفسه بقتل الكثيرين منهم في معسكر أومارسكا . العقيد فوكيليتش ميلوتين والرائد بوبوڤيتش قائدا معسكر مانياتشا مسئولان مسئولية مباشرة عن قتل وإهانة المعتقلين في المعسكر . التعذيب الجسدي للمعتقلين بمعسكر كيراتيرم كان يجري بأوامر صادرة بصورة مباشرة من باروتشيا إيليتش شخصياً والذي كان في نفس الوقت مسئولاً كبيراً في قسم الأمن بمعسكر للجيش بمدينة برييدور ، القادة العسكريون بولا وسينيشا وزوكا كانوا مسئولين مسئولية مباشرة عن التعذيب الجسدي والقتل المباشر لكثير من المعتقلين بمعسكر مانياتشا إلى جانب الضابطين المذكورين سابقاً بوبوڤيتش وفوكيليتش ، إنهم قاموا بتعذيب المعتقلين في مانياتشا على مدى أيام طويلة وقتلوا بعضهم مثل عمر فيليبوڤيتش وبندر وغيرهما من معتقلي معسكرات التحقيق في بانيالوكا وستارغراديشكا ، إن الذين قاموا بتعذيب المعتقلين كانوا غالباً من الجنود والضباط المعروفين بأسمائهم المستعارة مثل دولي وزوكا ومركي وتشاجو . . . إلخ ، بينما كان دراغو إيليتش يقوم بتعذيب المعتقلين في معسكر باتكوڤيتشي ، إني أؤكد بأني رأيت هؤلاء الأشخاص شخصياً كما رأيت عدداً كبيراً غيرهم عندما كنت أمرُّ خلال المعسكرات المذكورة ، إنني التقيت هناك أيضاً بهؤلاء الأشخاص :

العقيد موميرزيتس ، العقيد بورو كاتالينا ، العقيد سيميتش وغافريتش ،

العقيد دوشان ميتشيتش والعقيد بيتار إيفانوڤيتش الذين كانوا يصدرون أوامرهم بارتكاب الجرائم والمذابح في مدن برتشكو زڤورنيك ، بوسانسكي شاماتس ، بييلينا . وكانوا في زنزانات معسكر الاعتقال بباتكوڤيتشي .

*** قائمة أسماء أبناء كوزاراتس الذين حُكِمَ عليهم بالإعدام :**

الاسم - سنة الميلاد - المكان - تاريخ الإعدام - المكان .

رامو شريف بيرڤانيتش ١٤/ ١/ ١٩٦٩م كيفلياني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م كيفلياني .

زلاتان منيب فوريتس ١٥/ ٥/ ١٩٦٩م بريبدور ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م بريبدور .

رفعت حسن فوريتس ٢٥/ ٢/ ١٩٦٤م كاميتشاني ٨/ ٧/ ١٩٩٢م غراديشكا .

أدهم محمد ياكوبوڤيتش ١/٦/١٩٦٩م ياكوبوڤيشي ٢٥/٥/١٩٩٢م ياكوبوڤيتشي .

رامو حلمي كاراباشيتش ١١/ ١/ ١٩٧٠ برجاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م كوزاراتس .

محمد محمد فوريتس ٩/ ٨/ ١٩٦٩م بابيتشي ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م بينكوڤاتس .

أمير عزيز ياكوبوڤيتش ١١/٩/ ١٩٦٣م ياكوبوڤيتشي ٢٥/٥/ ٩٩٢م ياكوبوڤيتشي .

أمير إبراهيم ماخمولين ١٤/ ١٩٦٧م كوزاراتس ٢٧/ ٦/ ١٩٩٢م بوسانسكا دوبيتسا .

مدحت ميهو ماخمولين ٦/ ٤/ ١٩٧١م كوزاراتس ٢٢/ ٦/ ١٩٩٢م بوسانسكا دوبيتسا .

سعاد سليمان كاهريما نوڤيتش ٦/ ٩/ ١٩٧٠م كوزاراتس ٢٧/ ٥/ ١٩٩٢م كوزاراتس .

ثاقب ميهو ترنيانين ١٨/ ٣/ ١٩٧١م كوزاراتس ٢٢/ ٦/ ١٩٩٢م بوسانسكا دوبيتسا .

مويو واحد مراد تشهايتش ٢٨/ ٢/ ١٩٦٦م كوزاراتس ٣/ ٦/ ١٩٩٢م كوزاراتس .

مرصاد واحد مراد تشهايتش ٢٢/ ١٠/ ١٩٧٠م كوزاراتس ٣/ ٦/ ١٩٩٢م كوزاراتس .

سعاد حسيب فوريتس ١٣/ ٩/ ١٩٥٩م بريدور ٣/ ٦/ ١٩٩٢م كوزاراتس.

سمير إبراهيم دييوميتش ٢٠/ ٢/ ١٩٦٥م كوزاروشا ٢٨/ ٥/ ٩٩٢م بيسيتشي

محمد راسم صوفتيتش ١١/ ١/ ١٩٦٢م برجاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م كوزاراتس.

أنور راسم صوفتيتش ٢٣/ ٨/ ١٩٥٧م برجاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م كوزاراتس.

مدحت إبراهيم مويانوفيتش ٦/ ٣/ ١٩٦٦م برجاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢ بينكوفاتس

حسين محمد ياكوبوفيتش ١٥/ ١١/ ١٩٦٤م كوزاراتس ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢ بينكوفاتس

سعاد نائل صوفتيتش ٣١/ ١٢/ ١٩٦٣م برجاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م بينكوفاتس.

سعاد إسماعيل ياكوبوفيتش ٢٩/ ١٠/ ١٩٦٤م كيفلياني ٢٥/ ٥/ ١٩٩٢م بينكوفاتس.

آلمير أماس فوريتش ٢٨/ ٢/ ١٩٧٢م - ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢ بينكوفاتس .

سعيد على شاهباز ١٢/ ٣/ ١٩٧١م كوميتشاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م بينكوفاتس

بسيم حسن شاهباز ٥/ ٣/ ١٩٦٧م كوميتشاني ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م بينكوفانس

واسط سعيد صوفتيتش ٩/ ٧/ ١٩٦٤م بريدور ٢٧/ ٥/ ١٩٩٢م بوسانسكا دوبيتسا .

أرمين يونس دينيتش ٢٢/ ٦/ ١٩٦٥ كوزاراتس ٢٧/ ٦/ ١٩٩٢م بوسانسكا دوبيتسا .

سعاد إلياس دينيتش ٣٠/ ١١/ ١٩٦٨م كوزاراتس ٢٧/ ٦/ ١٩٩٢م بوسانسكا دوبيتسا .

زياد منيب ياكوبوڤيتش ١٢/ ١١/ ١٩٦٠م بايتشي ٢٦/ ١٥/ ١٩٩٢م كوزاراتس .

درويش ديد وموريكا نوڤيتش ٢٨/ ٤/ ١٩٥٨م كوزاروشا ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢م كوزاروشا .

زلهاد درويش تشوستيتش ٢٥/ ٣/ ١٩٥٧م كوزاراتس ٢٨/ ٦/ ١٩٩٢م بوسانسكا غراديشكا .

مرصاد محمد سليم بيغوڤيتش ١٠/ ٣/ ١٩٥٢م بوسانسكي نوفي ٢٦/ ٥/ ١٩٩٢ الدولة كوزاراتس .

* * *

• الاغتصاب – جزء من الخطة الشيطانية لإبادة الشعب البوسنوي المسلم :

لهتك العرض مكان مخصص في تفصيل إعداد الخطة لإبادة الشعب البوسنوي المسلم لأنه في جميع حوادث الاغتصاب يتضح الهدف الأول منه وهو التعذيب الجسدي وقتل النفس ، وبخاصة النساء في ريعان الشباب حتى يكون الجزء المتبقي منها حياً غير قادر للقيام بدور الأم والزوجة .

الاغتصاب وقتل الشباب كان له هدفه وهو إبادة مستقبل المسلمين فى أوروپا في جميع المدن والقرى ، حيث وصل إليها الصرب الفاشيون في قلب الدولة المعترف بها من قبل العالم . نفذوا نفس الدور ، جمعوا الأسرى في صالات المصانع وبيوت الثقافة وصالات الرياضة والمدارس والمساجد ، ثم قاموا بتصنيف الشعب حسب السن إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يدخل فيه الرجال والنساء كبيرو السن ثم الأولاد . **والقسم الثاني** : يدخل فيه الشباب والمثقفون والسياسيون والأشخاص البارزون . **والقسم الثالث**: أدخلوا فيه البنات من ٧ إلى ١٥ سنة والنسوة صغيرات السن.

بعد هذا التصنيف قاموا بهتك أعراض البنات أمام الجميع مجموعة بعد مجموعة ، وكل أنواع المقاومة كانوا يعاقبونها بشدة بالتعذيب أو القتل . وقد ماتت كثيز من البنات أمام أعين الأمهات ، هذا وكان العدو يجبر النسوة على النظر لتعذيب وقتل أقاربهن وإخوتهن وأزواجهن وأولادهن وجيرانهن ، وكثيراً ما كان الجتنيك يغتصب المرأة أمام أولادها وزوجها وإخوتها ، غالباً ما كانت تنتحر بعض النساء بعد اغتصابهن . لكي تكون شناعة عملهم أكبر كان يقوم بهتك عرض المرأة من كانوا جيرانها بالأمس أو أصدقاءها من المدينة والعمل والأشخاص البارزون في بيئتهم بجانب بعض المجرمين من القرى والمدن .

وفي بعض أقطار البوسنة كان الصرب يجمعون الفتيات في الأوتوبيسات ويذهب بهن إلى الجبال ليقدموهن إلى وحوش الصرب هناك للاغتصاب ثم يعودون بهن إلى المعتقلات كما فعلوا بـ ١٥٠ امرأة وصلن إلى مدينة توزلا بعد إتمام تبادلهن بأسرى الصرب ، فقد تحدثن عما فعلوه بهن فقلن : إنهن كن في خنادق الإعداد بمدينة برتشكو ثم بمدينة « باله » وكل ذلك لأجل اغتصابهن ولرفع الروح المعنوية اللاأخلاقية والقتالية لجيوش الصرب ؟؟ وبجانب الاغتصاب كانوا يقومون بحفر الصليب على أجسامهن علاوة على استخدامهن لحفر الخنادق وتنظيف الشوارع عاريات .

كان هدف العدو لقتل الرجال أمام النساء والأولاد ، وهتك عرض النساء أمام الرجال والأولاد إشاعة وزرع الخوف الشديد في قلوب الذين سينجون من الموت ليهربوا من هذا المكان ، وفعلاً نجح العدو في ذلك لكنه نسي شيئاً آخر وهو الإيمان والرغبة في البقاء في الوطن وطرد العدو من البلد ، وهناك كثير من النساء قد التحقن بالقوات المسلحة للدفاع عن الوطن .

● وها هي قصة امرأة من مدينة تقول :

– كنا عائلة فقيرة ولم نكن نملك شيئاً ، لا نقود ولا أشياء ثمينة ، وعندما لم نستطع أن نعطي لجارنا الصربي شيئاً ناداني حيث هتك عرضي ثم ربطني

بالكرسي وقام بهتك عرض ابنتي ثم حفيدتي ذات ١٤ سنة ثم ضربهما بالبلطة فسقطتا على الأرض ثم قام بعد ذلك بفصل رأسيهما أمامي .

للعلم المرأة التي قالت ذلك عمرها ٨٦ سنة وتسمى (ن . م) .

هناك قصة أخرى لإحدى الفتيات من مدينة تقدمها موجزة حيث قالت :

- أثناء قيامهم باغتصابي قطعوا رأس زوج صديقتي وإحدى البنات لأنها كانت تصرخ من الألم أثناء اغتصابها .

ماذا نقول ؟ لمن نتوجه ؟ وكيف يمكن أن نعيش بعدما سمعناه من إحدى المدرسات من المدينة ؟

- من وسط الصالة الكبيرة ومن بين مجموعة الرجال والنساء والأولاد اختاروا الفتيات والنساء الصغيرات وقدموهم إلى الجتنيك وقالوا لهم : «افعلوا معهن ما شئتم » ، فتحرك الهائجون الملوثون ذوو الروائح الكريهة كالوحوش على النساء والفتيات وقطعوا ثيابهن بالسكاكين وكذلك صدورهن وبطون من كن يلبسن الملابس الإسلامية ومن كن يولولن ، وكانوا يقومون كل يوم وأمام مئات من المعتقلين بهتك عرض النساء والفتيات ، وكان من الصعب مشاهدة هتك عرض البنات أمام آبائهن ولا عاصم لهن من أي جهة . كانت جهنم تلك تتوسع كل يوم ، فقد كانوا يدخلون علينا في الليل وبيدهم قناديل الإضاءة بحثاً عن البنات من ١٢ و١٣ سنة ويطلقون علينا الرصاص إذا تكلمنا والبنات يبكين ويصرخن وهن ملتصقات بأمهاتهن ، وفي مساء اليوم التالى يأتوك بهؤلاء الفتيات جثث هامدة بعد أن قتلوهن ويرموهن وسط الصالة لنبكي عليهن حتى الصباح ، وفي اليوم التالي يرمون بجثثهن في نهر البوسنة .

لماذا تفعلون هذا ؟

ماذا فعلنا بكم ؟

هذه الأسئلة كن يسألنها الفتيات والنساء المعذبات . فكان الجواب :

الضرب والشتائم كما كانوا يقولون لهن : « لا بد أن تلدن أولاداً جتنيك . وكل هذا أمام أعين العالم . لقاريء هذه الصفحات عن البوسنة أن يتساءل : كيف يمكن أن يوجد مثل هؤلاء الرجال وماذا يوجد في نفوسهم وما الذي يدفعهم إلى فعل مثل هذا ؟ أي سم يدور في دم هؤلاء الوحوش الذين دبروا تلك الخطط من مهاجمة الشعب وقتله بالجملة وبفضحه وإبطال ماضيه وحاضره ومستقبله ؟

لا خلاف أنهم يمثلون أسوأ جزء من الإنسانية حيث كانوا يعملون نفس الشيء في الحرب العالمية الثانية بدون توبيخ الضمير ، إنهم وحوش آدمية .

الاغتصاب كظاهرة كان معروفاً في الحروب السابقة لكن الظلم في هذا العدوان له خاصية أخرى فهو جزء من خطة منسقة له هدفه وهو « إبادة الشعب البوسنوي المسلم » بأي شيء انحطت هذه الظاهرة بالنسبة لمثلها في الحروب السابقة ؟

١ - الاغتصاب في هذه الحرب اغتصاب جماعي وهذا يعني أنه مطبق في جميع المناطق أينما وجد الجنود الصربيون كقوات محتلة ، والاغتصاب يقوم به الجنود الصرب والمدنيون الصرب .

٢ - الاغتصاب كان علنياً ، فقد كانوا يقومون به عمداً في الأماكن العامة مثل الميادين وصالات الرياضة وعلى الجسور ، أي في الأماكن التي سيراها كل من الأولاد والأزواج والأخوات والآباء والجيران وكان غرضهم أن يرى أكبر عدد من الناس المسلمين تلك الفظائع . كما كان هدفهم إلحاق الخزى بالمرأة المغتصبة وخجلاً لا تستطيع العيش معه وحدوث أكبر ألم لمن يشاهد هذا . والاغتصاب مما لا شك فيه قد أُدرِج في نظام إبادة الناس بالجملة وتطهير الأماكن المحتلة من الآثار الإسلامية .

٣ - هناك هدف آخر من الاغتصاب وهو ولادة أولاد « جتنيك » ومما يؤكد ذلك أنهم سمحوا للنسوة أن ينتقلن إلى الأراضي التابعة لجيش جمهورية

البوسنة والهرسك بعد أن أصبح حملهن قد تقدَّم بحيث لا يسمح لهن بالإجهاض في تلك الفترة المتأخرة من الحمل ، الأطباء وعلماء الدين ورجال السياسة كانوا في حيرة : هل يجب الإجهاض في هذه الحالات أم يتركن لتلدن ؟ التعذيب والاغتصاب ثم الإجبار على الولادة ما هو إلا انتقام من شعب أراد الحياة على وطنه وفي حرية . هذا الاغتصاب ليس اغتصاباً لإرضاء غريزة الجنس فقط بل لجلب العار للمسلمات ، أرادوا بذلك تحقيق حمل جماعي وانهيار أعصاب وقتل الذات وتشقق عائلي وزوجي . لكن كل ذلك لم يتحقق لأنه ليس لديهم فهم ديني ليصلوا إلى أعماق التعليم الإسلامي ، هذا التعليم الذي يحمله كل مسلم ويحارب من أجله كل أنواع الظلم ، ومن تلك الحقائق في الإسلام هو الإيمان والتسليم بالقضاء .

والتسليم بالقضاء يساعد المنكوب أن يقف على قدميه ويعيش في ظل الإسلام ، والإسلام يبين دائماً أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيئته الربانية .

* * *

● شهادة النساء المغتصبات :

هذه شهادة موجزة من النساء المسلمات المغتصبات كجزء من خطة معدة لإبادة الشعب المسلم . هي صورة لظلم هؤلاء الجلادين من صربيا .

* الشهادة الأولى :

في كلية الطب بمدينة زغرب سجّل اسم فتاة مسلمة تحت الشفرة رقم ٢٠٢ وهي تقول : بعد الهجوم على قريتي رأيتهم يقتلون الناس ، وهي أكبر مأساة لم أر مثلها من قبل . لم أتصور أنه ينتظرني شيء أسوأ من الموت ، أختي ولدت طفلاً في سرداب كنا نلجأ إليه من القصف المنظم وبعد سقوط بلدة رزوانوڤيتش رأيت بجانب البيت الأولاد الميتين ، وكانوا فيما بين ٣ - ٨ سنوات ، ورأيت المسجد المهدم وكيف كانوا يقودون الرجال وقد اختاروا من

بينهم مجموعة قتلوهم بالرصاص ، وهنا وهناك على الأرض نجد الضحايا في مواقف عجيبة ، وفي كل مكان فزع واضطراب وموت ، اتهموا جدي بأنه قتل أحد الصرب ، وقتلوه أمامي على عتبة بيتنا ، وبقيت بعض النساء والأولاد في القرية ، كنا نخفيهم في سراديب البيوت المدمرة وبقي بيتي سالماً وفي ذلك اليوم كنا في البيت ، وعندما دخلوا طلبوا منا الأشياء الثمينة وأخذوا يستخبرون عن الرجال الذين كانوا يخفون أنفسهم في الغابات ، وطلب مني واحد من الصرب عمره ٣٠ سنة أن أتبعه ، تبعته لأني كنت مضطربة وخائفة خوفاً شديداً ، لكني لم أكن أتوقع أن يحدث لي ما حدث وكنت أعرف أن أية مقاومة ستعرض عائلتي للخطر ، ولما دخلنا البيت طلب مني النقود والحلي وأشياء أخرى غالية ، كل ما في بيتي كان تحت يده ، ثم سألني عن الرجال فلم أجب على سؤاله ، ثم أمرني أن أخلع ثيابي ، وكنت أخاف خوفاً شديداً، لذلك خلعت ثيابي بدون كلمة ، وكنت أتخيل أني سأموت ، اغمضت عيني لأني لم أكن باستطاعتي النظر إليه ، ضربني حتى سقطت ثم اغتصبني كنت أبكي وأصيح من الألم إذ كنت بكراً ، حاولت بعد ذلك جمع ثيابي لأغطي جسدي ، لكنه منعني ثم خرج ودعا اثنين من أصحابه وفعلا بي نفس الشيء، ولم أكن أشعر بشيء إذ كنت في إغماءة ، ولم أدر كم مر من الوقت وأنا على هذه الحالة إلى أن دخلت أمي ورأتني هكذا أرقد على الأرض فبكت وبكيت معها ، ألبستني ملابسي ، وخرجنا إلى سراديب البيت ، كل ما حدث بعد ذلك كان كأنه قد غطاه الضباب ، وفي اليوم التالي رحلونا إلى المعسكر في مدينة ترنوبول ثم ذهبنا إلى مدينة تراڤنيك على الأقدام ، وكانت أمي تحاول أن تعيدني إلى الحياة وتساعدني ، أعرف أنني في يوم من الأيام سأكون أماً ، ولكن كيف ؟

*** شهادات أخرى :**

الشهادة الثانية شهادة إحدى المسلمات المسجلة في مستشفى زغرب تحت شفرة المغتصبات رقم ٤٣٩ :

في شهر مايو ١٩٩٢ هاجم الصرب مدينة غوراشده من ناحية سراييڤو واستولوا على الجبال حول المدينة ، وكان زوجي في ذلك الوقت في القوات المسلحة لجمهورية البوسنة وفي الخطوط الدفاعية الأولى ، أما أنا فكنت في سكني في المدينة ، أتذكر أن اليوم كان يوم الخميس في شهر مايو عندما هاجموا المدينة ليلاً في العاشرة مساء ، كنت مع جيراننا النسوة في السكن عندما حصل كل شيء فيها . . .

لحسن الحظ أن ابنتي ذات العشرة أعوام كانت عند حماتي في القرية ، دخل الجتنيك فجأة في شقتي ، وكانت معي تسع نساء صغيرات السن وكلهن متزوجات ، عند دخولهم لم يكن في الشقة نور ولا شمعة ، كان الجتنيك يلبسون ملابس متنكرة لكي لا نعرفهم ، بمجرد دخولهم سبُّوا أمهاتنا المسلمات وقالوا : « أرسلتن أزواجكن إلى الحرب سترين الآن ما نحن فاعلون بكن » . شقتي كانت في الدور الأول ، كنا نجلس في غرفة الجلوس ، لكنهم سحبوني إلى غرفة النوم ، وقد تعرفت على اثنين منهم من أصواتهم فقد كانوا من الجيران ، خلعوا ثيابي ، أمسكني اثنان منهما والآخران يغتصبانني ، وقد أدخلوا الرعب في نفسي إذ كانا يضربانني ويقرصانني ، وفي نفس الوقت كانوا يغتصبون امرأة أخرى ، ولم أتذكر بعد ذلك شيئاً حتى الثالثة صباحاً ، عندما استيقظت فلبست ثيابي وذهبت إلى الحمام ، سألوني أين أذهب ، كنت أتوجه ناحية الحمام لكنني لم أدخله بل لبست حذائي ، وخرجت وأخذت أجري بسرعة نحو جزء من المدينة التي كانت في يد قواتنا المسلحة ثم ذهبت إلى القرية التي كانت بها ابنتي في الساعة الحادية عشرة ليلاً ولم أقص ما حدث لأحد بل واصلت الهروب حتى وصلت مدينة زغرب ، بعد ذلك أدركت أنني حامل ، وأنا الآن في المستشفى بزغرب في قسم أمراض النساء ، حاولت أخيراً الإجهاض لكنني لم أنجح لتقدم شهور الحمل .

* * *

الجزء السادس

البوسنة إنذار للمسلمين كافّة

● **رسالة إلى أطباء العالم :**

إن البريماريوس الدكتور فاروق كولينوفيتش بمستشفى التراوماتولوجيا في سراييفو هو أحد الخبراء البوسنويين الكثيرين الذين أبدوا خبرتهم في مجال الطب وأكثرهم إنسانية . من رسالته إلى أطباء العالم باستطاعتنا أن نرى جزء من الإحصاء الرهيب عن مصائب البوسنويين .

إبتداءً من أول هجوم صربي على سراييفو وحتى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٩٩٣ استقبل مستشفى التراوماتولوچيا « الكسور والعظام » أكثر من ١٧٫٠٠٠ حالة منهم ١٤٫٠٠٠ جريح وقد عولج وشفي منهم شفاء تاماً أكثر من ٢٢٠٠ جريح .

اشتغل فيما قبل الحرب في هذا المستشفى ٣٣ جرّاحاً منهم ٩ من البوسنويين المسلمين وهم لا يزالون حتى اليوم فيه مع ٢٥ ممرضة وممرضاً ، وقد قام هذا الفريق الصغير بعدد كبير من العمليات ، إذ تمت جراحة ١٧٣٠ عملية جراحية لجروح بالغة ومعقدة . كان أغلبية الجرحى مصابين بجروح في عضوين أو أكثر من أعضائهم الحيوية ، أو أن الجروح في عضو واحد لكنها كثيرة ، كثيراً ما أنقذنا جرحى مصابين في البطن والصدر ، كما اضطررنا في أحيان غير نادرة إلى بتر الرجلين معاً ، الأمر الذي يشكل للجراح مأساة حقيقية ويخلق عنده شعوراً خاصاً بالعجز ، وكثيراً ما كانت الجروح خارجة عن نطاق إمكاناتنا بحيث نستطيع أن نقول بأن عدد حالات الموت البالغة ١٨٥ حالة ليست بالعدد الكبير إذا ما قيست بنسبة طبيعة الجروح وإلى الظروف السائدة ، أذكر هنا أننا قد أنقذنا عدداً لا بأس به من الذين لم يتوقع أحد إنقاذهم مما نعتز به بشكل خاص .

إن من يعرف مباديء الجراحة الحربية ولو قليلاً ، يعرف جيداً أن كل جرح حربي لا بد من معالجته معالجة جراحية ، معناه أن كل مصاب وصل إلى

المركز الطبي في كوشيفو قد مرَّ علينا ، وهذا العدد تجاوز ١٠٫٠٠٠ حالة ، ومما تختص به حالة الحرب في سراييفو من الحصار والحرمان والجوع والتعب والخوف على الحياة والمستقبل مما نتج عنه صدمات نفسية عند عدد كبير من الجرحى ، وهذه المشكلة استطعنا دائماً أن نجد لها حلاً مناسباً وناجحاً .

إن مشاكل الخدمة الجراحية في الحرب معروفة - النظرية الاختصاصية منها والعملية الإمدادية ، إننا كنا لا نملك شيئاً لأن هذه الحرب لم يسبق لها مثيل في أي مكان ، حيث أننا كنا نعمل ونتعلم من المجازر الحادثة . ومن أولى المجازر الكبيرة تلك التي وقعت في شارع « فرحدية » حيث عالجنا ٢٠٠ شخص مدني ، حينئذ تقابلنا للمرة الأولى بقاعدة من القواعد الحربية القاسية - عالج معالجة مناسبة للجرحى لمن له فرصة حقيقية للبقاء في الحياة - حينئذ كانت ملابسنا ونفوسنا ملطخة بالدماء النازفة . وفي يونيو سنة ١٩٩٢ نفسها مرَّ بهذا المستشفى أكثر من ٣٠٠ جريح . أما الموتى فكنا نغطيهم بالملاءات ونضعهم على أرض الممرات لأن العربات والنقالات كانت كلها مشغولة في نقل الجرحى الأحياء ، كما كانت صالة الموتى لا تتسع للجميع ، وكانت في تلك الفترة أيام يصل فيها إلى المستشفى أكثر من ١٠٠ جريح يومياً .

أما حين وقعت المجزرة المعروفة التي وقعت في سوق « ماركالا » عندما قتل وأُصيب بالجروح وشُوِّه دفعة واحدة نتيجة وقوع قذيفة جتنيكية حوالى ٣٠٠ نفر ، فقد كانت أسوأ فترة في حياتنا الحربية في المستشفى .

كانت الظروف التي عملنا فيها ونحن في مدينة محاصرة ومحرومة من أدنى حد من وسائل الحياة تتطلب منا أن نتأقلم ونتكيف عليها إذا أردنا مساعدة الجرحى والمصابين . وهذا الدرس تعلمناه بسرعة حيث تعودنا وتكيفنا على كل الظروف ، فأجريناها في الصالات ودرجة الحرارة تبلغ خمس درجات تحت الصفر ، كما عملنا أحياناً ٤٨ ساعة بمبنج واحد فقط . كانت تنقصنا دائماً الوسائل التي تستعمل عند الجروح الحربية وخاصة جروح الأطراف .

ولحسن حظنا أن هناك من الناس من يقدِّر الظروف فسعوا إلى تقديم مساعداتهم حسب المستطاع ، فظهر نتيجة لذلك « فيكساتور » سرايبڤي حربي سميناه « سراڤيكس » وهو فعال جداً للإسعاف الأولي ، فقد كنا نعمل بنجاح جروحاً بالغة في الأطراف بواسطته في أقل من ٤٥ دقيقة مع أننا كنا في أشد حالات الإرهاق والتعب والجوع ومجمدين من البرد .

والآن يأتينا خبراء - زملاؤنا من أوروبا - ويلقون محاضرات مختلفة ، يعلِّمون فيها تنظيم العمل مع كل هذا العدد الهائل من العمليات التي أجريناها بدونهم ، ومن الصعب الآن أن نشرح للإنجليزي مثلاً كل ما عملناه خلال السنتين السابقتين من الحرب ، لكن مما لا شك فيه أن أطباء أوروبا والعالم كله في مقدورهم الآن أن يتعلموا منا الكثير .

سرايبڤو في : ١٩٩٤/٧/١م

البريماريوس الدكتور فاروق كولينوفيتش

مستشفى الجراح والكسور والعظام

سرايبڤو

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أنبيائه والمرسلين وعباده الصالحين وجميع المسلمين ١٠المخلصين والمسلمات المخلصات .

والسلام على وطني البوسنة والهرسك ، وطن البوسنويين المسلمين المعذب والمحروم والمظلوم والنازف .

أيها الإخوة المسلمون في البلدان الإسلامية وغيرها :

أنا ، عبد من عباد الله الخاشعين وخادم من خدام دينه المتواضعين وإمام مسجد من مساجد سراييڤو - البوسنة ، أدعوكم بدعاء قرآني : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ (آل عمران / ١٠٣) .

وأرفع صوتي وأدعوكم أن نترابط ونتوحد وحدة إسلامية أخوية تضم كل مسلمي العالم .

إنها الآن بداية القرن الخامس عشر الهجري وقد مضى على ظهور نور الإسلام في مكة أكثر من ١٤ قرناً كما مضى خمسة قرون على مجيئه إلى هذه المناطق ، وقد قبل أجدادنا نور الإسلام وأمانته قبولاً حسناً ، وهم يجتهدون ويجاهدون في سبيل الحفاظ عليه في أراضينا جهاد من يمسك في يده جمرة ، إننا محاطون بالظلام من كل جوانبنا ، ظلام أولئك الذين كانوا يبغضوننا ويسعون إلى إساءتنا كلما أتيحت لهم الفرصة ، ونعوذ بالله من شرهم .

يتجدد نور الإسلام اليوم في البوسنة ، والكفرة والمنافقون يحاولون إطفاءه، لكنهم لن يتمكنوا من إطفائه أبداً لأن الله عَزَّ وجَلَّ وعد دينه بالنصر، فقد قال :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (التوبة/ ٣٢)، ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (الصافات / ١٧٣).

إننا قد رأينا فرصتنا للعيش في أراضينا وبديننا عندما نزعنا عن رقابنا نير الشيوعيين الكفرة سنة ١٤١٠ هـ إلا أن جيراننا الأشرار بلّغونا بأنهم لن يتركونا نعيش في سلام ، لا في أراضينا ولا بديننا - فليست هناك جريمة لم يقترفوها ضد هذا الشعب وهذه الأرض وممتلكاتهم - بل وأكثر . وذلك كله فقط لأننا مسلمون وأنهم يشعرون بالضيق في أرض الله - ضيقها الله عليهم إن شاء الله حين نطردهم .

لقد ذبحوا وقتلوا ٢٥٠ ألف مسلم بوسنوي ، من بينهم ٥٠ ألف طفل ودمروا ١٢٠٠ مسجد ، واغتصبوا أكثر من ٥٠ ألف مسلمة وشوهوا عدداً لا يحصى من المسلمين ، وهجّروا من بيوتهم مليوناً ونصف مليون شخص مسلم ، ودمروا المدن وأحرقوا القرى ... وذلك فيما كان العالم الغربي يسكت ويخفي الجرائم ويستر المجرمين وحتى يريد أن يجزيهم بمنحهم جزءاً من الأراضي التي انتزعوها منا . أما نحن فقد منعونا من أدنى حد من حقوق الإنسان التي يظنون أنهم هم الذين وضعوها ، مثل حق الدفاع عن النفس الذي جردونا منه بفرضهم الحظر على الأسلحة .

إننا لا نخشى الكافرين والله شاهد علينا ، إننا نقاتل مثل الأسود في هذا القتال اللامتكافيء وإننا نصمد ونتصدى بنجاح . والآن وبعد مضي سنتين من بداية الحرب أصبحنا أقوى منهم ، إننا نعوذ بالله ونستعينه ونتوقع تأييده ، ثم نتوجه إليكم أيها الإخوة المسلمون راجين من الله أن يجعلكم أنصاراً لنا في قتالنا .

إن ما حدث الآن في البوسنة هو إنذار للمسلمين كافة ، **فالبوسنة في نفس الوقت جزاء وبلاء وعقاب** . فهي جزاء لمن استشهد من أجلها ومن سيعيش فيها كمنتصر ، والابتلاء لنا ولكم . لقد كنا في غفلة وبعضنا لا يزال ميتاً ، بعضنا وبعضكم على السواء . لقد كنا نراعي مصالح غيرنا ومصلحة الله هي

العليا ، كنا نسعى لاكتساب رضا أعدائنا ورضا أنفسنا مع العلم بأن غاية المؤمن اكتساب رضا الله ، اللّهم احفظنا من البلاء مما لا طاقة لنا به ومما تزل به أقدامنا وتؤدي بنا إلى العذاب .

وأما العقوبة فقد عاقب الله في البوسنة من أراد عقابه وسيعاقب أيضاً من لا يتقيه ولا يخشى عقابه .

أيها – الإخوة والأخوات .. إنكم لن تستطيعوا القول بأنكم كنتم تجهلون – البوسنة مسئوليتكم ومسئوليتنا – فستسألون عنها كما سنسأل .

هذه حرب صليبية .

يتم في البوسنة الدفاع أيضاً عن دينكم وعرضكم وحياتكم وبيوتكم وعن أمهاتكم وبناتكم وعن حقكم فى أن تبقوا على ما أنتم عليه .

نحن نتمنى ونتوقع النصر ، النصر لنا لأن الله ورسوله معنا .

إن أعداءنا وهم أيضاً أعداؤكم وأعداء كل من يُدعى إنساناً ، لا مستقبل لهم ، جرائمهم شهود عليهم وهلاكهم لا مفر لهم منه .

إن البوسنويين بقتالهم العادل قد ربطوا ووحدوا العالم الإسلامي فكونوا أنتم أيضاً من الذين يعملون في تقوية تلك الوحدة لا من الذين يقطعونها .

والحمد لله على هدايته وعونه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

سراييفو في : ٢٠ محرم ١٤١٥ هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٩٤ م .

الحافظ خالد هاجي موليتش

إمام وخطيب المسجد السلطاني بسراييفو

* * *

كلمات ختاميّة

من الطبيعي السؤال ما هو هذا الكتاب ومن هو مؤلفه ؟

إن بعض المعلومات المتصلة بسيرة المؤلف نجدها في الجزء الافتتاحي من الكتاب وهي كافية تماماً إذا نظرنا إليها كمعلومات ضرورية عن المؤلف . لكن بعد قراءة الكتاب تلك المعلومات تتفرع وتتوسع بحيث يصبح في النهاية واضحاً تماماً من هو مؤلف هذا الكتاب ولماذا كتبه . لكن الإجابة عن السؤال، ما هو نوع هذا الكتاب ؟ هي أصعب بقليل من السؤال السابق ، وإذا أردنا إجابة قصيرة عنه قلنا : إنه صوت كائن إنساني في زمان من الأزمنة، زمان يؤثر تأثيراً قوياً في الناس ، يصيغونه ويصيغهم على قدر إمكانات كل فرد من الأفراد ، وأحد أولئك الأفراد الذين يرفضون أن يكونوا في زمانهم إنساناً ساكناً فقط ، هو مؤلف هذا الكتاب السيد خليل بوشكار .

الزمان والظروف التي يعيش فيها تصيغه إلا أنه من جانبه يؤثر تأثيراً ملحوظاً على زمانه في ساحة معينة وهي البوسنة ، ويشمل تأثيره المعنى الجغرافي والمعنى السياسي . أما نشاطه فهو واضح لكل من قرأ الكتاب قراءة دقيقة . هذا وقد أقام المؤلف إقامة واضحة ذلك المبدأ الأخلاقي الذي يميز به الإنسان الذي يرفض الخمول والرثاء الفارغ على البوسنة وعلى الناس الشرفاء فيها وخاصة المسلمين . ومن الطبيعي أن اهتمام السيد بوشكار يتصل أيضاً وبشكل فعال بالإنسان عامة ، بغض النظر عن تبعيته القومية والدينية والجغرافية ، إذ أنه يحترم ويُظهر تلك القِيَم الإنسانية الأساسية الدائمة وغير القابلة للإسقاط . ومن المهم جداً أن نبرز هنا أيضاً أن السيد بوشكار ليس من أولئك الوطنيين الذين يقتصرون على المراثي الأنيقة وهم في ثرائهم وعزهم اليومي .

يعيش المؤلف في الزمن الصعب مع شعبه وبلاده ، مع كل صيحة من صيحاتها وكل تنهيدة من تنهيداتها ، إنه إذن في المأساة البوسنوية بكل معناها، أنه يفضل أن يعيش في المأساة على المناقشات والمجادلات الصالونية في فيضان المصالح التي تلف البوسنة بأسلاكها الشائكة . إن تصرف الإنسان نحو أصله ووطنه مثل تصرف السيد بوشكار الذي يعتبر مواطناً أمريكياً ورجل أعمال ناجح ووالد لخمسة أولاد وزوج ، من الضروري أن يستحق احترامنا نحن القراء .

تلك هي علاقة السيد بوشكار بهذه الحرب ، والآن فقط نستطيع أن ننتقل ونتساءل ، كيف يبدو ذلك من الوجهة اللغوية والمضمونية بشكل عام في هذا الكتاب ؟ يذكر المؤلف وبحق تام كلمات الأديب نجاد أبريشيموفيتش وهو يقول : لا أحد يعرف ما اسم هذه الحرب ، نحن الحاضرين هنا نعرف جيداً مدى صحة هذا القول ، ولذا وبواسطة كتب مثل كتاب بوشكار « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . نبدأ بالتطرق إلى ذلك اللغز ، فهذا الكتاب من الكتب التي ستمكننا يوماً من تشكيل فسيفساء تكشف لنا عن حقيقة هذه الحرب . ولكي نحدد ما هو هذا الكتاب تحديداً أوضح نذكر هنا ما يلي من كلماته : « إنني أشعر بتنفس بلادي » وأسأل باشو هل هو أيضاً يشعر به ؟ نظر إليَّ نظرة غريبة وقال : « بعدما نصل إلى أعماق أراضيها ستشعر أيضاً ببكائها » . يبدو لي أن الكتاب كله مختصر في هذه الكلمات القليلة .

بوشكار يشعر ببلاده ، يشعر بتنفسها ، تلك هي العلاقة الوجدانية الروحية للإنسان بوطنه ، مثل علاقة الطفل بأمه . أما رفيقه باشو فهو رجل واقعي يحذره بأنه عندما يدخل أعماق الأراضي البوسنوية سيشعر أيضاً ببكائها . فإنه من الاستحالة الشعور ببكاء البوسنة إلا بعد الدخول في أعماقها . يتكلم السيد بوشكار في الكتاب كله من ذات الأعماق البوسنوية ، من نكباتها

ومصائبها الحقيقية التي يرقد فيها ، من برودتها وحرارتها ، من النفوس البوسنوية المسلمة المعذَّبة ، من المعاناة واليأس .

لكن يظهر من ذلك كله ويتلألأ باستمرار بريق لامع رائع ، بريق إيمان بالعدالة والمستقبل وانتصار الخير على الشر ، والمؤلف يساهم بشكل مباشر فعال في تقوية ذلك الخير الضعيف المستهان به . لذا فإن هذا الكتاب مهما كان نوعه يلزم قراءة كائناً من كان - أمريكياً أو ألمانياً أو بوسنوياً أو . . . . يلزمه بجوه الأصيل الغير مزّوق والغير مزيَّف وبطريقة حديثه العادي الذي يصور الوضع في البوسنة والهرسك تصويراً سليماً دقيقاً . وفي داخل كل ذلك تجري التفاصيل والشهادات والتجارب المعاشة والأحداث الخاصة . ولما كان هذا الكتاب صوت إنسان في زمان من الأزمنة باسم العدالة وباسم الطموح لتحقيق تلك المباديء الأخلاقية الأساسية التي لا إنسان ولا مجتمع بدونها ، فسنجد فيه تعدد الأصوات ومختلف المستويات وأنواع الحديث ، فإذا بحثنا عن مواد إخبارية وجدناها ، وإذا أردنا عملاً أدبياً فهو أيضاً هنا .

لكنا لا نبحث في هذا الكتاب عما لا يوجد فيه ، بل لنرى ما هو موجود حق الوجود وسيكون ذلك كافياً ليزيد من ضحة رؤيتنا نحن الذين قضينا الحرب كلها هنا في البوسنة لما يجرِ فيها ، وناهيك عن القراء في العالم فسيكون الكتاب أخباراً حقيقية هامة لهم . وسنجد فيه أيضاً عناصر كتاب الرحلات ، فبوشكار يرحل ويسير في وطنه البوسنة ويلاحظ حزنها وجمالها وهما الآن ممتزجان تماماً في البوسنة .

فهناك جمال بوسنوي رائع وحزين في نفس الوقت ، ومن المهم أن السيد بوشكار يستطيع ويعرف رؤيته ، وما هو أهم من ذلك أنه يريد أن يتكلم عن ذلك كلاماً صادقاً وفياً على هذا المستوى .

يعني أن قاريء هذا الكتاب ينهل من عيون مختلفة بسبل مختلفة ، هناك معلومات وأخبار مع أنه ليس كتاباً علمياً وإنما هو أولاً وقبل كل شيء عمل

فردي ذاتي تجاه أحداث يشارك فيها المؤلف بطريقته الخاصة مشاركة مباشرة ، ثم هناك حديث صحفي وهو ضروري في بعض أجزاء الكتاب التي لا يمكن كتابتها إلا بتلك الطريقة . وأخيراً نتوصل إلى انطباع صلب بأن هذا الكتاب لا يمكن فصله عن حياة المؤلف وغيره من أعماله ، بحيث أن اللغة والتسجيل والبحث عن المعلومات والانطباعات وحتى عن فتات الحقيقة عن البوسنة وأهلها وخاصة المسلمين فيها ، ثم عن موقف العالم وبالأخص أوروبا وكبار شخصياتها من هذا الجزء من أراضيها . إن هذا كله في كتاب السيد بوشكار، كما في حالته بشكل عام يمتزج ثم ينتقل من عمل إلى آخر . وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك تعبيراً موجزاً قلنا : إنه فعل ورأى وتأكد وتألم ولا يزال يتألم والآن يسجل ذلك كله . وهذا التسجيل نتج عنه الكتاب . فلنختتم ، إن السيد بوشكار قد رأى وسمع حقاً عن احتراق البوسنة ، إنه جاء إليها وشغل كل حواسه فرأى وسمع وأحس غير مقتصر على تداعيها من البعد ، وهذا ما يعطى لكتابة قيمة خاصة ، وأخيراً فهذا الكتاب دليل على طبيعة الأمور :

إذا أخذت البندقية ووقفت أمام عتبة بيتك للدفاع عن نفسك وأهلك ، فمن الطبيعي إذن أن تأخذ أيضاً بيدك القلم وتسجل خبراً عن زمانك .

وهذا ما فعله السيد بوشكار بنفسه ، أنه سجل فعله الإنساني .

سراييفو في : يوليو ١٩٩٤م .

بقلم

الأديب علي دوبو تشانين

* * *

يصف المؤلف في هذا الكتاب مأساة البوسنويين وقتالهم الدفاعي التحريري ضد الفاشية من الشرق والغرب في أواخر القرن العشرين ، كشاهد ومشارك مباشر في تلك المأساة من جانب ، وعزم شعبه على المقاومة والتخلص من العدوان والجرائم من جانب آخر ، إنه يشير إلى العقيدة العدوانية التوسعية الصربية والكرواتية الرامية إلى القضاء على البوسنويين المسلمين ، كما يشير إلى جرائم الصرب الكثيرة ضد جيرانهم البوسنويين وموقف الدول الغربية المنافقة والموافقة على خطة إسقاط الدولة البوسنوية والقضاء على شعبها المسلم، ثم إلى دور قوات الأمم المتحدة وتصرف ضباطها الكبار وخاصة الجنرال مروين ومكينزي ، ثم إلى المعونات الإنسانية . . .

بعد زياراته العديدة لما بقى تحت سيطرة قوات الجيش البوسنوي من أراضي البوسنة والهرسك والتي قام بها في ظروف حربية صعبة ، وفي فترة من أكبر الجرائم الصربية همجية ووحشية سنة ١٩٩٢م و١٩٩٣م ، أتى المؤلف بعدد كبير من الحقائق الكثيرة والمهمة للغاية عن مصائب ومعاناة البوسنويين ودفاعهم عن ذاتهم ووجودهم وما يتصل بذلك من نشأة وتطور جيش جمهورية البوسنة والهرسك ونضاله البطولي ضد المجرمين . عند ذلك يقدم تقديماً أصيلاً عدداً كبيراً من لقاءاته مع المدافعين عن البوسنة والهرسك في الخطوط الأمامية من الجبهة ، ثم محادثاته مع كثير من الجرحى والمدنيين ذاكراً تجاربهم الخاصة وشجاعتهم وعزمهم على أن يدافعوا عن بيوتهم ووطنهم ، ثم يورد عدداً كبيراً من الجرائم التي اقترفها المعتدون ضد البوسنويين الأبرياء وغير المسلحين .

إضافة إلى ذلك هناك عدد من الشهود الضحايا عن الجرائم الجماعية مثل الاغتصابات والمجازر في المعتقلات مما يعطى الكتاب أهمية خاصة .

سراييفو : مايو ١٩٩٤م .

الدكتور إسماعيل چيكيتش

باستطاعتنا أن نميز في التركيب الداخلي لهذا الكتاب تمييزاً واضحاً موضوعين متكاملين ، ومهما ظهرا متباعدين فإنهما يتداخلان ويتكاملان لأنهما انعكاس واقع واحد - واقع بوسنوي حربي .

أما الموضوع الأول فهو نظرة المؤلف للبوسنة ، لحريق الحرب فيها خلال السنتين ٩٢ - ٩٣ لكن ما لا بد من ذكره هنا أنها لم تكن نظرة من بعيد أو عطفاً على شعبه وهو يتكيء على أريكة مريحة بعيدة وآمنة .

كلا ، إن السيد بوشكار يعيش واقع الشعب البوسنوي عيشة واقعية فعالة وهو يجول في أراضي البوسنة أيام معاركها الفاضلة لأجل وجودها وبقائها ويلتقي بالناس من مختلف طبقات المجتمع . المرأة العجوز المهاجرة التي تمتنع عن الإعتراف بأن حفدتها جياع وعن السؤال ، ثم الأم الصغيرة السن تقلب النفايات باحثة عن طعام تأكله لتستطيع إرضاع طفلها الضعيف ، رجال الدين الذين انضموا إلى نضال شعبهم انضماماً فعالاً ، المناضلين في الخنادق وقادتهم ذوي الأسماء المشهورة وحتى رئيس الدولة .

إن المؤلف وهو يتحدث عن حياتهم وتجاربهم المعاشة يخلق فسيفساء حيّة للبوسنة اليوم ، ومهما كان عذاب « البوسنويين الأبرار » شديداً فإن كتاب السيد بوشكار يسود فيه التفاؤل والإيمان بالنصر ، وهما العاملان اللذان يساعدان البوسنويين على الاستمرار والسيطرة على الشر .

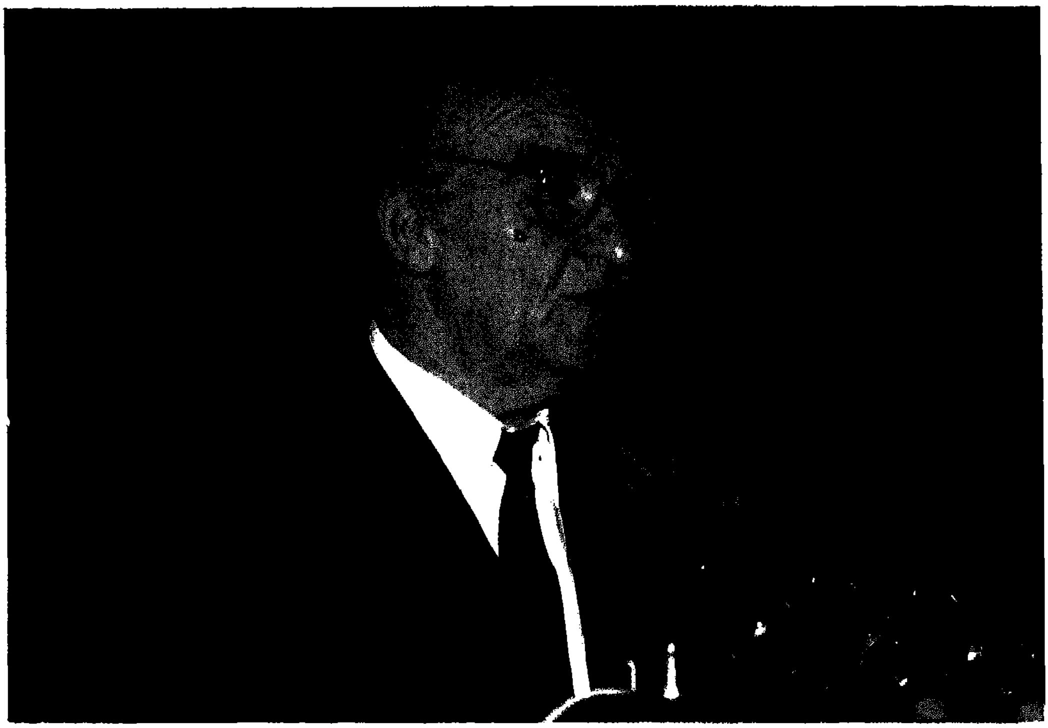
أما الموضوع الثاني وهو شهود الجرائم ، أولئك الذين تعرضوا بشكل مباشر للتعذيب الجتنيكي الوحشي ، وأقوال النساء المغتصبات والرجال المعذبين في المعتقلات ، فبعد قراءتها يبقى الإنسان مذهولاً أبكم .

وفي هذا الجزء من الكتاب ينتقل السيد بوشكار من دوره المشارك الفعال في الأحداث إلى دور صحفي ومسجل ، وذلك لغرض واحد فقط - حفظ كل شيء وبيانه من أجل العالم ، لكن ومن أجل أنفسنا نحن أولاً .

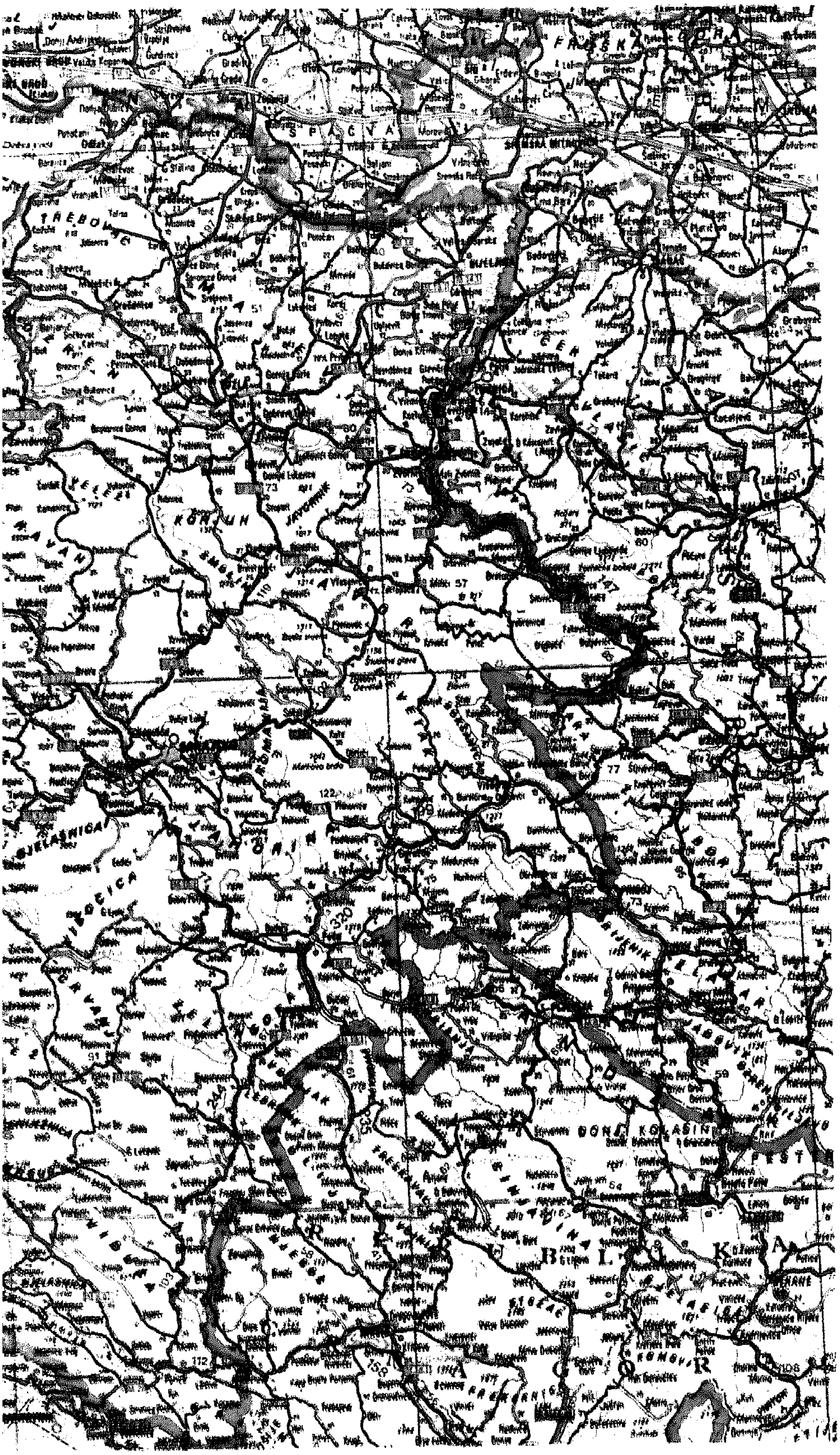
سراييڤو : مايو ١٩٩٤م .

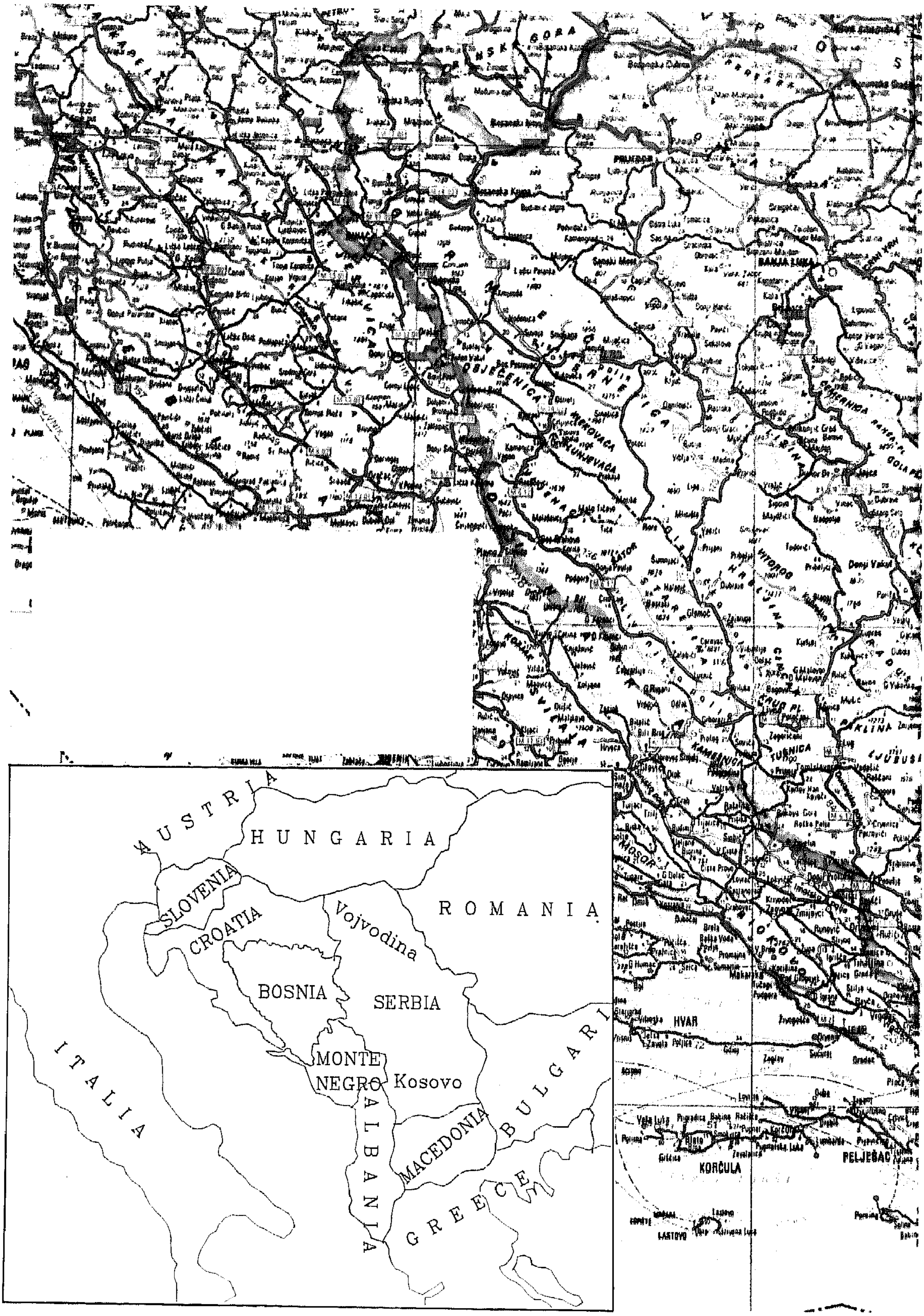
الماچستير عائشة صوڤيتش

مُلحَق الصُّوَر



الرئيس على عزّت بيجوفيتش
رئيس دولة البوسنة والهرسك

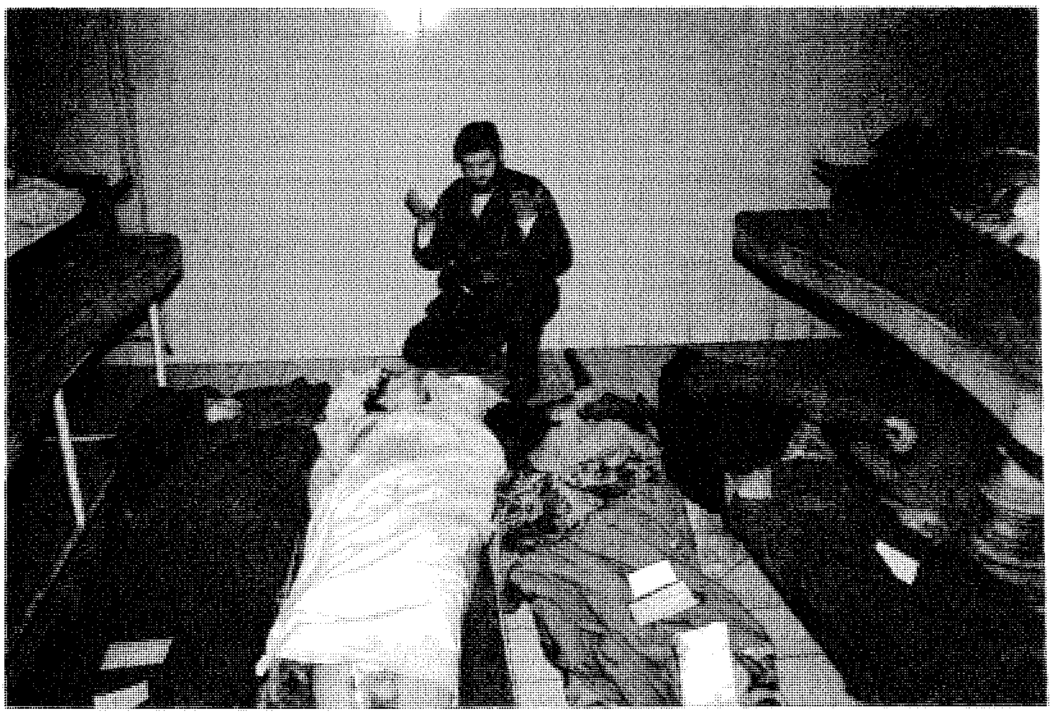



AUSTRIA
HUNGARIA
SLOVENIA
CROATIA
Vojvodina
ROMANIA
BOSNIA
SERBIA
MONTE NEGRO
Kosovo
ITALIA
ALBANIA
MACEDONIA
BULGARIA
GREECE
BANJA LUKA
HVAR
KORČULA
PELJEŠAC
LASTOVO

مذبحة مجزرة



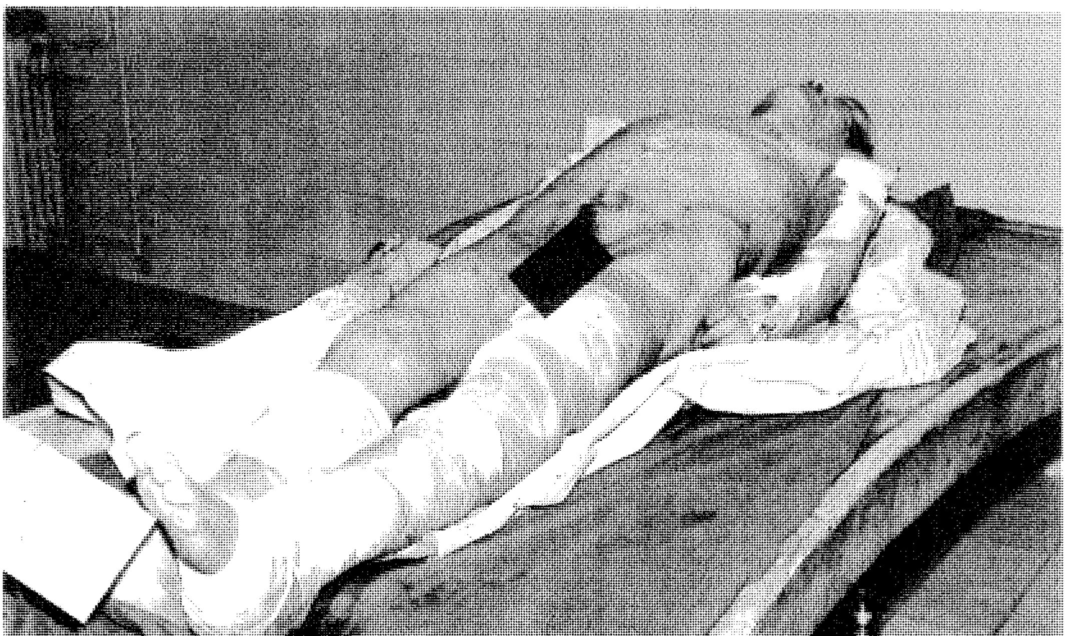
١ ـ مُسْتَشفى كوشَفو



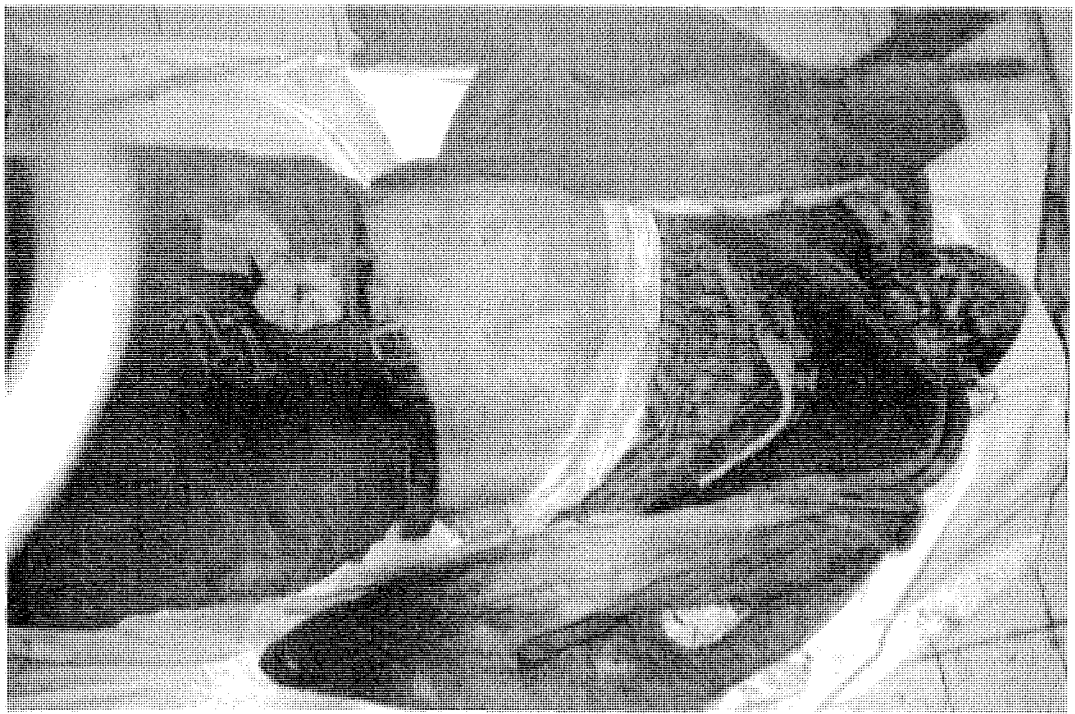
٢ ـ مُسْتَشفى كوشَفو



٣ ـــ ضحية شابة مسلمة في ساراييفو



٤ ـــ ضحية مشوّهة ، مستشفى كُوشفو ، ساراييفو



٥ ـ يكون كشف الهوية عن طريق الملابس والوثائق الشخصية فحسب .



٦ ـ ضحية مشوهة ، مستشفى كوشنو ، سارايفو



٧ ـــ مستشفى كوشڤو ، ساراييفو



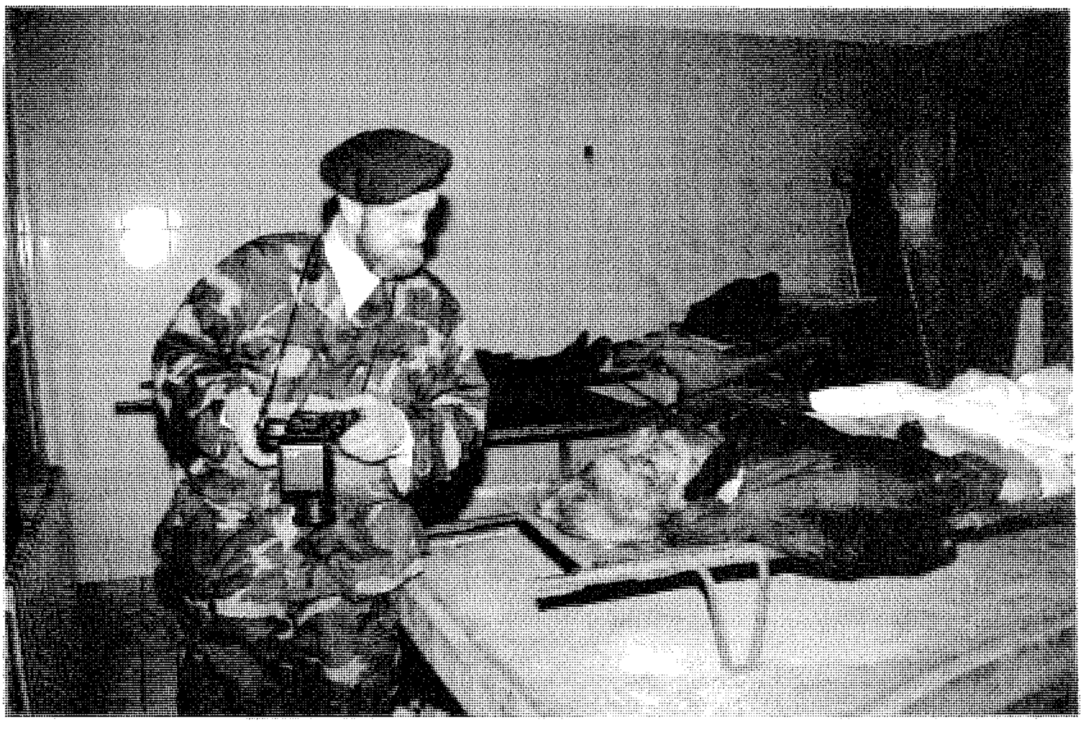
٨ ـــ مستشفى كوشڤو ، ساراييفو



٩ ــ قذيفة ام قناصة ، ليس بمُهم



١٠ ــ مستشفى كوشفو ، سارايفو



١١ ــ مستشفى كوشفو ، سارايفو



١٢ ـ ضحية مقطوعة الرأس ، مستشفى كوشفو



١٣ ـ ضحايا مذبوحة ذبحًا جماعيًا ، جبل رأس النرس ، سارايينو



١٤ ــ مستشفى كوشفو ، ساراييفو



١٥ ــ يأتي إنسانيا ويتحول إلى إجرام ؟



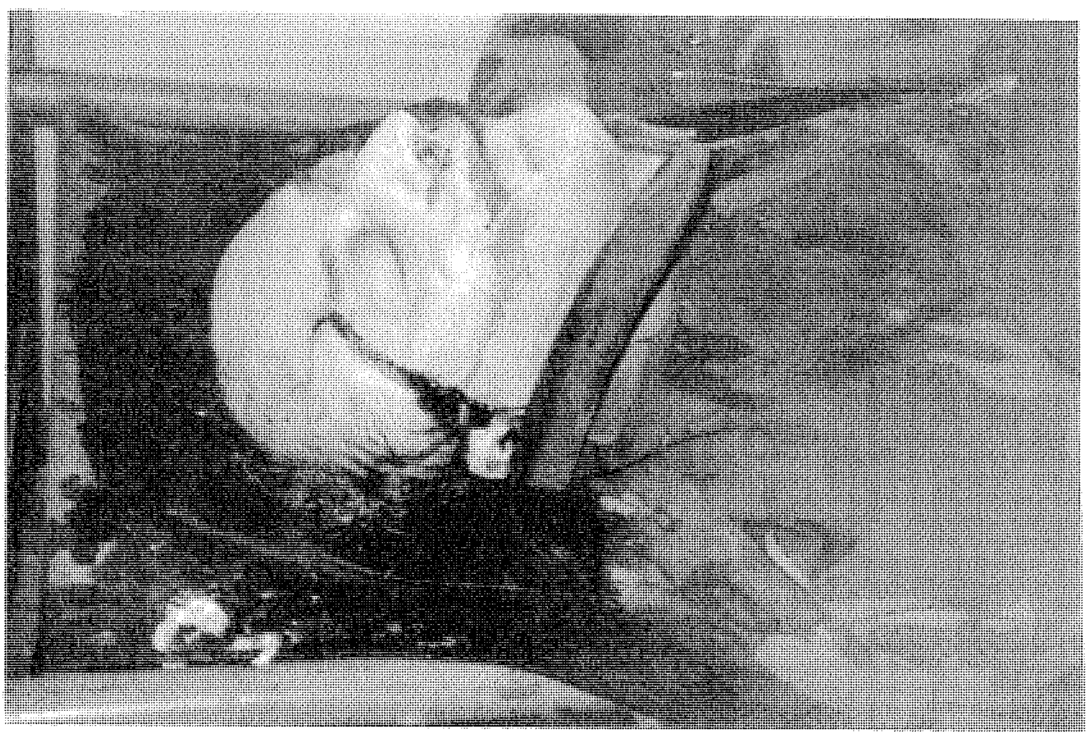
١٦ ــ مستشفى كوشفو ، ساراييفو



١٧ ــ يقول المشروع الصربي الدموي : « اضمحلال مسلمي البوسنة »



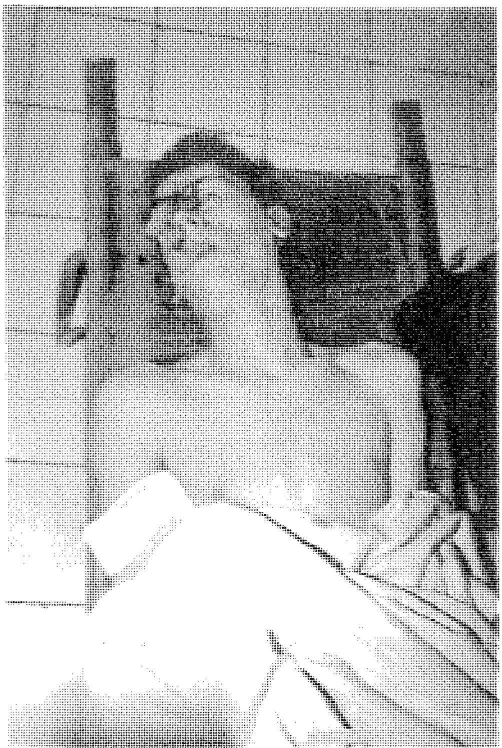
۱۸ ــ مستشفی کوشفو ، ساراييفو



۱۹ ــ مستشفی کوشفو ، ساراييفو



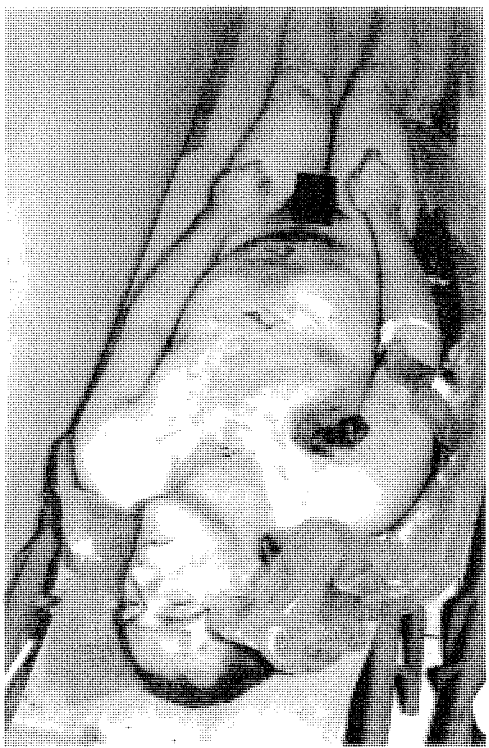
۲۰ ـ مستشفی کوشفو ، سارایینو



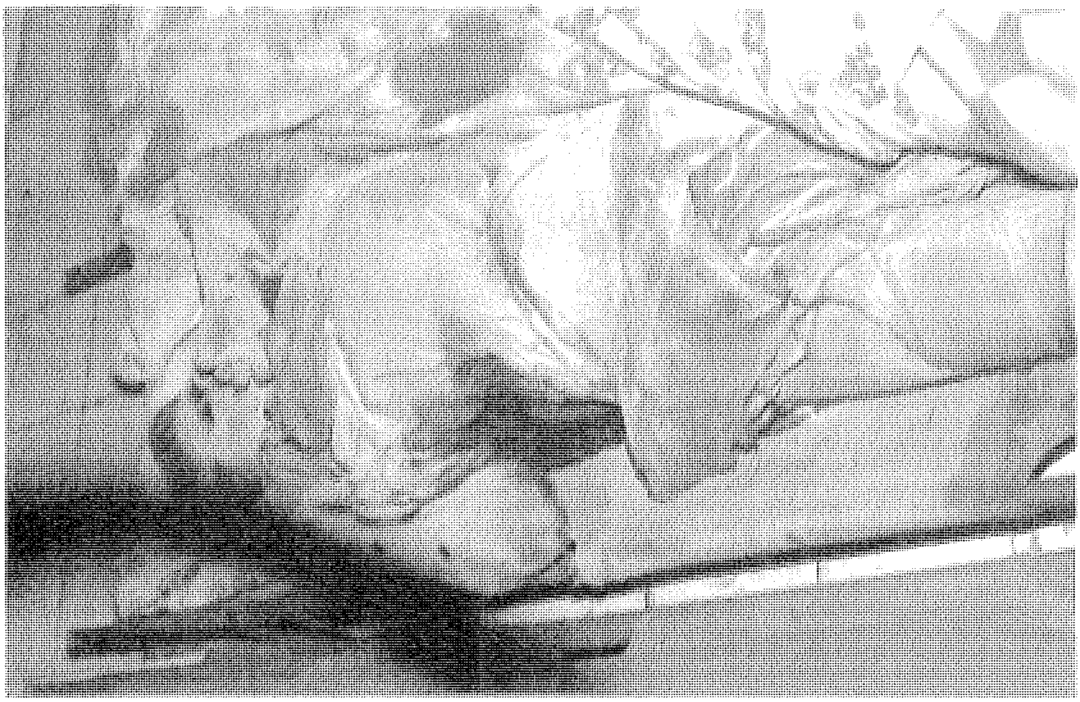
۲۱ ـ مستشفی کوشفو ، سارایینو



۲۲ ـ مستشفی کوشفو ، سارایینو



۲۳ ـ مستشفی کوشفو ، سارایینو



٢٤ ــ مسلمة حبلى ذُبحت بطريقة وحشية من قبل الصرب



٢٥ ــ مستشفى كوشفو ـ سارايفو



٢٦ ــ مستشفى كوشفو ، سارايفو



٢٧ ــ مستشفى كوشفو ، سارايفو



٢٨ ــ ضحايا مذبوحة ذبحا جماعيا ، مستشفى كوشفو



٢٩ ــ مستشفى كوشفو ، سارايفو



٣٠ ـ مستشفى كوشفو ، سارايفو



٣١ ـ ضحايا في مدينة بوغوينو



٣١ أ ـ ضحية في ساراييفو ، مستشفى كوشفو



٣٢ ـ ضحايا ذبحت رقابهم ، مستشفى كوشفو ، سارايفو .



٣٢أ ـ ضحايا مذبوحة ذَبْحًا جماعيًا ، مستشفى كوشفو ، سارايفو



٣٣ ـ ضحايا ذبحت رقابهم ، مستشفى كوشفو ، سارايفو .



١٣٣ــ مستشفى كوشفو ، سارايفو



٣٤ـ ضحايا ذبحت رقابهم ، مستشفى كوشفو ، سارايفو .



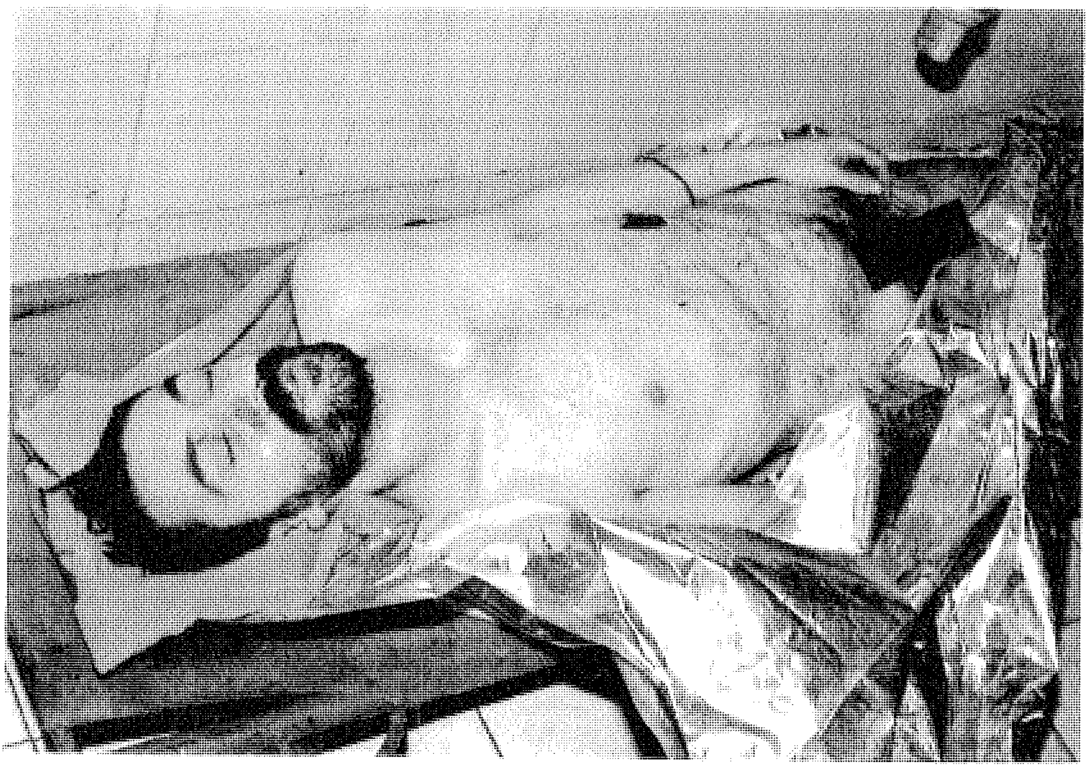
٣٥ـ مستشفى كوشنو



٣٦ـ مستشفى كوشنو



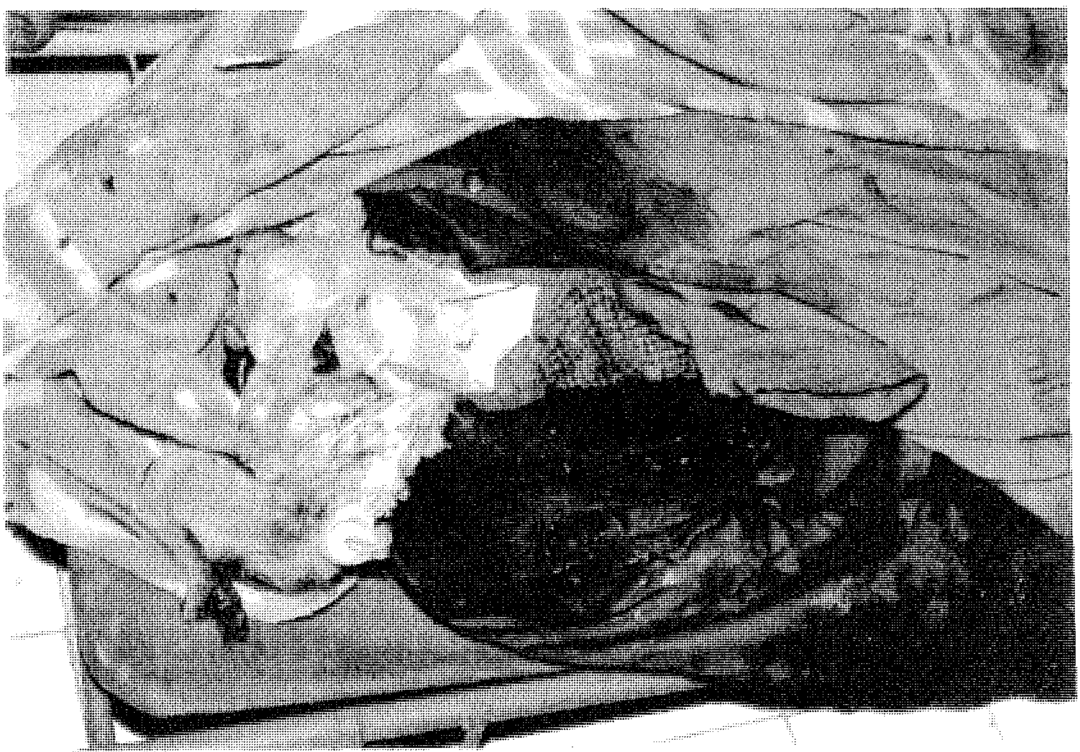
۳۷ـ مستشفى كوشنو



۳۸ـ مستشفى كوشنو



٣٩ ـ مستشفى كوشفو



٤٠ ـ ضحية مقطوعة الرأس ـ مستشفى كوشفو



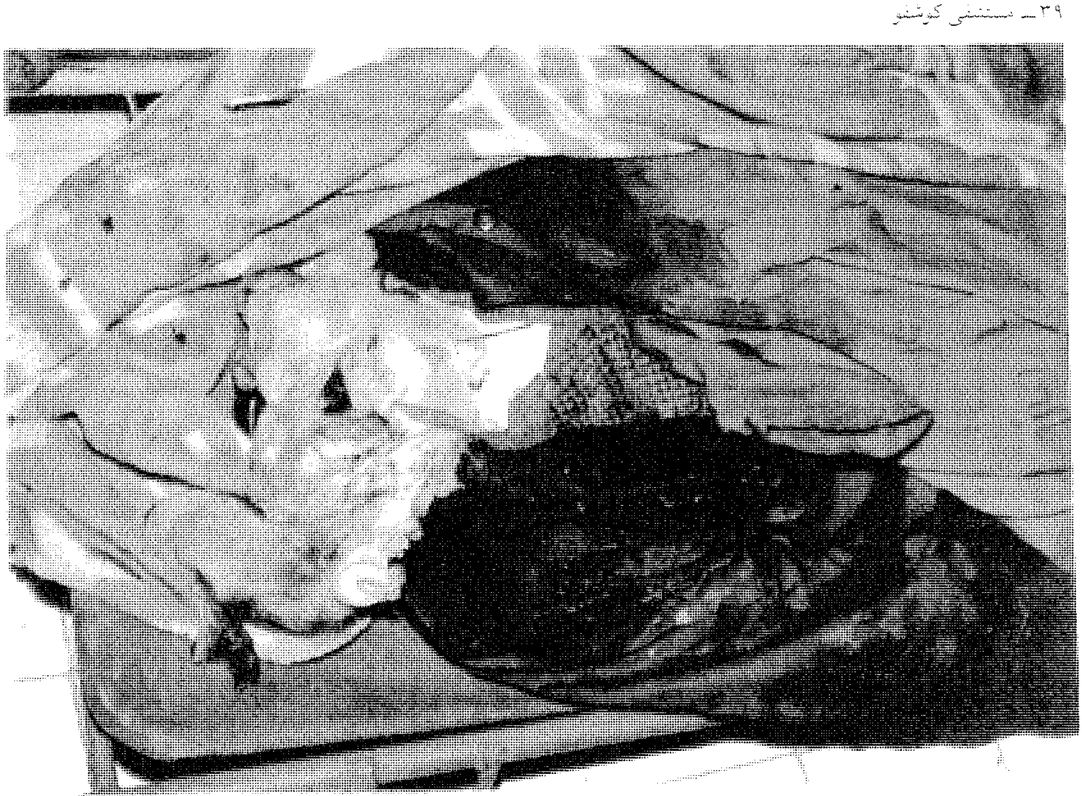
٤١ ـ ضحايا : عائلات بأسرها مستشفى كوشنو



٤٢ ـ مستشفى كوشنو



٣٩ ــ مستشفى كوشنو



٤٠ ــ ضحية مقطوعة الرأس . مستشفى كوشنو



٤١ ـ ضحايا : عائلات بأسرها مستشفى كوشنو



٤٢ ـ مستشفى كوشنو



٤٣ ـــ ساراييفو بِسْتريك ـ مكان قتل المدنيين قتلاً جماعيًا



٤٤ ـــ مستشفى كوشفو



٤٥ ـــ ضحية في مدينة توزلا بواسطة القناصة

الجرحى والمعوقين المشــوهين



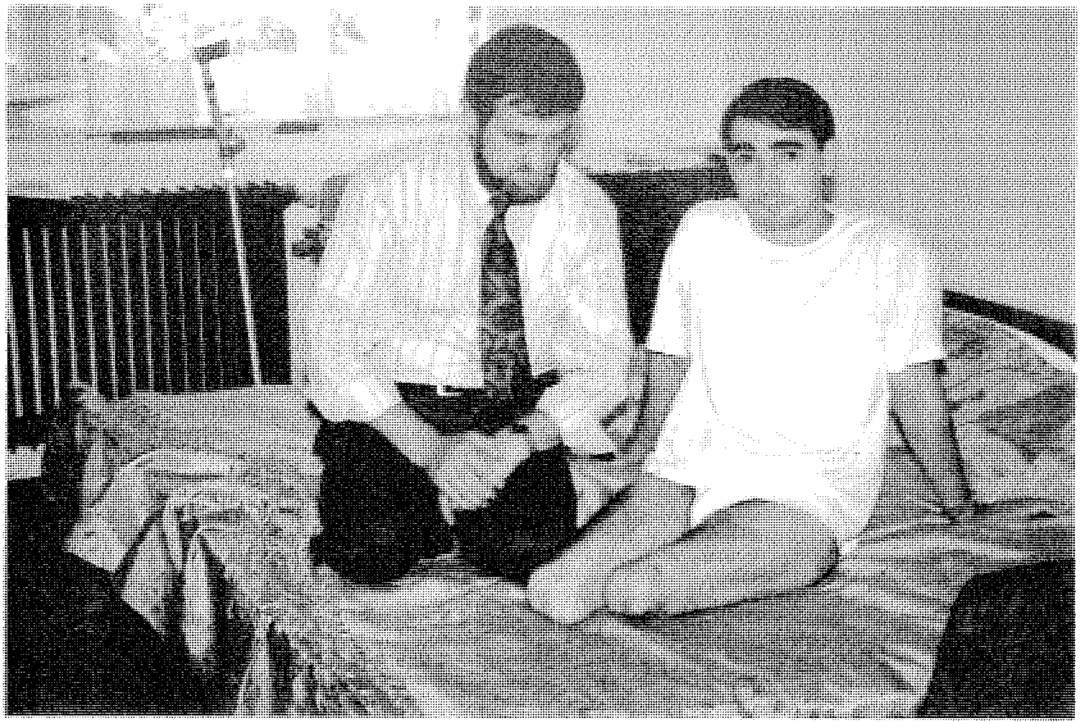
٤٦ ــ ضحية في سارايفو



٤٧ ــ مكتب المسلمين ، حجرة الطوارئ في سارايفو



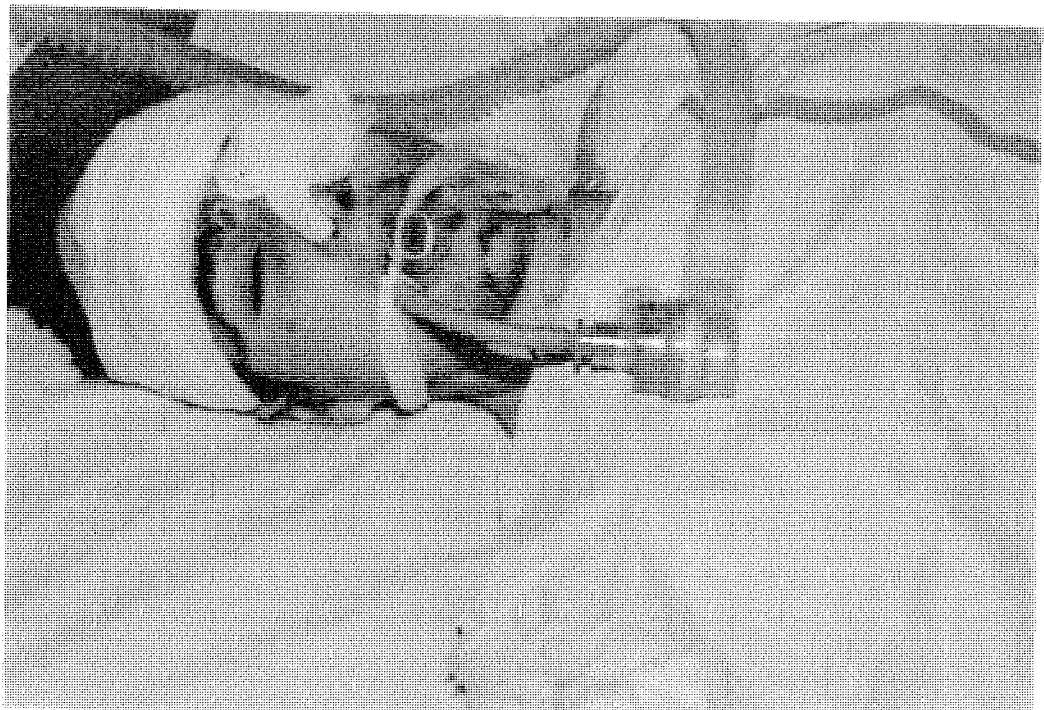
٤٨ ــ ضحية في توزلا



٤٩ ــ استرداد الجنود فى لوبلانا ، سلوفينيا



٥٠ ــ مسلم مجروح يقاتل من أجل حياته فى توزلا



٥١ ــ ضحية في توزلا



٥٢ ــ ضحية في توزلا



٥٣ ــ ضحية فى سن المراهقة فى توزلا



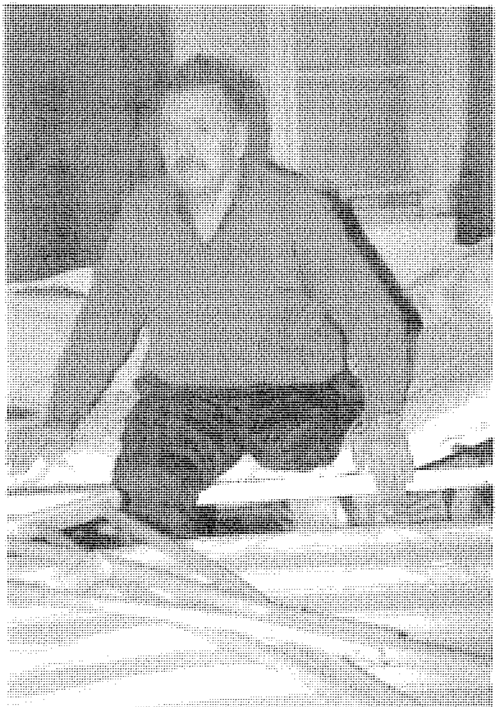
٥٤ ــ ضحية فى سارايينو



٥٥ ــ مسلم مجروح يصارع من أجل حياته فى توزلا



٥٦ ـ ضحية فى بُوغُوينو



٥٦أ ـ مدنيون جرحى ، مستشفى كوشنو



٥٧ ـ آبا سليم أوفيتشى ، قائد البيريه الخضراء



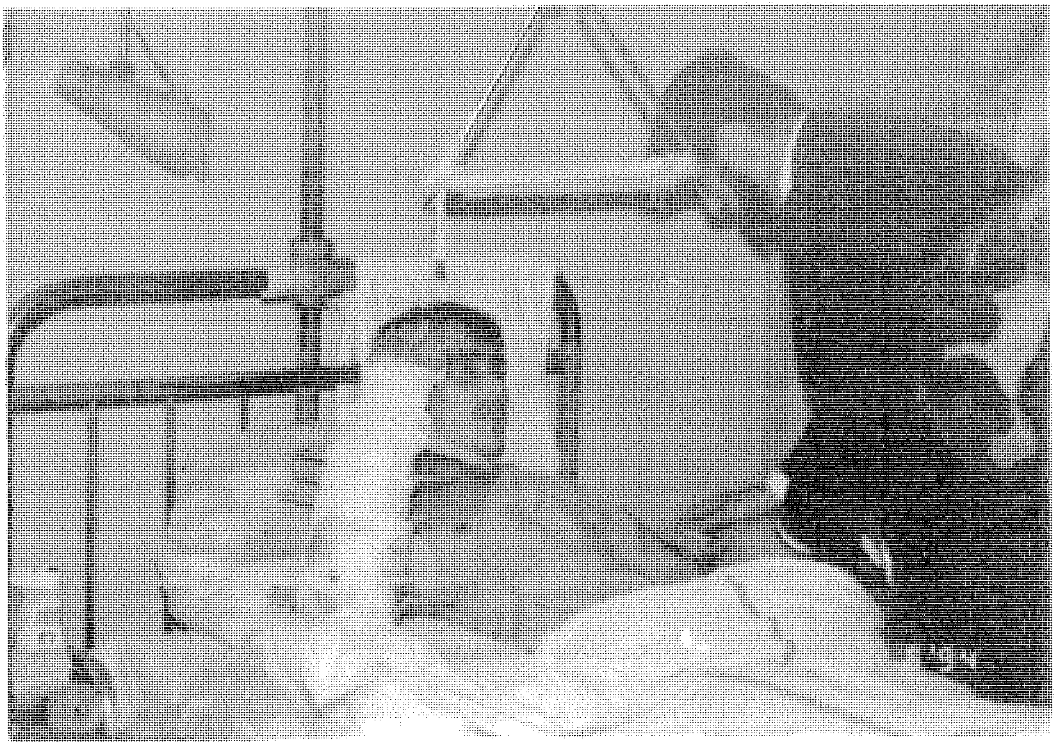
٥٧أ ـ جندى جريح من وحدة « الفاتح »



٥٨ ـ ضحية في مدينة بوغوينو



٥٩ ـ ضحية في مدينة بوغوينو



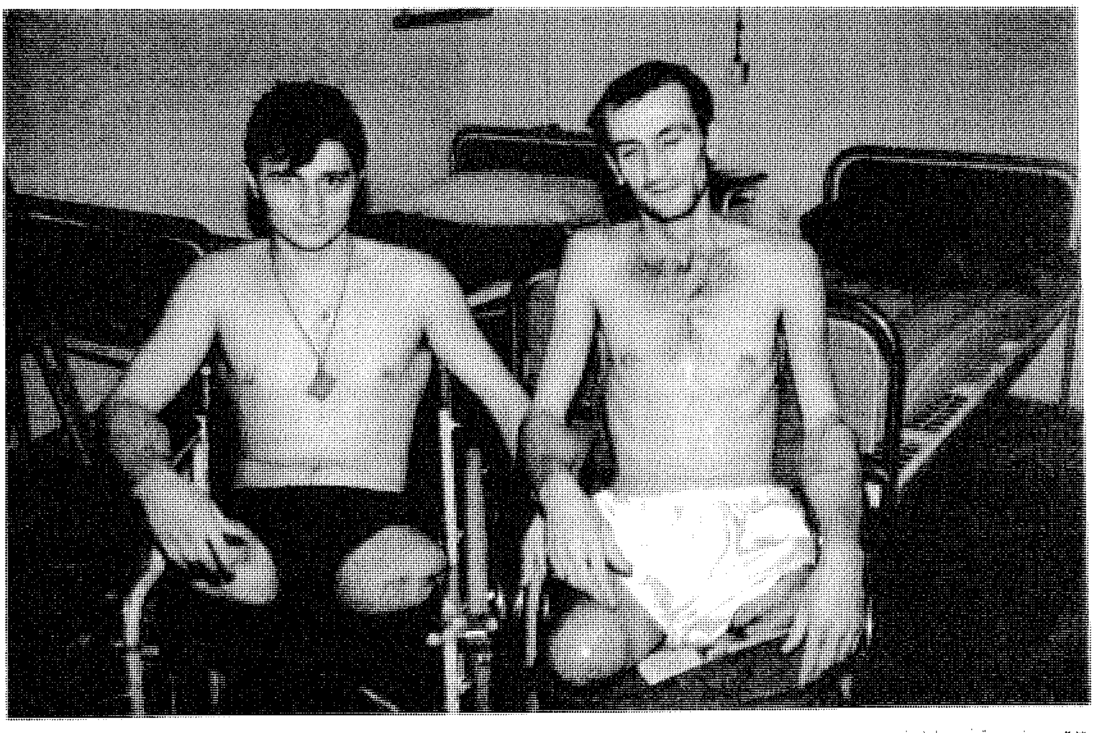
٦٠ ــ ضحية في مدينة بوغوينو



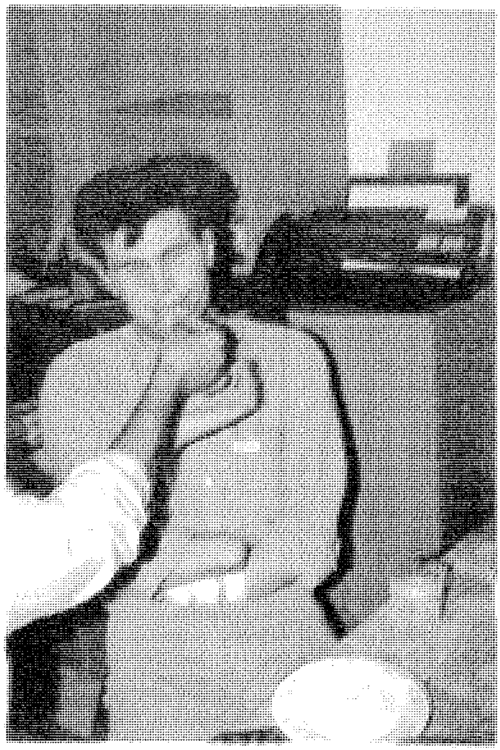
٦١ ــ المؤلف وطاقم مستشفى بوغوينو يزور المرضى



٦٢ ـ أدهم قاوازوفيتش فى مستشفى كوشفو ، سارايفو

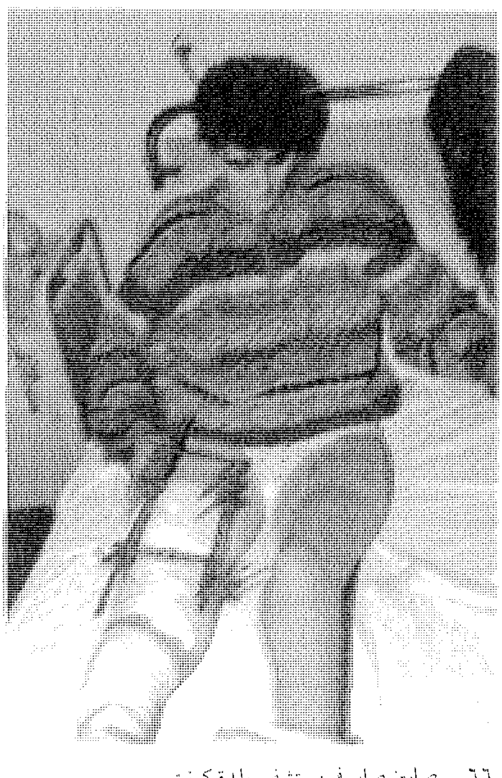


٦٣ ـ ضحية فى سارايفو





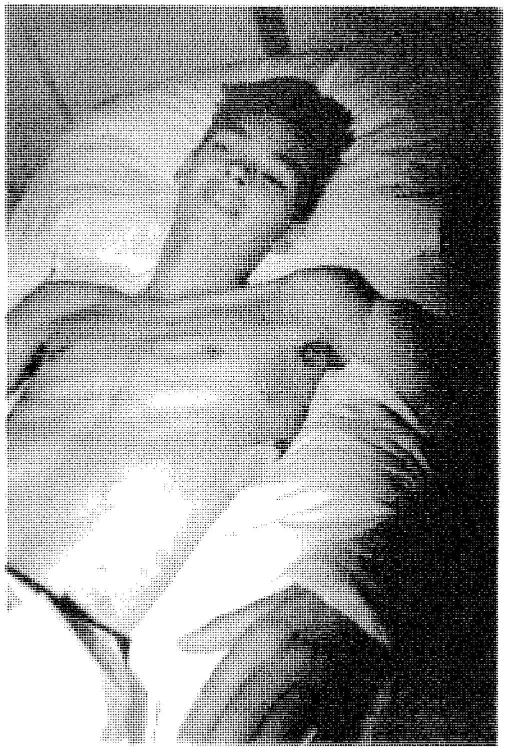
٦٤و٦٥ــ بحر الدين مويكتش . من القوات الخاصة في الجيش البوسني



٦٦ ــ صابين صابر في مستشفى بلدة كونيتس



٦٧ــ علمي مصطفى في مستشفى بلدة كونيتس



٦٨ ـــ سامر مصطفتش من الوحدة المسلمة ٥٠٥



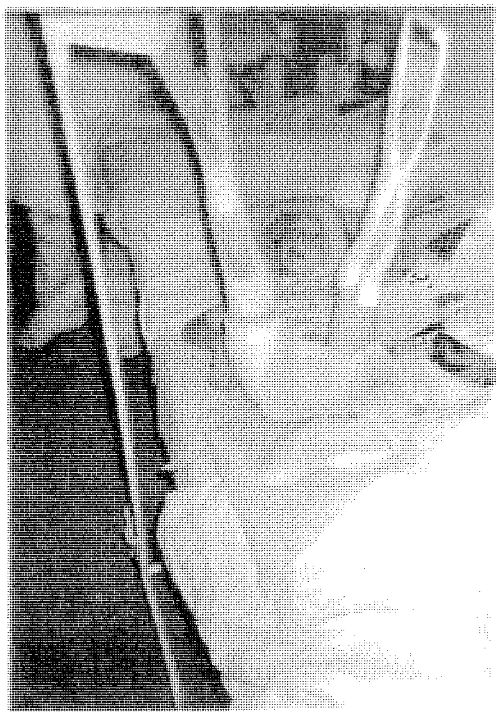
٦٩ ـــ علمي مصطفى



٧٠ ـــ ضحية في بَرْغُوينو



٧١ـ طفل جريح في مدينة موستار



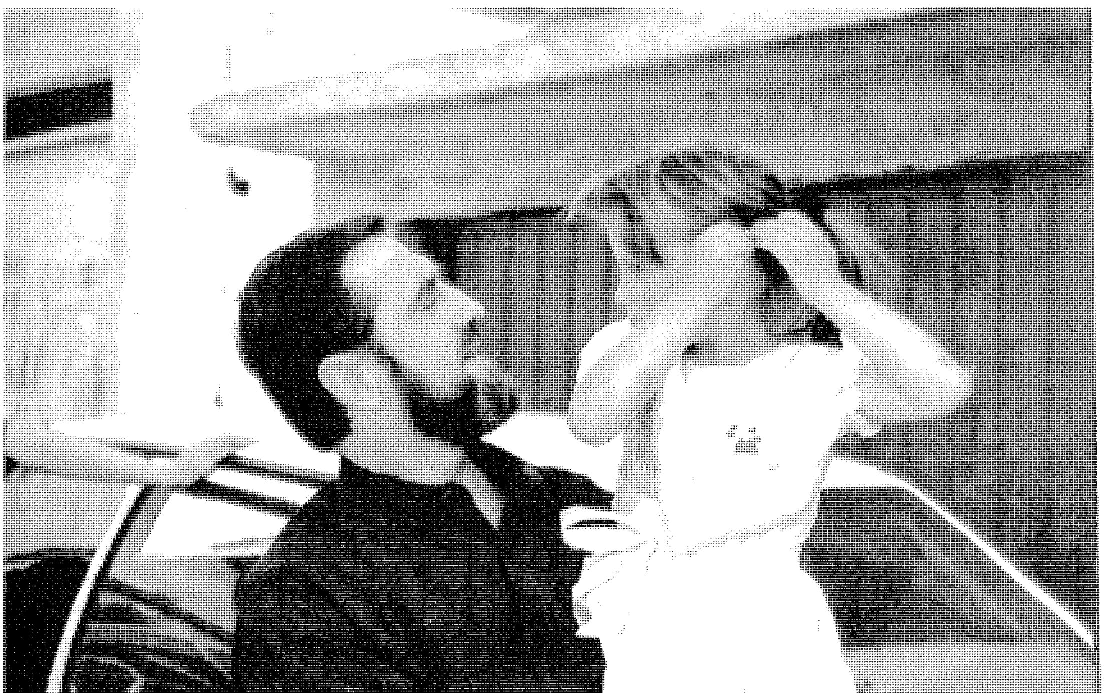
٧٢ ـ طفل جريح في مدينة بوغوينو



٧٣ ــ المراهق في مستشفى زينتسي



٧٤ ـ ضحية في بوغوينو



٧٥ ـ المؤلف مع اليتيم من سارايينو



٧٦ ــ ضحية القذيفة في ساراييفو



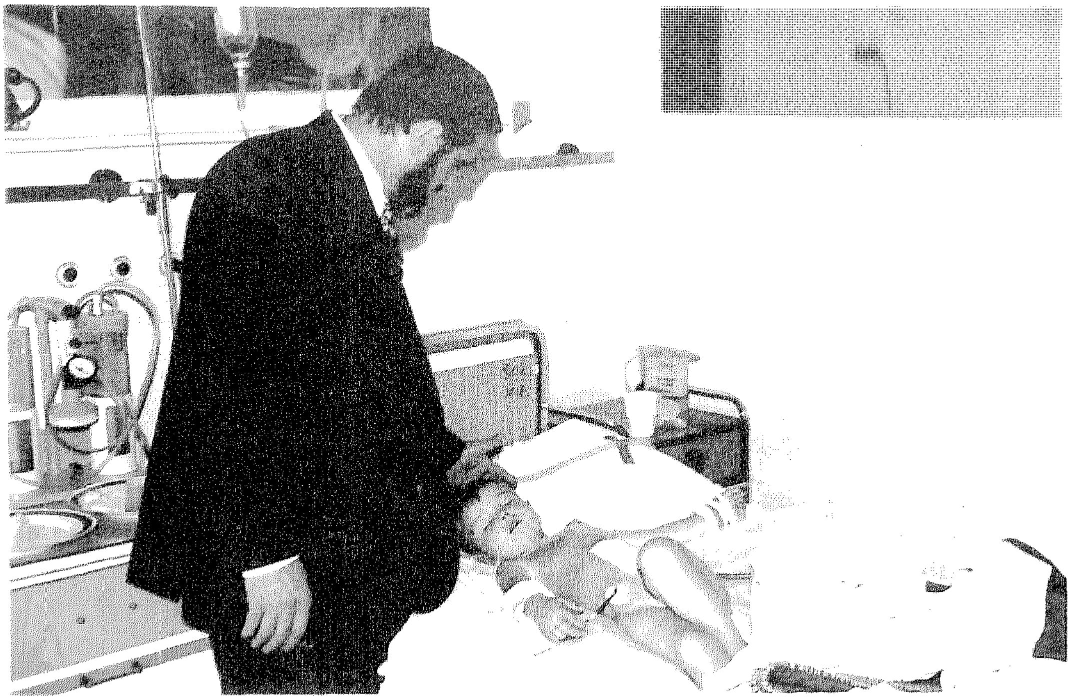
٧٧ ــ طفل ـ ضحية في موستار



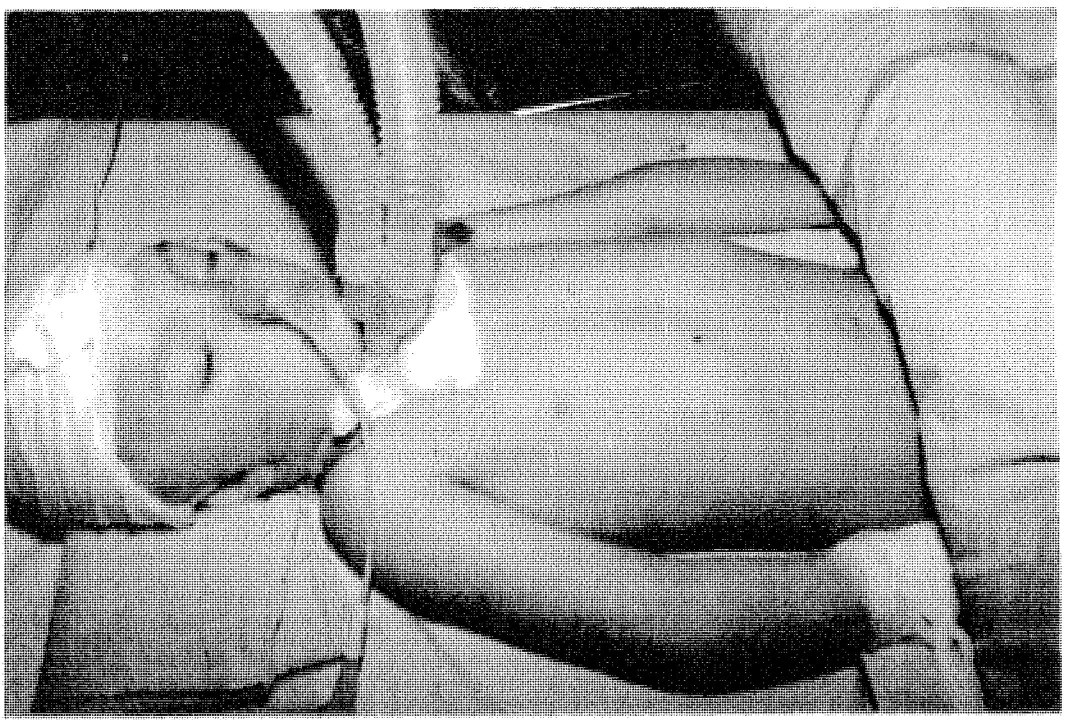
٧٨ ــ طفل ـ ضحية في موستار



٧٩ ــ ضحية ـ طفل في بوغوينو



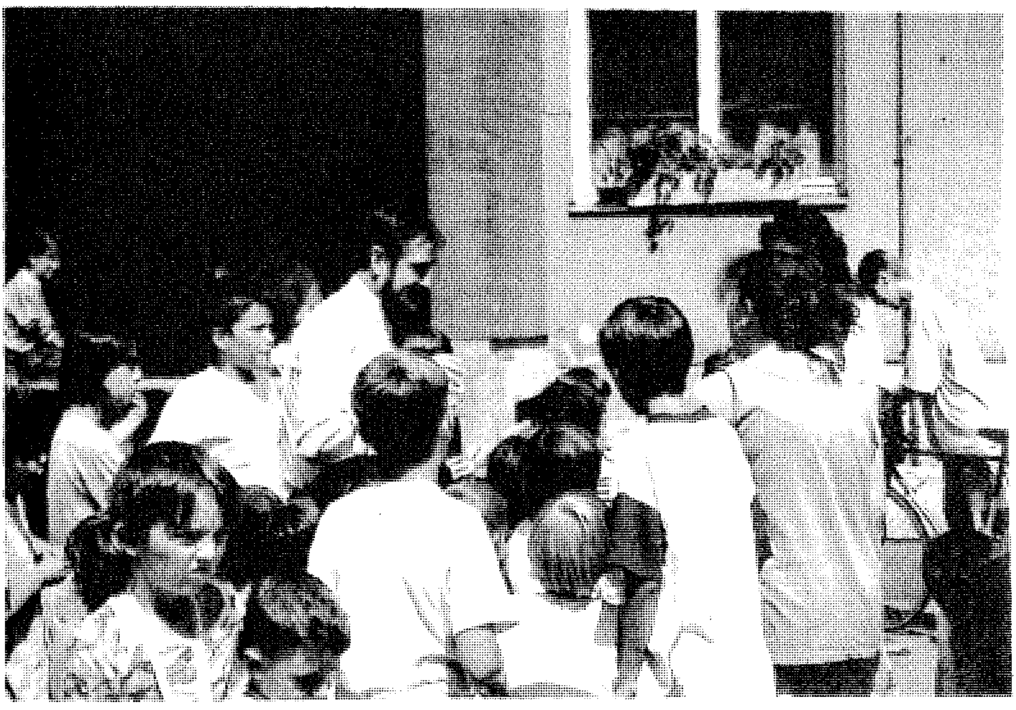
٨٠ ـ طفل جريح في موستار



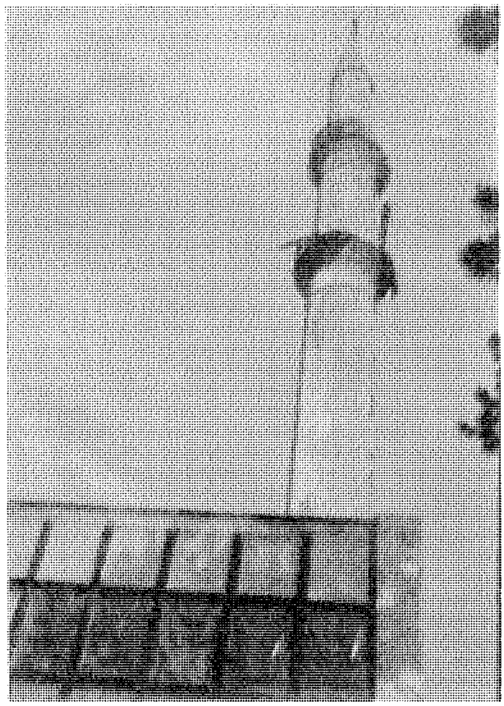
٨١ ـ الطفل في توزلا يصارع من أجل حياته

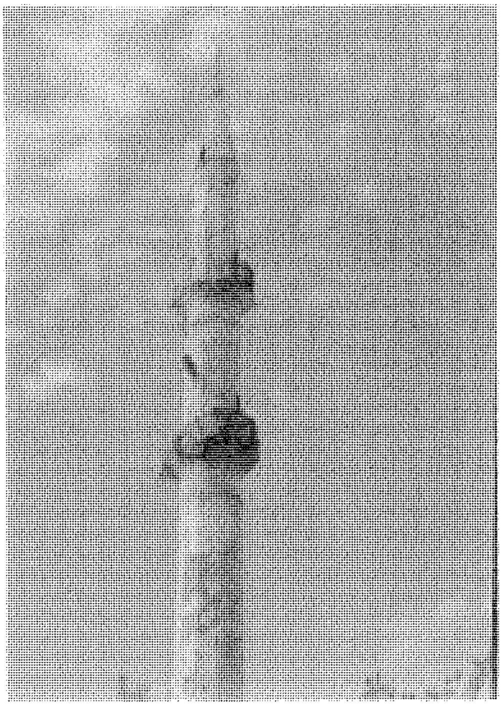


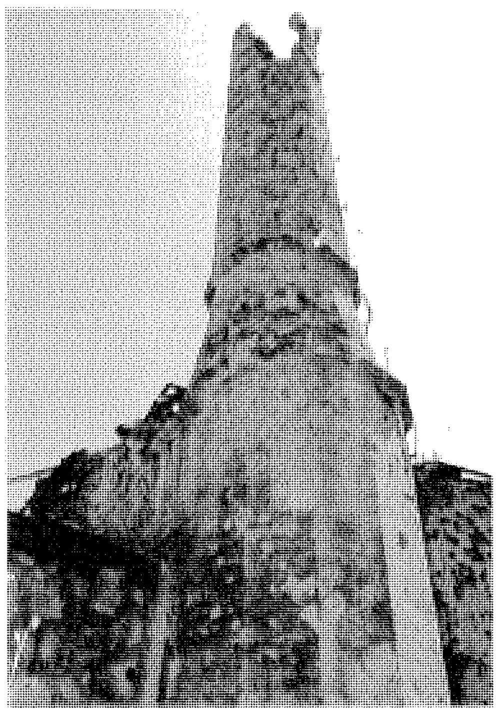
٨١ أ ــ طفل ـ ضحية في موستار

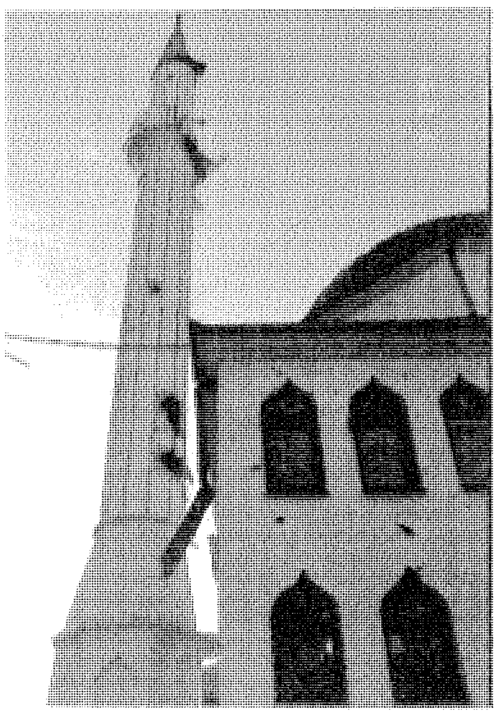


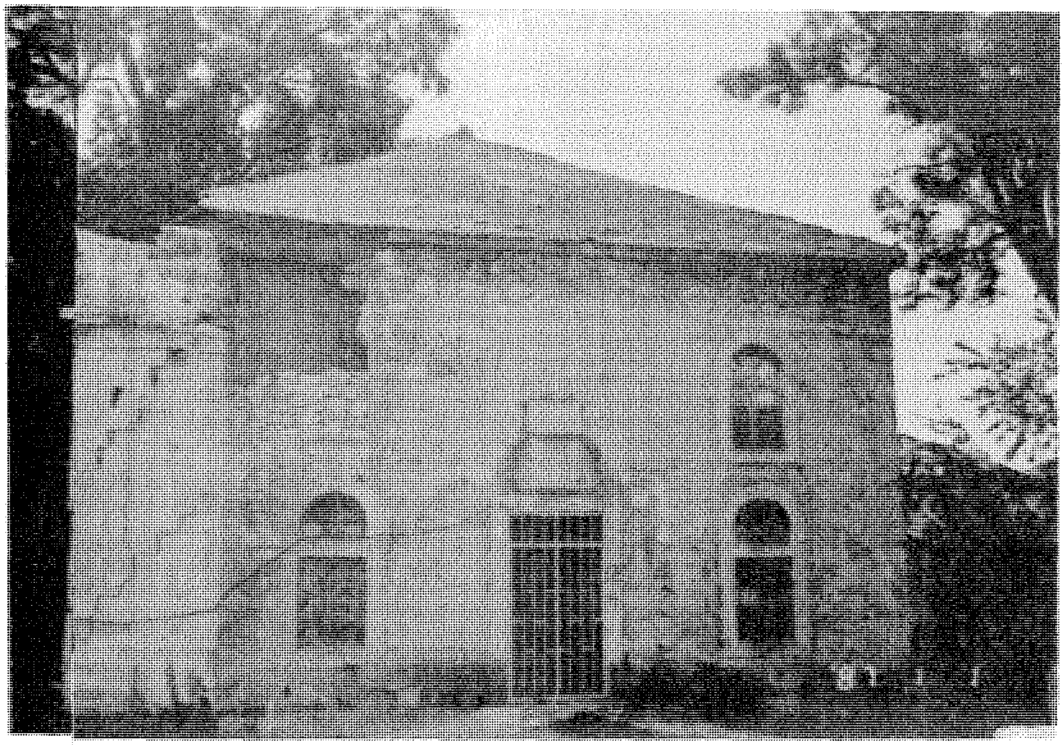
٨٢ ــ المؤلف مع الأطفال في سارايفو


٨٣ ــ جامع في موستار


٨٤ ــ المأذنة المدمّرة في موستار

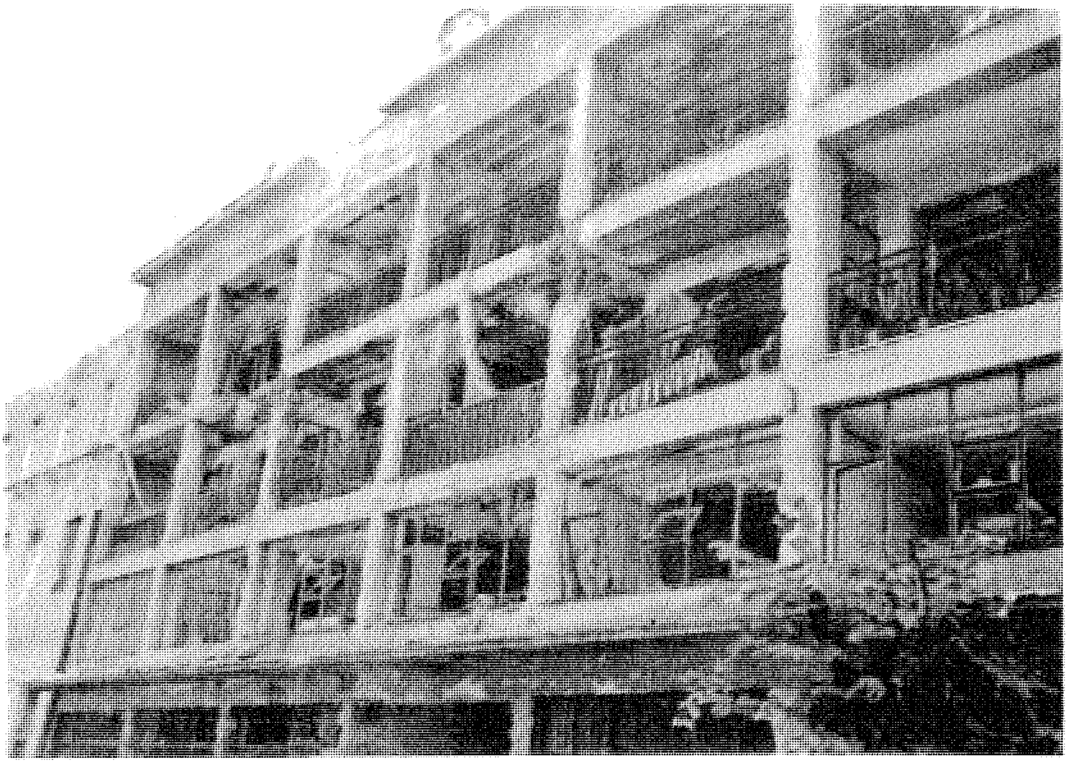

٨٥ ــ المسجد المدمر في موستار


٨٦ ــ المسجد المدمر في بلدة غورمني واقوف

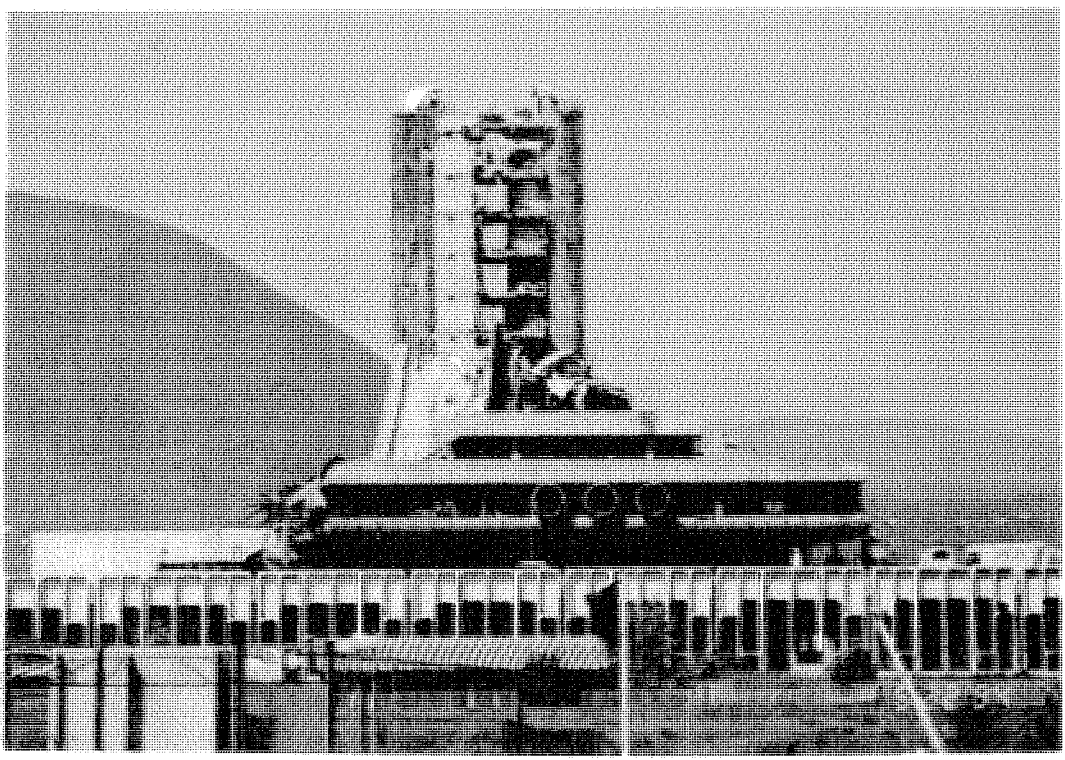


٨٧ ـ أحد أقدم مساجد شبه جزيرة البلقان





٨٩ ـــ مبنى الشقق فى موستار



٩٠ ـــ " أوسلوبوجيني " مبنى الجريدة فى سارايينو



٩١ ـــ محطة السكة في سارايفو



٩٢ ـــ المأذنة المدمرة في أحد المساجد الكثيرة في ضاحية نراتنيك ، سارايفو



٩٣ ـــ المسجد المحروق في بروساتس ـ بُوغْوينو



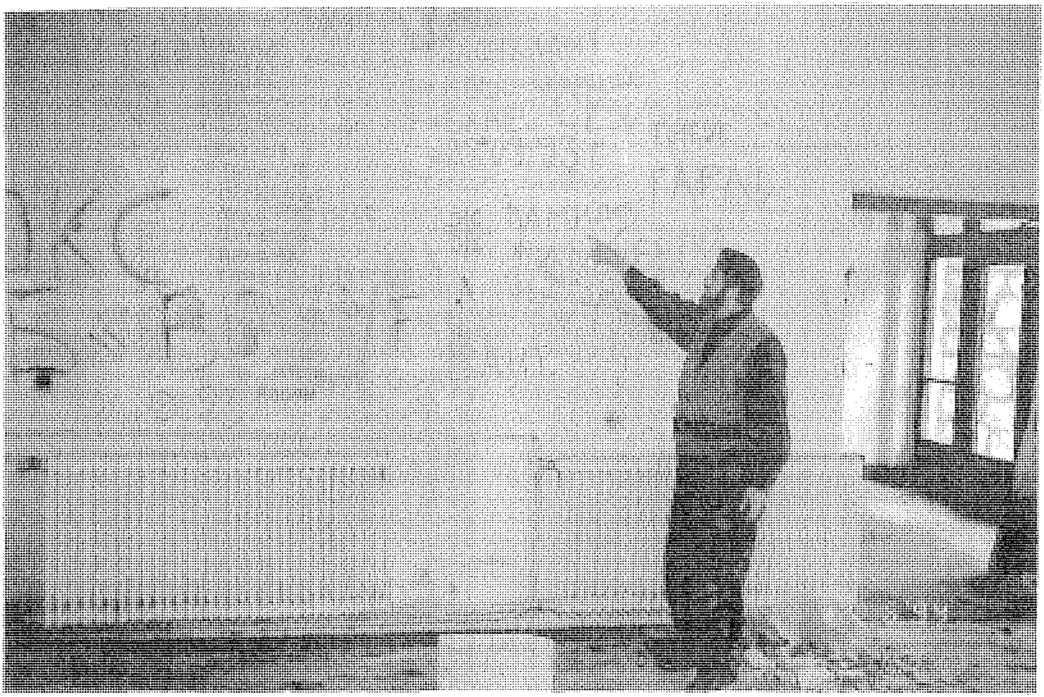
٩٤ ـــ المسجد في بروساتس ـ بوغونيو



٩٥ ـــ القرية المدمرة في بروساتس ـ بوغوينو



٩٦ ـــ مسقط رأس المؤلف ـ تسازين



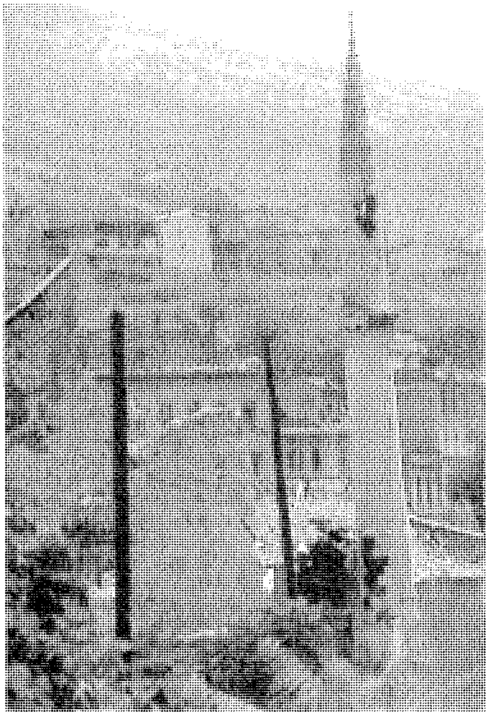
٩٧ ــ بعد أن حرّر الجيش البوسني نيساناس وجد آثار العدوان الصربي



٩٨ ــ القرية في بروساتنس ـ بوغوينو



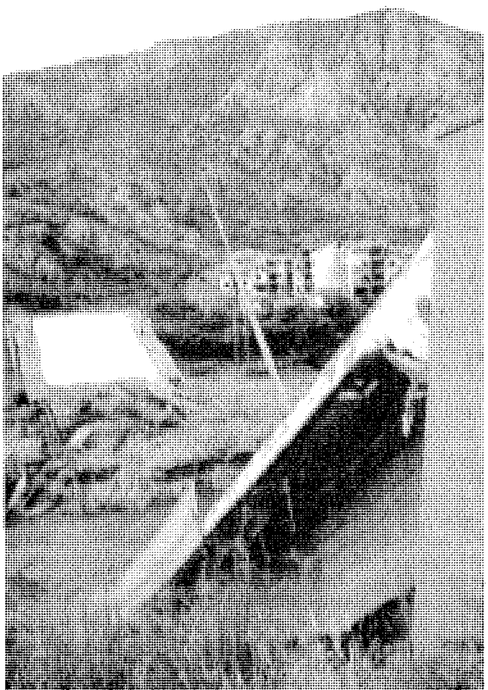
٩٩ ـ المسجد في موستار



١٠٠ ـ المسجد في موستار



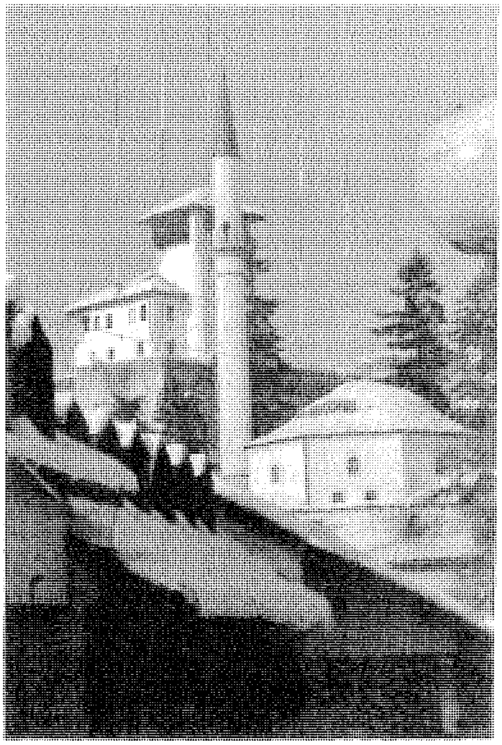
١٠١ ـ داخل المسجد في موستار



١٠٢ ـ جسر موستار المدمّر



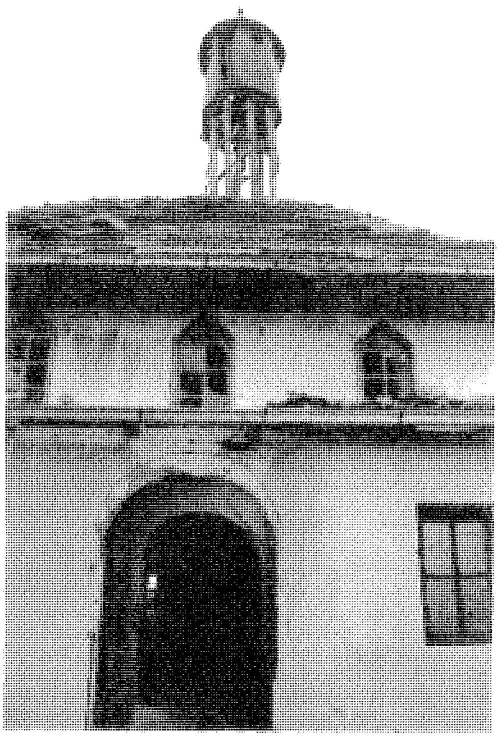
١٠٣ ـ الجامع في بروساتس ـ بوغوينُو



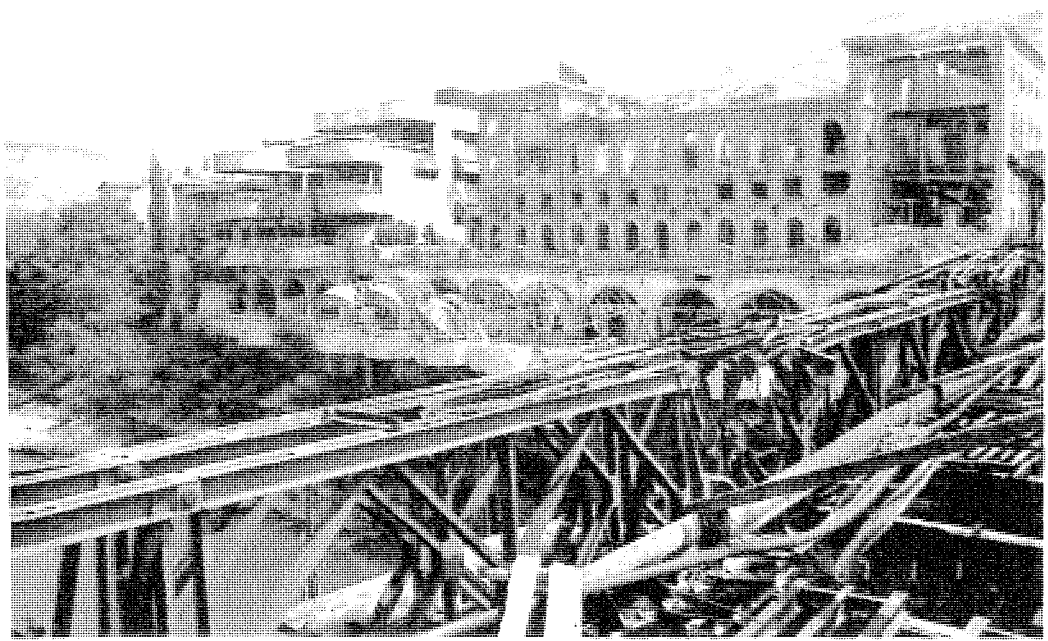
١٠٤ ـ القلعة المشهورة في غراداشاش



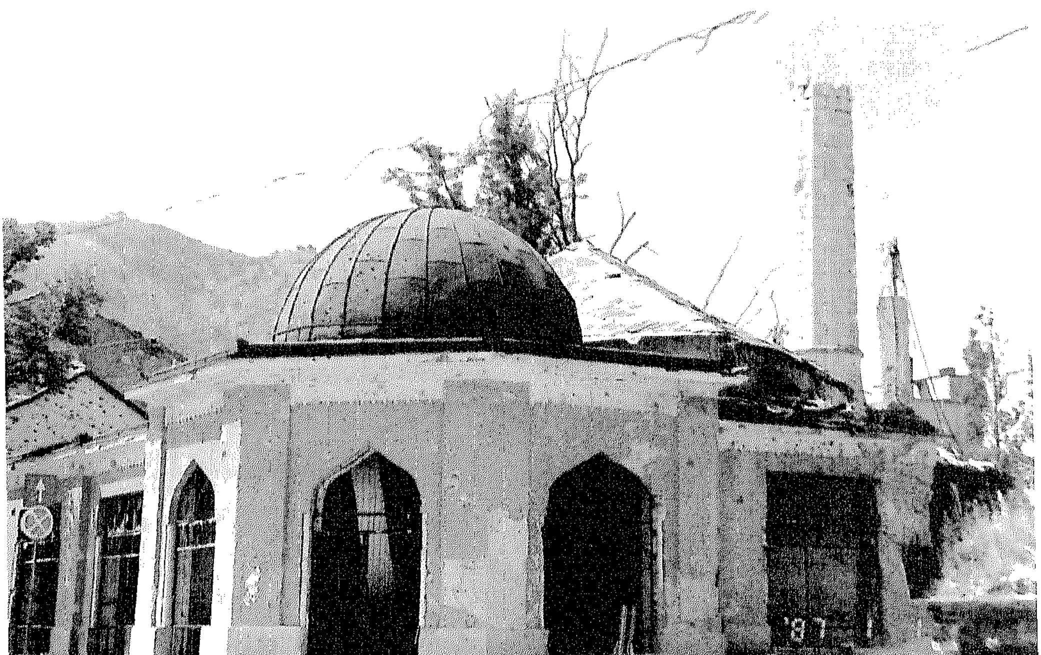
١٠٥ ـ الجامع المدمر في بلدة كونيس



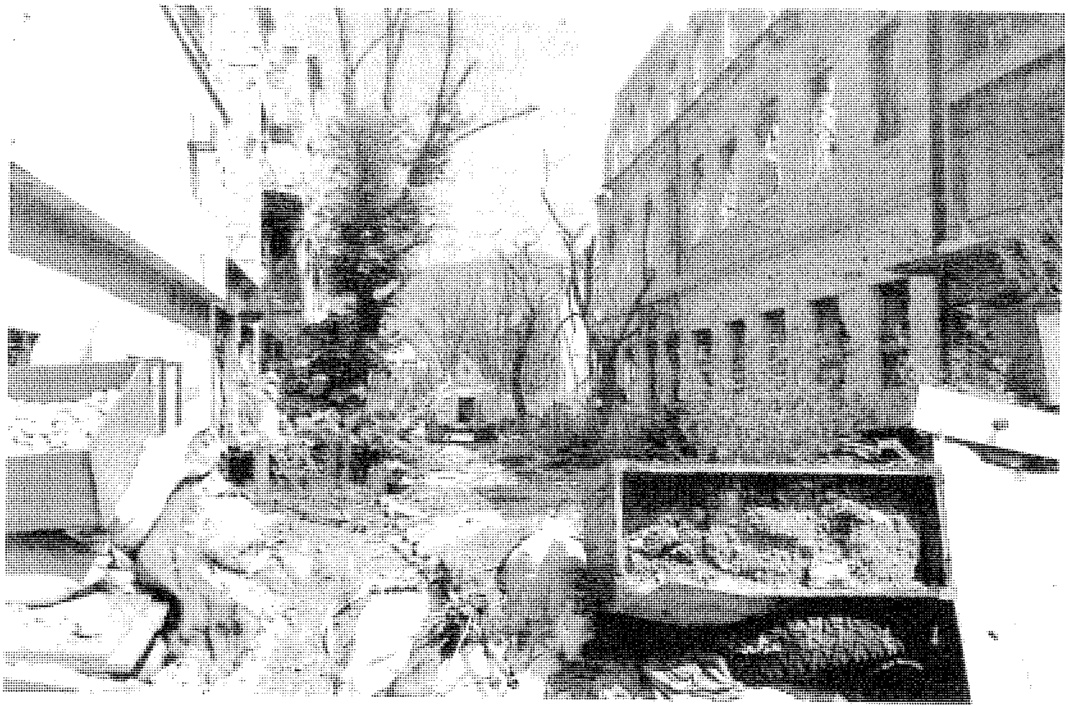
١٠٦ ـ الجامع في بروساتس ـ بوغوينُو



١٠٧ ـ مدينة موستار



١٠٨ ـ أحد أقدم جوامع موستار مدمر الآن



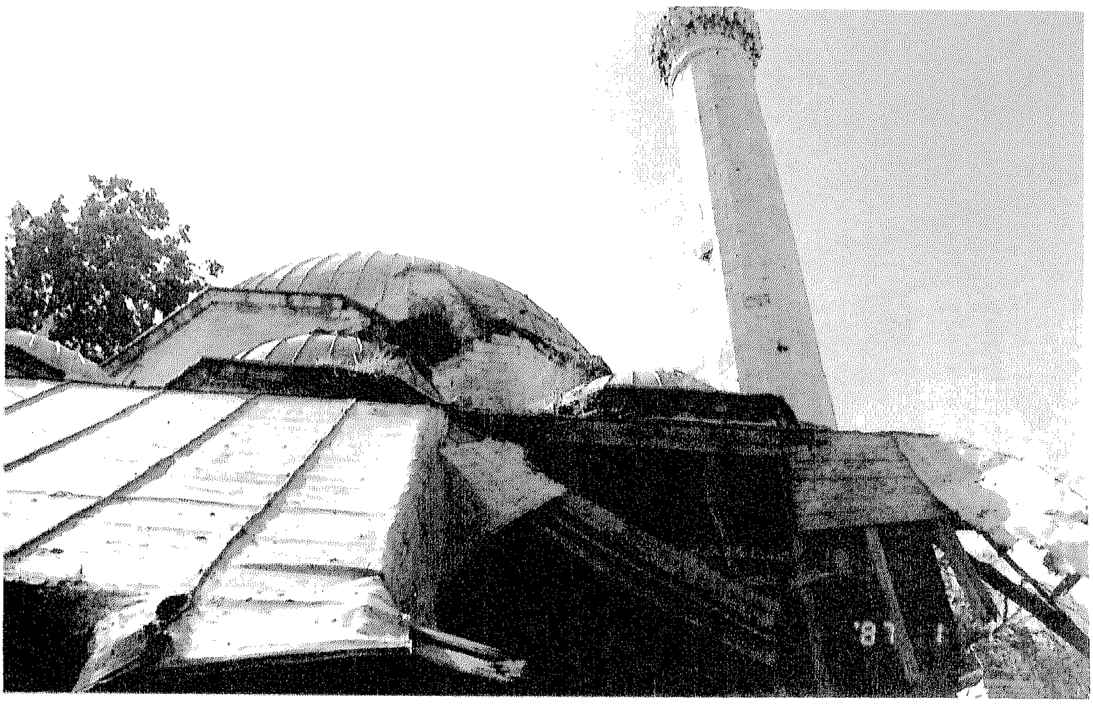
١٠٩ ـــ لقد كان هذا الشارع أجمل شوارع موستار في عام ١٩٩٢



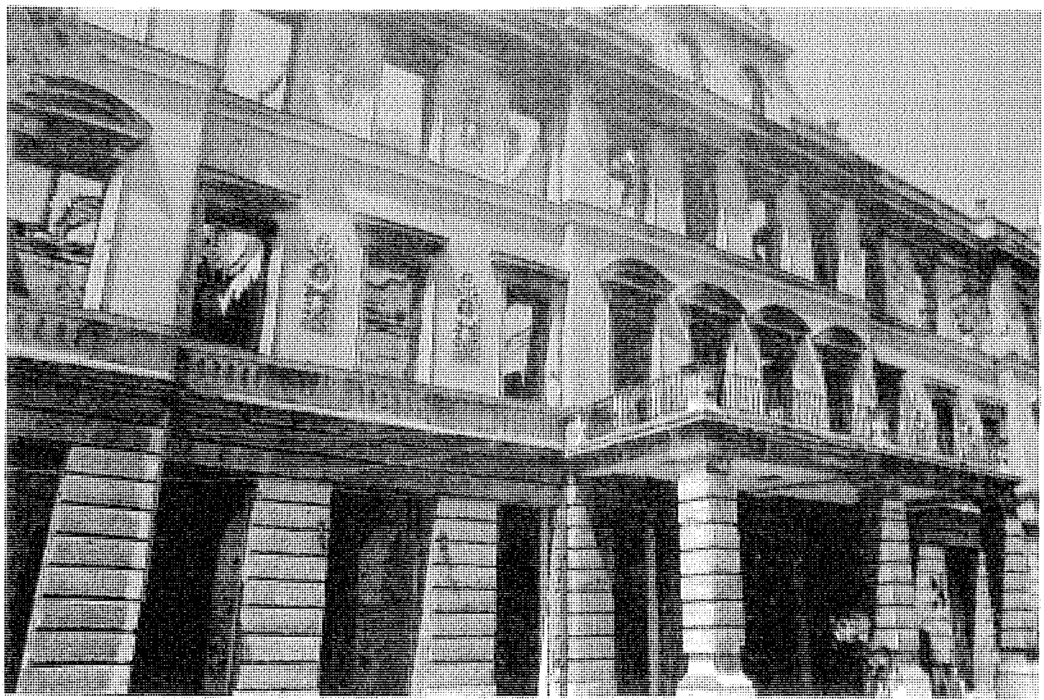
١١٠ ـــ المبنى المدمر في موستار



١١١ ـ مبنى المشقق في موستار



١١٢ ـ الجامع المدمر في موستار



١١٣ ــ المبنى العام في موستار



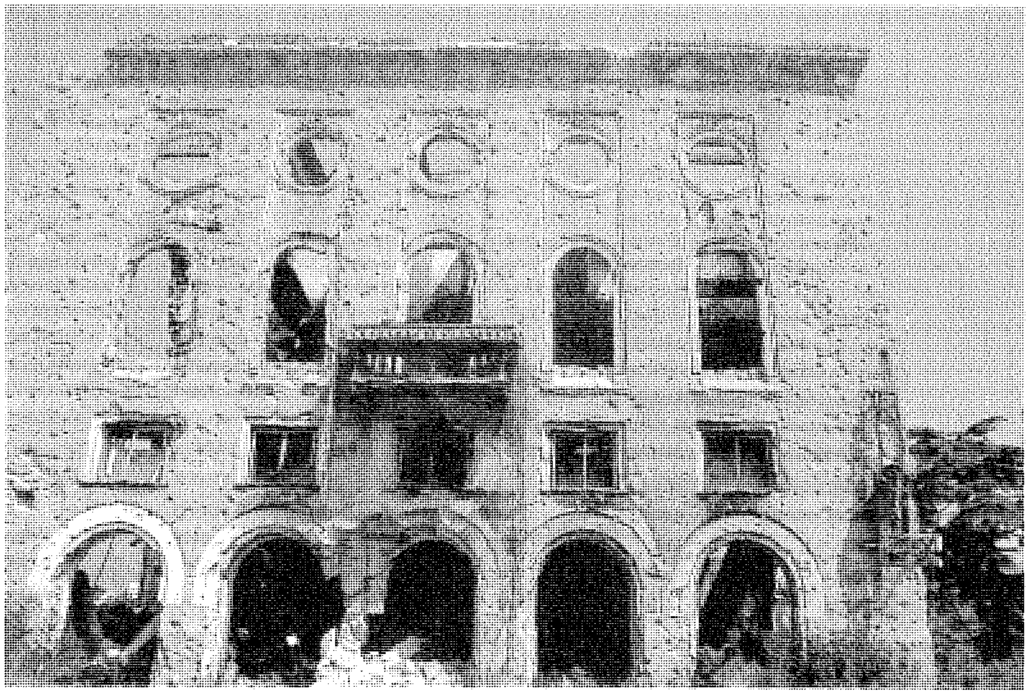
١١٤ ــ داخل الجامع المدمر في موستار



١١٥ ــ الجسر الحجري القديم دُمّر من قبل الصاروخ الكرواتي



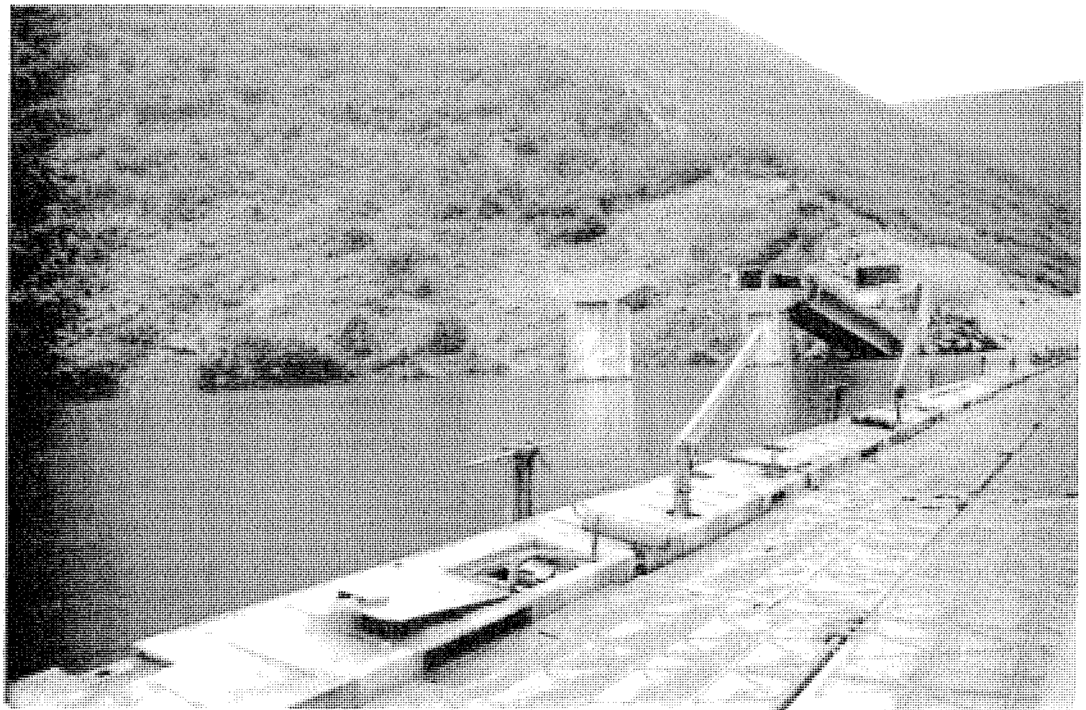
١١٦ ــ البيت الخاص في موستار



١١٧ ــ المبنى المدمر في موستار



١١٨ ــ هذه هي صورة أكثر شوارع موستار الآن



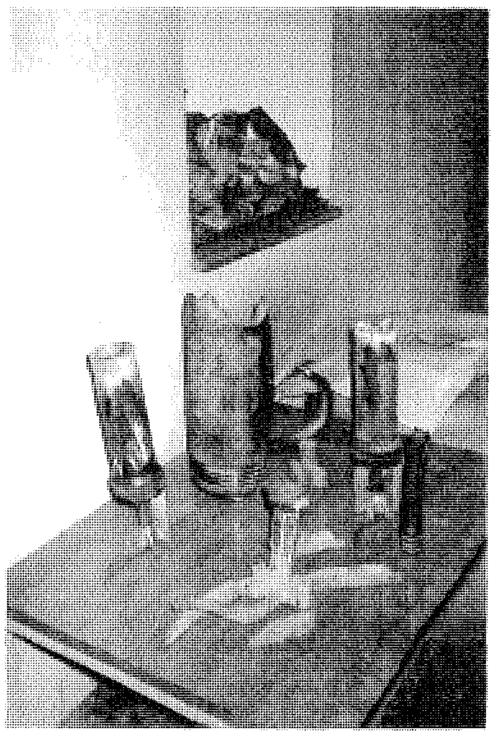
١١٩ ــ محاولة المدنيين لبناء الجسر الجديد الموصل بين بلدة يابلانيتسا ومدينة موستار



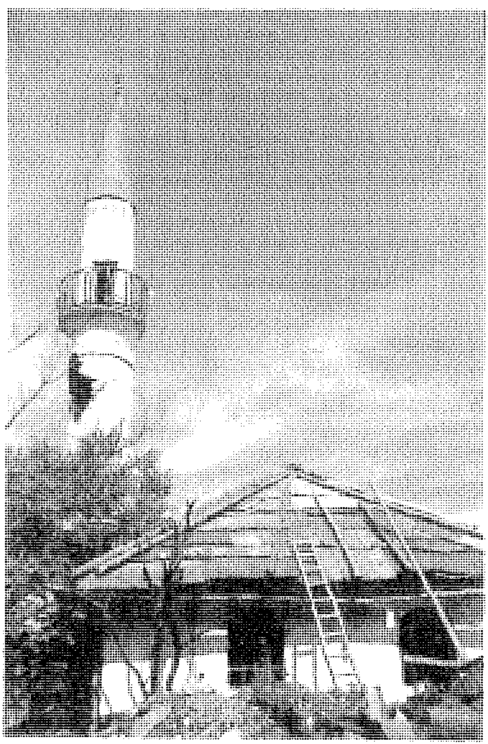
١٢٠ ــ الطريق المؤدي إلى فيسوكو عن طريق غروسبلاك



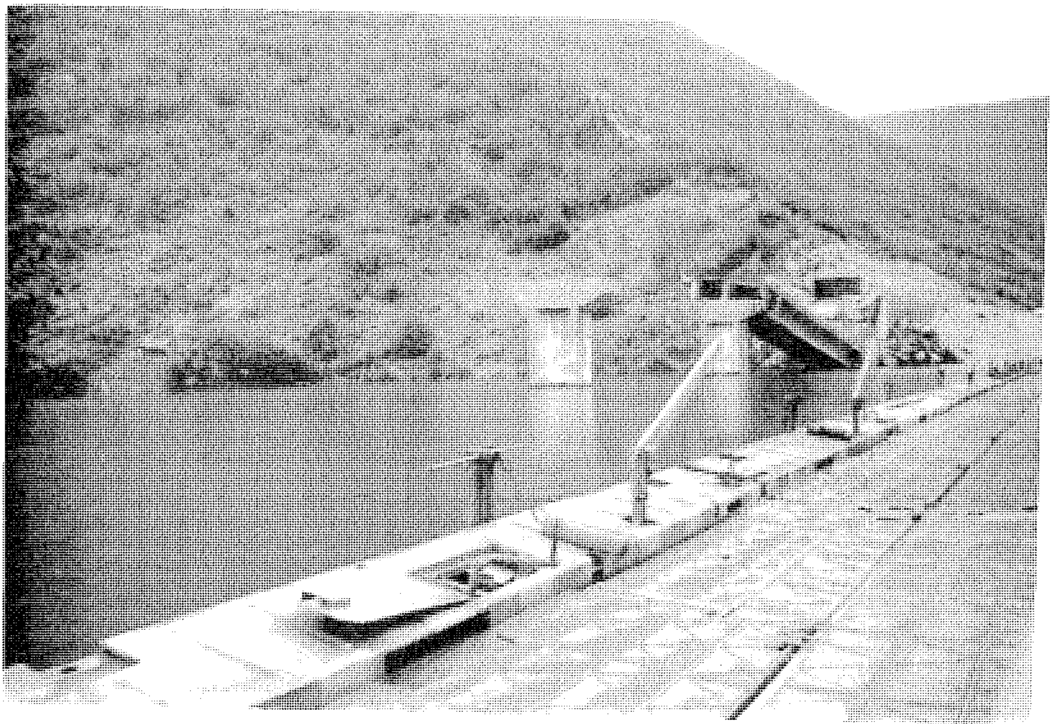
١٢١ ـ هذا الجسر كان يوصل يابلانسا وبوسنار



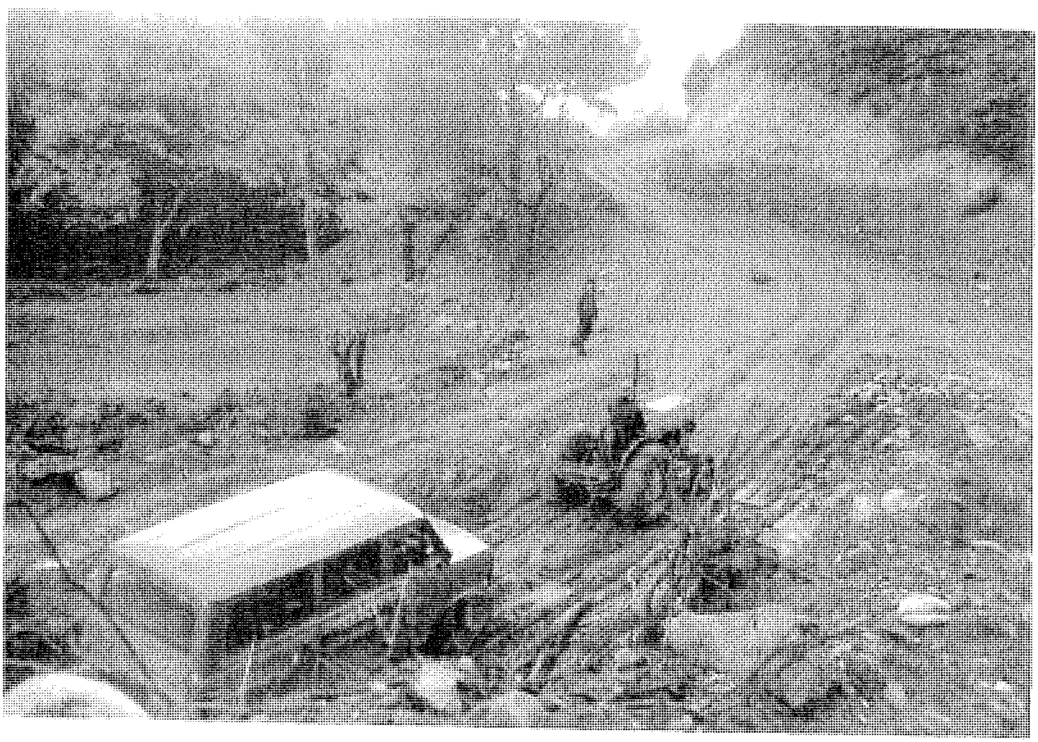
١٢٢ ـ انفجار الصاروخ الصربي في مستشفى كوشفو



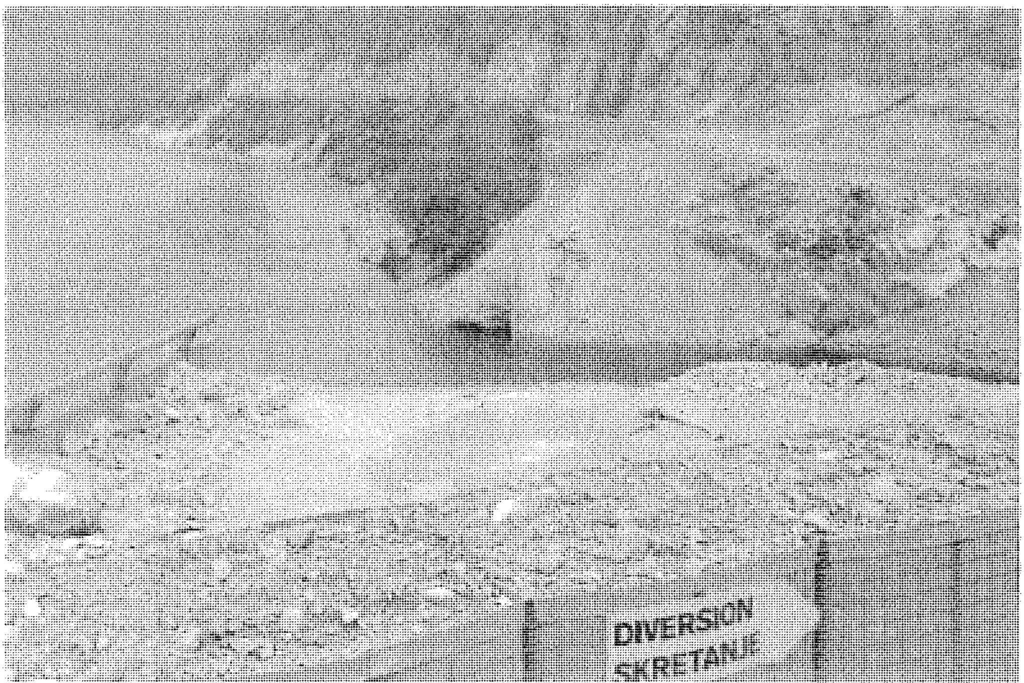
١٢٣ ـ واحد من ١٢٣٠ من المساجد المدمرة في البوسنة والهرسك
بازار بتش بجنب سارايفو



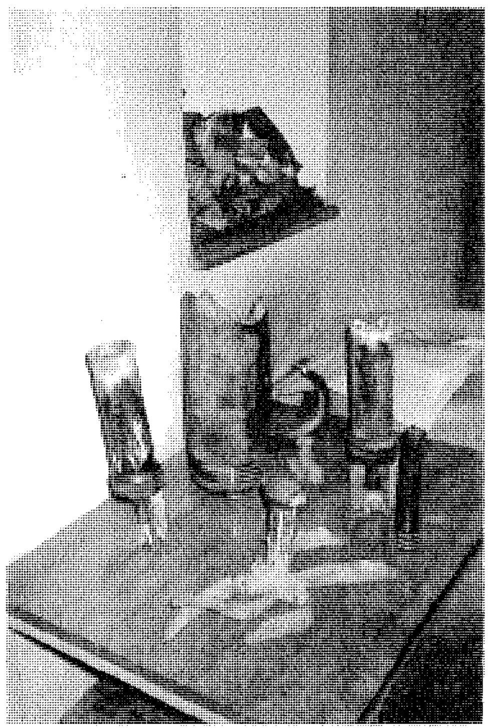
١١٩ ــ محاولة المدنيين لبناء الجسر الجديد الموصل بين بلدة يابلانيتسا ومدينة موستار



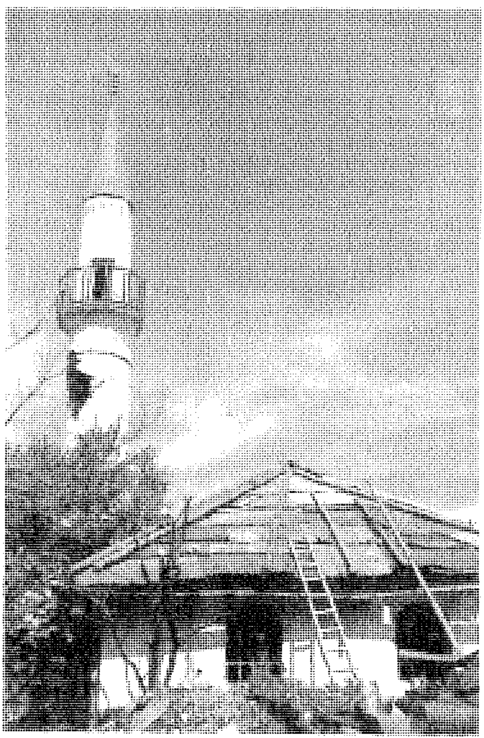
١٢٠ ــ الطريق المؤدي إلى فيسوكو عن طريق غروميلاك



١٢١ ــ هذا الجسر كان يوصل يابلانسا وموستار



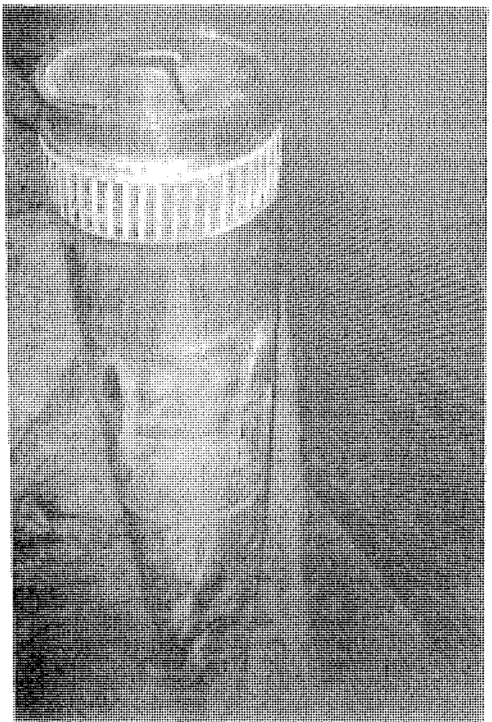
١٢٢ ــ إنفجار الصاروخ الصربي في مستشفى كوشفو



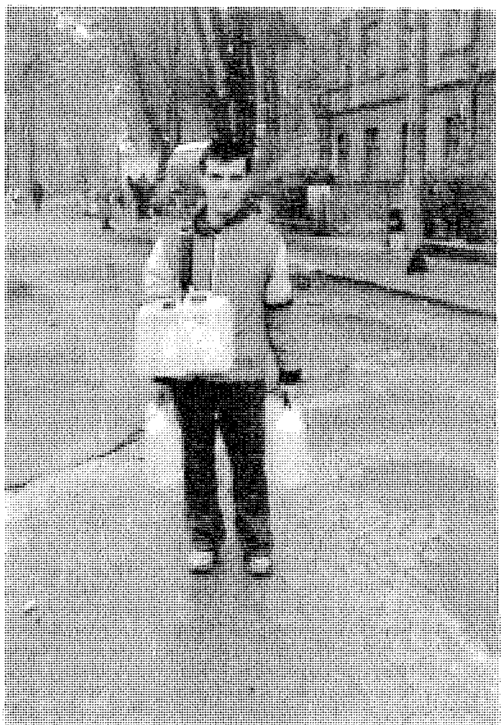
١٢٣ ــ واحد من ١٢٣٠ من المساجد المدمرة في البوسنة والهرسك
بازاريتش بجنب سارايفو



١٢٤ ـ فقد ٢٥ مدنيا حياتهم وهم فى طابور انتظار الخبز فى ساراييفو



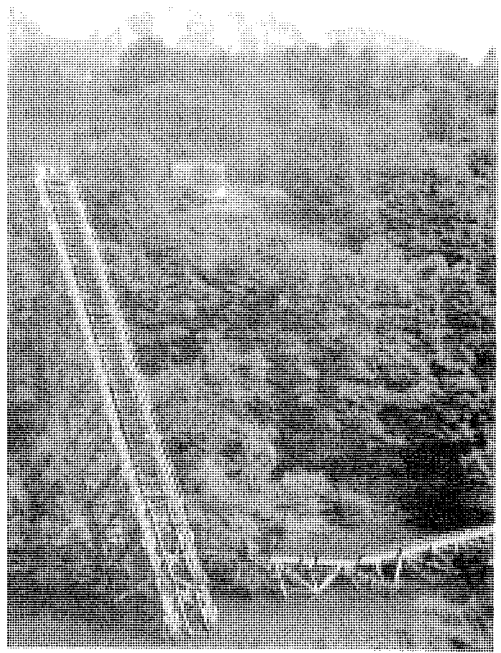
١٢٥ ـ الصاروخ الصربى غير المتفجر



١٢٦ ـ يبحث عن الماء لعائلته خارج حماية القوات الأممية



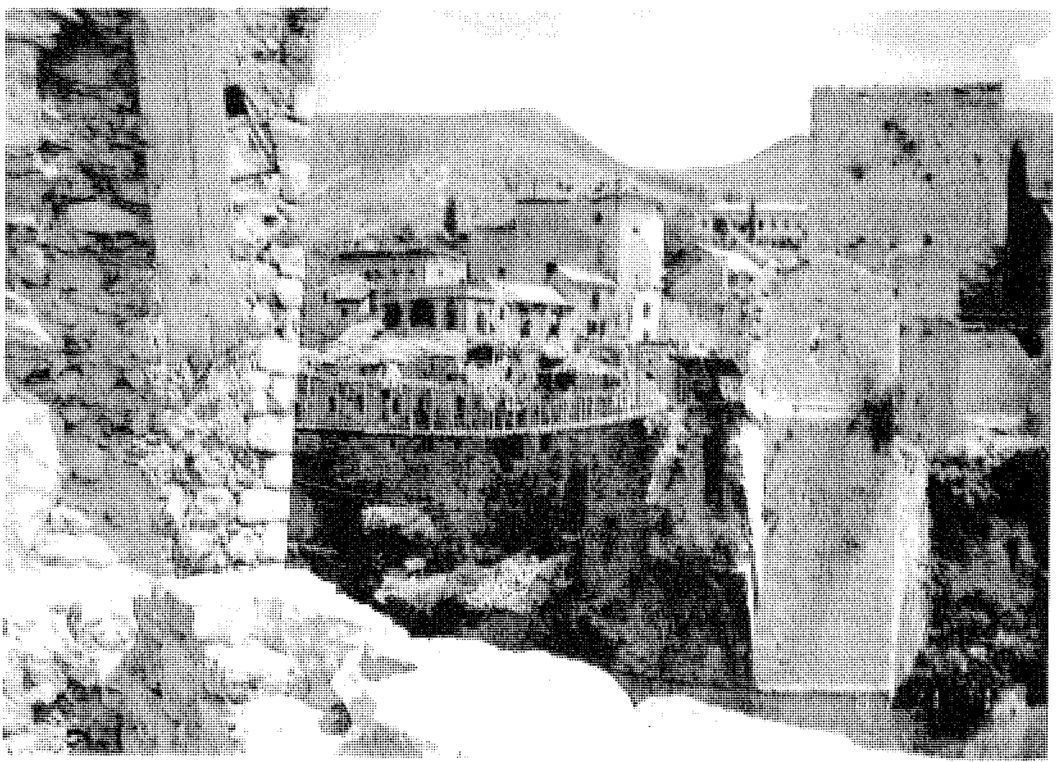
١٢٧ ـ المؤلف يسافر من ساراييفو إلى موستار



١٢٨ ــ الجسر المدمر فى بابلانتسا

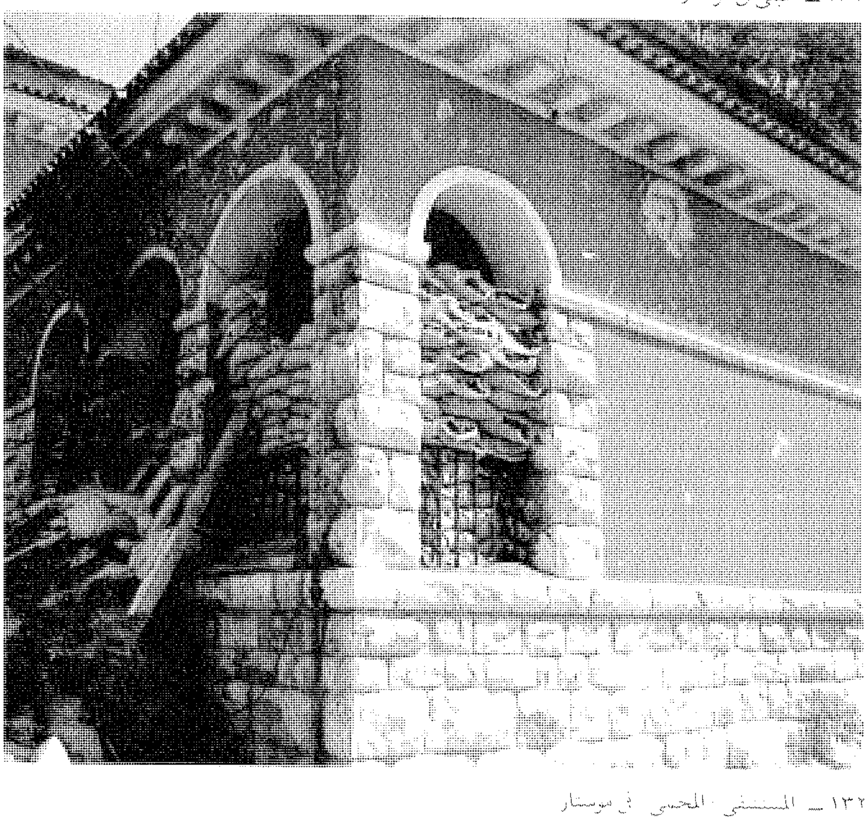


١٢٩ ــ الدم الآدمى فى الشارع

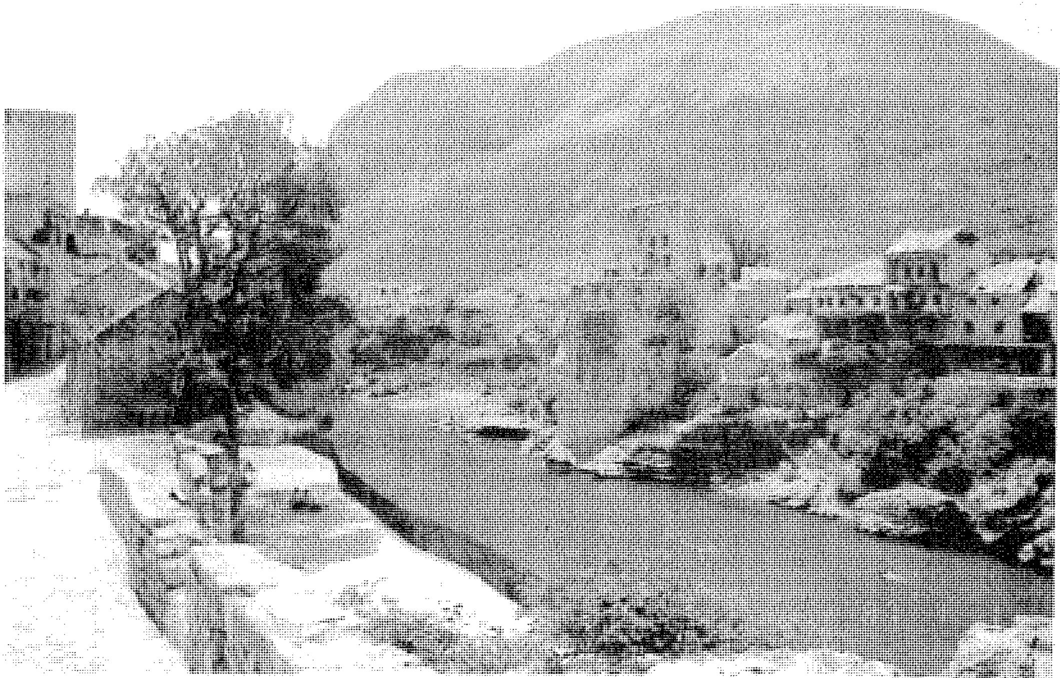




١٣١ ـ المبنى في موستار



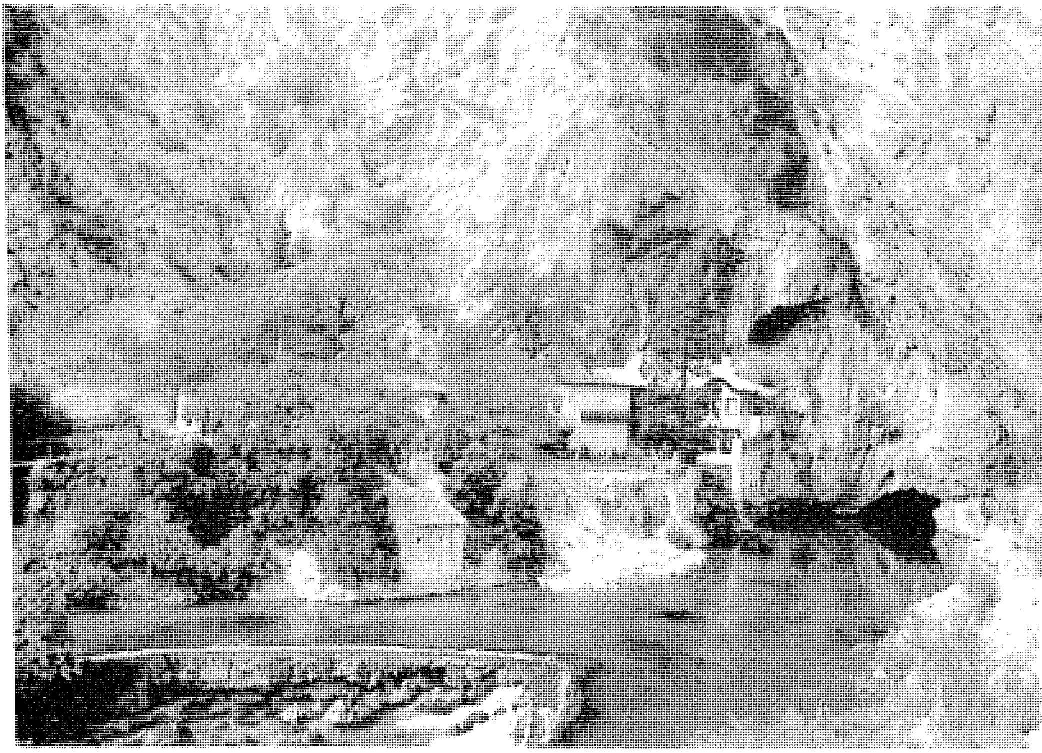
١٣٢ ـ المستشفى المحصي في موستار



١٣٣ ـ نهر نيريتفى في موستار



١٣٤ ـ مبنى توزيع الكهرباء في سراييفو



١٣٥ ـ تكية في منبعة نهر بونا



١٣٦ ـ المبنى المحروق في اسكندريش ، سارايفو



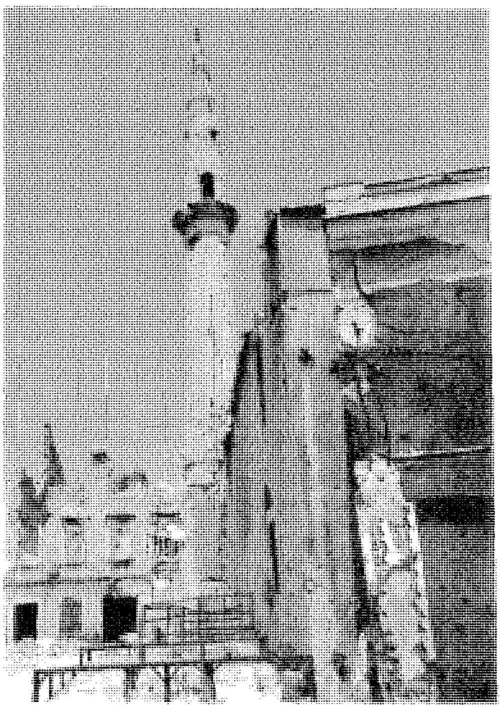
١٣٧ ــ الكثير من الامهات يجدن الطعام لأطفالهن فى نفاية (زبالة) سارايفو



١٣٨ ــ الأم تبحث عن الطعام فى نفاية سارايفو



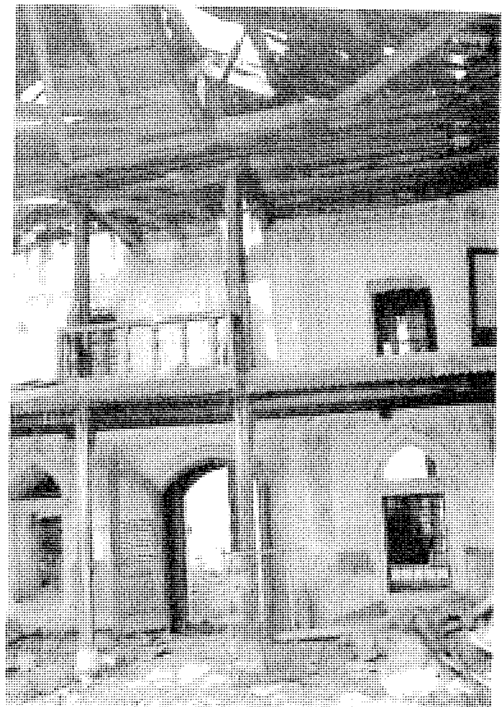
١٣٩ ــ البيوت المدمرة في منطقة البوسنة الوسطى



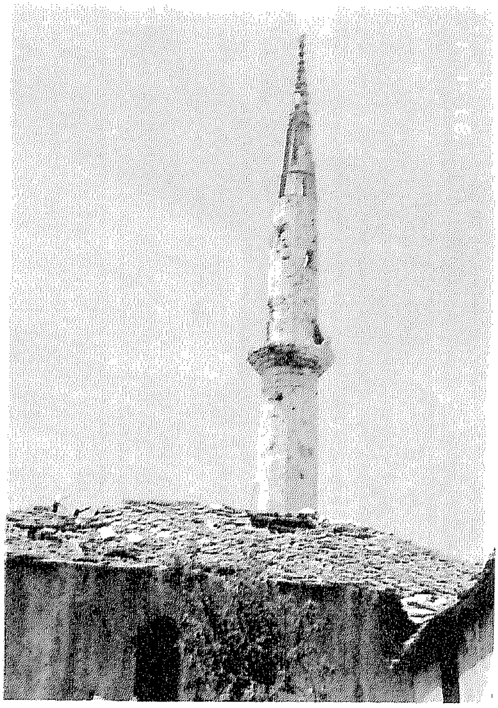
١٤٠ ــ أحد المساجد الكثيرة المدمرة في موستار



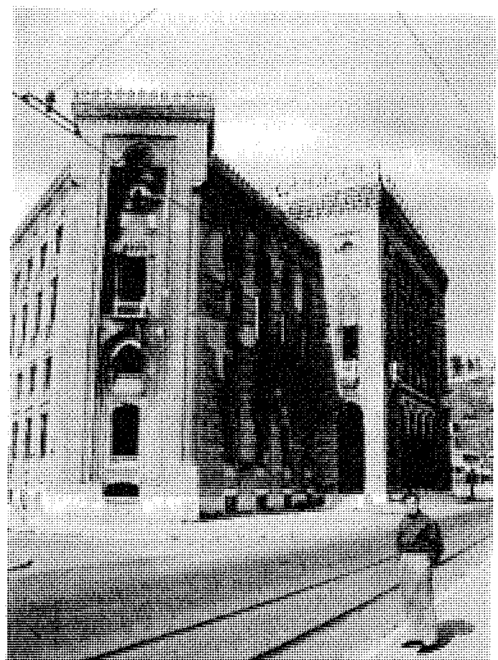
١٤١ ــ داخل المسجد المدمر في موستار



١٤٢ ــ داخل الدار المدمر



١٤٣ ــ الجامع فى موستار



١٤٤ ــ فيتنتسا ـ أقدم المكتبات الشرقية فى البلقان



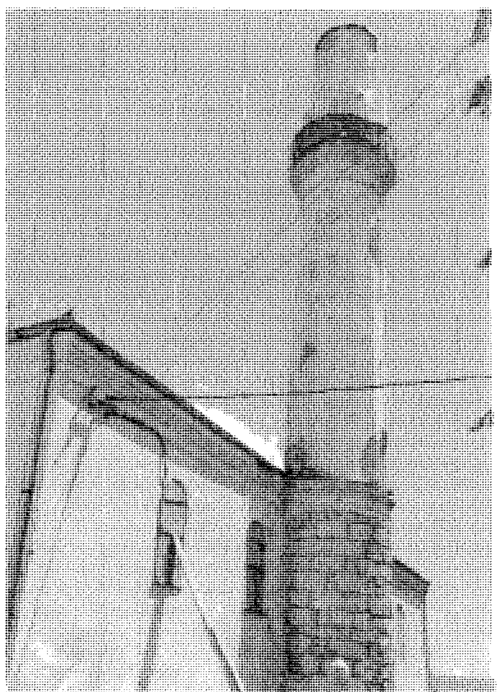
١٤٥ ــ المؤلف فى موستار



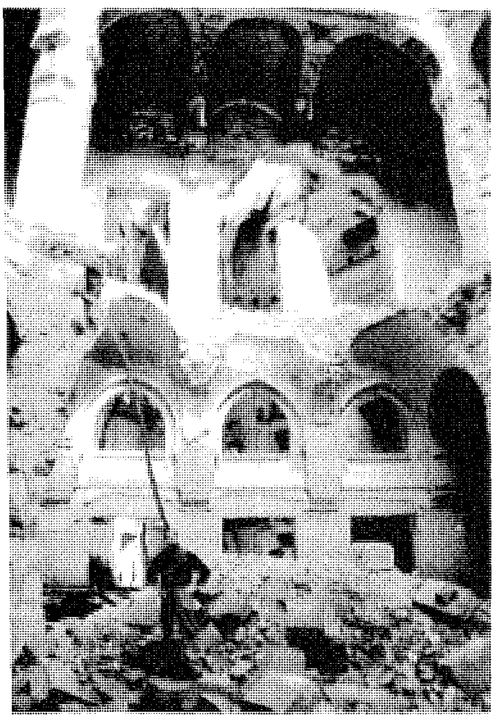
١٤٦ ــ الجامع في لوكافانتسي ، توزلا



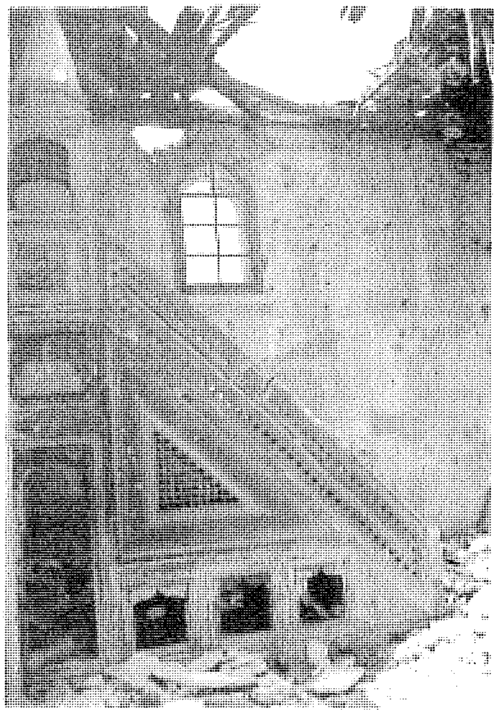
١٤٧ ــ ناطحتا السحاب الخاصة بشركة أونيس
« مشهوراتان باسم » سومو أوزير »



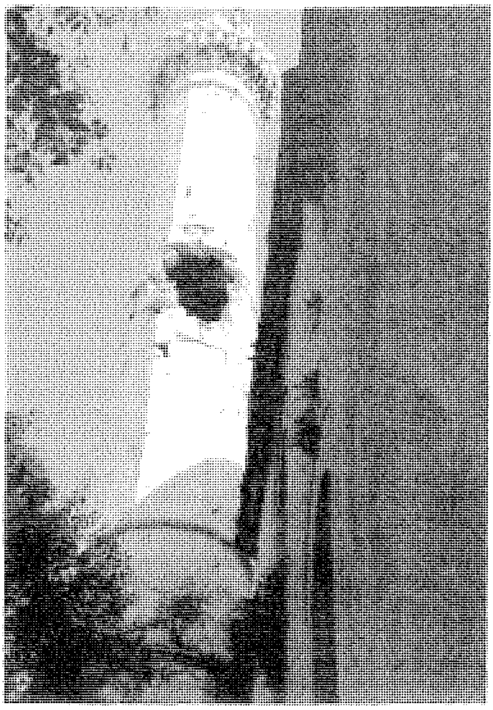
١٤٨ ــ جامع بوغوينو



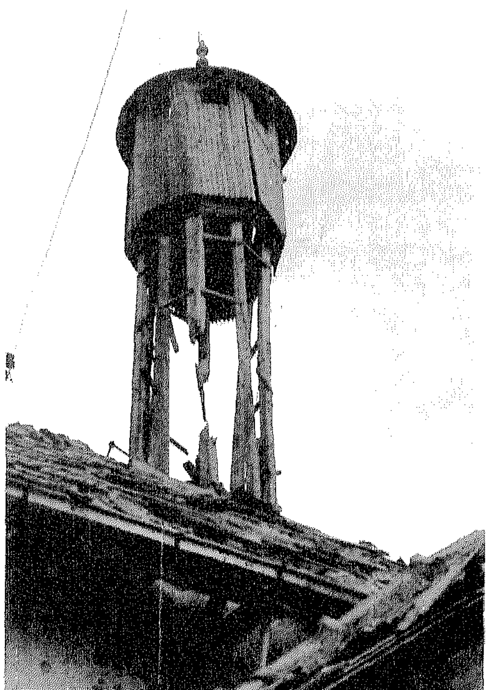
١٤٩ ــ داخل المكتبة فيتيتيا



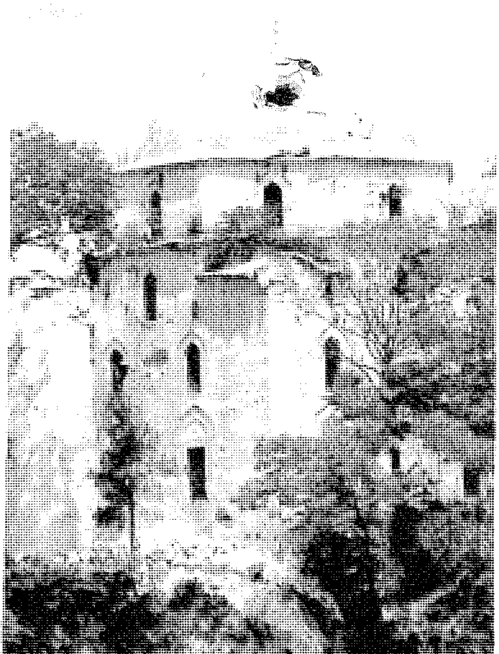
١٥٠ ــ داخل الجامع في موستار



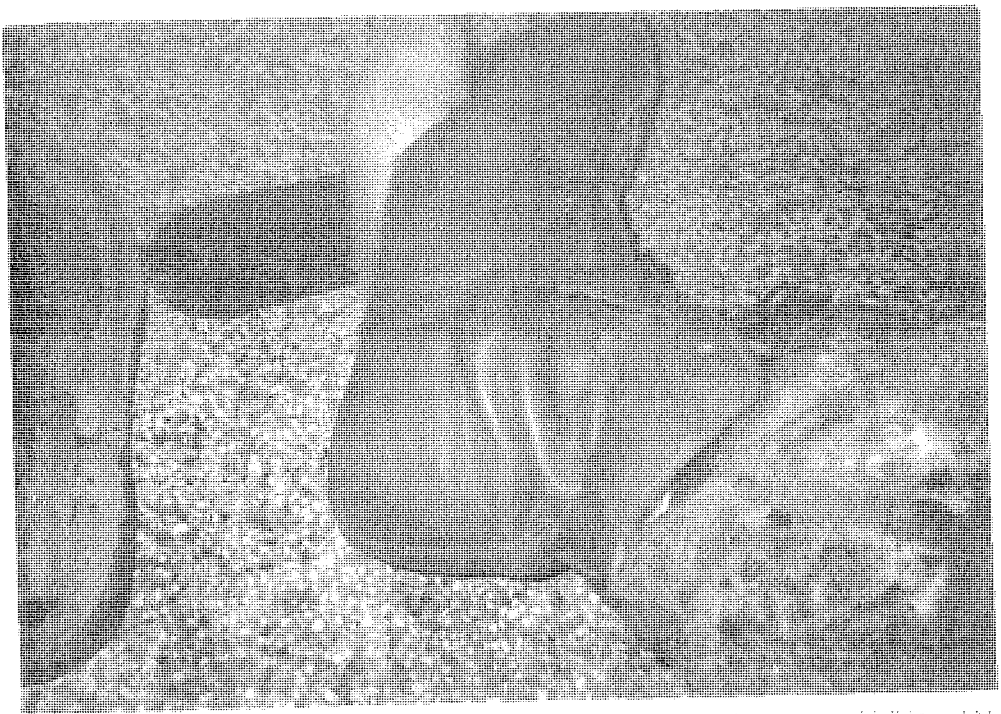
١٥١ ــ المأذنة المدمرة في موستار



١٥٢ ــ مأذنة الجامع في موستار



١٥٣ ــ الجامع المدمر في موستار



١٥٨ ـ محاولة المؤلف بدون جدوى للحصول على مهبط الطائرات



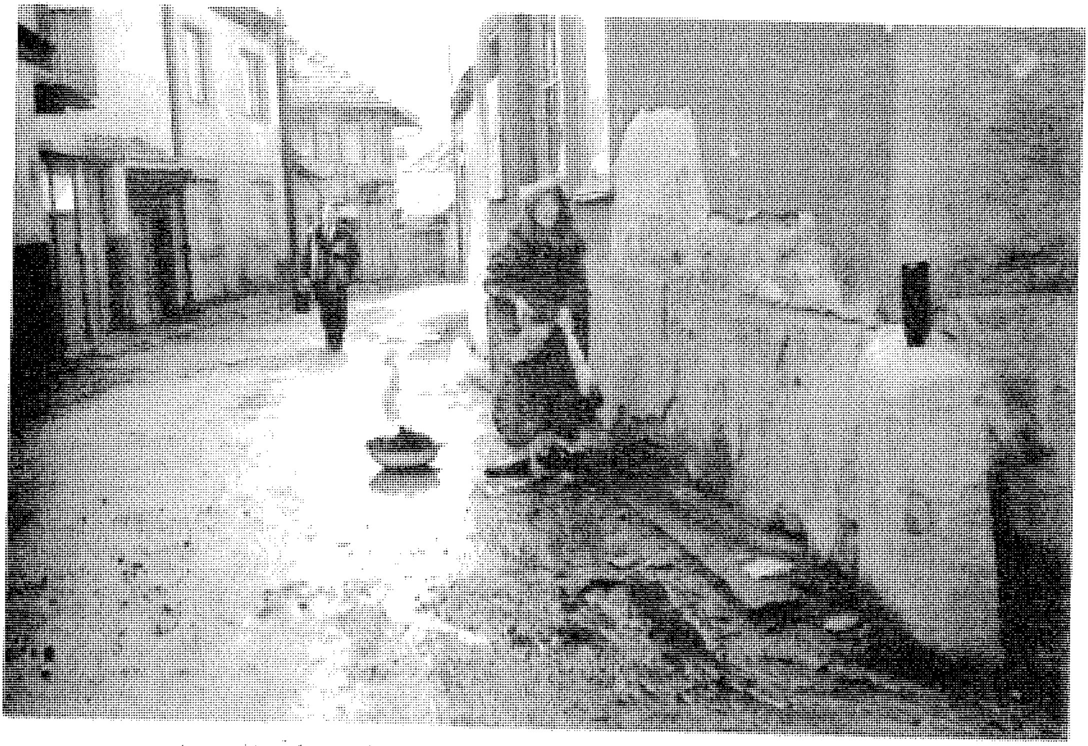
١٥٩ ـ الحريق في ساحة ماريين دفور ـ سارايفو



۱۵۷ ــ ماریین دفور . سارایفو



۱۵۸ ــ دوبرینیا . سارایفو



١٥٩ ــ على الرغم من قلّة امكانية الحصول على الماء تحاول إمرأة بوسنية تنظيف الشوارع والبيوت ـ بكلّ ما في وسعها .



١٦٠ ــ المؤلف أمام فندق هولدي إن ، ساراييفو

المقـــابر ، المقـــابر ...



١٦١ ــ عصمت أفندي سباهتش نائب رئيس علماء البوسنة الذي فقد في يوم واحد ، في ثانية واحدة زوجته و ٣ بنات وحفيدته ، سارايينو



١٦٢ ــ استاد أولمبي زترا ـ الآن تحوّل إلى المقبرة



١٦٣ ـ قبر فاضل أفندي كاسابوفيتش



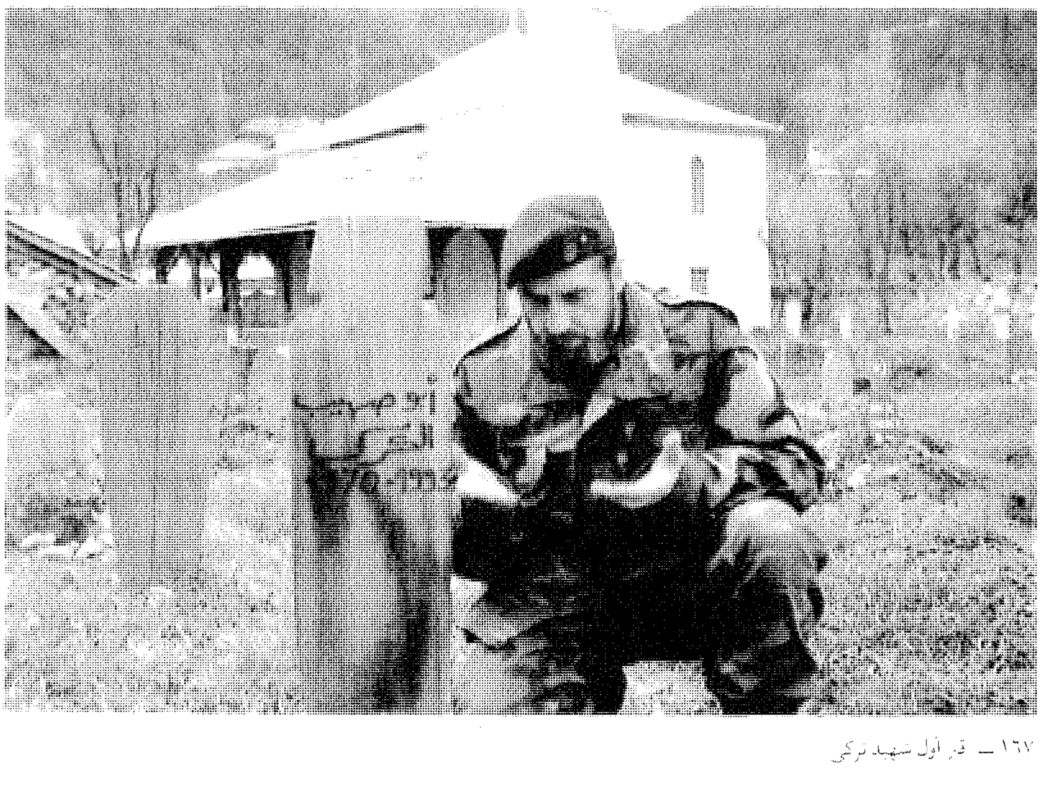
١٦٤ ـ المؤلف مع الشيخ الحافظ حاج مولسي
امام الجامع الامبراطوري في سارايفو



١٦٥ ـ مقبرة كوباسي



١٦٦ ــ السيدة ربيعة حاجتش أمام قبر ابنها عصمت



١٦٧ ــ قبر أول شهيد تركي



١٦٨ ـ قبر أفندي خير الدين دوبوفاش



١٦٩ ـ الجندي مصطفى أمام قبر شقيقه



١٧٠ ـــ قبر نائب رئيس الحكومة البوسنية الذى قُتل فى عربة القوات الأممية



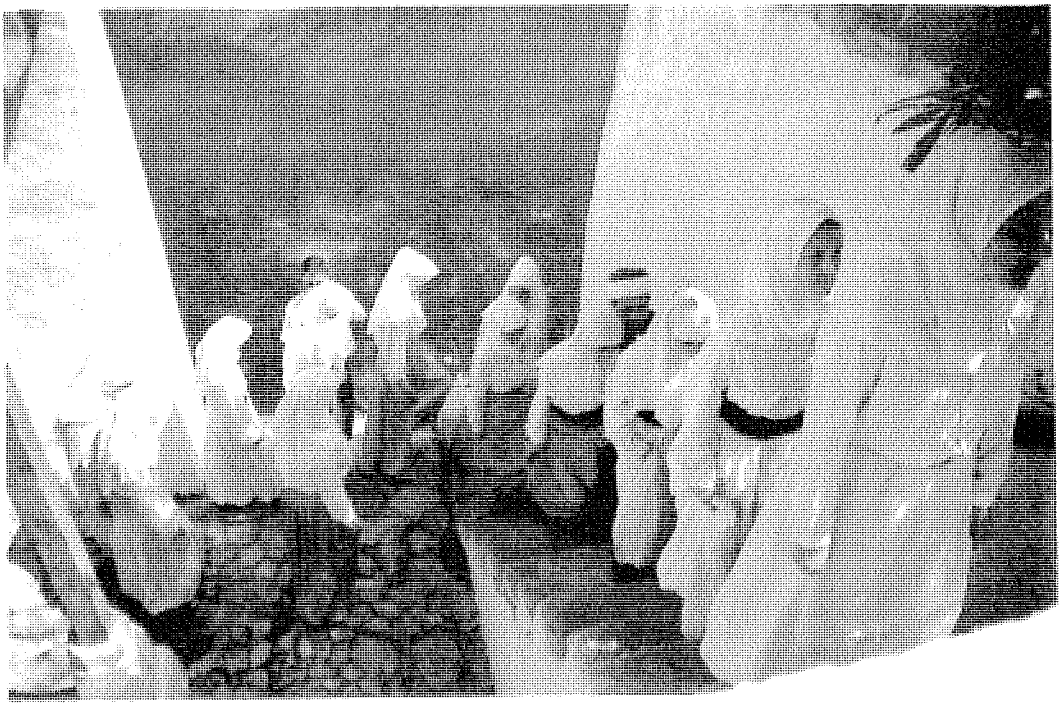
١٧١ ـــ المؤلف فى زيارته إلى مقبرة زتْرا



١٧٢ ـ تكية المسلمين في بلاغاي



١٧٣ ـ المؤلف يصلي على روح جميع الشهداء



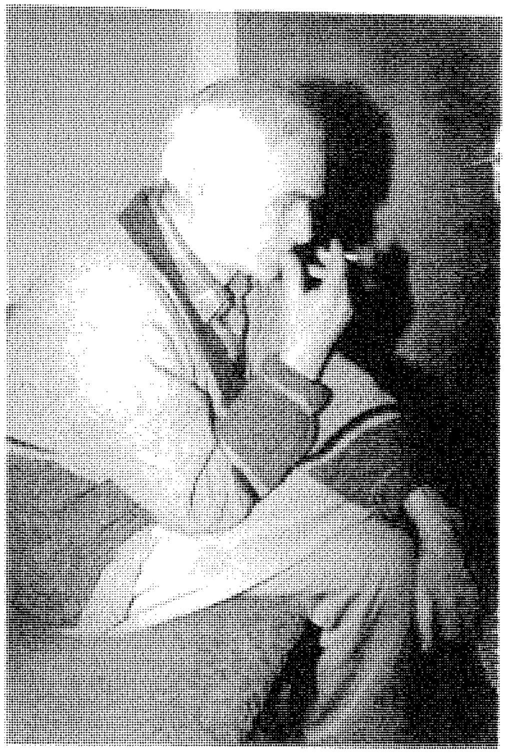
١٧٤ ــ المسلمات الشابات في تكية بلاغاي



١٧٥ ــ والد محمد علي حوجيتش



١٧٦ ــ السيدة نورا أم محمد علي حوجيتش



١٧٧ ــ مُحرّم محارموفيتش من لوكافامتس توزلا



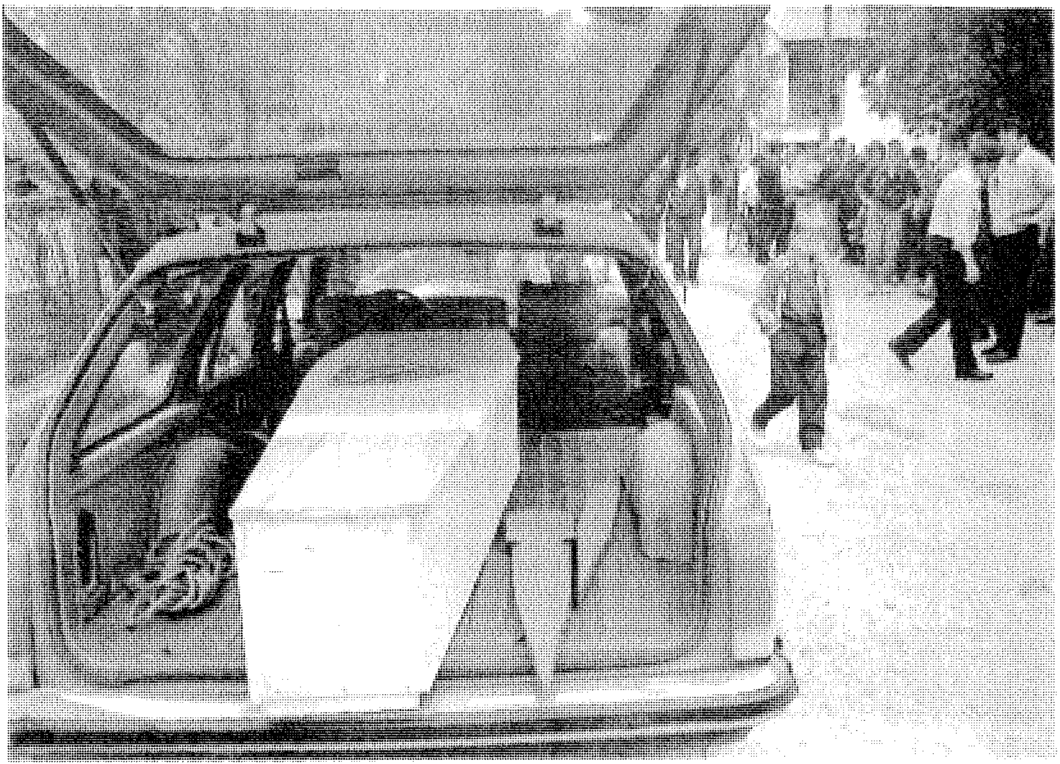
١٧٧ أ ــ والدة نورا



١٧٨ ــ أم شابة تحاول عبور الجسر



١٧٩ ــ الأخت البوسنية تقرأ القرآن الكريم



١٨٠ ـ تحضيرات الجنازة فى غراتشانتسا يوغوينو



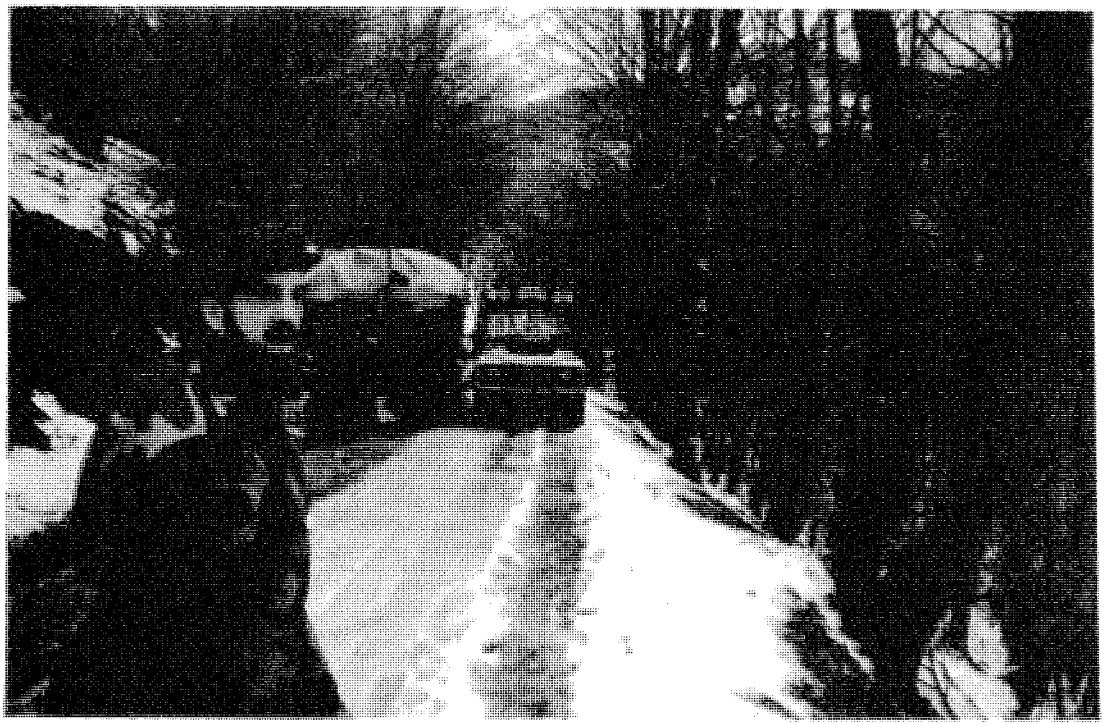
١٨١ ـ المؤلف يتوضأ فى الجامع الأمبراتورى



١٨٢ ـ الأم المسلمة تسأل إنقاذ طفلها



١٨٤ ــ المدرسة الإسلامية العليا ـ بهرام بي في توزلا



١٨٥ ــ الطريق في جبل إيغمان



١٨٦ ـ الأم والبنت تبحثان عن الوقود في درجة البرودة تحت الصفر



١٨٨ ـ نافورة الماء التي قتل فيها ٢٠ مدنيا وهم في طابور انتظار الماء



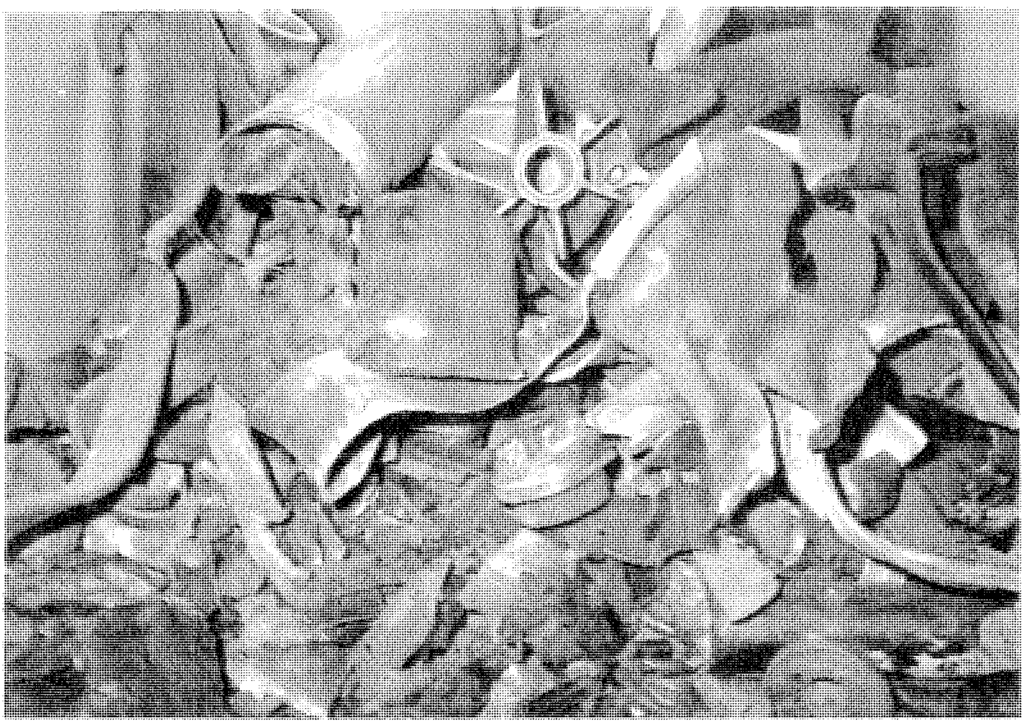
١٨٩ ــ المدنيون في إنتظار الخبز والبرودة تحت الصفر



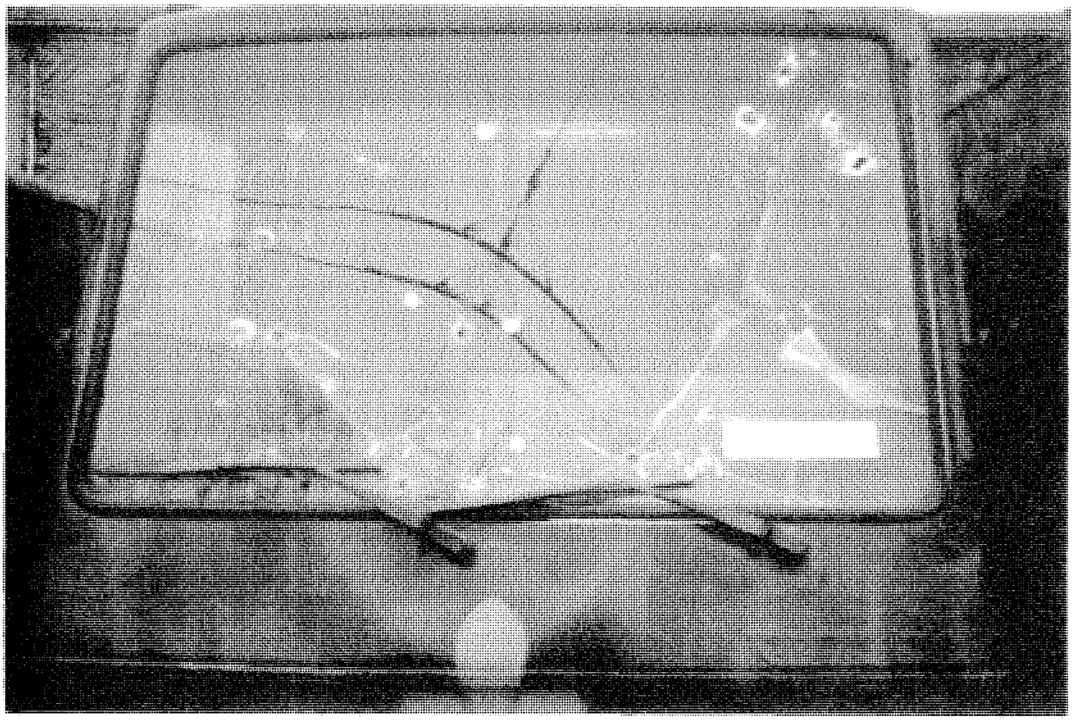
١٩٠ ــ الأم المسلمة تسأل من أجل إطعام طفلها



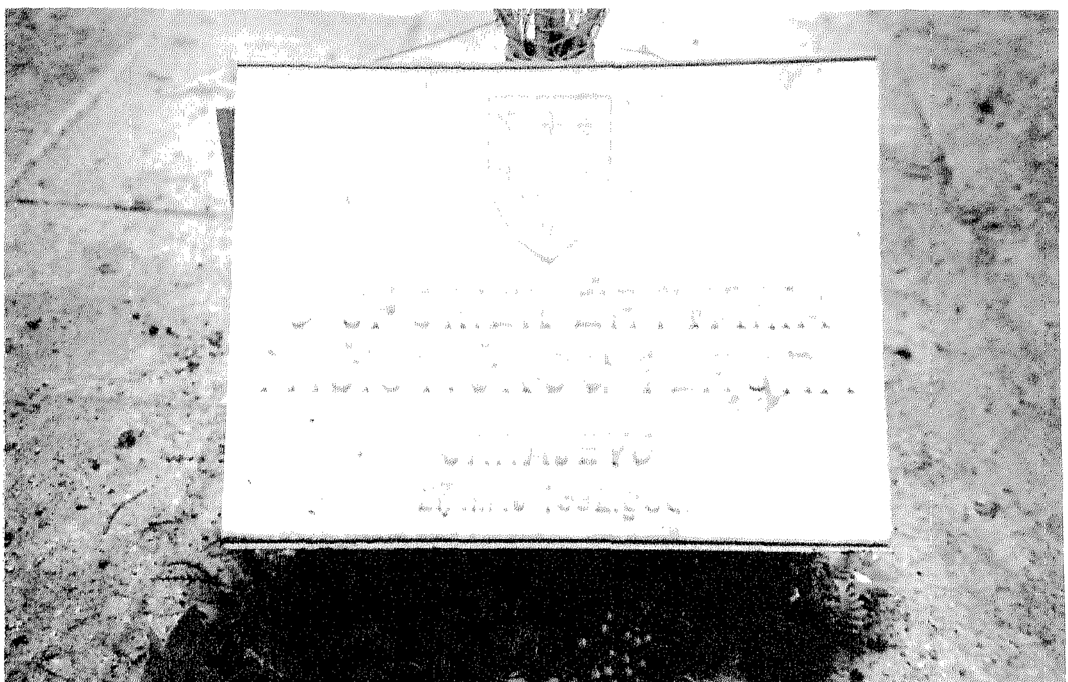
١٩١ ـ الأمرأة المسلمة الشابة تحفظ القرآن الكريم



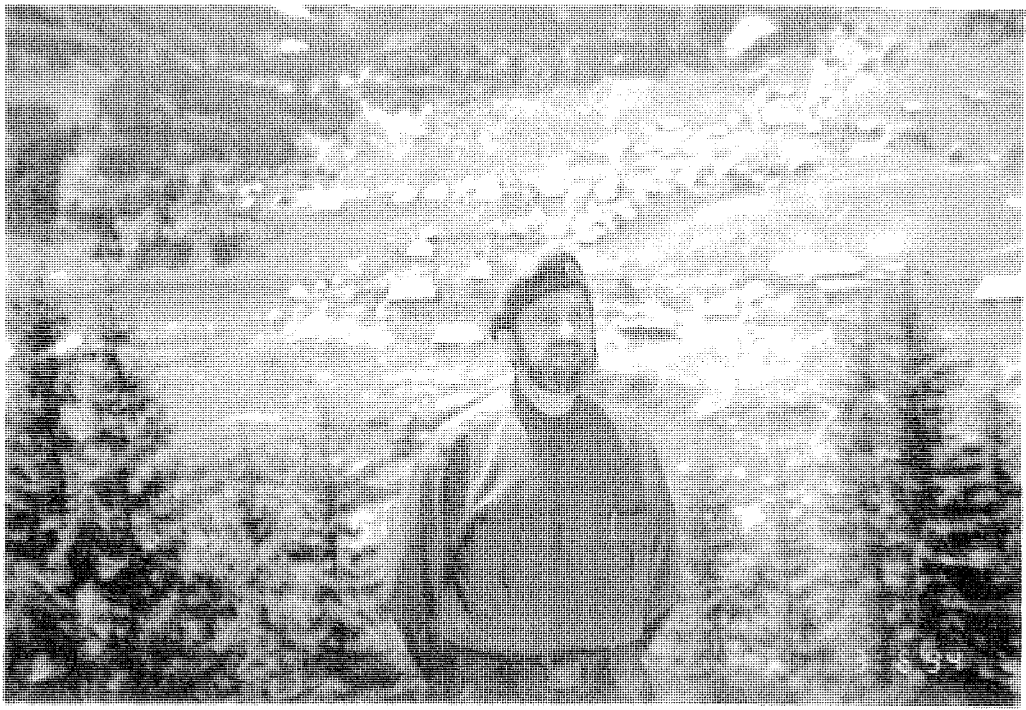
١٩٢ ـ نتيجة القصف الصربي المستمر



١٩٣ ــ العربة المدمرة في سارايفو



١٩٤ ــ ذكرى الضحايا ـ ضحايا الإرهاب النازي



١٩٥ ـ المؤلف في طريقه الى مدينة نوغوبيتو



١٩٦ ـ المؤلف يساعد الروسيين على فرز حبات القمح



١٩٧ ـ ضلادنا ، توزلا



١٩٨ ـ الخروف للجيش البوسني



١٩٩ ـــ المؤلف يُصلّي مع الشيخ الإمام أنوى باساويتش فى سوق باسجارشيا



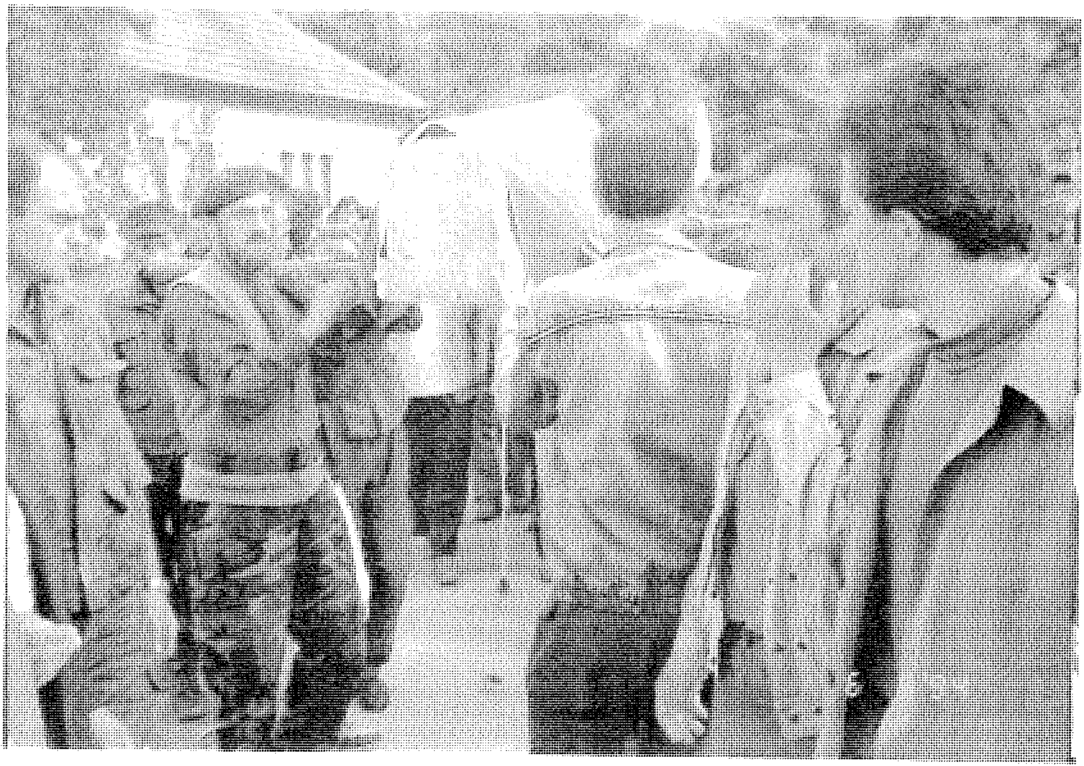
٢٠٠ ـــ الناس فى إنتظار البريد ، سارايفو



٢٠١ ــ الطريق إلى فيسوكو عن طريق غروسيلاك



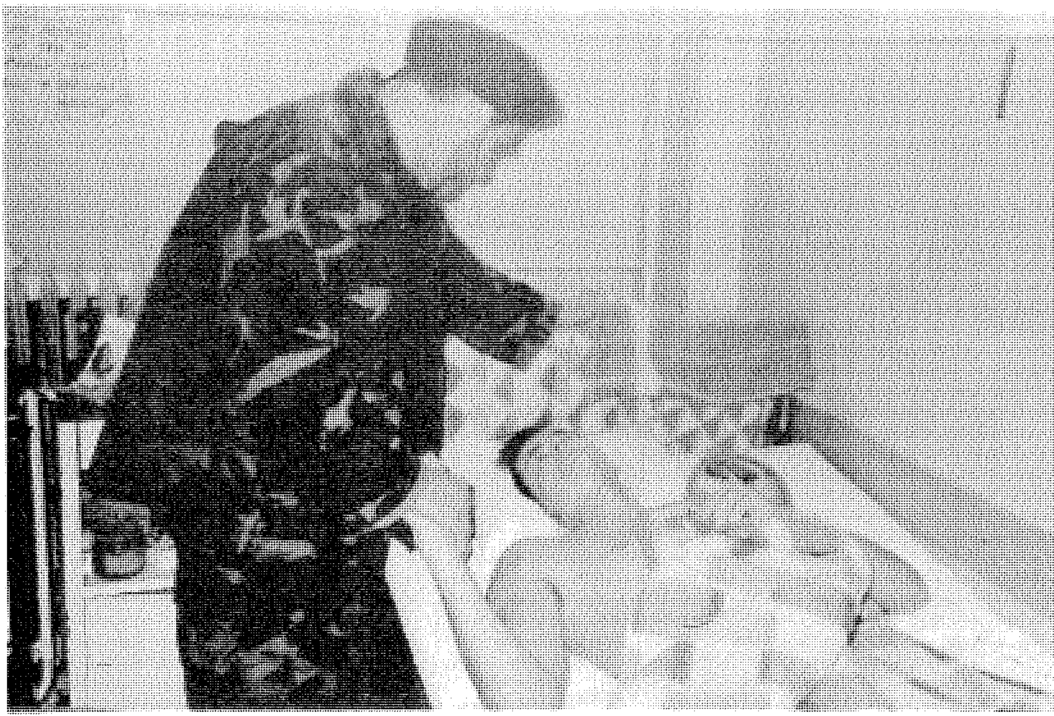
٢٠٢ ــ الأم تهيم من بلد إلى آخر باحثة في الغابات عن الطعام لطفلها



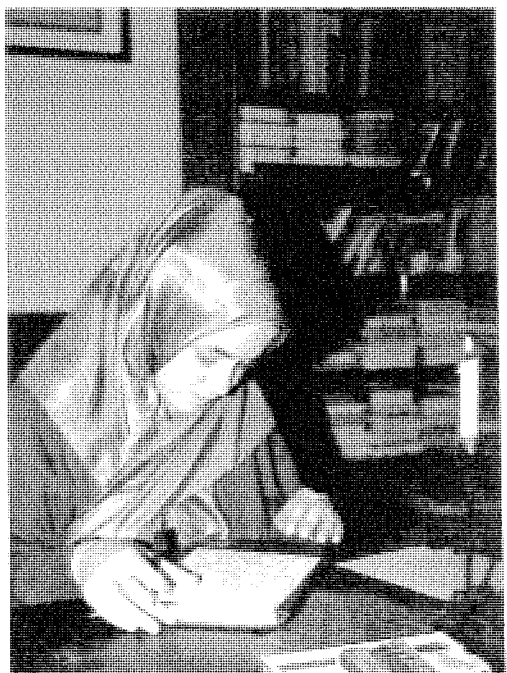
٢٠٣ ــ الجنازة في توزلي ترافنيك



٢٠٤ ــ المدنيون في انتظار الأدوية



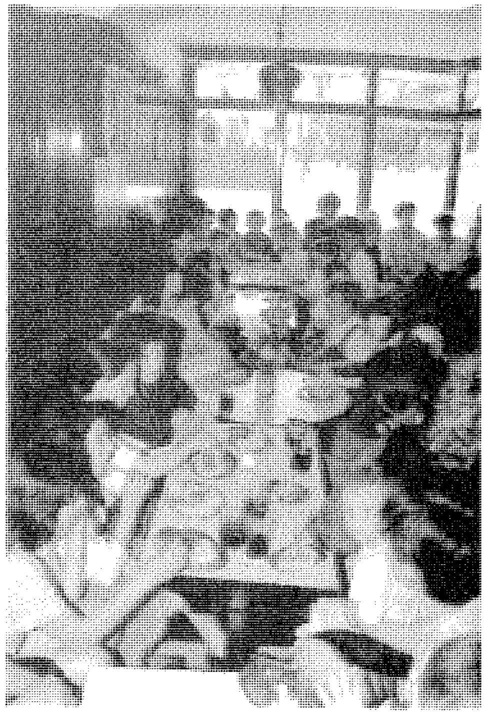
٢٠٥ ــ الطبيب الذى جُرح فى جبهة القتال



٢٠٦ ــ ابنة الشهيد صفوت حاجتش



٢٠٧ ــ المؤلف مع الجيش البوسنى فى بلدة بروساتس



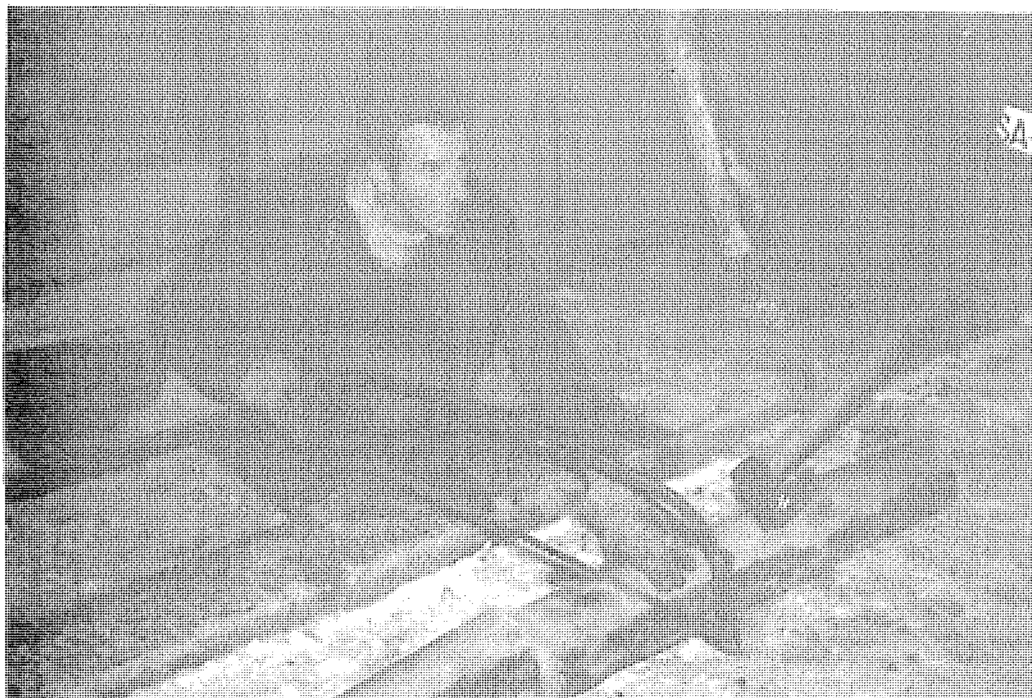
٢٠ ــ الأيتام البوسنيون أثناء تناول الغذاء



٢٠٩ ــ الأرملة بنت ٢٥ ربيعًا مع طفليها



٢١ ــ الشيخ الإمام الحاج أفندي مصطفى حوبيتش وزوجته مع المؤلف في بيتهما



٢١١ ـ الأخ المسلم يبحث عن المأوى لعائلته في الشتاء



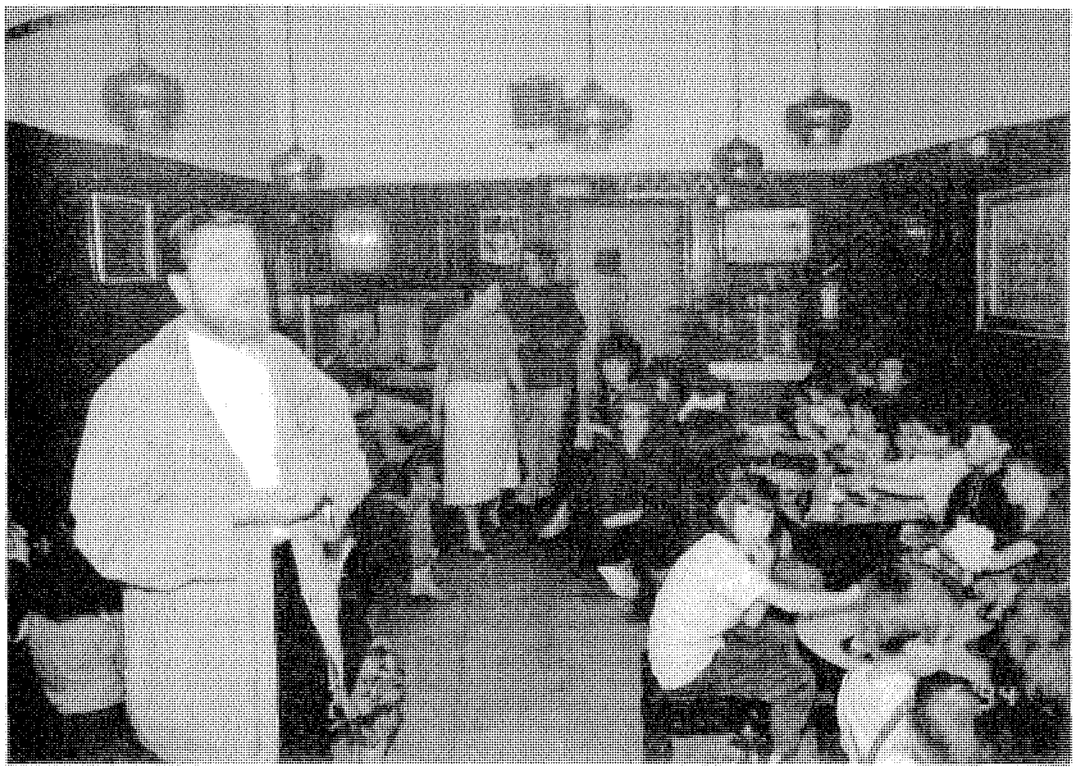
٢١٢ ـ عائلة الشهيد صفوت حوحش



٢١٣ ــ قوات ايغاتوفتسا المسلمة ، غوريني فاكوف



٢١٤ ــ المؤلف مع أبناء الحرب في سارايفو



٢١٥ ــ بستريك ، سارايفو



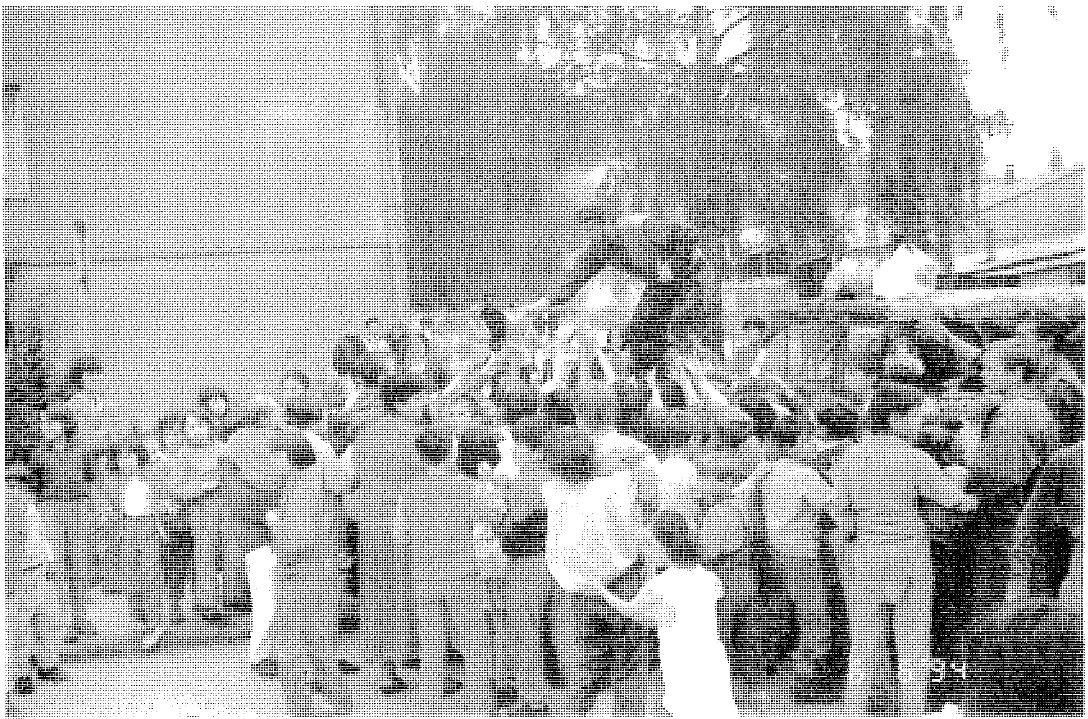
٢١٦ ــ شارع في بستريك ، سارايفو ، القوات الأممية في الخلف



٢١٧ ـ القوات الأممية في البوسنة



٢١٨ ـ المسلم الشاب عزم راميتش الذي بقي على قيد الحياة بعد دخول الرصاص في عينه اليسرى ومنفذا عينه اليمنى

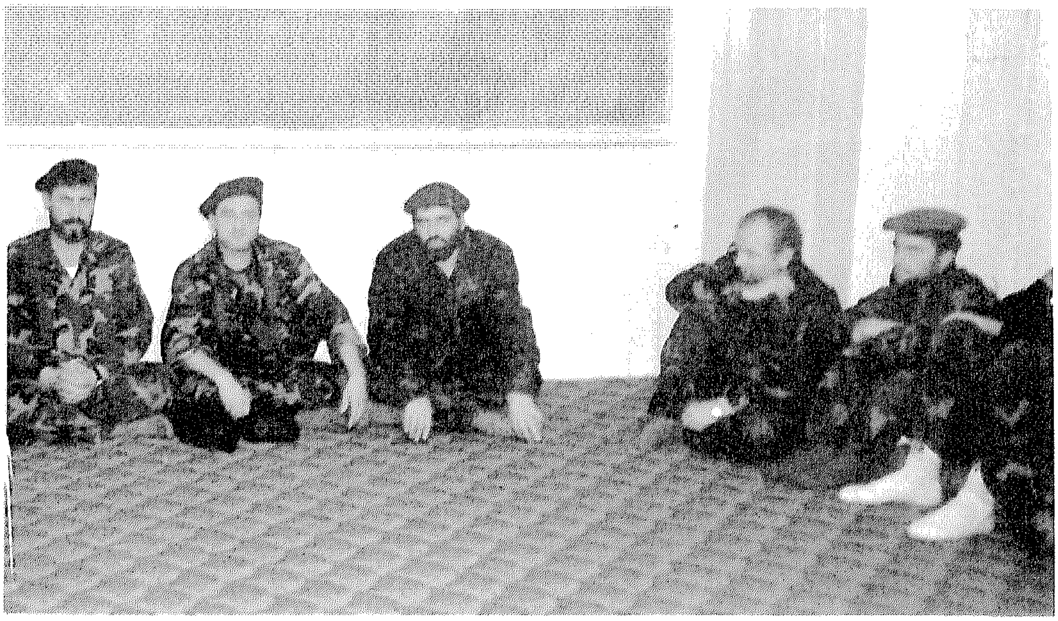


٢١٩ ــ المؤلف مع المسلمين البوسنيين في نوفي ترافنيك



٢٢٠ ــ قوات ايفاتوفتسا المسلمة في المسيرة

جيش جمهورية البوسنة والهرسك



٢٢٠ أ ـ محمود كاراليتش (الثالث من اليمين)



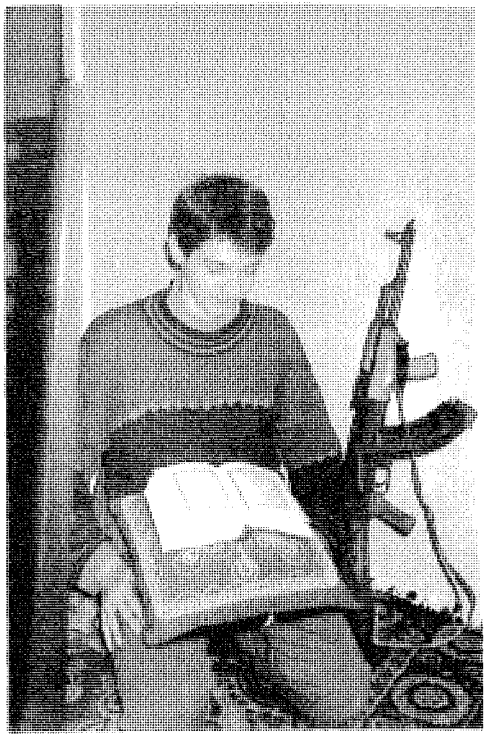
٢٢١ ـ القاعدة الصربية التى حررها الجيش البوسنى فى فيناس ، توزلا



٢٢١ أ ـ التدريبات في فيناس ، تورلا



٢٢١ ب ـ التدريبات في فيناس ، تورلا



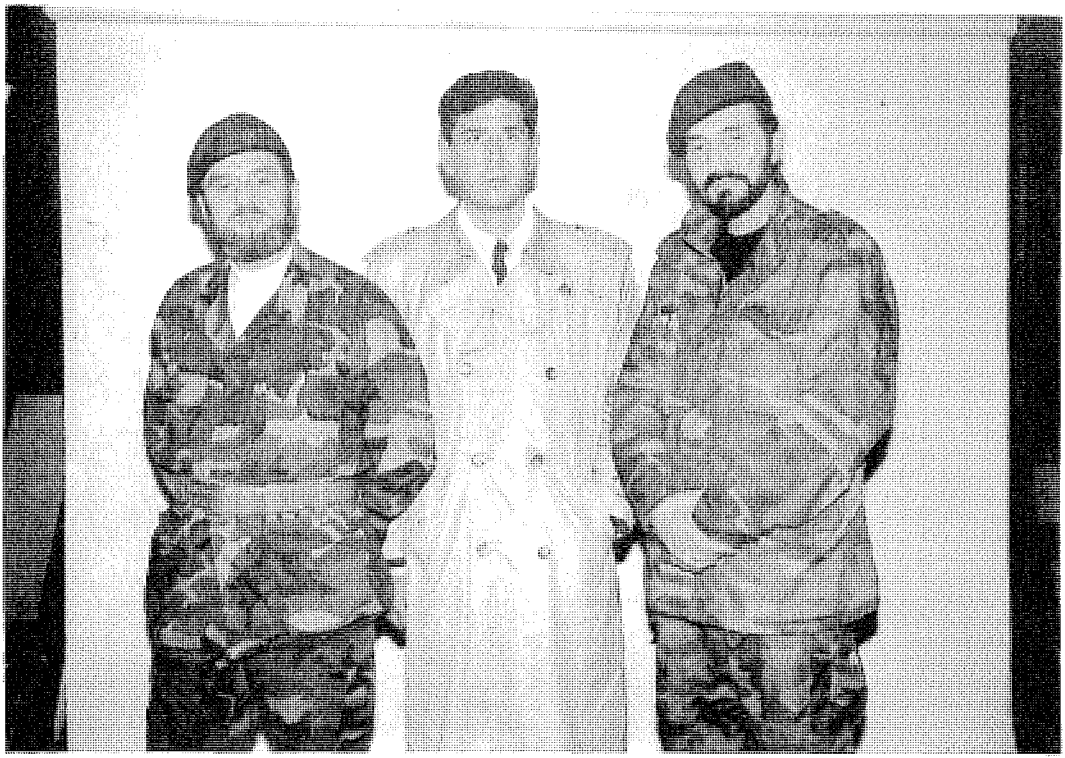
٢٢٢ ـ الشيخ الإمام الحافظ أحمد إيبراموفيتش



٢٢٣ ـ عباسيلموفيتش (من اليمين) في سارايفو



٢٢٤ ـ المجاهد عبد العزيز في ترافنيك



٢٢٥ ـ كنعان بورجا (فى الوسط) قائد القوات الخاصة



٢٢٦ ـ محرم فتاحاعيتش الجنرال فى الجيش البوسنى



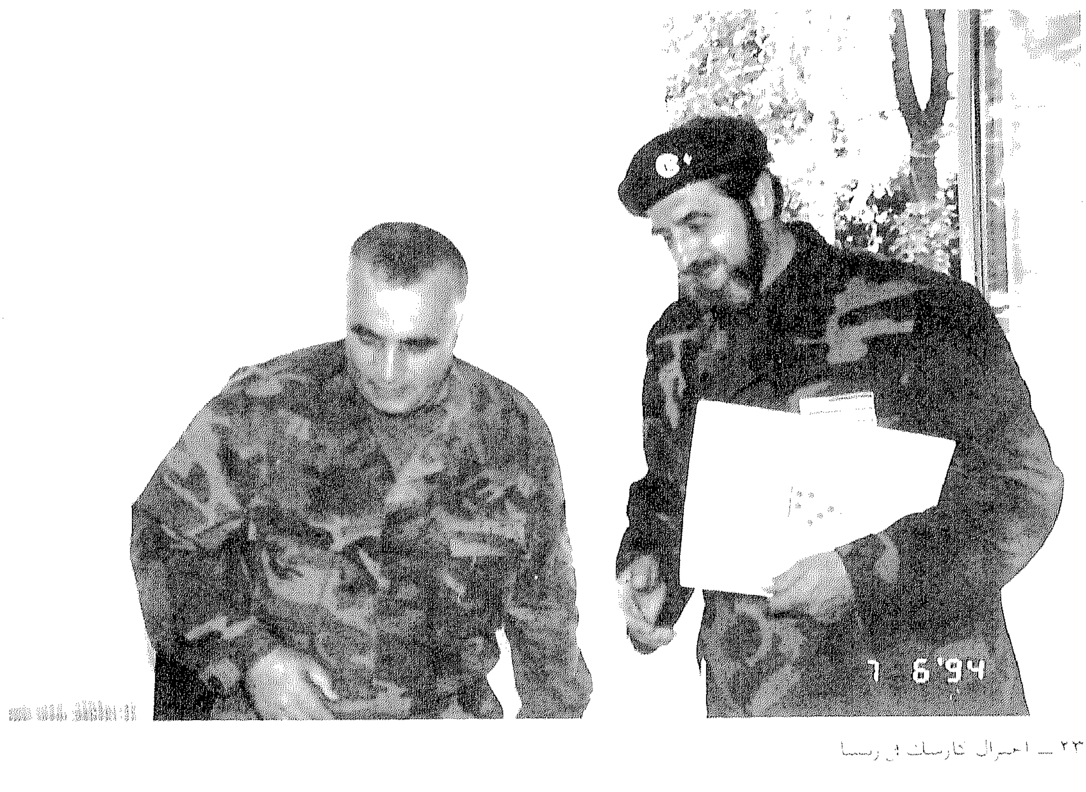
٢٢٧ ـــ حازم صادق ـ الجنرال ـ قائد



٢٢٨ ـــ الفيلق الثانى فى B و H الشركة فى توزلا



٢٢٩ ـ المدرس (من اليمين) في كونيتس



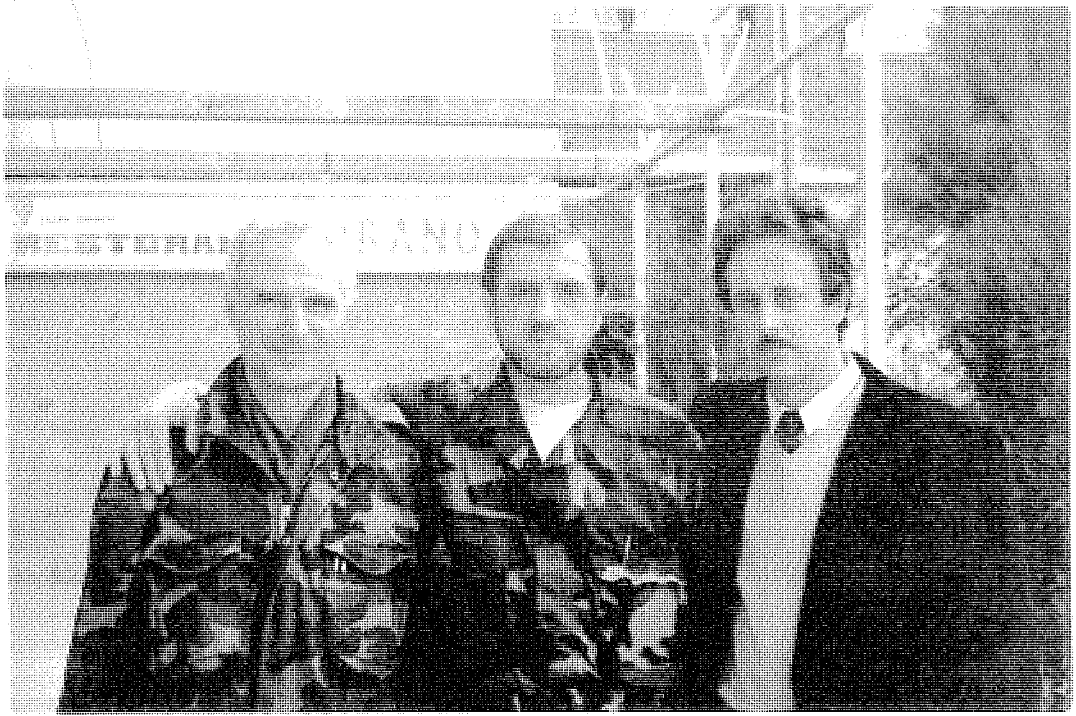
٢٣٠ ـ الجنرال كارسان في رسنا



٢٣١ ـ أمين شوراكتش مؤسس القلنسوات الخضراء



٢٣٢ ـ حسين سيسير مع المؤلف في دوبرينيا



٢٣٣ ـ بلدة زافيد وفيتش ـ رئيس المقاطعة وحسين مورادوفيتس رئيس حزب العمل الديموقراطي



٢٣٤ ـ أختنا الباسلة تقاتل من أجل حرية بلادها



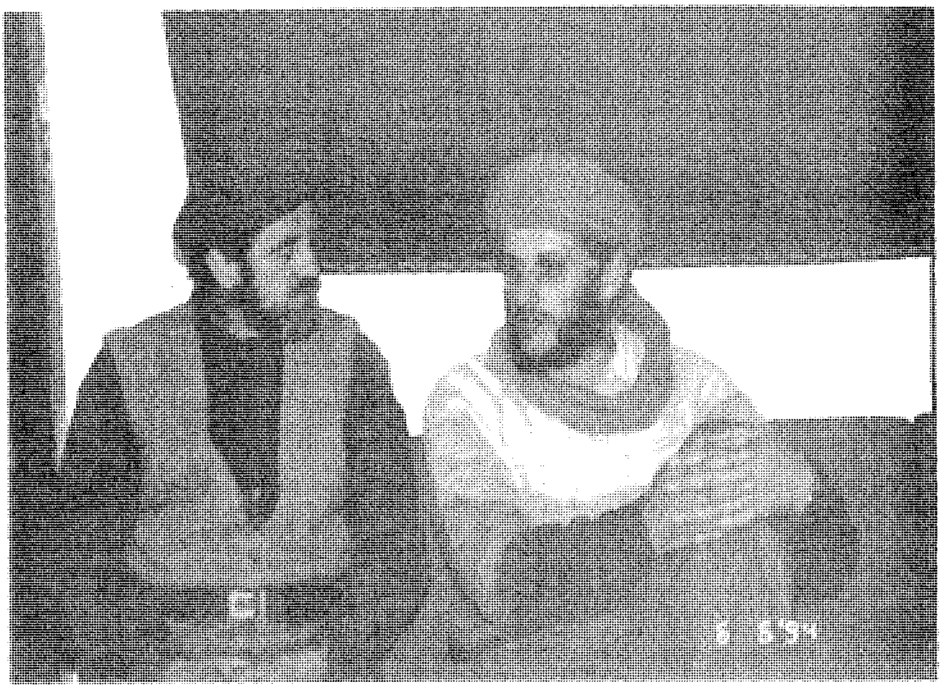
٢٣٥ ــ المؤلف مع الجنود الجرحى فى زاغرب



٢٣٦ ــ المؤلف مع عصمت حاجتشى قائد القوات فى دوبرينيا

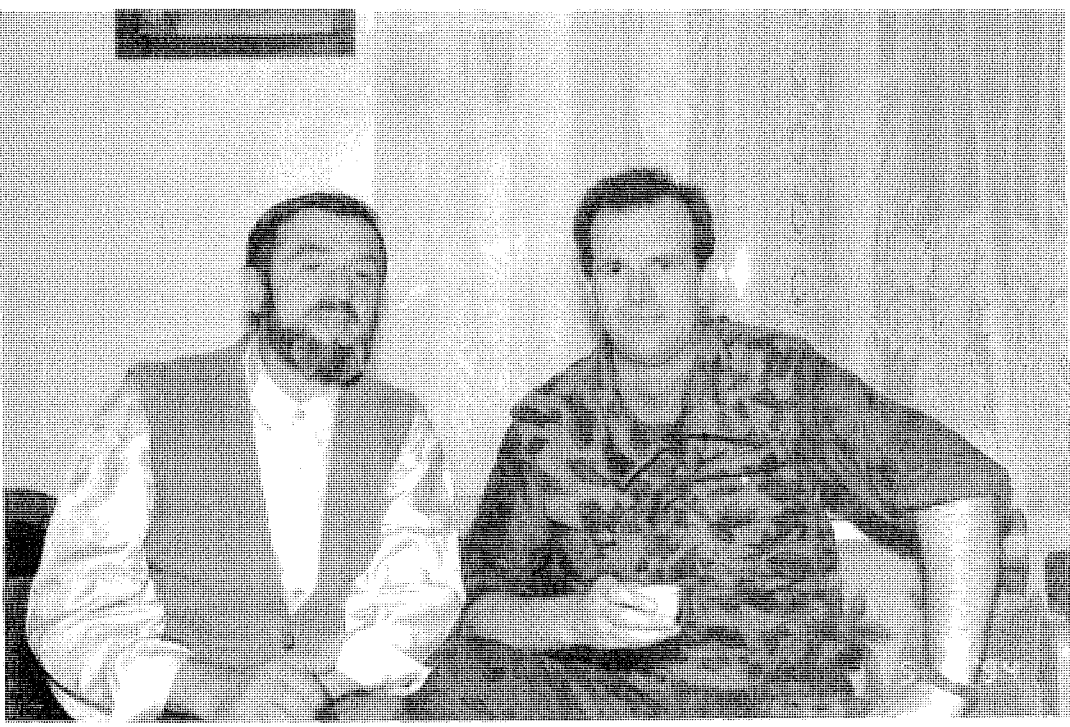












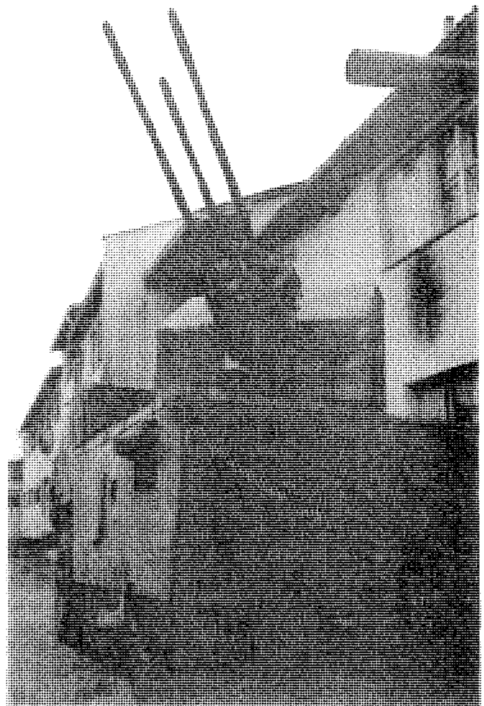














٢٤٧ ــ علي عزّت بيغوفيتش رئيس البوسنة والمرسك





٣٤٩ ـ المؤلف مع الرئيس علي عزت بيغوفيتش



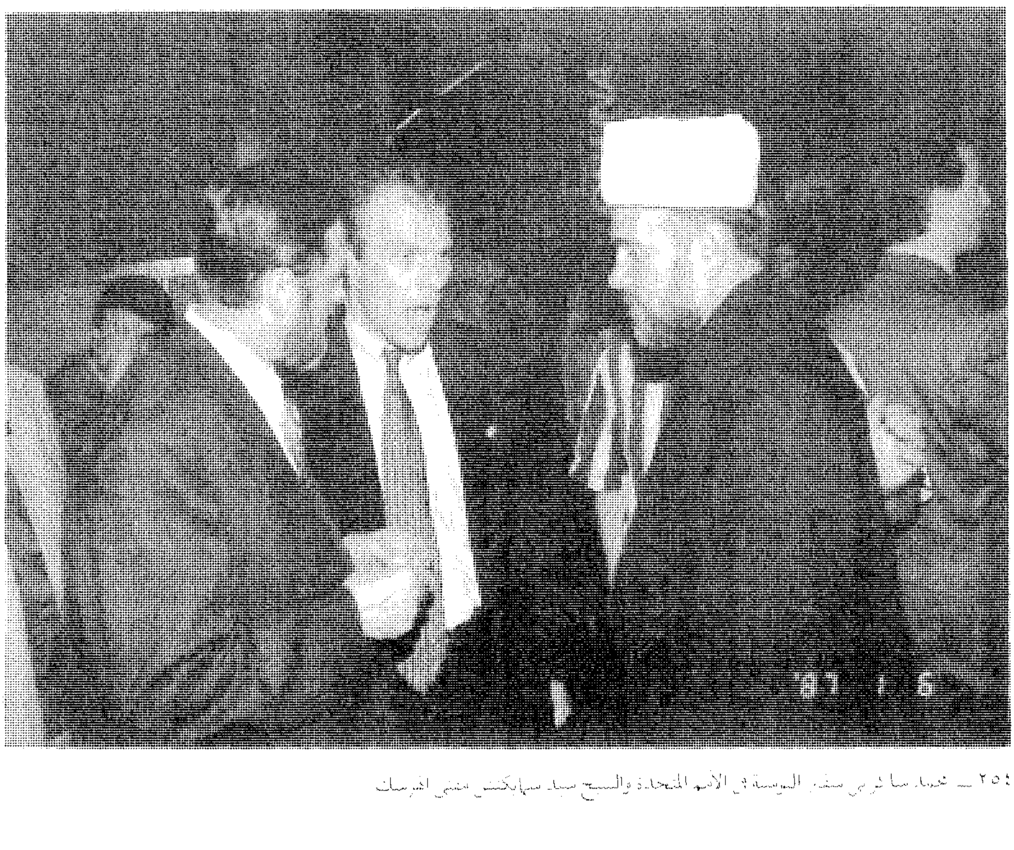


٢٥١ ــ المؤلف مع عرفان ليوبييانكتش وزير الخارجية البوسني وخير الدين صوموين سفير البوسنة في تركيا





٢٥٣ ـ سماحته مع سلافجنش سفيرة البوسنة في باكستان



٢٥٤ ـ محمد ساكر بي سفير البوسنة في الأمم المتحدة والشيخ سيد سرايكتش مفتي الهرسك



٢٥٥ ــ رئيس العلماء مصطفى سيريتش وشمس الدين تانكوفيتش



٢٥٦ ــ الشيخ الحافظ ترالييتش (في الوسط) وأنس مارتنس وزير التربية والتعليم في حكومة البوسنة



٢٥٧ ــ الحاج الأفندي خالد والرائد كمال ترزتيتس (في الوسط) في سارايبفو



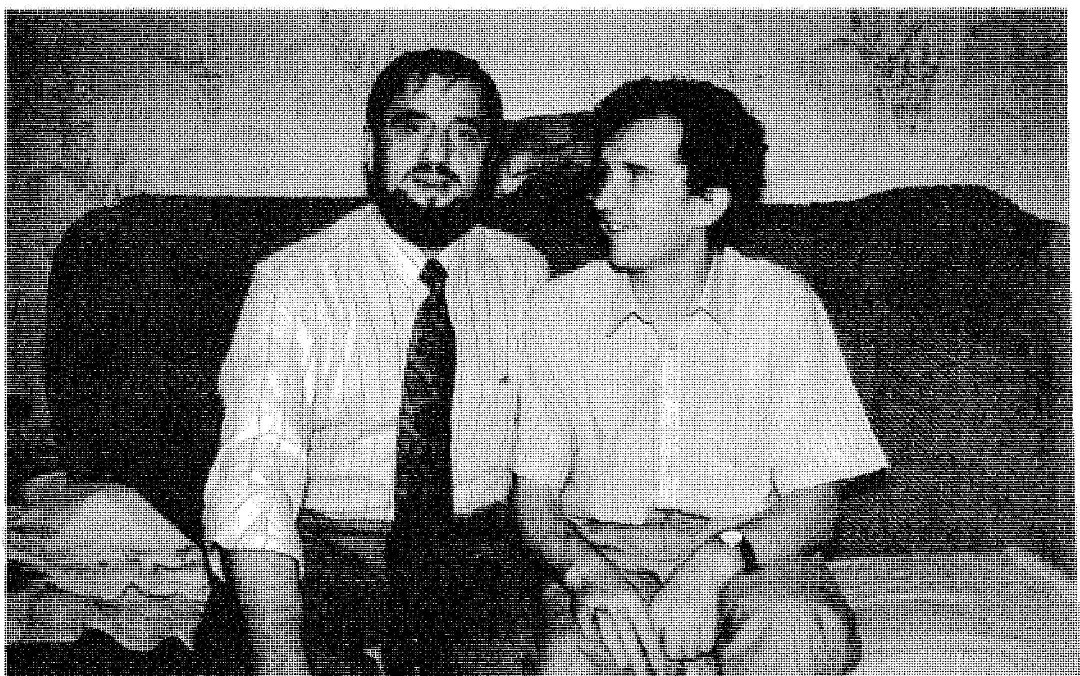
٢٥٨ ــ الحاج الحافظ الإمام الأفندي حاجيموليتش



٢٥٩ ـ الصليح الأفندى حاجيميتش فى فسوكو



٢٥٩ أ ـ عمر بهان ـ سفير البوسنة فى إيران



٢٦٠ ـ جمال الدين لاتيس المساعد المؤلف ورئيس تحرير جريدة ليليان



ـ المؤلف مع يعقوب سليمونوفيتسكي رئيس العلماء السابق



٢٠ ـ المؤلف مع هارون ابراهيموفيتش قائد الفاتح



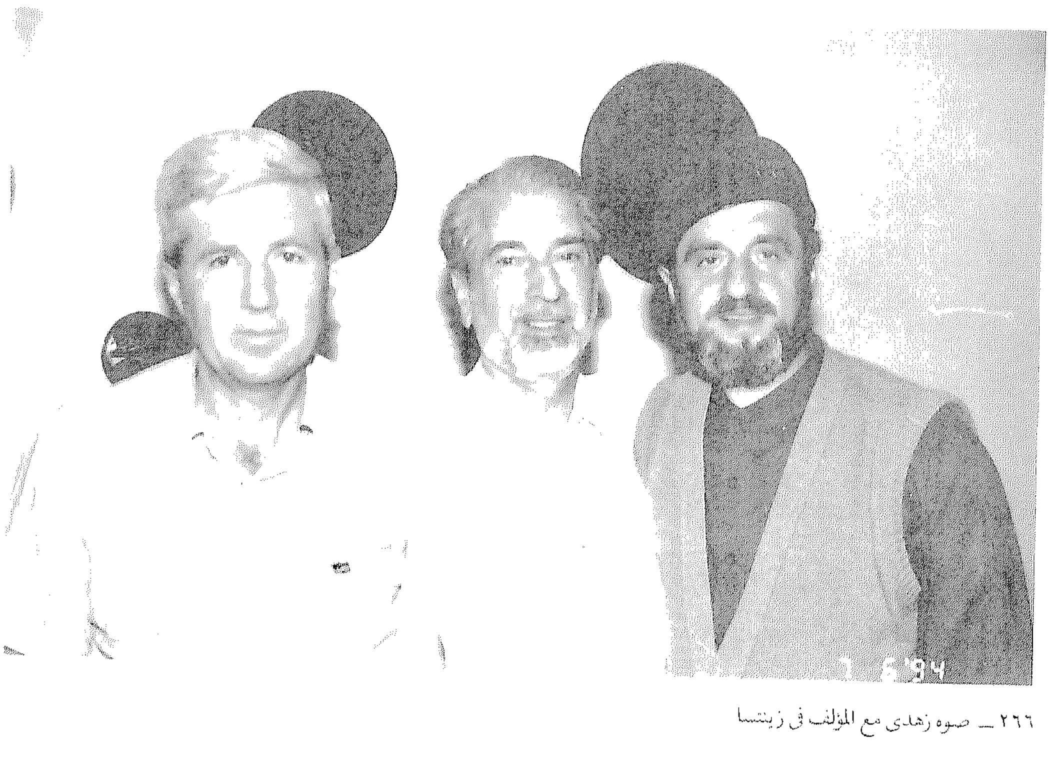
٢٦٣ ــ الشيخ الحاج الحافظ الاستاذ عصمت الأفندى سباهيتش ومحمد على حاجيتش



٢٦٤ ــ عثمان بركا ومرصاد جيهان



٢٦٥ ـ داوود نوريلر وحسين كانسو في تركيا



٢٦٦ ـ صوه زهدي مع المؤلف في زينتسا



٢٦١ ـ الدكتور فاروق كيليوفيتش مع المؤلف في سارايفو



٢٦١ ـ حسن البلداي للفاريقس نظمي عزلا



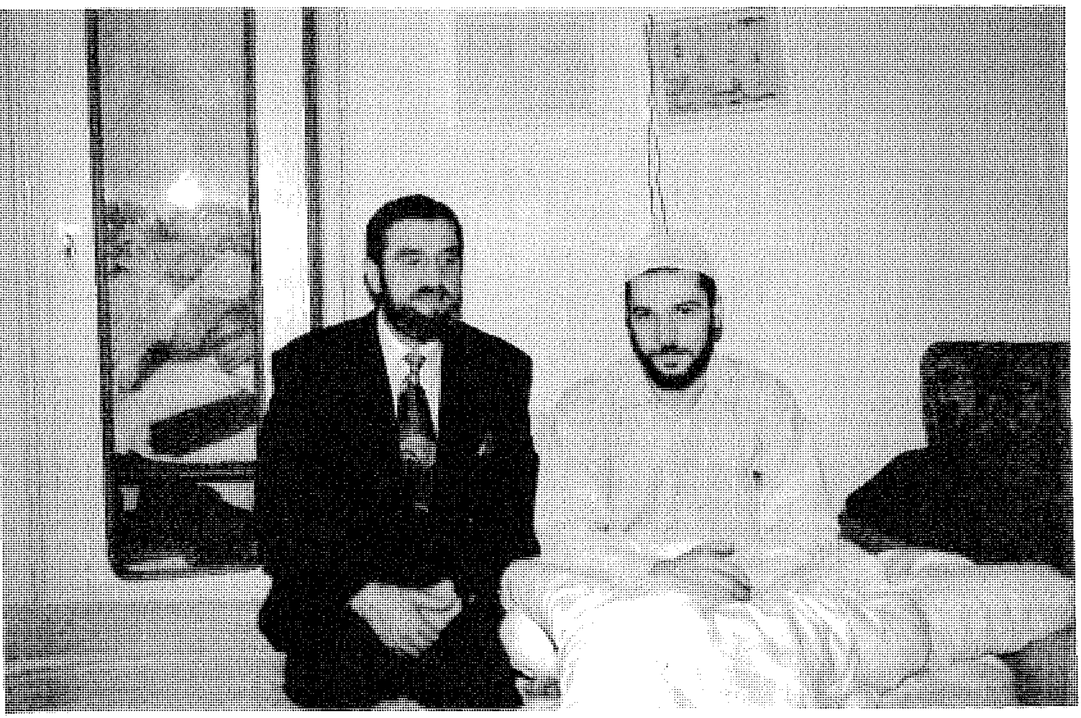
٢٦٩ ـ الإمام برصاد أفندي في غراحانسا ، بيسوكو



٢٧٠ ـ عمر بوشكار وسناد أغيتش أفندي في شيكاكو



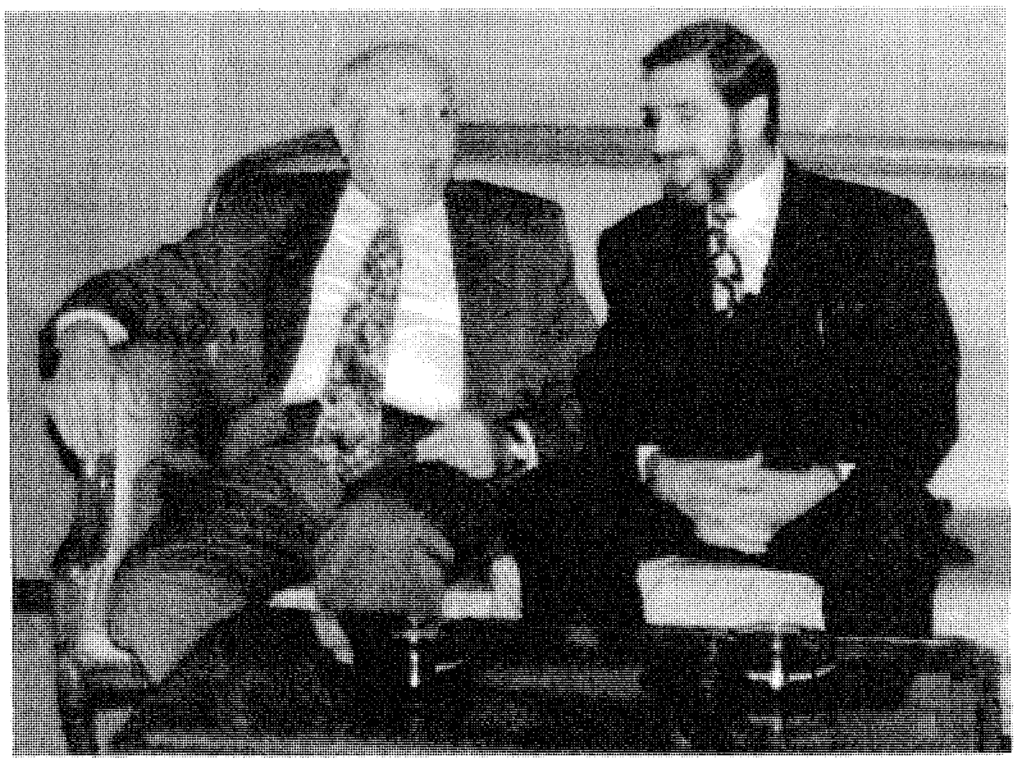
٢٧١ ــ آدم حاجتش وحسين كافاروفيتش مفتي توزلا



٢٧٢ ــ المؤلف مع الشيخ الحافظ كاراهوجافيتش



٢٧٣ ـــ العقيد عاصم كارستش مع المؤلف في لوبليانا



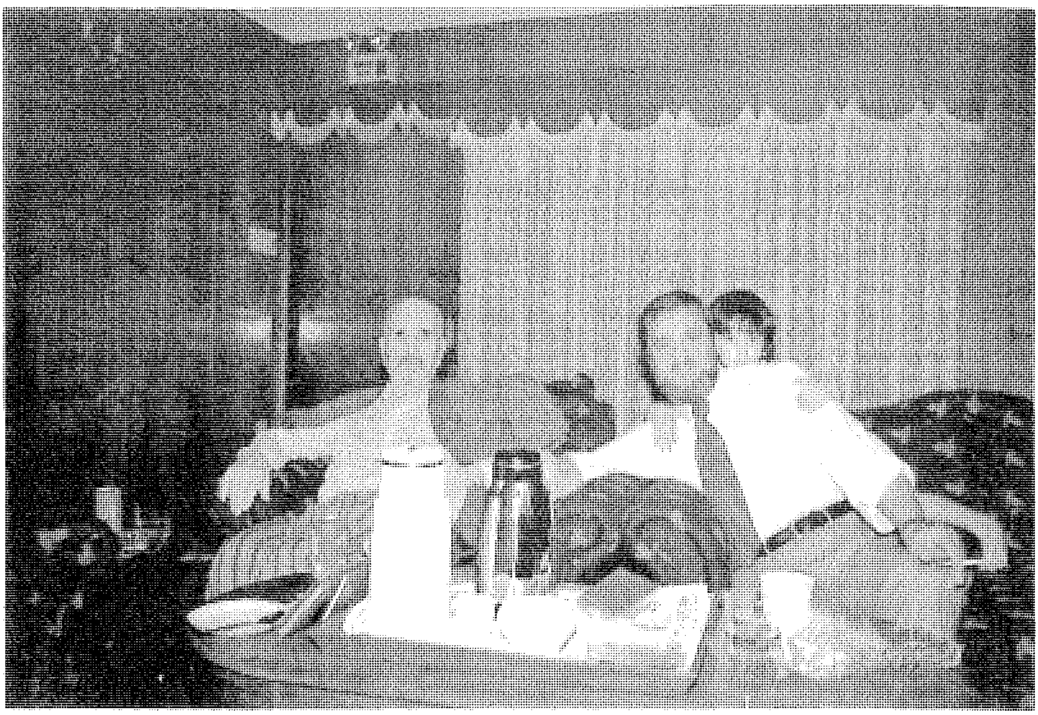
٢٧٤ ـــ نرمتين أربكان ـ زعيم حزب الرفاه في تركيا



٢٧٥ ـ الشيخ الأستاذ الحافظ كامل سيلاجيتش في باكستان



٢٧٦ ـ الشيخ عبد العزيز يدعو الله في ترافنيك



٢٧٨ ــ المؤلف مع الأستاذ الحافظ كامل سيلاجتش في باكستان



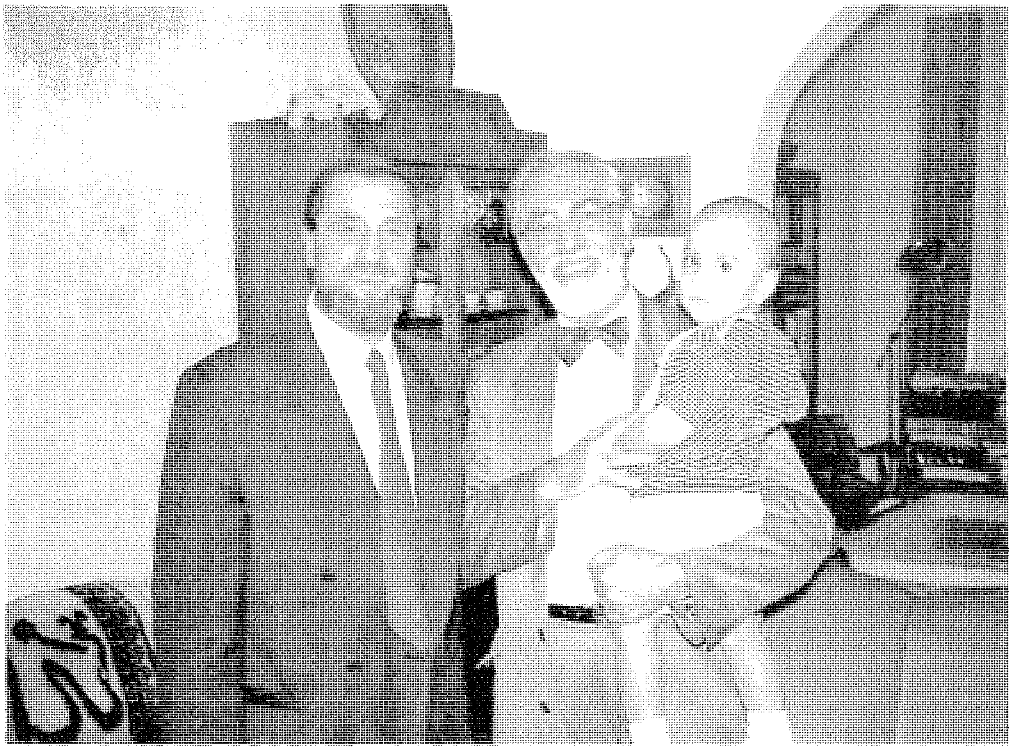
٢٧٩ ــ المؤلف مع الأخ المسلم الذي يدير التلفاز الباكستاني



٢٨٠ ـ عاصم سوفاليتش ـ المجاهد في رنيتا



٢٨١ ـ الشيخ محمد حافظوفتش



٢٨٢ ـ الدكتور أحمد زاي رئيس علماء النمسا



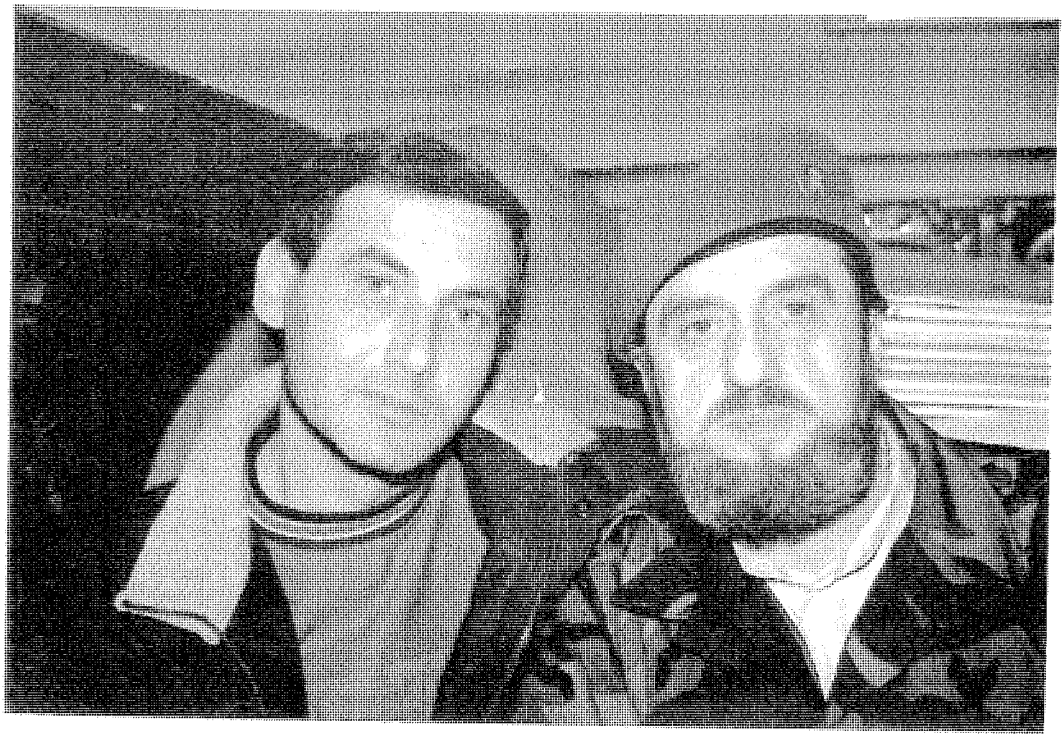
٢٨٣ ـ المؤلف مع الصحافي الباكستاني د. حسن في باكستان



٢١٤ ــ المؤلف مع الأديب حجم حيداروفتش



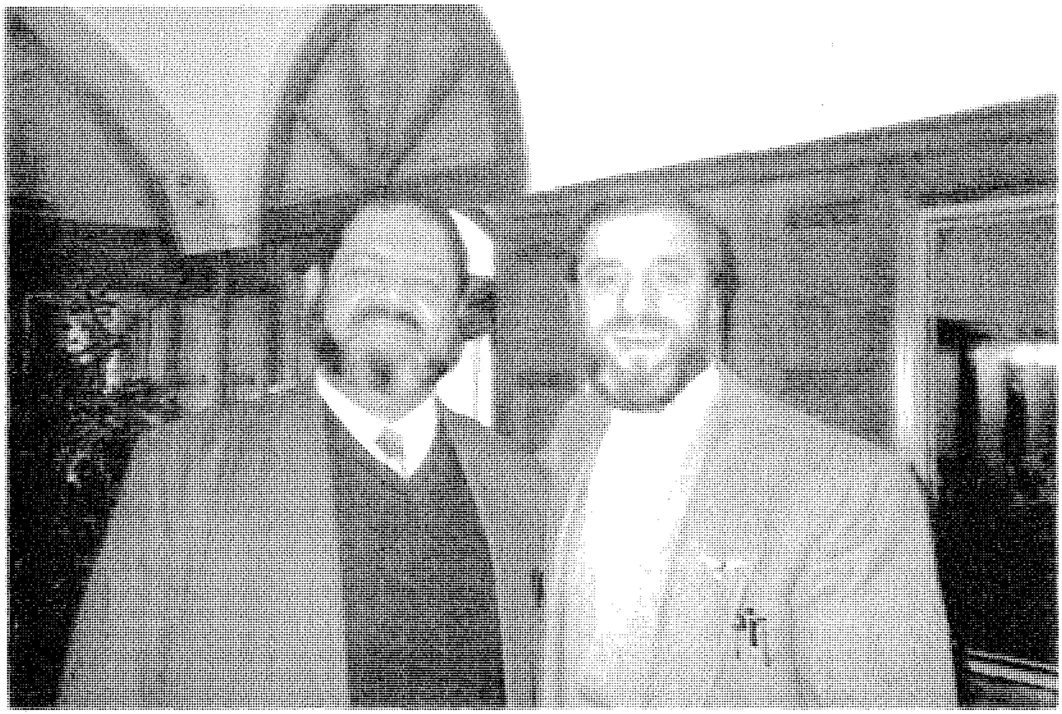
٢١٥ ــ عشاء مع [illegible] ــ في [illegible]



٢٨٧ ــ شاكر الزوفيتش ـ شهادة رقم ٥



٢٨٨ ــ حسين شينال (الثالث من اليمين)



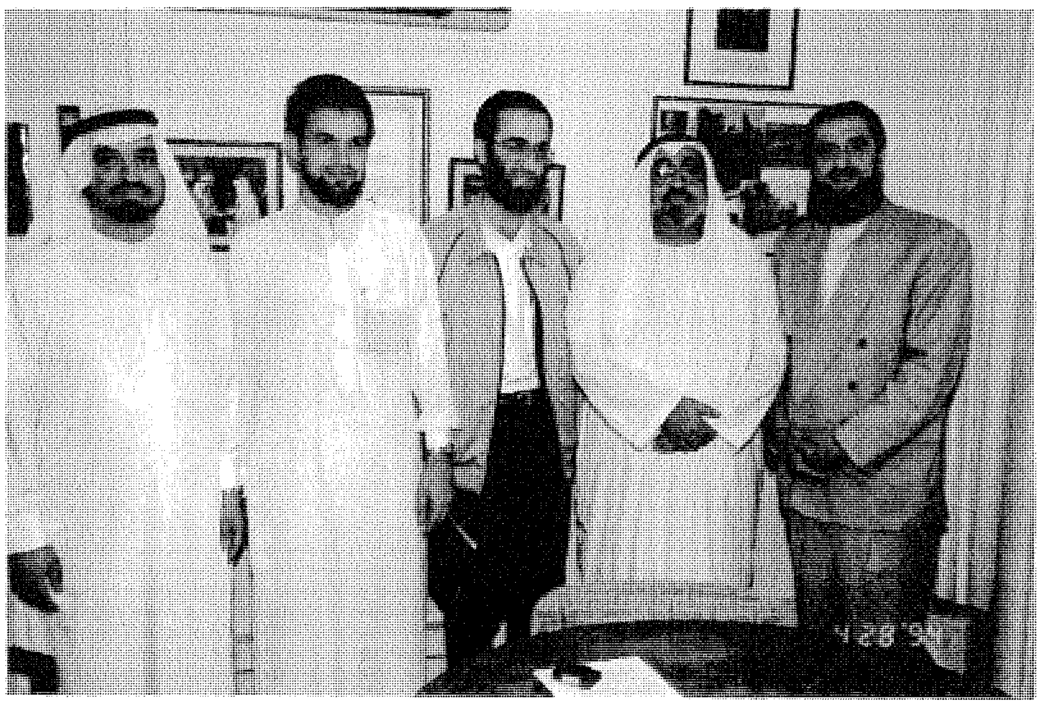
٢٨٩ ــ د. الفاتح علي حسانين مدير ـ الثورة ـ منظمة الإغاثة الإنسانية



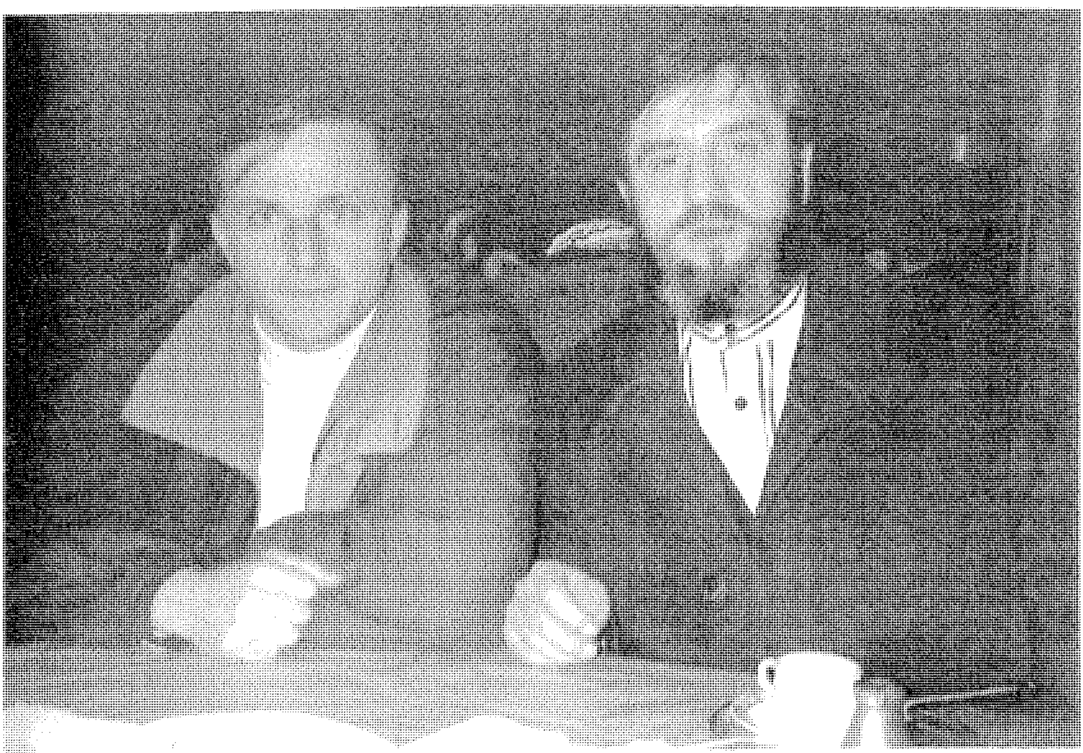
٢٩٠ ــ المؤلف مع الملاكم محمد علي أثناء قراءة الصحيفة البوسنية



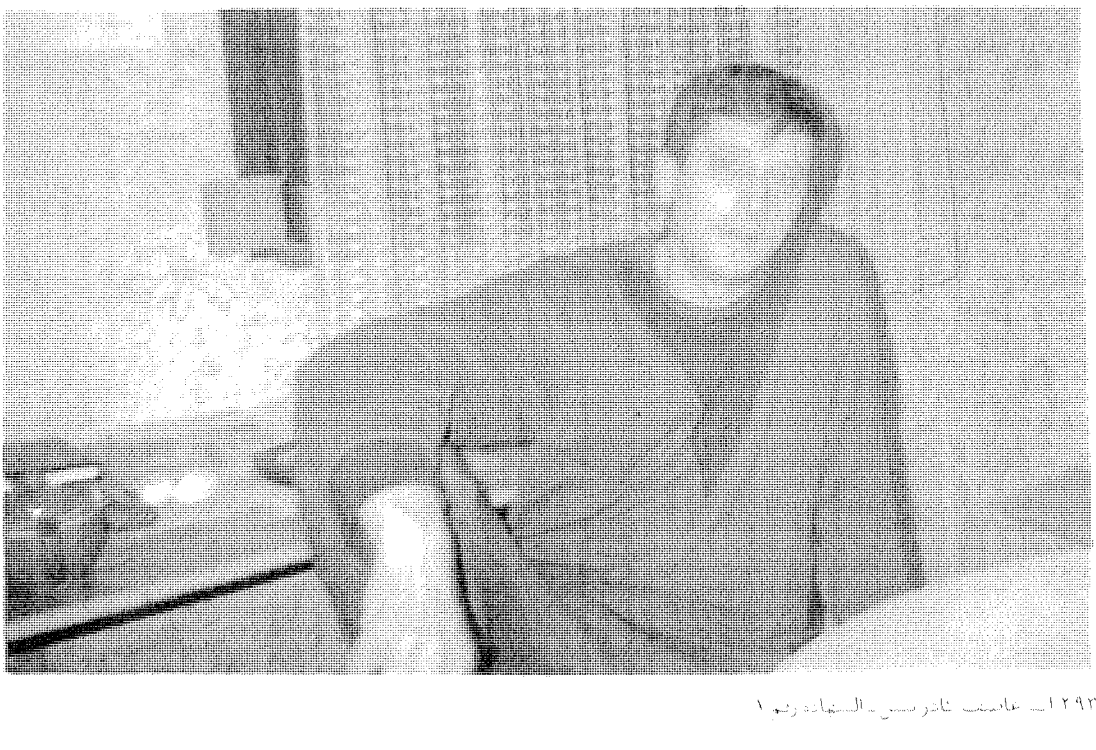
٢٩١ ـــ المؤلف مع الملاكم محمد على



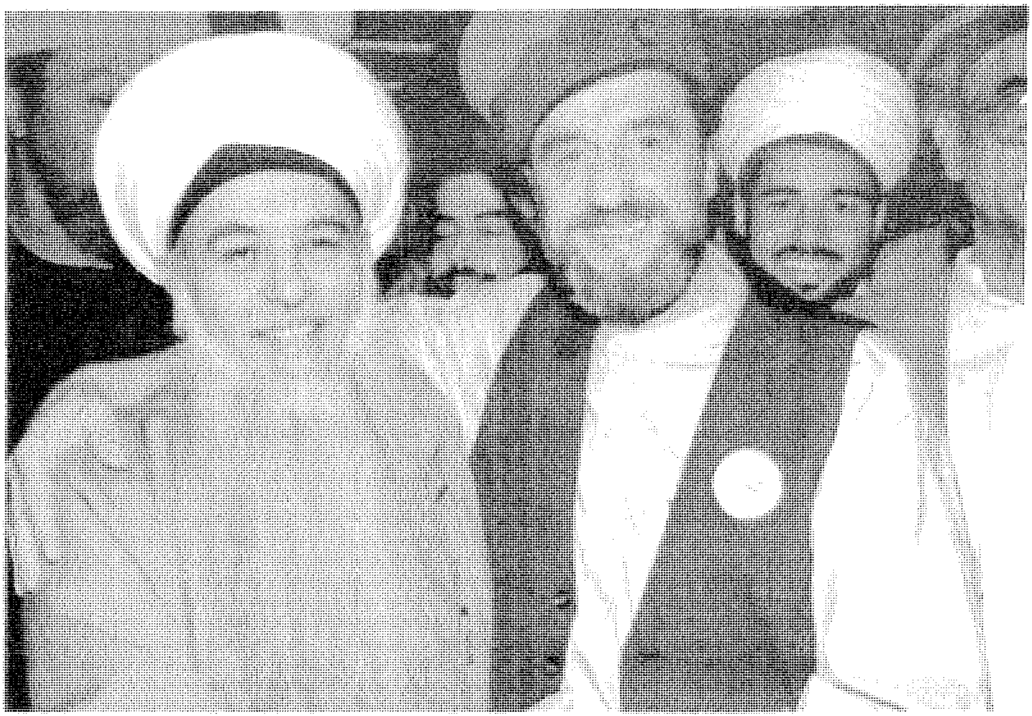
٢٩٢ ـــ عيسى بن محمد الخليفة (الثاني من اليمين)



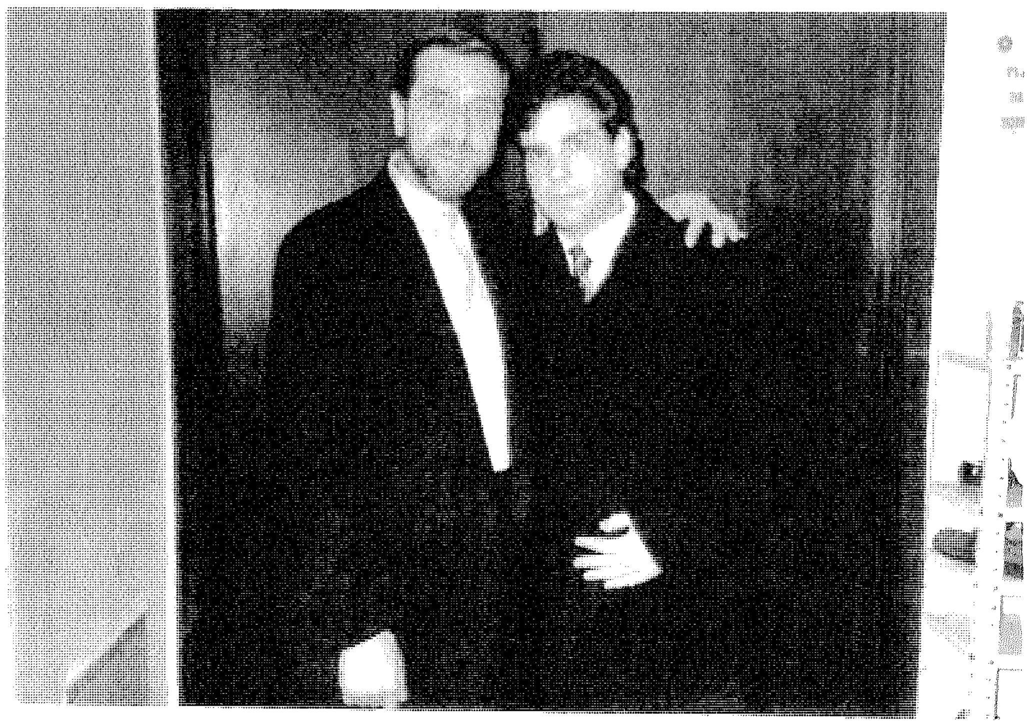
٢٩٣ ـ عاطف جافتش ـ الشهادة رقم ٢



٢٩٣ا ـ عاطف ناذرسي ـ الشهادة رقم ١



٢٩٤ ــ الشيخ د. هشام قباني في كاليفورنيا



٢٩٥ ــ عمر شاكربي



٢٩٦ ـــ مرصاد سليم بيغوفيتش ـ الشهادة رقم ٦



٢٩٧ ـــ بيامين توبالوفيتش ـ الشهادة رقم ٣



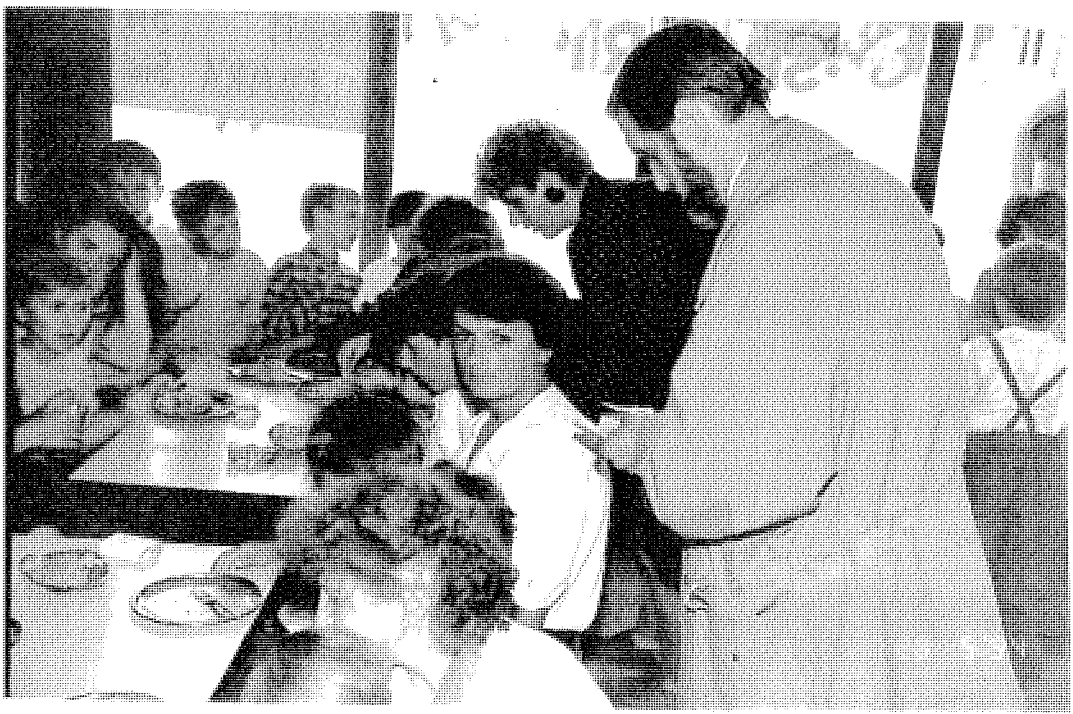
٢٩٨ ـ الهدية إلى أطفال سارايينو



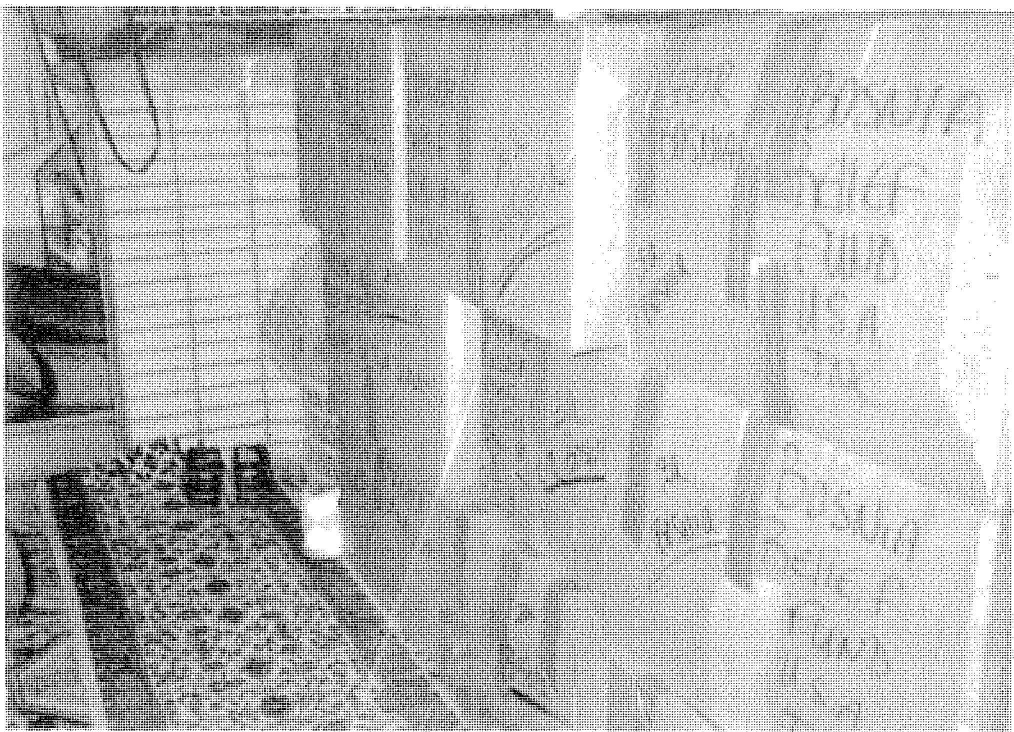
٢٩٩ ـ المؤلف في زيارة الأيتام في سارايينو



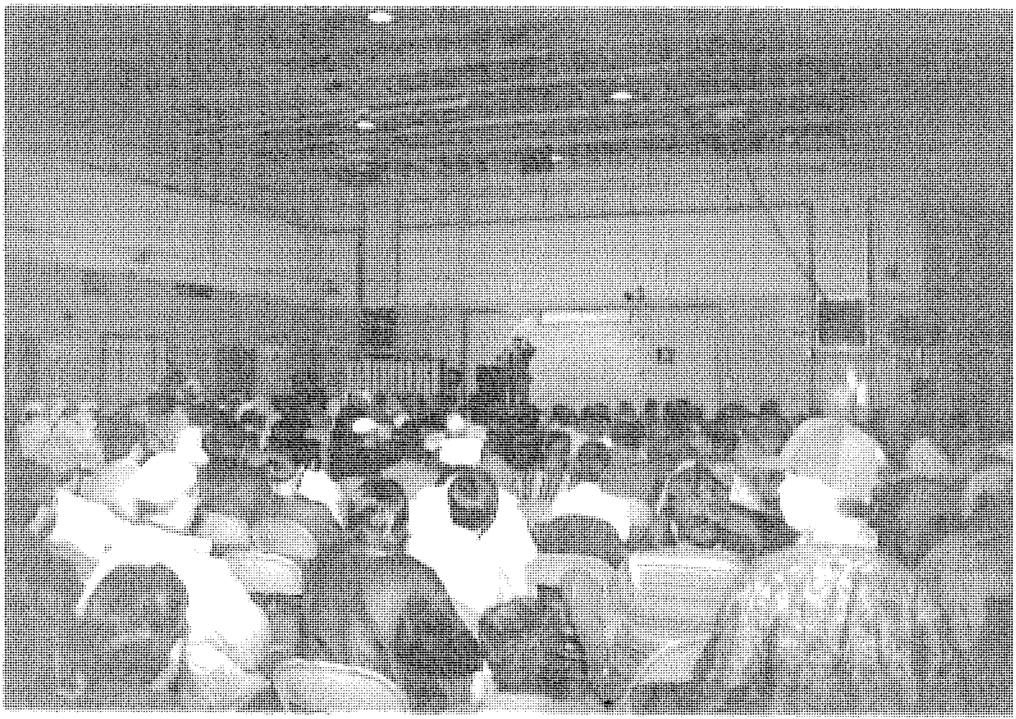
٣٠٠ ــ المؤلف في زيارة الأيتام في سارايفو



٣٠١ ــ زوجات وأولاد الشهداء



٣٠٢ـ الإغاثة البوسنية ترسل المساعدات إلى البوسنة



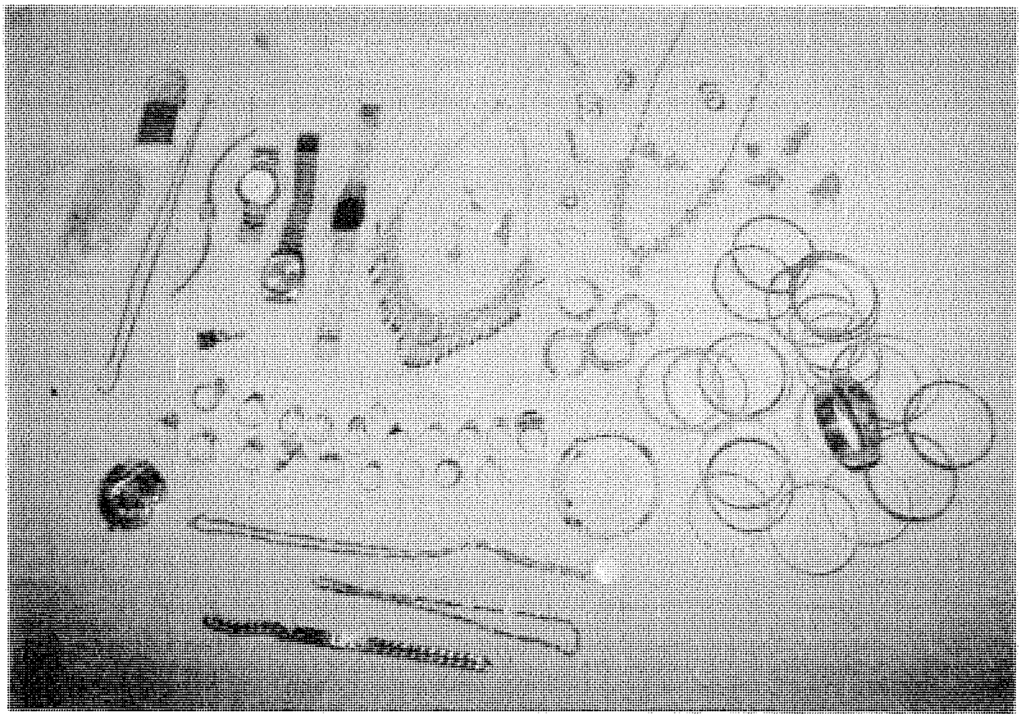
٣٠٣ ـ المؤلف يتحدث في المؤتمر الصحافي في شيكاكو



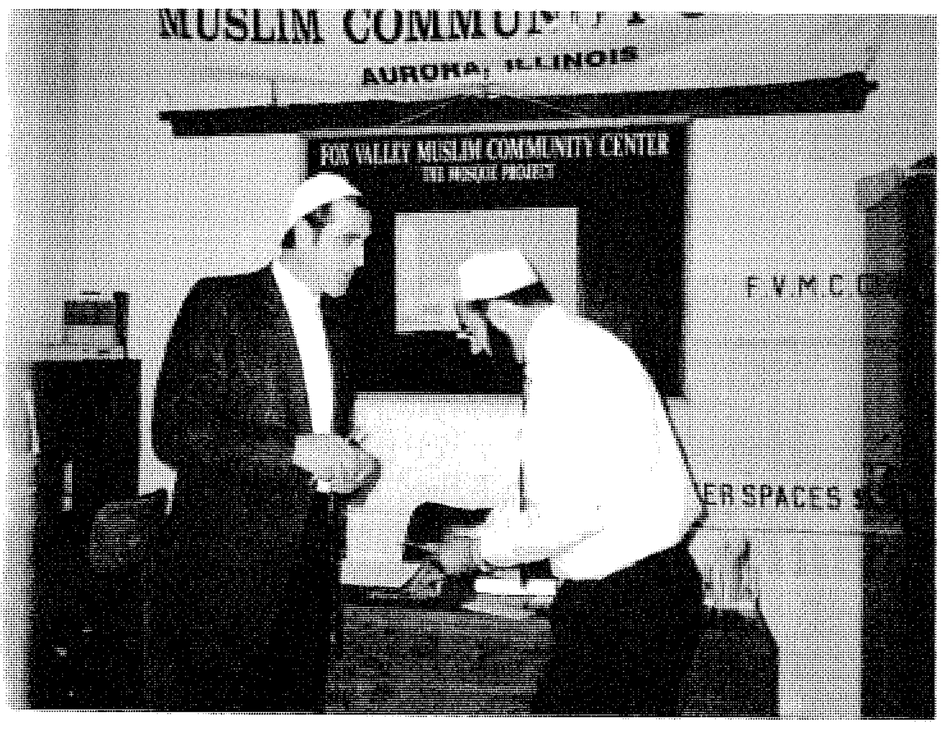
٣٠٤ ــ المؤلف مع المجتمعين في مؤتمر شيكاكو



٣٠٥ ــ تقديم المساعدات القطبية إلى البوسنة



٣٠٧ ـ التبرعات للبوسنة



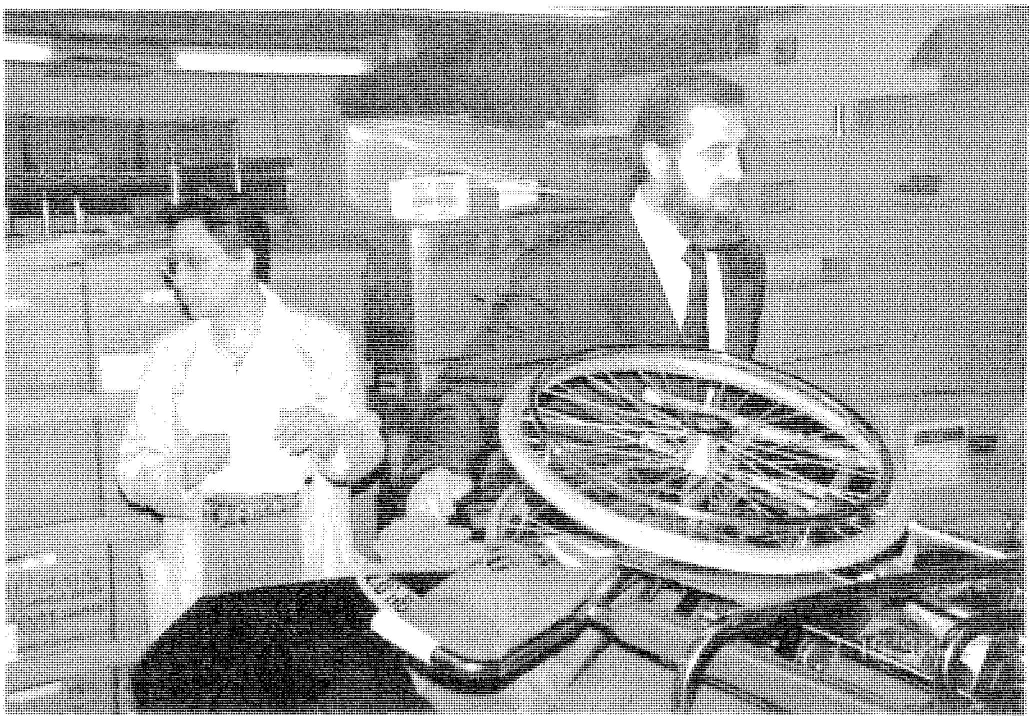
٣٠٨ ـ الذخيرة في أورورا ، إيلينوس



٣٠٩ ــ المعدات الطبية إلى البوسنة



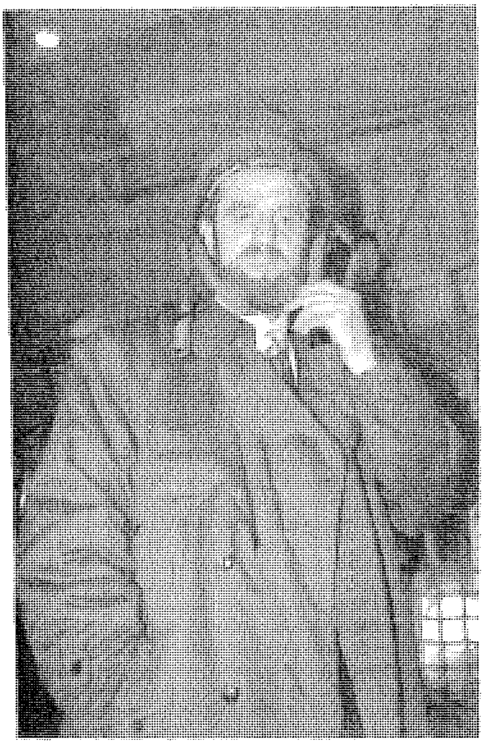
٣١٠ ــ المحاضرة عن البوسنة في جامع شيكاغو



٣١١ ـــ المعدات الطبية متجهة إلى البوسنة



٣١٢ ـــ المؤلف مع أبناء البوسنة في أريزونا



٣١٢ أ ـ المؤلف

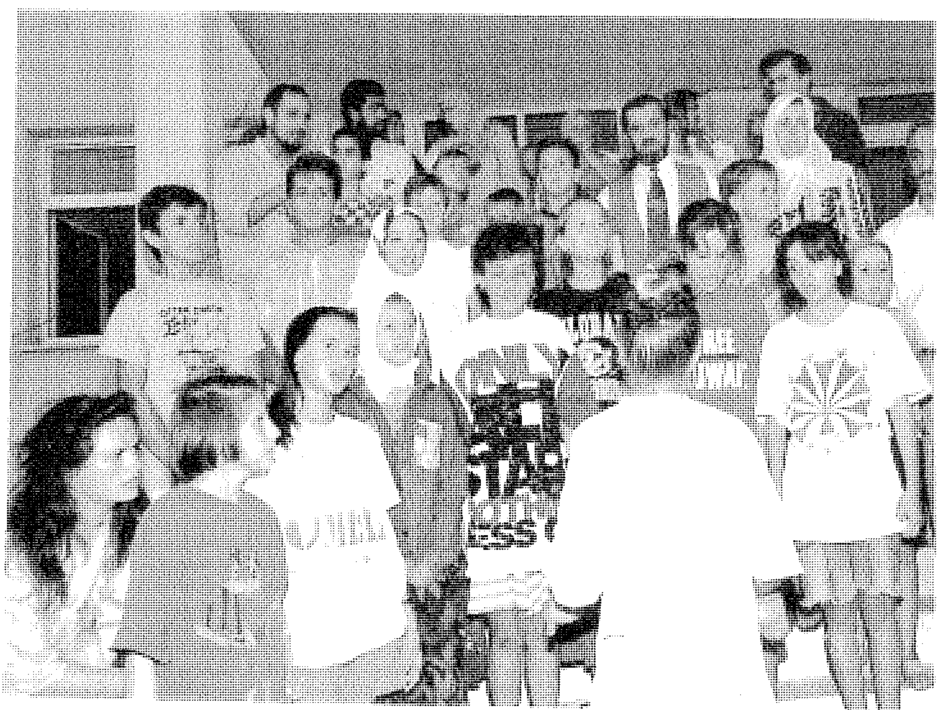
تركيا



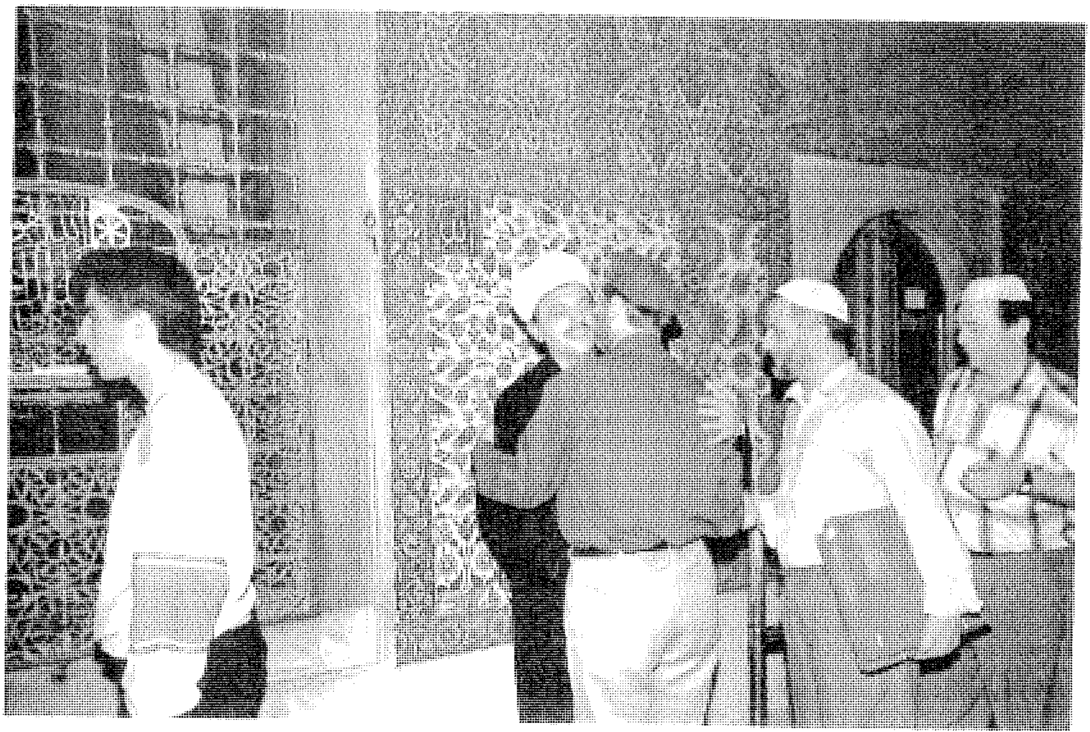
٣١٣ ـ المؤلف يلقي خطابه للاجئين في تركيا



ئون البوسنيون في تركيا



لف مع زوجته طاهرة في تركيا



٣١٥ ــ الاجتماع مع الامام في مسجد السلطان أيوب في تركيا



٣١٦ ــ المؤلف في مسجد السلطان أيوب في تركيا



٣١٧ ــ الاجتماع مع رجال الأعمال الأتراك



٣١٨ ــ الاجتماع مع رجال الأعمال الأتراك



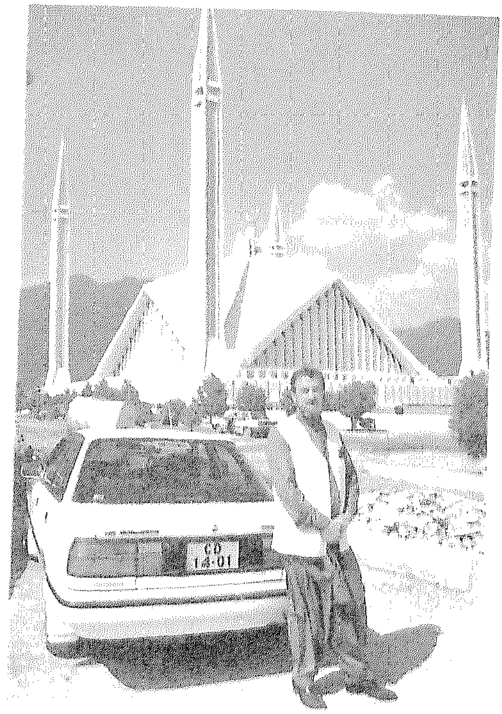
٣١٨أ ــ عرض الصور من البوسنة



٣١٨ب ــ الاجتماع مع الإخوان الأتراك



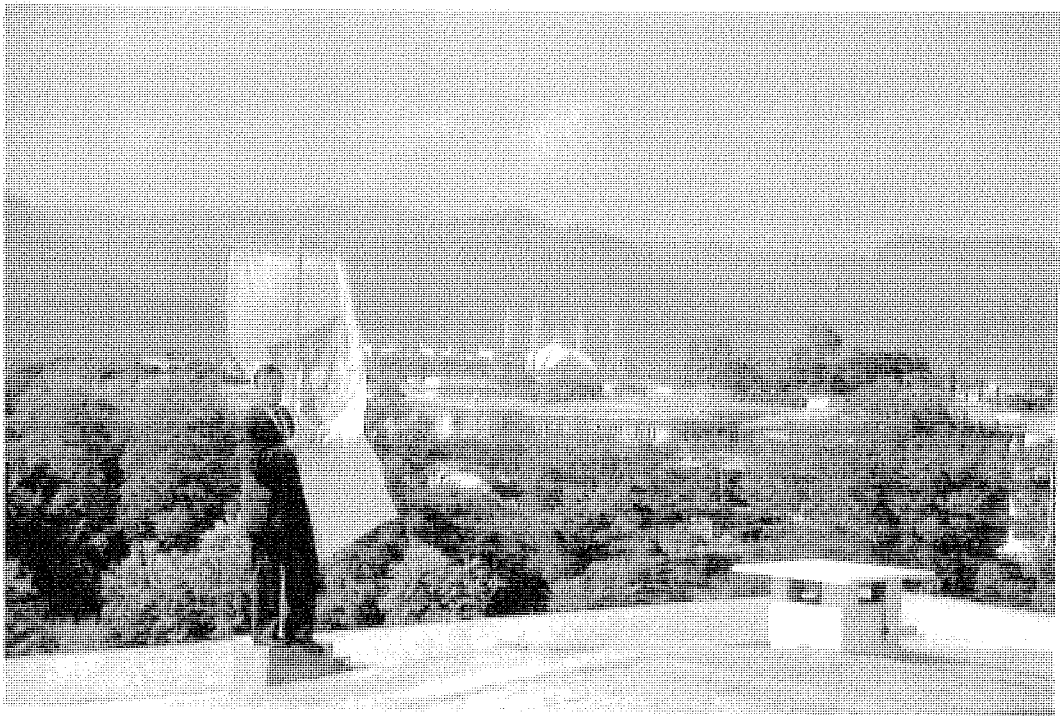
٣٢٠ ــ الزيارة إلى باكستان



٣١٩ ــ الزيارة إلى باكستان



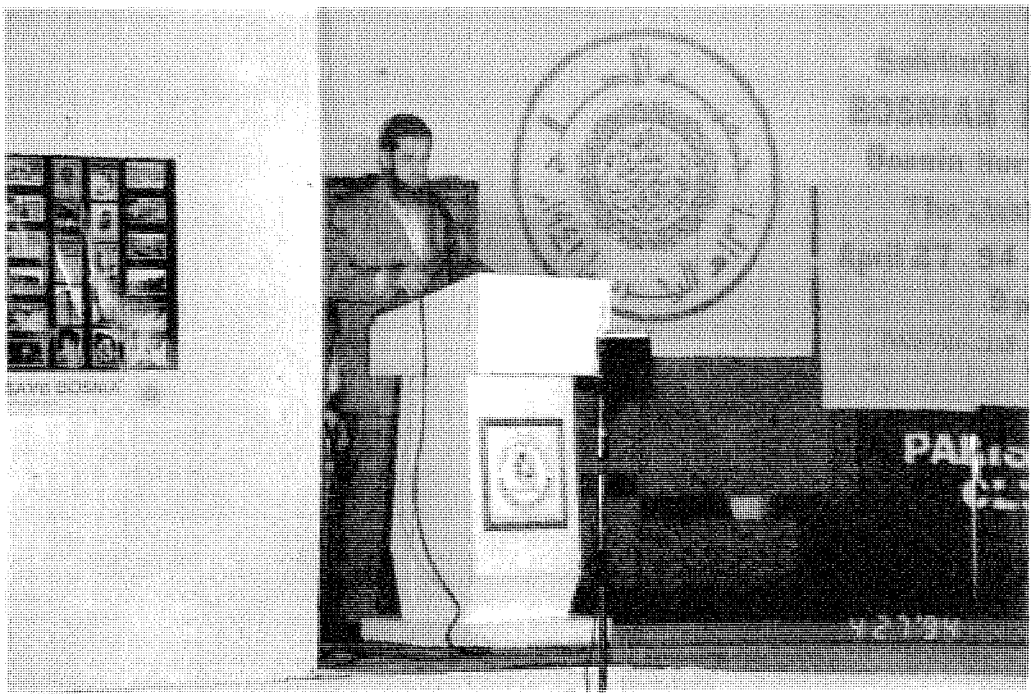
٣٢١ ــ الزيارة إلى باكستان



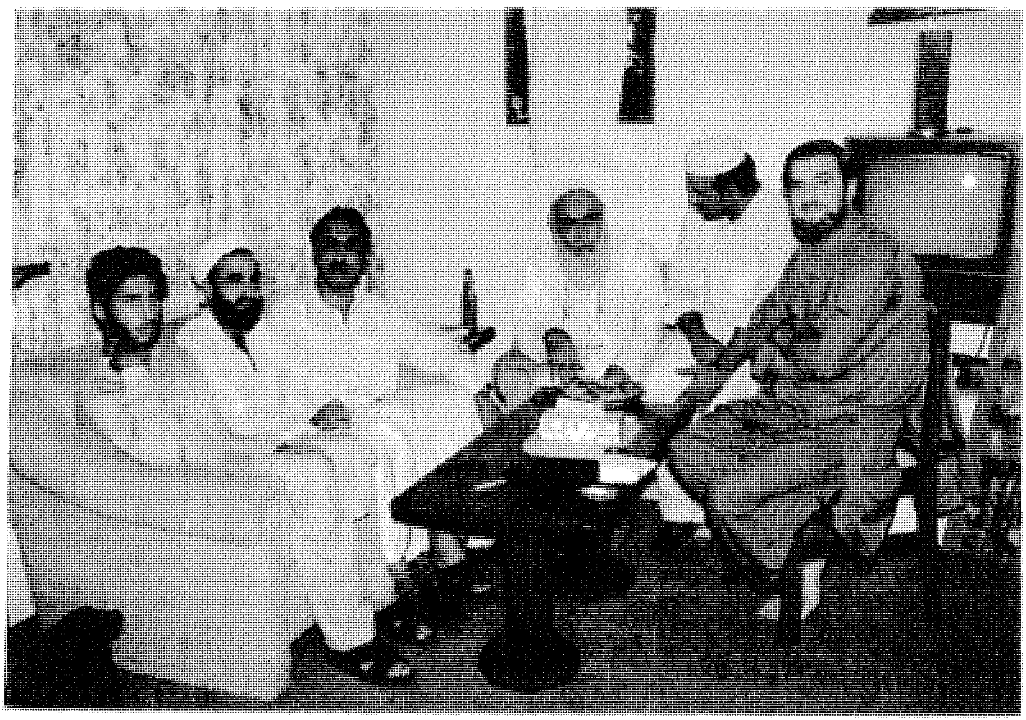
٣٢٢ ــ أمام سفارة البوسنة في باكستان



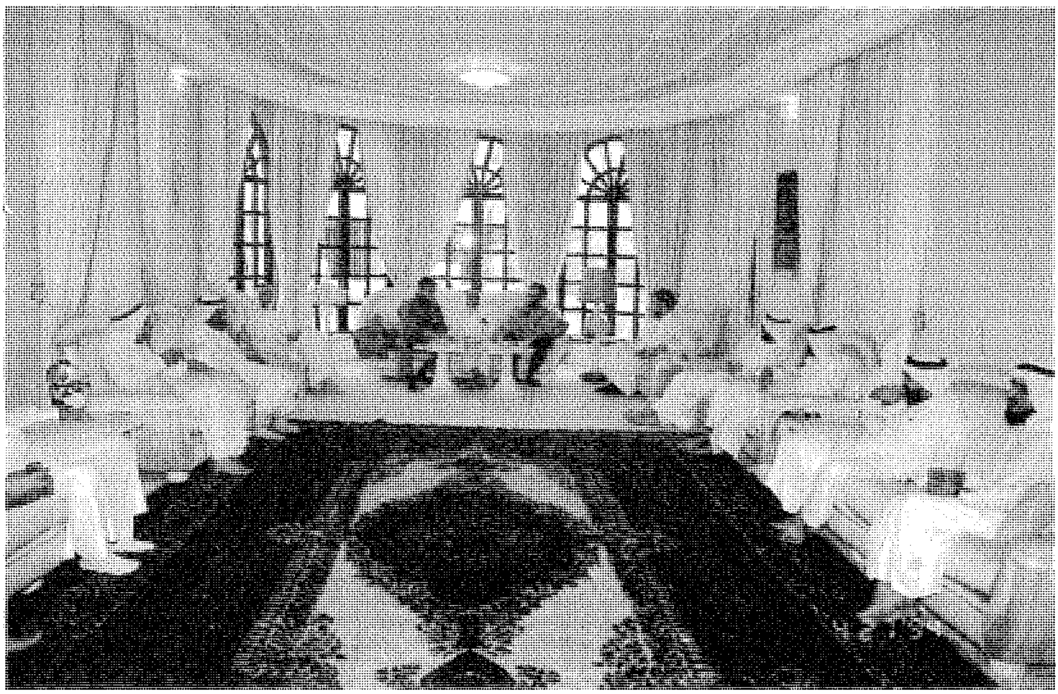
٣٢٢أ ــ الزيارة إلى باكستان



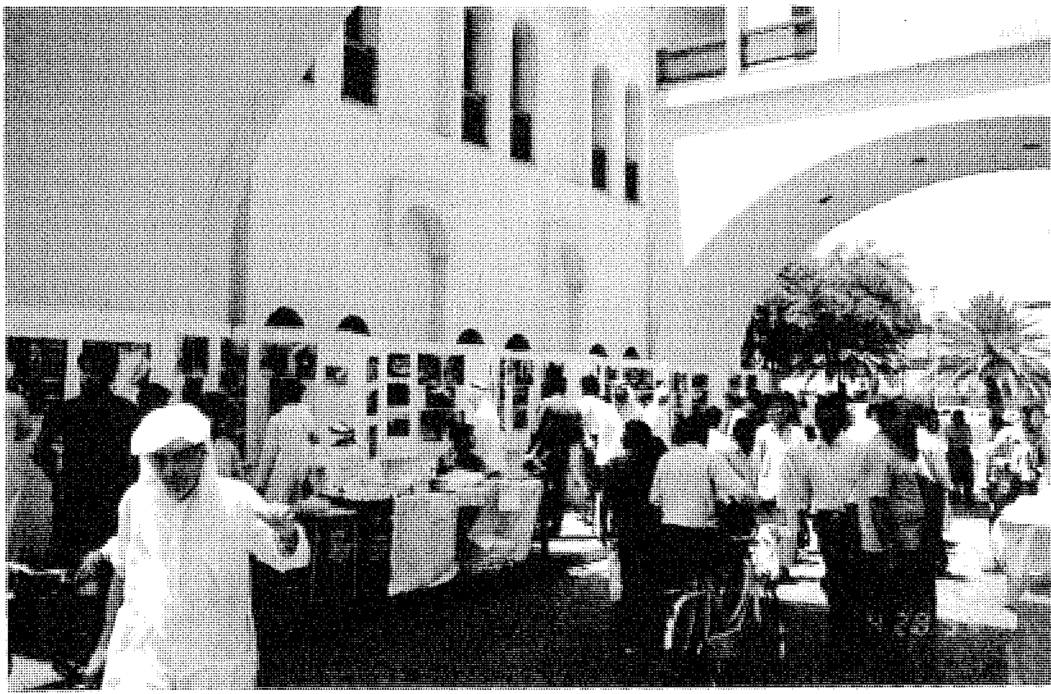
٣٢٣ ــ المؤلف يخطب عن البوسنة في باكستان



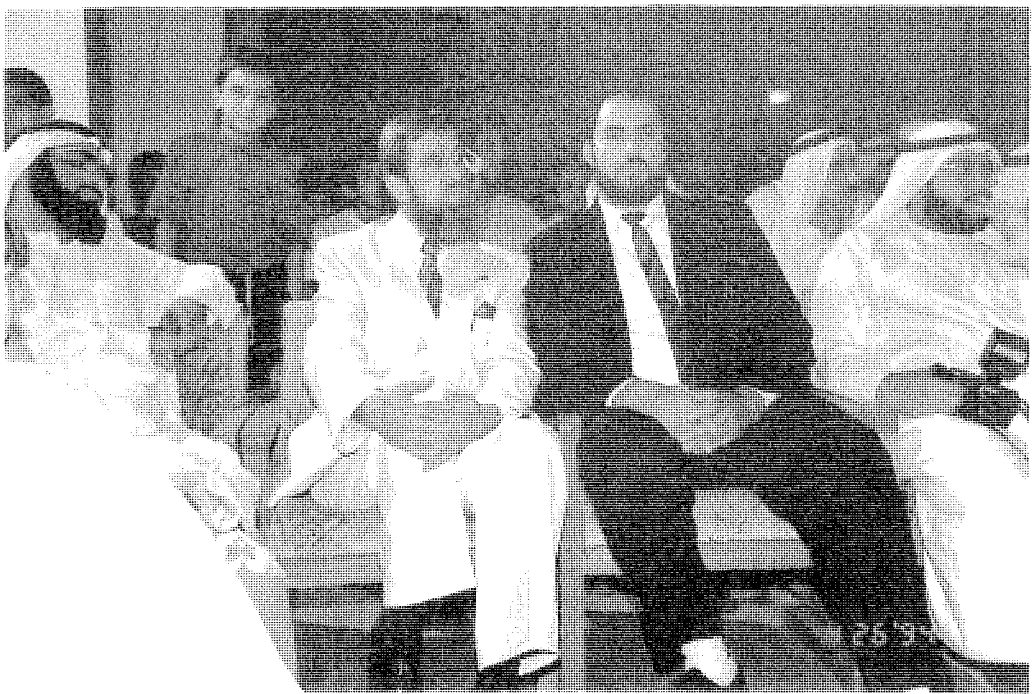
٣٢٤ ــ يتحادث مع بعض الإخوان الباكستانيين



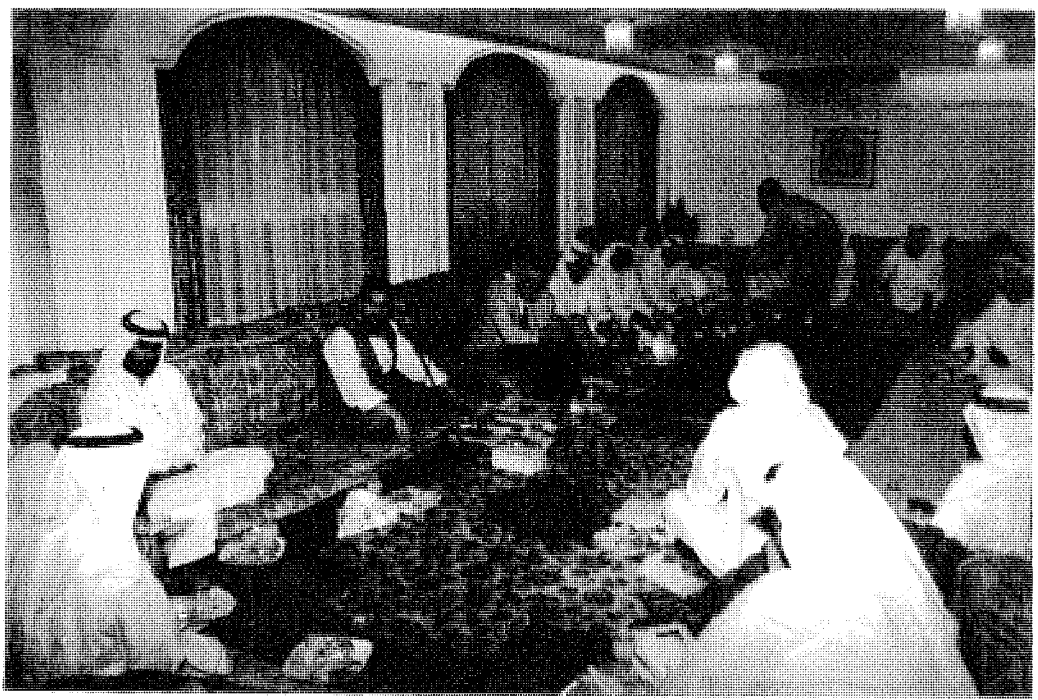
٣٢٥ ـ مناقشة الأوضاع البوسنية



٣٢٦ ـ معرض الصور عن البوسنة في البحرين



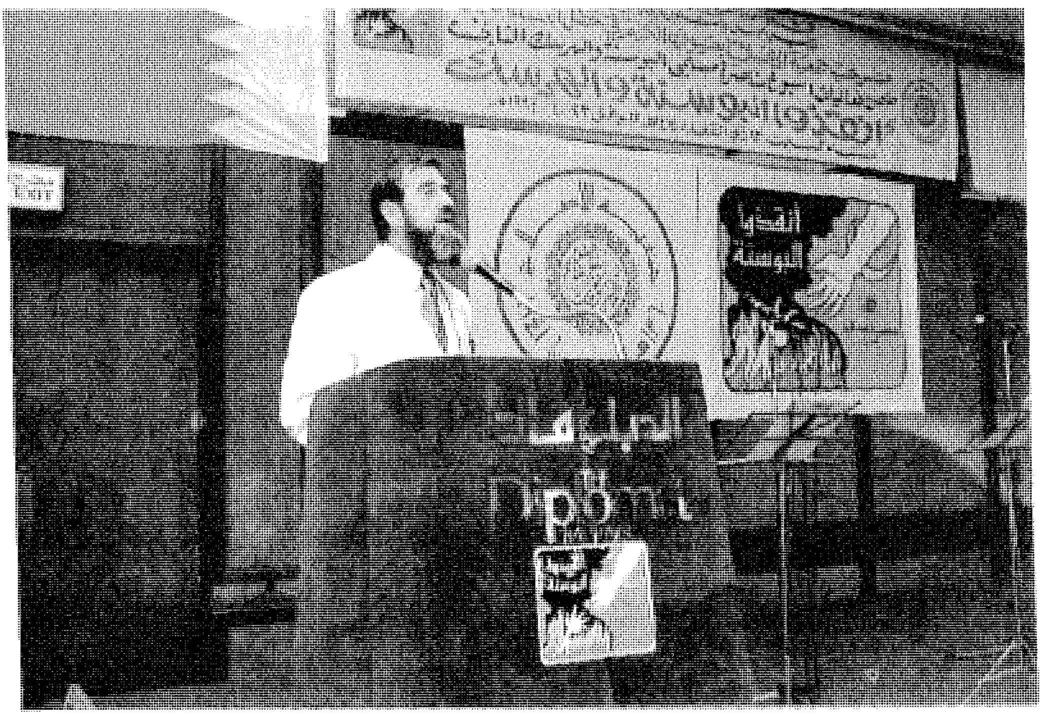
٣٢٧ ـ المؤتمر في البحرين



٣٢٨ ـ المؤلف يحاضر عن البوسنة في البحرين



٣٢٩ ـ المؤلف يجتمع مع بعض من الإخوان البحرنيين



٣٣٠ ـ المؤلف يحاضر عن البوسنة في البحرين

الفهـرس